الطبعة الأولى

نافذة جديدة على الشخصيّة

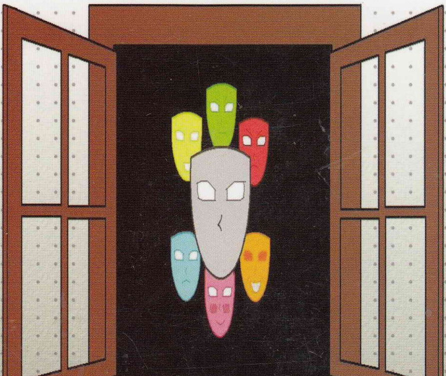

الدكتور باسم العلي

نافذة جديدة على الشخصية

الدكتور باسم العلي

شبكة الفكر
alfeker.net

نافذة جديدة على الشخصية
الدكتور باسم العلي
الطبعة الاولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م
مؤسسة الرافد للمطبوعات - بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

اهدي كتابي هذا الى امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي تربّى في حِجر نبي الهدى ونهل من علمه حتى اصبح باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد عرف ربه حق معرفته، وبذلك عرف نفسه، فسما حتى وصل الى مرتبة ان يكون نفس رسول الله صلى الله عليه وآله (قل تعالوا ندعو ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم).

فبهدي دعاء الصباح لعلي عليه السلام مشيت لكتابة هذا الكتاب.

شكر وتقدير

أقدم شكري وتقديري الى زوجتي الدكتورة زينب لما صبرت عليه طوال الايام التي قضيتها في كتابة هذا الكتاب والى النقاشات المستفيضة بشأن بعض نصوصه، فضلاً عن قراءة النص الاخير وبيان الرأي فيه.

كما اقدم شكري وامتناني الى ابنتي غدير للرسوم التوضيحية ولتصميم صورة الغلاف.

ولا يسعني إلا أن أقدم شكري الى اخي وصديقي محمد شعبان للنقاشات الكثيرة بشأن موضوعات الكتاب ولقراءة بعض نصوصه

تمهيد

برغم ان تخصصي هو العلم التجريبي (الكيمياء)؛ عندي هواية ورغبة في علمين آخرين: أحدهما الاجتماع، والآخر: النفس؛ فلقد درَّستهما في بعض محاضراتي ودرَستهما في مطالعاتي الشخصية. ان اهتماماتي بهذين المجالين ينعكس حتى في طريقة حياتي، فأنا -مثلاً- عندما أسافر إلى بلد من البلدان لا أجد متعة توازي متعة الاختلاط بأهل ذلك البلد ومعرفة كيفية معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم، خلافاً لكثير من الناس الذين ربما يهتمون بالآثار أو المناظر الطبيعية أو السهر وأمثال ذلك.

ليس ذلك فحسب، إذ كنت محظوظاً؛ لأنني تمكنت من العيش والعمل في عدة بلدان في العالم مما أعطاني خبرة كبيرة في كيفية تفكير مواطني تلك البلدان. ان تلك الخبرة لا يمكن الحصول عليها من مجرد الذهاب إلى بلد ما كسائح؛ لان طبيعة السائح ان يرى جزءا يسيرا من ذلك البلد بحسب رغبته، ولا يمكن له ان يغوص في أعماق مجتمع ذلك البلد.

ليس ذلك فحسب، ولكن ان حظي أوفر، إذ سنحت لي الفرصة للعيش في بلد جعلتها وطني ألا وهي استراليا.

تعيش في هذا البلد أجناس متعددة وثقافات كثيرة لا يوجد لها مثيل في أكثر بلدان العالم تعددية. ان عدد الثقافات يمكن ان تتعدى المائة ثقافة، ويعطيك التعرف على تلك الثقافات وإدراك مقدار تعلق كل إنسان بثقافته؛ دروسا في فهمك لثقافتك وثقافات الآخرين، وتجعلك أكثر انفتاحا وتفهما لكل المفاهيم والثقافات وأكثر قدرة على فهم وجهة نظر الآخرين.

إن سعة تخصصاتي ومجالات الأعمال التي قمت بها ،فضلاً عن واقعي العلمي والتدريسي كلّها مجتمعة؛ علمتني ان أفضل أسلوب للتعامل مع الآخرين هو ان أحاول ان افهم وجهة نظرهم، وبالتالي محاولة إيجاد أفضل الطرائق للتعامل معهم. ان تخصصي العلمي والخبرة العلمية سلّحتني بسلاح القدرة على التحليل والاستنتاج والتطبيق، فإذا ما أضفت ذلك إلى الخبرات العملية آنفة الذكر مجتمعة فأجدها تؤهلني للولوج في هذا الموضوع.

ممّا تقدم كله، لا أجد نفسي غريبا عن مجال الاشتغال والبحث في موضوع كتابي هذا والنقاش في الأمور النفسية والاجتماعية التي يمكن ان تؤثر في الشخصية.

يبقى هنالك سؤال يطرح نفسه عن السبب الذي دفعني إلى هذا الجهد؟

لم تكن هنالك دوافع فحسب، ولكن كانت هنالك أسئلة كثيرة أيضا طالما سألت نفسي عنها وأردت إجابات لها، وهي:

في دعاء الصباح لعلي عليه السلام[1] الذي يقول: «إلهي قلبي محجوب ونفسي معيوب وعقلي مغلوب وهوائي غالب...»

وفي دعاء آخر يقول[2]: «يا غوثاه ثم يا غوثاه من هوى قد غلبني ومن دنيا قد تزينت لي ومن نفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي».

جعلني أتساءل: هل الإنسان متكون من نفس وعقل وهوى وقلب، وهي أمور تحدّد شخصيته؟

والسؤال الآخر: إذا كان الشيطان هو الذي يضلنا، فلماذا إذا نخطئ في رمضان والشياطين في الأغلال؟

ويا ترى هل يملك الإنسان شخصيتين، إحداهما: يظهر بها أمام الناس، والأخرى: يبقيها لنفسه؟

والأسئلة تتوالى

لماذا يتقلب الإنسان بين الخير والشر؟

ولماذا يخطئ الإنسان أو يرتكب المحارم وله عقل يزن الدنيا؟

ولماذا يكون بعض الناس مدفوعين بشهواتهم ولا يوقفهم احد أو شيء؟

ولماذا نجد ان احدهم ذا خير تقيّاً في أمر ولا يكون كذلك في أمر آخر؟

لماذا يدفع الإنسان عن نفسه الظلم ولا يهمه إنْ ظَلم الآخرين؟

هل المال والأمل لهما تأثير في شخصية الإنسان؟

مرّت على الشعب العراقي حقبة كانت من اقسى الحقب وأصعبها التي مرّ بها على مدى عمره الذي يقارب ثمانية آلاف سنة، وهي ثلاثون سنة من حكم البعث وتسلط دكتاتور لا يأبه بعُرف ولا بدين ولا بقوانين إنسانية، بل كان همه الوحيد مصلحته الشخصية، كل شيء متعلق بشخصه وطموحاته، فلا دين ولا إنسانية ولا وطن ولا شعب ولا أهل يوازون مجتمعين أو منفردين مصلحته الذاتية، وكانت نتيجة ذلك بلاءً وموتاً ودماراً ويتماً وترملاً للشعب العراقي ككل، ولم يقتصر ظلمه على الشعب فحسب، حتى تعداه إلى أهل بيته وعشيرته وأبناء قريته ومدينته.

نتيجة للحرب مع إيران فضلاً عن احتلاله لدولة عربية مسلمة وجارة وحرب مع ثلاث وثلاثين دولة (في حرب تحرير الكويت) والحصار الاقتصادي؛ رُكِعَ الشعب العراقي وذُلّ بدرجة لا تطاق، فاجتمع العالم كله على قهره، حتى الإخوة العرب والمسلمون حاربوه ولم يحاربوا صدام نفسه المسبب لكل تلك الحروب والقاهر لشعبه. فكان نتيجة ذلك ان دفع العراق

والشعب العراقي ثمناً باهظاً جداً فداء لصدام ولشهواته وطموحاته، وبتشجيع من أميركا انتفض الشعب العراقي بعد حرب تحرير الكويت ظنا منه بأن أميركا ستكون سندا لشعب يريد ان يتخلص من الدكتاتور ومن الظلم ويرنو إلى الحرية والديمقراطية اللتين من حقوق الإنسان. تخلت عنهم أميركا! فكان مصير تلك الانتفاضة مقابر جماعية وموتا وتدميرا لكل المدن التي ثارت على حكمه وظلمه، لم تنجُ منه حتى الأماكن المقدسة، ولكي يوغل في حقده وانتقامه استعمل في حلبجة والأهوار حتى الأسلحة الكيمياوية.

وان لم يكن الموت والمقابر الجماعية والإعدامات والسجن على الهوية كافيا، أخذ الحصار الاقتصادي مأخذا كبيرا على العراقيين وذلك بانتشار المزيد من الموت بسبب العوز والحرمان والأمراض، إذ ظهرت في العراق أمراض لم يكن العراقيون يعرفونها، أمراض كان سببها استعمال اليورانيوم المنضب في الأسلحة التي جربها الحلفاء في حربهم على الشعب العراقي.

ان تلك الحالة فضلاً عن الحروب التالية لم تبقِ أي شيء من البنى التحتية للبلد، وإذا ما أصلح صدام بعض الأشياء هنا وهناك، فإن ذلك لم يكن إلا ترقيعا ومباهاة بأنه قادر على المواجهة، فيقول انه أرجع الكهرباء وكل العراق لا يصله الكهرباء إلا ساعات في اليوم. بنى قصورا ليقول للعالم: لا يهمني أمر العراق فانا أتحداكم ببناء تلك القصور التي كانت خيالية في تصميمها وعمرانها وصرف عليها مليارات الدولارات. كان يأمر مدراء المستشفيات بعدم معالجة المرضى لكي يموت اكبر عدد ممكن من المرضى لكي يخرج بهم بجنائز جماعية يريد بذلك كسب عطف الرأي العام العالمي في الوقت الذي لم يكن هو نفسه يعطف على ذلك الشعب المسكين المظلوم.

بالنسبة إلى صدام كان التحدي قائما طالما كان هو على قيد الحياة وطالما كان رئيسا، يذكرني ذلك بفيلم شرك (احد الافلام الرسوم المتحركة)، إذ ان يطلب الأمير متطوعين لإنقاذ الأميرة من السجن الذي يحميه تنين، فيقول لهم: «اذهبوا لقتال التنين وتخليص الأميرة ومن يُقتل يأتِ آخر بعده، وهكذا دواليك حتى تنقذ الأميرة ***وهذه تضحية انا مستعد لتقديمها***».

هذا كله والشعب العراقي يتضور جوعا، كانت هنالك عائلات لا تأكل إلا وجبة واحدة في اليوم، وبعض العائلات قامت ببيع أغراض البيت لكي يستطيع ان تشتري بعض الطعام، منهم من أخذ أبواب الغرف أو بلاطات الأرض وكل ما يمكنه ان يبيعه لكي يتمكن من شراء بعض الأكل ولكي تستمر الحياة. بعضهم وصلت بهم حالة يأس من الحياة إلى درجة أدت بهم إلى ان يقدموا على قتل عائلاتهم والانتحار الجماعي.

ان شعباً عانى من كل هذا الظلم والاستبداد والحرمان ومن ايسر حقوق الإنسان لا بد له من ان يرحب بأي وضع ينجيه من تلك المعيشة القاهرة، ويعد ذلك الخلاص نعمة من الله.

وبالفعل انتهت تلك الحقبة المظلمة من تاريخ العراق بعد سقوط حكم البعث وصدام، وجاء عهد جديد أعطيت فيه حريات لم يحلم بها العراقيون أبدا، وتحسن الوضع الاقتصادي وبدأ الناس يعيشون في بحبوحة عيش لم يروا مثلها منذ ثلاثين سنة سبقت.

ان أزلام البعث وصدام فضلاً عن الحركات التكفيرية التي دخلت العراق ونشرت الرعب والإرهاب بين العراقيين؛ زرعوا المفخخات وبعثوا لانتحاريين لكي يقتلوا الناس في الشوارع والأسواق والمساجد. وانتشرت

الدعايات المغرضة التي تتكلم عن الفساد وسرقة المال العام، فبدلا من أن يبغض الشعب ناشري الدعايات المغرضة والإرهابيين ومؤججي الفتن وناشري الموت، انقلب الناس على النظام الجديد وأصبحوا يقولون بان أيام صدام كانت أفضل ونسوا كل المعاناة التي عانوها أيام حكمه وحكم البعث منذ انقلاب ١٩٦٣، مدعين بأنهم كانوا بزمانه يتمتعون بالأمان. أي أمان هذا الذي يتكلمون عنه؟ أهو الأمان الذي كان فيه الأب يخاف ان يتكلم على صدام أو البعث أو الحكومة أمام أولاده أو زوجته أو أخيه لكي لا يبلغوا عنه فيفنى في غياهب السجون أو يسكن المقابر، وأي أمان ذلك الذي كانت فيه العائلات تخاف ان تخرج من بيوتها لكي لا يصادفوا عدي أو قصي أو كلابهم فيأخذون البنت من بين والديها أو الزوجة من يد زوجها، وأي أمان هذا الذي كان فيه الإنسان يساق إلى السجون من دون ان يعرف سببا لذلك، وأي أمان ذلك الذي كانت فيه الحكومة تبيع وتشتري العملة الصعبة وتسمح للناس بذلك ومتى ما تغير رأي القائد يساق المتعاملون بالعملة إلى المشانق، واي أمن هذا الذي يقتل فيه التجار وفي أسواقهم وامام الناس بتهمة الاتجار غير المشروع ومن دون محاكمة أو أدعاء أو دفاع، وإذا ما غاص في بحر هذا الأمان طفل رضيع فإنه سيشيب.

وإذا ما قارنا عهد صدام بالعهد الجديد نجد، قتل للحريات مطلق مقابل حرية مطلقة ، فقر مدقع راتب الطبيب ٣ دولارات مقابل خير وفير وصل فيه راتب الطبيب ما يقرب ألفي دولار، من وضع يبيع أهل البيت حاجاتهم من اجل ان يحصلوا على وجبة واحدة إلى ان يفكر الناس بالسفر والتمتع بالحياة، ومن كآبة وكبت وظلم إلى انطلاق للحريات بكل أشكالها واضعة قيمة لحياة أي إنسان حتى ولو كان مجرما، من رعب من الحكومة وقوات

الأمن التي كانت تهدد أمن الناس بدلا من ان تحميهم إلى التكلم على أي وزير ورئيس وزراء من دون خوف أو مانع.

ان نتيجة التدمير الشامل للبنى التحتية للعراق في غضون حكم صدام وحروبه والحصار الاقتصادي وما بعد سقوطه، والفساد الإداري والفساد الأخلاقي الذي كان سببه حقبة من أحلك الحقب ظلاماً في تاريخ العراق وبتشجيع من صدام وحزب البعث، كان ان تسلم النظام الجديد عراقا مدمرا تدميرا شاملا، فلا بنى تحتية ولا اقتصاد ولا زراعة ولا علم ولا ثقافة ولا مال ولا أي أساس يمكن ان تبنى عليه الدولة الجديدة. وإذا لم يكفِ هذا كله فان الإرهاب أجهز على ما بقي من بنى تحتية، وأسهم بها أيضا بعض أبناء الشعب العراقي بعدم التزامهم بالقوانين مما زاد في الفوضى في بلد كالغرب الأميركي.

ان هذه المناخات شجعت المفسدين ان يتوغلوا في فسادهم وبصورة خاصة بوجود تلك الفسحة الكبيرة جدا من الحريات التي جاء بها النظام الجديد.

وإذا ما أردنا ان ندرس هذا الموضوع بجدية، نجد ان كل الذي تغير هو رأس الحكومة من وزراء ورئيس حكومة ووكلاء وزارت وربما مدراء عامون، ولكن الجهاز الإداري بقي على حاله الذي كان هو أصلا مترهلا فاسدا ومتخلفا أيضا، والرأس الجديد لا يمكن ان يغير الكثير ما لم يتغير الجهاز الإداري أو يعاد ترتيبه لكي يلائم الوضع الجديد للبلد.

مع الأسف لم يعِ المواطن الاعتادي هذه الأمور كلها، ولم تكن هنالك حكومة قوية متماسكة تدير زمام الأمور، إذ كانت الحكومات كلها عبارة عن حكومات محاصصة، وهي عبارة عن مساومات أعطني وخذ، ولم تكن

مصلحة الوطن هي الدافع في تشكيل تلك الحكومات التي تشكلت على أساس طائفي عرقي سياسي اعتمادا على مصلحة ذاتية لبعض السياسيين لا مصلحة للوطن فيها.

هذه الأمور كلها مع الموروث من الفساد الإداري كانت أرضية صالحة للمزيد من الفساد. من زياراتي للعراق ومنذ السقوط رأيت ان عموم الشعب العراقي قد نسي المعاناة التي عاناها من النظام السابق، ونسي الانجازات التي تحققت وركّز على السلبيات التي مع الأسف كان مشاركا هو فيها، فموظفو الدولة هم من هذا الشعب والمقاول والعامل والحرفي هم كلهم من هذا الشعب، وكل واحد منهم أسهم بذلك الفساد بطريقة أو بطريقة أخرى، إما انه رأى الفساد وسكت عنه، وإما انه أسهم بالفساد بإعطاء الرشوة أو اخذها، وإما انه أسهم بانتشار الإرهاب بان عرف الإرهابيين وتستّر عليهم، وأما إنه أسهم إسهاما فعليا في السرقة بكل الطرائق التي كانت متعارفا عليها ومتاحة له، أما بقية الناس فكانت ترى هذه الأمور كلها التي لا ترضيها وبقيت ساكتة لا تعمل شيئا من اجل إصلاحها أو النهي عنها.

وعند ذلك نسي الجميع بفضل الإرهاب والدعايات المعادية للوضع الجديد كل الانجازات والايجابيات التي تحققت، ولم يبقَ في فكرهم وتفكيرهم إلا السلبيات. لقد حيرتني الكثير من المتناقضات في المجتمع؛ فبعض الناس تشتكي من الأنقاض وهم يسهمون بفاعلية في زيادتها وينشرونها في كل مكان، وهنالك من يشتكي من الفساد والرشوة وهو يمارسهما في أول فرصة تتحاج له.

التقيت شخصا ذا سمعة جيدة، وهو -عموما- رجل يخاف الله في عمله ويؤدي كل الفرائض ولا يمكنني ان أقول عنه انه إنسان فاسد. وكان دائم

الشكوى من وجود الفساد الإداري والرشوة وعدم أداء موظفي الدولة لوظائفهم بصورة صحيحة، وحاله حال الكثيرين من الذين رجعوا إلى الخدمة (برغم عدم الحاجة إليهم ولكن إرادة الحكومة كانت منصبة على توفير ذلك التوظيف من اجل تقليل أرقام العاطلين عن العمل وتحسين الوضع الاقتصادي في البلد)، وما ان بدأ بالعمل حتى فسد هو الآخر، ليقول عن نفسه بأننا نهرب من الدائرة بمجرد ان يصل الوقت الى الساعة العاشرة صباحا!

ورأيت منظراً لا يمكنني ان اعقله وأتصور مدى الاستهتار بالحق العام وبالقانون، وجدت احد أصحاب البيوت الذي يطل بيته مباشرة على طريق ضيق (لا يوجد فيه رصيف حيث ان جميع البيوت مبنية مباشرة مع تبليط الشارع) جالس وهو يشرب النركيلة وعمال البناء يبنون حائطا بعمق نحو متر داخل الشارع لكي يجعله جزءاً من بيته.

فقلت أريد ان افهم كيف يمكن لشعب عانى من شظف العيش كما عانى منه العراقيون ومن ظلم الحكم الشمولي الذي لم يكن له مثيل في تاريخ البشرية وحصار اقتصادي ظالم جدا وتأتيه فرصة لكي يستعيد حياته بظل الحرية والديمقراطية وبحبوحة العيش الجديدة ولا يستغل ذلك من اجل إصلاح نفسه ومجتمعه وبالتالي البلاد كلها.

فبدلاً من ان يدعموا ويحافظوا على هذا النظام الجديد لكي يشجعوا ويطوروا ايجابياته ويحاربوا سلبياته ويصلحوها تراهم من دون قصد أو إدراك يسهمون بتدمير ما حصلوا عليه من مكاسب، بل إنهم يسهمون في إطالة النقاهة التي يحتاج اليها البلد لكي يتخلص من تركة النظام البائد.

وتذكرت بني إسرائيل وقصتهم مع نبي الله موسى عليه السلام، إذ أنجاهم من فرعون بشتى المعجزات، وبمجرد ان غاب عنهم أربعين يوما عادوا يعبدون العجل بدلا من تعلقهم بدين موسى عليه السلام الذي أنقذهم ونقلهم من الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى الحرية.

وهنا تذكرت دعاء أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله:

«الهي قلبي محجوب

ونفسي معيوب

وعقلي مغلوب

وهوائي غالب»

وفي دعاء آخر

يقول من: «يا غوثاه ثم يا غوثاه بك يا الله من

هوى قد غلبني ومن

عدو قد استكلب عليّ من

دنيا قد تزينت لي ومن

نفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي».

فوجدت ان الإنسان معرض إلى العوامل الآتية:

وجدت ان هنالك نقاطا يجب ان نهتم بفهمها لكي نفهم الإنسان وبالتالي فهم الشخصية الإنسانية، ومن هذين الدعاءين وجدت ان التركيز على عوامل: النفس، والعقل، والقلب، والهوى، ومغريات الدنيا، كانت نقطة البداية في تحليلي للشخصية التي قادتني في بحثي لكي اصل إلى مفهوم الشخصية العراقية، واعرف لماذا تصرف هذا الشعب بهذه الصورة. ولكنني وفي طريق بحثي وجدت ان هنالك مسائل وعوامل كثيرة يمكن الافادة

منها، وكذلك الربط بينها لكي نتمكن من صنع أنموذج او منظور جديد للشخصية الفردية وبالتالي الشخصية الإنسانية، ومن هنا بدأت تلك الرحلة، رحلة تأليف هذا الكتاب علها تسهم بصورة متواضعة في فهم الشخصية الفردية والشخصية الإنسانية لكي تساعدنا في إيجاد حلول للمشكلات الفردية والاجتماعية.

المقدمة

في دراستنا للشخصية (سواء كانت فردية، ام اجتماعية، ام دولية، ام انسانية) يجب ان لا نبحث في حاضرها فحسب، ولكن لا بد من دراسة تاريخها وبحثه ايضا؛ فالشخصية ليست ثابتة ولكنها ديناميكية متحركة ومتغيرة ومتفاعلة مع عوامل كثيرة داخلية (من داخل الإنسان)، وخارجية محيطة ومؤثرة في الإنسان، وبالتالي في شخصيته. وفي الفصول اللاحقة سنسهب في شرح تلك العوامل والمتغيرات.

ويمكن للعوامل المؤثرة في الشخصية ان تتغير من وقت الى وقت اخر، وهو سبب في تغير اتجاه الشخصية ونوعها، فنحن عندما نتكلم عن تلك المتغيرات وتأثيرها في الشخصية؛ لا نعني -بذلك- ان المتغيرات التي حصلت في الماضي البعيد هي الاساس في الشخصية ولا تأثير للمتغيرات التي تحدث بعدها، ولكننا نعني ان كل المتغيرات التي تحدث على مدى تاريخ ذلك الشخص فضلاً عن حاضره تشترك في تشكيل شخصيته وتحديدها.

إذ لا يمكننا ان نقول: ان العوامل التي كان لها تاثير في الشخص في الطفولة هي الوحيدة المؤثرة في شخصيته، ولكن شخصية الفرد هي محصلة لكل العوامل التي لعبت دورا في حياته منذ طفولته الى اليوم الذي درسنا به تلك الشخصيته. واذا ما ناقشنا شخصية دولة واخذنا العراق مثالا نقول: ان عمر العراق نحو ثمانية الاف سنة، فلا يمكننا ان نقول: ان عراق اليوم له شخصية متأثرة بالحضارة السومرية او الحضارة البابلية او الاشورية ولا باي مرحلة من مراحل الانحطاط الحضاري او التقدم الحضاري التي

عاشها على مرّ تاريخه الطويل، وعلينا ان نقول: ان عراق اليوم هو نتيجة ومحصلة لكل العوامل المؤثرة التي اختبرها في الماضي فضلاً عن العوامل المؤثرة التي يتعرض لها في الحاضر.

من يتشبث بالماضي ويقول: نحن كنا وكان اجدادنا فحسب، من دون ان يتفاعل بصورة ايجابية مع المتغيرات الجديدة فانه خسران، وهنالك امثلة كثيرة بين ابناء الامة العربية، إذ حبسوا انفسهم في التاريخ ونسوا حاضرهم فانحدروا من سيئ الى اسوأ. وبخلاف ذلك، فان للصينين تاريخا تليدا، ولكنهم افادوا من ذلك التاريخ دروساً وبنوا حاضرهم على اساس من محصلة ايجابيات الماضي وتحديات الحاضر مما جعل الصين قوة اقتصادية ودولة عظمى.

ان العوامل المؤثرة في الإنسان يمكن ان تجعل منه ذا شخصية متسلطة ظالمة في وقت ما وفي وقت اخر ذا شخصية مسالمة، وربما يتغير فرد ذو شخصية منكسرة محبطة الى شخصية متحدية وقادرة. ان فهم الماضي والحاضر يساعدان على الغوص في اعماق تلك الشخصية، اما شخصية المستقبل فربما نواجه صعوبة كبيرة في محاولات فهمها؛ لانه لا يمكننا ان نحدد المتغيرات التي ستلاقي ذلك الشخص فتدفعه الى اتخاذ شخصية مختلفة.

وبناء على ما تقدم، اخذنا من التاريخ اشياء عديدة: اخذنا منه امثلة عن شخصيات فردية وشخصيات اجتماعية ، واخذنا منه تأثيراته في مسيرة حياة تلكم الشخصيات سواء فردية ام اجتماعية. وفي بحثنا في هذا لم لم نشأ ان نبحث عمن هو صاحب حق ومن هو على الباطل؛ لان تلك هي تصرفات

واجتهادات الافراد موضوع النقاش وتعتمد على وجهات نظر القراء في كل واحد منهم.

وعندما تحدثنا عن الاسلام لم نشأ ان نجلب الا القليل من الامثلة من سيرة واقوال النبي ﷺ؛ لانه نبي واتصاله مع الله، وانما أوردنا امثلة لأشخاص اخرين (ليسوا انبياء) مستقين تلك المعلومات من التاريخ لاعطاء مثال لنقطة او مبحث لكي نقدمه للقارئ.

واعتمدنا في هذا الكتاب على احداث تاريخية واشخاص موثقين بالتاريخ وامثلة متداولة وسور قرآنية ونظريات وتجارب علمية وتجارب شخصية وتجارب اخرين وحقائق من الحاضر.

وحرصنا وفي بحثنا في المنظور الجديد للشخصية التي نقدمها لك - عزيزي القارئ- على ان نستشهد بأهم النظريات النفسية التي تبحث في الشخصية وبصورة خاصة نظريات الحاجات، ولكننا توسعنا في نظرتنا تلك لتشمل او لكي تتفق إلى حد ما مع اكثرية النظريات الاخرى.

ان موضوع هذا الكتاب هو الشخصية الفردية، وتوسعنا فيه لكي يكون شاملا لشخصيات كل المجتمعات حتى نصل الى الشخصية الانسانية، وحاولنا ان نجد عوامل أساسية للشخصية الإنسانية التي تملكها كل المجتمعات (صغرت أم كبرت) وكل الثقافات (تقدمت أم تأخرت)، وخصصنا فصلا كاملا لمناقشة الشخصية العراقية في محاولة لفهم تلك الشخصية.

لماذا ندرس الشخصية؟ سؤال لا بد منه، أقول: إننا من دون معرفة وماهية الشخصية وفهمها لا يمكننا ان نفهم تصرفاتنا أو تصرفات الآخرين، وبالتالي لن نكون قادرين على تقديم المساعدة لحل المشكلات النفسية

والاجتماعية التي تعاني منها نسبة كبيرة من أبناء كل المجتمعات الإنسانية، ان تلك المشكلات لا تعرف حدودا أو عمرا أو ثقافة أو مجتمعا، إذ تعاني كل المجتمعات الغربية والشرقية، المتقدمة والمتخلفة، الحضرية والريفية والبدوية من تلك المشكلات، ولكن بالتأكيد ان هنالك اختلافات بين المجتمعات في مدى امتداد تلك المشكلات فيها، وذلك موضوع سنبحثه في الفصول اللاحقة.

تتأتى المشكلات النفسية من الصعوبات التي تجابه الإنسان في الحصول على حاجاته المتعددة، حاجات فسيولوجية من طعام وشراب وأمان وحاجات نفسية من راحة واحترام ومحبة وما شابهها.

نحن نعتقد بان هنالك ثلاثة أنواع من المشكلات التي تجابه الإنسان، وهي:

١. مشكلات تافهة: وهي تلك المشكلات التي يتصور الإنسان وجودها ولكن في حقيقة الامر لا وجود لها، ولذلك فإن مثل هذه المشكلات لا تستحق الجهد (من تفكير وكلام) الذي يبذله الإنسان عليها، وربما تكون نتيجة لعدم فهم ما حصل، فالإنسان ربما تخيل تلك المشكلة ولا يعرف إذا كانت هنالك مشكلة أم لا. وهذا النوع من المشكلات يعاني منها الأشخاص الحساسون، فكل نظرة او قول او حركة ربما يفسرونها بخلاف ما قصدت.

٢. مشكلات غير مهمة: وهي مشكلات موجودة وتأثيرها في النفس لا يتعدى ان يكون سببا في الانزعاج.

٣. مشكلات حقيقية ومهمة: تلك هي المشكلات التي تجابه الإنسان ولا بد من بذل جهد مع وجود طاقة وإرادة وعزم على حلها.

ان الإنسان الذي يدرك تلك الأصناف، فيضع كل واحد منها في موقعه المناسب يكون إنسانا أكثر امانا واكثر قدرة على التعامل مع المشكلات

التي تجابهه بأقل معاناة بل يكاد يكون من غير مشكلات نفسية، بخلاف الإنسان الذي يعطي المشكلات التافهة أهمية، إذ إنه يعاني من اضطرابات نفسية كبيرة. وإذا ما تمكنا من ان نُفَصّل الشخصية والعوامل المؤثرة فيها (المحبطة والمساعدة) وكيفية تعاطي الإنسان مع تلك العوامل ربما يمكننا ان نكون اكثر قدرة على التعامل مع المشكلات المذكورة أعلاه وايجاد حلول ناجحة لها.

ان جميع المشكلات في أي مجتمع من المجتمعات مبنية ومرتبطة بحب الذات (self centered)؛ لأن الإنسان في سعيه الى تحقيق كل الاحاجات لا بد من ان يواجه صعوبات تكون عاملا في عدم السعادة أو الراحة. ان الشعور بالمظلومية شيء نسبي، فهنالك أناس يعتقدون بمظلوميتهم؛ لأن:

* نعمة أزيلت منهم أو سلطة أخذت منهم أو امتيازات كانوا يتمتعون بها (من دون وجه حق) خلعت منهم، ويكون اعتقادهم بالمظلومية نابعا من زوال كل تلك النعم التي انتزعت منهم والتي لم تكن معطاة لهم بمشروعية.

* كما ان هنالك مظلومية ناتجة عن قهر وعدوان و تهميش.

أدرك ان الإنسان منذ ان وجد على هذه الأرض عليه واجب العمل من أجل الحصول على حاجاته والحفاظ على حياته التي أهدته إياها قوة قاهرة جبارة لمدة محددة. فأنه قد خرج من اللاوجود إلى الوجود ثم يذهب مرة أخرى إلى اللاوجود، كما انه أدرك بأن تلك الهدية قصيرة الأمد ولا تمثل إلا مدة زمنية قصيرة جدا من عمر الكون. وهي مدة صغيرة كصغر الأشعة المرئية التي هي جزء من الطيف الشمسي، فلا نرى من الطيف الشمسي إلا جزءا صغيرا جدا منها، أما الغالبية العظمى منها فلا قدرة لنا على رؤيتها، لقد

اخترع الإنسان أجهزة لقياسها والتعرف عليها، أما بالنسبة إلى الحياة فإننا ما نزال لا ندرك طبيعة اللاوجود قبل ان نوجد ولا بعد ان نغادر هذه الحياة.

ان طبيعة الانتقال من اللاوجود إلى الوجود، ومن ثم إلى اللاوجود أدت بالإنسان إلى ان يدرك حتمية وجود قوة وراء تلك الأمواج الوجودية واللاوجودية. ليس ذلك فحسب بل أدرك انه لا بد من ان يطيع تلك القوة ويطلب مساعدتها في أمور دنياه، فانتشرت الأرباب وبالتالي الإرادات. وذلك الصراع من اجل البقاء خلق شخصيات مختلفة بين الناس.

مما تقدم نجد ان كل البشر عندهم حاجات كثيرة مشتركة وهنالك إرادات تتحكم بهم جميعا، فلا بد من ان تكون هنالك مشتركات بين شخصياتهم فضلاً عن خصوصيات لكل واحد منهم، وإذا ما درسنا شخصية الإنسان فلا بد لنا من ان نبدأ من نقطة الصفر، ألا وهي المشتركات بين بني البشر. ان النفس الإنسانية هي المشترك الأهم بينهم، فلكل إنسان نفس تسعى إلى تحقيق مسيرة الحياة بأفضل صورة وذلك بمحاولة في الأقل توفير الحاجات الأساسية.

ووضعت أنموذجا مشابها للنظام الكوني في محاولة دراسة بعض ملامح الشخصية الفردية، انطلاقا من حقيقة ان كل المكونات (صغرت أم كبرت) في هذا الكون تسير بحسب نظام كوني موحد، ولكي نحاكي الطبيعة صغنا هذا الأنموذج.

ان الفلكية موجودة في الكون وتعتمد على حقيقة وجود مركز عظيم تدور حوله أجسام صغيرة تحتل أفلاكا متعددة بحسب طاقة كل حاجة، حتى الذرة توجد فيها النواة وتحوم في فلكها الالكترونات، وإذا أخذنا هذا الأنموذج وطبقناه على الإنسان سنجد ان المركز هو الإنسان نفسه وتدور

حوله الحاجات كل واحدة منها تملك طاقة تمكنها من ان تحتل مدارا أو فلكا بعيدا أو قريبا منه، فكلما ابتعدت عن الإنسان كلما كانت تملك طاقة أعلى، وبالتالي قوة شد من الإنسان اضعف.

ان هذا الترابط بين الإنسان وحاجاته هو الذي يمكنه من الاستمرار بالحياة والتطور، ولولا قوة الشد التي تجلب تلك الحاجات للإنسان لما وجدنا ان هنالك رغبة عند الإنسان إلى طلب المزيد من تلك الحاجات. فكلما تعلق الشخص بحاجاته زادت شدة طلبه لها، وبالتالي لا بد من ان يدفع ثمن ذلك الطلب، أما إذا خفت شدة الطلب فلا بد من ان ترجع له قيمة ما دفعه ثمنا لها.

ان انتقال هذا الثمن من الشخص واليه يؤدي إلى تغير في إنسانيته. فإذا ما دفع الإنسان ذلك الثمن تزيد إنسانيته أما إذا تسلم ثمنها، فيؤدي إلى إضعاف لإنسانيته، وبناء على ذلك فان الإنسان محكوم بتلك الحاجات وبقوة الشد بينهما. وبما ان الإنسان يختلف بذلك عن كل المخلوقات؛ لأنه مخلوق ذكي، لا بد من ان نتوسع في دراسة كل الإمكانات والقوى التي يمتلكها والتي يتعرض لها من اجل خلق شخصية فردية تسعى إلى تحقيق هدف واحد ألا وهو تنمية الحياة وتطويرها.

ان الإنسان مكون من جزأين مهمين لا يمكن الاستغناء عن أين منهما، ألا وهما "النفس" التي تسعى إلى ديمومة الحياة وتطويرها، و"العقل" بقوته الخارقة التي تكمل الكثير من الأمور التي لا تدركها النفس ولا تستطيع فهم كنهها أو تحليلها أو إيجاد حلول لها.

وذكرنا انه كما ان للنفس حواس خمس، لا بد من ان يكون للعقل حواس خمس مشابهة لتلك التي تملكها النفس، ولكن تختلف عنها بأمرين

اثنين: أحدهما: ان حواس النفس محدودة بالزمان والمكان، والآخر: إنها لا تدرك ما تحسه، فهي مجرد آلة تنقل إشارات لا تعي ما تنقله، أما حواس العقل، فإن لها القابلية على الإحساس بالمنظور وغير المنظور، ولا يوجد لها حدود تحدها بزمان ومكان.

وبما ان النفس هي التي تتعامل مع المحيط الخارجي، نجدها الممثل القادر على تمثيل الإنسان، وهو تمثيل يعطيها اليد الطولى في قبول ما يفكر به ويقترحه العقل أو رفضه، ولها ان تجبر العقل على ان يحقق إرادتها أو ان تعطيه الصلاحية لكي يقرر لها ما يجب فعله من دون معارضة.

وسبب تلك السيطرة والقدرة للنفس على العقل نابع من الطبيعة التكوينية للنفس والعقل، فالأخير لا يمتلك القدرة على تنفيذ نتاجه؛ لأنه فكري وليس ماديا، ولكن النفس نتاجها مادي يتحقق بالأداء العملي عن طريق الجسد والذي هو العبد الذي يأتمر باوامرها، وإذا ما أمر العقل بأمر، فلا بد من ان يكون تنفيذه عن طريق النفس وبإرادتها، وإلا لا يفيد العقل ان يفكر من غير ان يتحول ذلك التفكير إلى واقع... وعلي ابن أبي طالب عليه السلام يقول[٣]: «لا أمر لمن لا يطاع»، ان الهوى (وهو شدة ارتباط الحاجات بالنفس) هو المحرك الرئيس للنفس، فهوى النفس يمكن ان يدفع بالإنسان إلى ان يكون جيداً أو شريرا.

ولكي تسيطر النفس على العقل لا بد لها من وضع صمام أو قالب بينها وبين العقل الغرض منه هو تقنين نتاج العقل وبالتالي تحديد ما يمكن ان ينفذ أو لا ينفذ، فهي -بذلك- تسمح بمرور ما يناسبها ولا تسمح بمرور ما لا ترضاه، فالنفس الشريرة -مثلاً- لا تسمح بالمرور إلا للفكر الذي يؤدي إلى تحقيق ذلك الشر. ان تلك السيطرة ليست قاصرة على الرضا بنتاج العقل

من عدمه بل تتعداها إلى إجبار العقل على تنفيذ كل ما يدعم تمكين النفس من عمل كل ما تريده في ظل الظروف المحيطة بها. فمثلاً ان اللص يحتاج إلى ان يخطط سرقته، لذلك تسمح نفسه لعقله ان يعمل لها خطة ممكنة التنفيذ بنجاح، ان النفس غير قادرة على ان تخطط لتلك السرقة، لذلك لا بد لها من استعمال قوة وطاقات العقل الفكرية من اجل التخطيط للعمل المطلوب.

بالمقابل تسمح النفس غير الشريرة للعقل بان يكون مسيطرا سيطرة كاملة، فهي تطلق له العنان لكي ينتج فكرا ساميا غير مدفوع بحاجات أو متأثر بإرادات فتندفع نحو السمو، ويكون نتاج ذلك خيرا، ليس هذا فحسب، ولكن عندما تكون النفس عاجزة عن ان تعالج أمرا ما بسبب عجزها عن التفكير والعقلانية فتفتح للعقل ذلك الصمام لكي تصل أوامره وتفكيره مباشرة إلى الأعضاء التي يحتاج اليها لتنفيذ أوامره.

ان هذين المكونين للإنسان (النفس والعقل) لا بد لهما من التفاعل مع العالم الخارجي وبالتالي خلق شخصية خاصة لها القابلية على التعامل مع العالم الخارجي بما يرضي النفس من دون أي مواجهة مع العالم الخارجي يمكن ان تسبب ضررا بالنفس، إذاً هي معادلة ركناها النفس والعالم الخارجي، ولا بد من ان يكون هنالك توازن لكي تكون النفس راضية بما لديها وبما يمكنها ان تأخذ أو تقدم للعالم الخارجي ويكون الهدف الرئيس من هذا التوازن هو تحقيق ما هو أفضل للإنسان في هذه الحياة.

ويتضمن التعامل مع العالم الخارجي مكونين: أحدهما: الإرادات الخارجية، وهي مجموعة النظم الاجتماعية الاقتصادية الثقافية القانونية والعقائد السياسية والدينية لكل واحد منها إرادة تسير في خط خاص بها،

والآخر: الإرادات الداخلية التي يصنعها الإنسان (النفس والعقل) لنفسه لكي يحقق ذاته ويرضي المجتمع.

والشخصية هي حصيلة صراع الإرادات وإدارة الصراع بين هذه الإرادات، فظهورها يتجلى في أثناء تلك المعارك والصراعات التي يعيشها الإنسان طوال حياته. وطريقة التعامل هي التي تعطي خصوصية لكل فرد إنساني في تعاملاته مع نفسه ومع الآخرين. وإذا ما فهمنا هذه الخصوصية فإن أمر فهم تلك الشخصية والتعامل معها يكون أمرا سهلا، وإذا ما فهمنا ان هنالك عموميات في الشخصية يمكننا ان نعمم هذه العموميات لكي نفهم الشخصية المجتمعية وبالتالي الشخصية الإنسانية، ليس هذا فحسب، وتمكننا من فهم الاختلافات بين شخصيات المجتمعات المختلفة وبين الدول المختلفة.

ان يقسم الكتاب على تسعة فصول، على النحو الآتي:

الفصل الأول: وجهات النظر في تحديد الشخصية.

يبحث في الاسس التي تبنى عليها الشخصية، ويبدأ بأسس العديد من النظريات الموجودة في الساحة فضلاً عن ملخص عن كل واحدة من تلك النظريات. ثم يعرج على الاساس الذي بني عليه منظورنا الجديد للشخصية.

الفصل الثاني: الطبيعة البشرية للشخصية

يبحث في الطبيعة البشرية للشخصية فهي شخصية طفولية تكون الطفولة فيها الركيزة الأولى والقاعدة الأساسية التي تبنى عليها، ليس ذلك فحسب، ولكن الظروف الشخصية التي تحيط بالإنسان هي عامل في تغير الشخصية (سلبا أم ايجابا)، ويناقش الفصل تأثير ثقافة المجتمع وتطوره في صنع الشخصية متخذاً تسهيلات ووسائل موجودة في ذلك المجتمع في بناء

شخصيته، وبالتالي تعطيه امكانيات ربما لا يمتلكها شخص يعيش في مجتمع مختلف، وعلى اساس التشابه في تلك الطبائع البشرية يمكننا ان نحدد الصفات العامة المشتركة بين بني البشر.

الفصل الثالث: الحاجات المكون المادي الأول للشخصية

يبحث هذا الفصل في حاجات الإنسان وشدة تعلقه بها. إذ تقابل شدة ارتباط الإنسان بحاجاته وطلبه المتزايد عليها قوة دفع لتلك الحاجات عن الإنسان، ويحدد فارق الطاقة بين قوة الشد والدفع موقع تلك الحاجات في مدارات حب الذات وبالتالي درجة السمو او الانحطاط بالشخصية.

الفصل الرابع: الإنسان الجزء المادي الثاني والمالك الشرعي للشخصية

يناقش مكونات الإنسان الذي هو المالك الشرعي للشخصية، ويبحث في تلك المكونات ومدى إساهمها في الشخصية فضلاً عن تفاعلاتها مجتمعة من اجل اخراج تلك الشخصية. ويبحث الفصل في تقسيم الإنسان على جسد لأداء الاعمال الميكانية وديمومة الحياة، ويعد ذلك الجسد هو الممثل الظاهر للشخصية، ثم يناقش الدماغ الذي يعد الممثل الباطن للشخصية.

وبما ان الإنسان يتشارك مع الحيوانات في معظم اجزاء دماغه، يقارن الفصل بين الادمغة الثلاثة الموجودة في دماغ الإنسان مع الأدمغة الموجودة عند الحيوانات، ثم يعرج -بعد ذلك- على ذلك الجزء من الدماغ الذي يسمى المخ، ويلخص وظائف كل فص من فصوصه لكي يبحث عن الفص الذي يكون الاكثر تطورا عند الإنسان من بقية حتى اكثر الحيوانات تطورا، وذلك الفص هو الذي يجعل الإنسان انسانا؛ لأن فيه تجرى كل العمليات العقلية.

ثم يناقش العقل ويصف طريقة عمله وتعامله مع النفس، ويصنفه على نوعين من العقول: العقل النفسي الذي يتعامل ويتأثر ويؤثر بالنفس، والعقل الميتافيزيقي الذي يعمل خارج حدود النفس.

الفصل الخامس: الإرادات المكون المعنوي للشخصية

يبحث في كيفية تعامل الشخصية مع الإرادات الداخلية والخارجية، ويبحث في اسباب التذبذبات في التصرفات الشخصية ويناقش العلاقة الدوافع التي تحثه نحو طلب حاجاته والمغريات. ثم يناقش السمات العامة للشخصية الفردية والمجتمعية مثل الاخلاق ومحورية الذات والشعور والادراك.

الفصل السادس: ماهية الإرادات المؤثرة في الشخصية

يناقش نوعين من الإرادات التي تؤثر في الشخصية ويفصل القول فيهما، وهما الإرادات الخارجية التي تأتي من خارج الإنسان، والإرادات الداخلية والتي هي من صناعة الإنسان، إذ انه يصنع إرادة داخلية لكل إرادة خارجية الغرض منها التفاعل مع الإرادات الخارجية بما يرضي النفس.

الفصل السابع: صراع الإرادات وإدارة الصراع الخالقة والمعبرة عن الشخصية.

يناقش صراعات الإرادات التي تؤثر في مسيرة الشخصية وتشكيلها، ويبدأ الفصل بالبحث في الاتجاهات التي يتخذها الإنسان في تعبيره عن شخصيته ثم يناقش صراع الإرادات ومنها صراع النفس والعقل والصراعات بين الإرادات الخارجية، إذ ان بعض تلك الإرادات تتفق مع النفس، وبعضها يختلف مع النفس، فتكون الغلبة للإرادات الاقوى، ثم يعرج على الصراعات التي تدور بين الإنسان نفسه والإرادات التي تعارضه، ثم الصراع بين الخبرات التي يحصل عليه الإنسان والإرادات الخارجية والداخلية. بعد

ذلك يناقش الطريقة التي تدار بها تلك الصراعات لتنتج شخصية متميزة، ويتطرق في ختام الفصل الى الصحة النفسية واحتمالية المشكلات النفسية وكيفية معالجتها.

الفصل الثامن: أهي شخصية واحدة أم شخصيتان؟

يناقش مسألة أيملك الإنسان يملك شخصية واحدة أم شخصيتين، واحدة يعيش بها مع نفسه، والاخرى يبرزها الى المجتمع.

الفصل التاسع: الشخصية العراقية

يبحث في الشخصية العراقية، وفيها يناقش الوضع السياسي العراقي على مرّ التاريخ وتأثيرها في خلق شخصية مجتمعية عراقية خالصة، ثم تأثر العلاقة بين الحاكم والشعب التي تدفع الى ابراز شخصية متفقة مع نوعية ذلك الحاكم وطبيعة ذلك المحكوم. ونناقش فيه تأثير رجل الدين في تكوين شخصية اجتماعية معينة. ويتناول الفصل مقومات الشخصية العراقية ماهيتها أسبابها مشكلاتها التاريخية والحالية والتناقضات في مفهوم الحرية، وبعض المقترحات التي يمكن ان تسهم في تحسين وضع الشخصية العراقية في العهد الجديد.

الفصل العاشر: الختامية

يناقش خلاصة الكتاب وما تمخض عنه في ما يخص الشخصية الفردية وشخصية المجتمعات والدول.

الفصل الأول

وجهات النظر في تحديد الشخصية
أهم وجهات النظر العلمية التي تبحث في الشخصية

أولاً: وجهة نظر التحليل النفسي

ثانياً: وجهة نظر التحليل النفسي الاجتماعي

ثالثاً: وجهة نظر السمات

رابعاً: وجهة نظر التعلم

خامساً: وجهة نظر التعلم الاجتماعي المعرفي

سادساً: وجهة النظر الإنسانية

الطرائق العلمية في الدراسات السايكولوجية

وجهة نظرنا في الشخصية

الفصل الأول

وجهات النظر في تحديد الشخصية

ان شخصية الإنسان معقدة جدا، وهذا ما يجعل البحث عن ماهيتها ومحاولة فهمها أمراً صعبا، لذلك اتخذ العلماء وفي محاولات تفسير تلك الشخصية وفهمها وجهات نظر مختلفة في البحث على اسس يدرسون بموجبها الشخصية، فهنالك نظريات عديدة تبحث في موضوع الشخصية، كل واحدة منها تفسر الشخصية على أساس غالبا ما يكون مختلفا عن النظريات الأخرى. وتثبت النتائج المستخلصة من كل واحدة من تلك النظريات صحة تلك النظرية ومقبوليتها، ولكن إذا ما اعتمدنا النتائج المستحصلة من نظرية ما وفسرناها أو طبقناها بحسب نظرية أخرى فربما لا تكون النتائج متطابقة تماما، لذلك طالما يبحث العلماء على نظرية أوسع تطبيقا.

أهم وجهات النظر العلمية التي تبحث في الشخصية

هنا سنورد بعض وجهات النظر التي تفسر الشخصية، وهي كالآتي:

أولاً: وجهة نظر التحليل النفسي[٤] The Psychoanalytical (Perspective)

بحسب هذا المنظور للشخصية، فإن الناس غير مدركين لأهم ضابط ومدبر لشخصياتهم الا وهو اللاوعي (unconscious)، ويعتقد هذا المنظور بان اللاوعي الديناميكي يملك تحفيزات وطاقة لكي يؤثر في التصرفات وفي الخبرات. ويختلف العلماء في وصفهم اللاوعي، فبالنسبة الى فرويد (Freud) يعتقد ان اللاوعي متكون من امنيات جنسية وعدوانية تكون غير مقبولة من الشخصية الواعية، اما بالنسبة الى جنك (Jung) فانه يعتقد بان اللاوعي هو ليس جنسيا بصورة رئيسة، وانما هو متكون من محفزات عامة ربما تكون فيه مواد روحانية، ومع هذه الفوارق يشترك الجميع في فرضيات تميزه بقية وجهات النظر، وكالآتي:

١. ان الشخصية متأثرة وبقوة في حدود اللاوعي.

٢. ان اللا وعي ديناميكي او محفز وهو في صراع مع بقية الجوانب اللاواعية والواعية.

٣. اللاوعي ينبع من خبرات سابقة.

من رواد وجهة النظر هذه هم فرويد وجنك، بالنسبة الى فرويد بحسب نظريته المسماة النفس الجنسية (psychosexuality) قسم العقل (mind) على ثلاثة مستويات مختلفة، هي:

العقل الواعي، والعقل ما قبل الواعي، والعقل اللاواعي، وإن الإنسان يعاني من شد او ضغط بسبب حاجاته، لذلك يعمل جاهدا على تخفيف ذلك الضغط، وعدّ أن الشخصية مكونة من ثلاثة اجزاء، هي:

ألهوية (Id)، والأنا (ego)، ووالأنا العليا (Superego)، كل جزء يتطور في مرحلة من مراحل عمر الإنسان، إلا ان الـego هو الذي يطغى ويسيطر على تلك الشخصية(٥).

أما جنك(٦) (Jung) فقد جاء بنظرية الأنموذج الأصلي أو الطراز البدائي (Archetype)، وفيه يقول: ان هنالك استعدادات تتولد مع الطفل وتكون سبباً في تكوين شخصيته، فهو -في هذه النظرية- يصف الشخصية على أنها مكونة من ثلاثة أصناف أو مكونات، هي:

١. الأنا (ego)

٢. اللاوعي الشخصي (the personal unconscious)

٣. اللاوعي الجماعي (the collective unconscious)

فهو يعد أن الأنا تمثل العقل الظاهر، واللاوعي الشخصي يمثل العقل الباطن ويحتوي على الذكريات وحتى المطموسة أو المنسية منها، أما اللاوعي الجماعي فهو يمثل العقل الباطن الذي يحتوي كل المعلومات والخبرات التي نتشارك فيها مع بقية إفراد جنسنا، فهو يعتقد ان هذا المثل الأعلى لا يمكن ان ينسى أو ينشغل عن كيفية تنظيم واختبار بعض الأشياء، فهو يقول بان هنالك أربعة أنواع من هذه النماذج الأصلية:

١. الذات (The self): تمثل التوحيد بين العقل الظاهر والعقل الباطن للشخص.

٢. الظل (The shadow): ويمثل الجنس والعقل الباطن ومجموعة الغرائز التي تحتوي على أفكار مكبوتة وقصور.

١. الانيما أو النسوية (The Anima): وهي الصورة النسائية في نفسية الرجل.

٣. والانيماس أو الذكورية (The Animus) وهي الصورة الذكرية في نفسية الأنثى.

٤. برسونا أو الشخص (The persona) وهي الصورة التي نقدم بها أنفسنا إلى العالم.

ثانياً: وجهة نظر التحليل النفسي الاجتماعي[٧]: (The Psychoanalytical Social Perspective)

من العلماء البارزين في هذا المنظور هم ألفرد ادلر (Alfred Adler)، واريك اريكسون (Erik Erikson)، وكرن هورني (Karen Horney). ويتفق هذا المنظور للشخصية مع منظور التحليل النفسي في نقطتين مهمتين، وهما:

أحدهما: وهو ان فكرة اللاوعي مفيدة في شرح الشخصية.

والآخر: ان الخبرات الطفولية مهمة في تحديد الشخصية. ان هذا المنظور له افتراضات مميزة، وهي كالآتي:

١. الأنا (ego) (القوة التكيفية في الشخصية) اعطوها اهمية أكبر مما اعطاها فرويد.

٢. وصفوا تطور الاحساس بالنفس (self).

٣. ان العلاقات الشخصية (خارج نطاق العلاقة مع والدي الفرد) لها مظاهر مهمة في الشخصية.

٤. العوامل الاجتماعية والثقافية تؤثر في الشخصية بطرائق مهمة.

أما نظرية اريكسون[٨] النفس الاجتماعية (psychosociology) فهي تؤكد تأثير المجتمع في الشخصية، وتعد خاصية الأنا (Ego Identity) على انه الإحساس الواعي بالنفس الذي يتطور نتيجة

للتفاعلات الاجتماعية التي تكون دائمة التغير ومتأثرة بالمعلومات والخبرات التي يحصل عليها الفرد في حياته اليومية بتعاملاته مع الآخرين. وفضلاً عن هذا يعتقد ان الإحساس بالمنافسة يكون حافزا مشجعا للتصرف والعمل من اجل انجاز تعاملا جيدا مع الأمور التي تجابه الإنسان في حياته، فان أصاب فانه يحس بالتفوق والقدرة، وإذا ما تعامل مع تلك الأمور بطريقة سيئة فيتولد عنده إحساس بالإحباط وعدم القدرة، فهو يسمي نتيجة ذلك التعامل بقوة الشخصية (ego strength) أو نوعية الشخصية (ego quality).

ويعد اريكسون ان التناقضات تؤدي دورا محوريا في تكوين الشخصية، فهي إما ناجحة وإما فاشلة، فهو يضع ثماني مراحل لنمو الشخصية:

١. الثقة مقابل عدم الثقة (Trust vs mistrust)
٢. حكم ذاتي مقابل خزي وشك (Autononmy vs Shame and Doubt)
٣. مبادرة مقابل شعور بالذنب (Initiative vs Guilt)
٤. تمكن وصناعة للقرارات مقابل الشعور بالنقص (Industry vs Inferiority)
٥. هوية مقابل شعور بالنقص (Identity vs Inferiority)
٦. تقارب وتواصل مقابل انعزال (Intimacy vs Isolation)
٧. توليد مقابل ركود (Generative vs Stagnation)
٨. سلامة مقابل يأس (Integrity vs Despair)

ثالثاً: وجهة نظر السمات[٩] (The Trait Perspective)

مـن ابـرز المتـصدين لوجهـة النظـر هـذه هـم كـوردون اولبـورت (Gordon Allport)، وتعـد وجهـة النظر هـذه السمات علـى انهـا بنـاء نظـري يـصف الابعـاد الاساسـية للشخـصية، ففـي هـذا المنظـور للشخـصية استعملت صـفات او سـمات معينـة كاسـاس لوصـف الشخـصية، فالـشخص يمكن ان يطلق علية سمة او صفة المنفـتح وذاك منغلـق وذاك مـتكلم وهـذا متردد وهلم جرا. وتتفق جميع النظريـات التـي تتخـذ الـسمات او الـصفات اساسا لها في تفسير الشخصية على:

١. ان الاختلافات الفردية في المميزات هي -على العموم- ثابتة وعلـى مر الوقت وعبر الحالات.

٢. تأكيد قيـاس الـسمات بـاجراء فحوصـات (بـالاعم الاشـمل) بـصورة اسئلة شخصية يجيب عنها المتلقي.

في بداية هذا المنظور كان عدد السمات التي تـصف الشخـصية كبيـرا، ولكن بمرور الوقت ظهـرت نظريـات تحـدد الـسمات باعـداد قليلـة الـى ان حدد ريمونت كاتل (Raymon Cattell) الـسمات بخمـس، فاصـبحت تعرف بالكبار الخمـس[١٠] (The big Five). ان تلـك الـصفات الخمـس للشخصية هي:

انفتـاح (Extraversion)، وحـسن الأخـلاق (Agreeableness)، ودقـة (Conscientiousness)، وعـصبية (Neuroticism)، وصـدق (Openness).

رابعاً: وجهة نظر التعلم[١١] (The Learning Perspective):

يسمى اتباع هذه النظرية بالسلوكيين (Behaviourists) معتقدين بنظرية التعليم كأساس للسلوك، فهم يقولون ان كل السلوكيات تكتسب بالتلقين (التكييف) الذي يحدث من خلال تفاعل الإنسان مع بيئته، وإن تجاوبنا مع التأثيرات البيئية هي التي تمثل سلوكياتنا.

ومن مشاهير السلوكيين سكنر (Skinner) الذي يقول: ان التعلم ممكن الحدوث عن طريق الثواب والعقاب على تصرف او سلوك ما، ومن عامل التكييف (operant conditioning) هذا يتكون ترابط فكري بين السلوك وبين محصلة ذلك السلوك، وهو يعتقد بأن الافكار والدوافع الداخلية لا يمكن استعمالها في شرح السلوك، ولكن يدعو الى وجوب النظر فحسب الى الاسباب الخارجية المنظورة لسلوك الإنسان. فهو يصنف عوامل التكييف هذه على قسمين: احدهما: الثواب الذي يعمل كداعم للسلوك، ويكون على نوعين: الايجابي (تعطيه شيئا عن الانجاز) والسلبي (رفع شيء غير مرغوب فيه)، والآخر: العقاب الذي يعمل على احباط السلوك غير المرغوب فيه، وهو الاخر على نوعين: الايجابي (عمل شيء غير محبب) والسلبي (سحب شيء محبب).

اما واتسون[١٢] (John Watson) في بداية القرن العشرين فقد عدّ ان الشخصية تتحتم بوساطة البيئة فحسب، فسُمع يقول: «اعطني مجموعة من أصحاء الرضع فضلاً عن عالم بحسب مواصفاتي لكي اربي هؤلاء الرضع، وانا سأضمن بأن اخذ اي واحد منهم وبصورة عشوائية وادربه لكي يكون متخصصا بأي نوع من التخصصات التي اختارها له - طبيب، محامٍ،

فنان، تاجر، قائد، ونعم، حتى متسول وحرامي وبالرغم من قابلياته وولعه وميوله وقابلياته وموهبة واصله العرقي».

ان التغير الذي يحدث للشخصية يتأتى من التعلم، هو يحدث بسرعة في بدايات الحياة عندما يكون العادات قد بدأت تتشكل. ويعتقد واتسون بان دراسة الشخصية تتطلب ملاحظة دقيقة وواسعة للافراد، فمن الاشياء التي يجب ملاحظتها هي: التعلم والانجازات والفحوصات النفسية والفعاليات الترفيهية والمشاعر في الحياة اليومية.

وتقدم وجهة النظر السلوكية فرضيات مميزة للشخصية على النحو الآتي:

١. ان الشخصية تُعرف من السلوك، وبكلمة اخرى ان سلوك الشخص يعين شخصيته.

٢. ان السلوك (وبالتالي الشخصية) تتحدد بعوامل خارجية موجودة في البيئة، وبصورة خاصة الايعازات المقوية والمميزة.

٣. يَدَّعي السلوكيون بامكانية التأثير في الاشخاص بتغيرهم نحو الاحسن وذلك بتغير ظروف البيئة ومن ضمنها التغيرات الاجتماعية.

٤. يؤكد السلوكيون ان التغير ممكن الحدوث في حياة الفرد كلها.

٥. تدرس السلوكية شخص فرد، ولا تفترض بأن العوامل التي تؤثر في شخص بالضرورة يمكن ان تؤثر بالصورة نفسها في شخص اخر.

خامساً: وجهة نظر التعلم الاجتماعي المعرفي[١٣] (Cognitive Social Learning Perspective):

اضاف اصحاب هذه النظرة مادة اجتماعية الى نظريات التعلم وذلك بقولهم: يمكن ان يتعلم الإنسان سلوكيات من ملاحظة الاخرين. ان هنالك ثلاثة افكار اساسية في وجهة نظر التعلم الاجتماعي المعرفي:

الاولى: فكرة ان الإنسان يتعلم بواسطة المشاهدة.

الثانية: ان الحالة العقلية لها تأثير مهم في تلك العملية.

الثالثة: ان مجرد تعلم الشيء لا يمكن ان يكون سبباً في تغير السلوك.

ومن ابطال هذه النظرة[١٤] البرت باندورا (Albert Bandura)، ووالتر مشل (Walter Mischel)، بالنسبة إلى هؤلاء العلماء لا يعدون السلوكيات وحدها اساسا لتحديد الشخصية، بل يضيفون لها امرا اخر، الا وهو ما يفكر به الشخص عندما يأتي بتصرف ما. فدراسة الوجهة الفسيولوجية للعواطف مثلا من دون اعطاء اهمية لما يمكن ان يفكر به الناس عندما يخافون او يغضبون او يتهيجون عاطفيا لا يمكن ان يقودنا الى فهم كامل لشخصية الإنسان، لذلك يدرسون العمليات المعرفية وتأثيرها في التصرفات. وهم يختلفون على التعلم الاجتماعي بالاشياء الآتية:

١. يناقش هؤلاء المنظرون تفصيلات كبيرة في توضيح العمليات العقلية.

٢. يعتقدون ان البشر يختلفون بعضهم عن بعض بطريقة تفكيرهم عن انفسهم وعن الناس المحيطين بهم، وهذه العملية المعرفية هي مفتاح للمتغيرات في فهم الاختلافات بالشخصية.

٣. ويؤكدون ان تغير المعرفة هي مفتاح الى تغيرات الشخصية.

سادساً: وجهة النظرة الانسانية[١٥] (The Humanistic Perspective):

يؤكد اصحاب هذه النظرة التعامل الانساني في تشخيص الشخصية، من جملة العلماء الذين يؤمنون بهذه النظرة هم كارل روجرز (Carl Rogers)، وابراهام ماسلو (Abraham Maslow).

ان الصفة الرئيسة التي تميز النظرة الانسانية من بقية المنظورات هي التزامها بقيمة النمو الشخصي. واهم مميزات هذه النظرة هي:

١. تركز على الجوانب الاعلى والاكثر تطورا وصحية في خبرات الإنسان فضلاً عن تطور تلك الخبرات، من جملة تلك الخبرات هي الابداع والحلم.

٢. تثمن الخبرة الشخصية للفرد، وتتضمن الخبرات المتأتية من المشاعر، انها في بعض الاحيان تسمى نهج الظواهر.

٣. تؤكد الحاضر بدلاً من الماضي او المستقبل.

٤. تؤكد ان كل شخص مسؤول عن حصيلة حياته، فلا يكون لظروف الماضي قراراً مسبقاً على الحاضر، ان قدرة الإنسان على مراجعة نفسه تحسن من اختيارته السليمة.

٥. تسعى الى تطبيق نتائج بحثها في تحسين ظروف الإنسان وذلك بواسطة تغير البيئة التي يتطورون فيها. فهي تفترض انه بظل الظروف الملائمة فان كل الافراد سوف يتطورون في الاتجاه المطلوب.

ويعتقد كارل روجز[١٦] بان الناس عندهم ميلان او رغبة في سبيل تحقيق ما عندهم من قابليات، وبذلك يكونون على احسن حال عندما يستطيعون ان يحققوها، لقد اعتمد على طريقة علاج سماها العلاج الذي

يدور بمحور العميل (Client-Centered therapy) ولم يسمها علاج المريض، وفي طريقة علاجه لعملائه استعمل مفتاحين رئيسين وهما: غير موجه، يترك المعالج للمريض ان يتكلم من غير ان يتدخل في توجيهه، وتأكيد المعالج تبيان كامل الدعم والقبول للمريض.

اما ماسلو(١٧) فهو يدعي بأن جميع البشر مدفوعون من اجل تحقيق حاجاتهم، وبالتالي فإن الشخصية الفردية هي عبارة عن انعكاس تصرفي مدفوع بالحاجات كما ان بعض تلك الحاجات هي دائمية والأخرى مؤقتة وتعمل في العقل الباطن ولكن لها تأثيرا كبيرا في الشخصية الفردية.

قسم ماسلو تلك الحاجات على قسمين: أحدهما: بيولوجية، والأخرى: سيكولوجية. ووضعها في تسلسل هرمي، يضم اسفل الهرم الحاجات البيولوجية مثل الأكل والشرب والتنفس، ثم تتلوها صعودا حاجات أخرى مثل الأمان والعائلة إلى ان يصل إلى قمة الهرم، إذ تكون فيه الحاجات متمثلة بتحقيق الطموحات الشخصية التي تهواها النفس. وعلى هذا الاساس فهو يقول لكي يسعى أو يُحَفَز الإنسان من اجل الحصول على الحاجات الموجودة في اعلى الهرم لا بد من ان تتوافر له اولا كل الحاجات التي هي في اسفل منها في التسلسل الهرمي. فلا يمكنك ان تطلب ممم لا يجد ما يأكل ان يطمح في تحسين سكنه مثلا.

الطرائق العلمية في الدراسات السايكولوجية

اعتمدت كل النظريات آنفة الذكر التي درست الشخصية واحدة او اكثر من التقانات او الاساليب التالية، وكل واحدة من هذه الاساليب لها نقاط قوة ونقاط ضعف ولكنها الوسائل الوحيدة المستعملة في الدراسات السايكولوجية بصورة عامة والشخصية بصورة خاصة(١٨):

أولاً: طريقة التجارب العلمية: (experimental methods)

في هذه الطريقة هنالك فسحة من الحرية للباحث في السيطرة والتلاعب في المتغيرات التي تؤثر في الشخصية، وبالتالي تمكنه من قياس النتائج، ان هذه الطريقة هي الاكثر علمية والاكثر انتشارا في البحوث العلمية وفي كل العلوم. ان مشكلتها في دراسة شخصية الإنسان، إنها تلاقي صعوبة عندما تحاول دراسة تلك الجوانب من الشخصية كالمحفزات والمشاعر والدوافع، ان السبب في ذلك هو ان هذه المواد هي عبارة عن افكار داخلية لا بد من ان يفصح عنها الشخص، وهي خلاصة لما يدور في ذهن الشخص ولا تفصح عن كامل مكنوناته، فلذلك لا يمكن ان تصلح في ان تكون مقياسا يعتد به.

ثانياً: دراسة وضع او حالة: (Case study)

تعتمد هذه الطريقة على تحليل الشخص المدروس بعمق فضلاً عن الحصول على اجوبة مجموعة من الاسئلة التي يمكن ان تفصح عن الامور التي يريد الباحث ان يدرسها. بما ان هذا الاسلوب يعتمد على امرين شخصيين: احدهما: شخصية المحلل وطريقة فهمه وشرحه للمسائل، والآخر: ان الاجابات المستحصلة من الشخص المفحوص تعتمد بدرجة كبيرة على ذاكرته. لذلك هي شخصية بدرجة عالية يصعب إعمامها على اعداد كبيرة من الناس.

ثالثاً: طريقة البحث السريري:

تعتمد هذه الطريقة على المعلومات التي تجمع من المرضى السريريين في أثناء العلاج، تعتمد العديد من النظريات عن الشخصية على هذا النوع من البحوث. ومشكلة هذا الاسلوب هو ان الاشخاص موضوع البحث لهم

خصوصية ويظهرون تصرفات غير اعتيادية او غير طبيعية، لذلك تكاد تكون نتائج هذا البحث شخصية بامتياز وصعبة الإعمام.

وجهة نظرنا في الشخصية

عندما نتفحص وجهات النظر في الشخصية نحير في كل واحدة منها؛ لاننا لو اردنا تطبيقها بالصورة التي عرضت لوجدناها صالحة، وما ان اقتنعنا بواحدة منها حتى نجد انفسنا متحيرين؛ لأن هنالك وجهات نظر اخرى مختلفة، واذا ما حاولنا تطبيق تلك النظريات نجدها صحيحة ايضا. فكان لا بد لنا من ان نتساءل: هل هنالك نظرية او مفهوم للشخصية يمكن ان يشمل كل وجهات النظر تلك او اكثرها؟

وفي مجال بحثنا وجدنا دعاءين (دعاء الصباح لعلي ابن ابي طالب عليه السلام والاخر دعاء الحزين) يصفان الإنسان وشخصيته بدعامات خمس، هي: النفس، والعقل، والهوى، والقلب، وارادات من خارج الإنسان. فتساءلنا هل يمكن لهذه الدعامات ان تكون اساسا لنظرة جديدة للشخصية وربما تكون شاملة؟

لن تقتصر تلك الشمولية على فهم الشخصية الفردية فحسب، ولكن ربما تتعداها الى فهم شخصية المجتمعات ايضا (شخصية العائلة، وشخصية العشيرة ، وشخصية الدولة، وبالتالي حتى الشخصية الإنسانية)؛ لأن المجتمع متكون من افراد فلا بد لشخصية المجتمع من ان تكون محصلة لشخصيات افرادها، فعملية تكوين الشخصية (سواء كانت شخصية مجتمع ام شخصية فرد) لا بد من ان تأخذ اتجاهين متعاكسين (تأثير المجتمع في الفرد، وتأثير الفرد في المجتمع).

وفي بحثنا هذا أردنا ان نضع أنموذجا للشخصية يمكن تطبيقه في الأقل بنسبة كبيرة وفي كل الظروف وفي كل الأحوال، ليس هذا فحسب ولكن لكي يكون أنموذجا شاملا لكل أنواع الشخصيات.

ان شخصية المجتمع هي عبارة عن مزيج، إلى حد ما، منسجم من الشخصيات الفردية التي تكون تلك الشخصية، نعم، يجب ان نقر بان شخصية المجتمع متأثرة ومنقادة إلى إرادة نخبة من الشخصيات الفردية فيه، فمن يملك القوة المتمثلة بالمال أو السلطان أو الفكر والحكمة، يكن المؤثر الأكبر في مجتمعه، ولن يكون على البقية من إفراد ذلك المجتمع إلا الانقياد إلى إرادات أولئك القادة، ولتوضيح ذلك نأخذ مثلا العشيرة، إذ ان شخصية تلك العشيرة لا بد من ان تكون محصلة لشخصيات أفرادها، ولكن لا بد لها ان تكون منقادة ومتأثرة بشخصية شيخها وحكمائها. وكذلك إذا ما أخذنا الدولة فان شخصية تلك الدولة لا بد من ان تكون متأثرة بشخصية قادتها السياسيين ومفكريها ومبدعيها، وكما قلت سابقا ان الشخصية الفردية هي أساس الشخصية المجتمعية، لذلك يمكن ان تكون دراستنا للشخصية الفردية أساسا لدراسة أي شخصية مجتمعية اخرى.

وللشخصية الفردية مكونان اساسيان:

أحدهما: المكون المادي الذي يكون المالك والممثل الحقيقي للشخصية، الا وهو الإنسان وحاجاته.

والآخر: المكون المعنوي، وهو عبارة عن إرادات وظروف خارج نطاق الإنسان فضلاً عن إرادات من صناعة الإنسان نفسه. فالإنسان يصنع إرادة داخلية خاصة به لكل إرادة خارجية لكي يماشي الإرادات الخارجية بما

يرضيها أو يرضيه أو يرضي الاثنين، وهاتان المجموعتان من الإرادات تؤثران في تكوين الشخصية الفردية.

واعتمدنا في مفهومنا للشخصية على الطريقة الثانية في البحث، وهي طريقة دراسة وضع او حالة، واخذنا حوادث تاريخية وشخصيات تاريخية، فضلاً عن حالات سريرية (نقلا عن اطباء) فضلاً عن خبرات شخصية.

وبما ان الغرض من بحثنا في الشخصية هو شمولية فهمنا للشخصية، كان لا بد لنا من ان نجد قواسم مشتركة بين جميع البشر ونعتمدها اساساً في فهمنا لتلك البشرية وبالتالي للشخصية. وفي الفصل التالي سوف نناقش احدى المسائل التي تدل على الشمولية البشرية وهي الطبيعة البشرية للشخصية، وبذلك نبين ان جميع البشر مشتركون في هذه الطبيعة، وفي الفصول التي تليها سنناقش المكونين الاساسيين آنفي الذكر، الا وهما المكون المادي، والمكون المعنوي.

الفصل الثاني

الطبيعة البشرية للشخصية

طبيعة متأثرة بخبرات الطفولة
طبيعة متأثرة بالظروف المحيطة بالشخص
طبيعة متأثرة بثقافة المجتمع وتطوره
الصفات العامة المشتركة بين كل بني البشر
أولاً: الحاجات الأساس
ثانياً: الملذات المصاحبة لتلك الحاجات
ثالثاً: الدوافع التي تحث الإنسان نحو طلب الملذات
رابعاً: النتائج المتحققة

الفصل الثاني

الطبيعة البشرية للشخصية

تعد أساسيات الشخصية الفردية (سواء على مستوى الأفراد أم المجتمعات أم الدول) واحدة، وما التغير الذي يحصل في تشكيلة شخصية ما إلا نتاج الظروف الموضوعية التي تجابه البشر، فتصبغها بصفات فردية خاصة تميزها من بقية الشخصيات ألأخرى.

ان طبيعة الحاجات والدوافع والملذات التي يمتلكها أي إنسان هي أنفسها عند كل البشر، والجميع مشتركون في حاجاتهم إلى الأكل والشرب والمسكن، وإلى الأمن والأمان، وكلهم عندهم خوف ويتلذذون بالأشياء ويكرهون أشياء أخرى، وكلهم معرضون إلى الإرادات الخارجية. ان ناتج تفاعل الإنسان مع الظروف الموضوعية المحيطة به هي التي تدفعه إلى ان يظهر شخصية فردية خاصة به.

وتتأثر الطبائع المشتركة بين كل بني البشر بالأشياء الآتية: خبرات الطفولة، والظروف المحيطة بالشخص، وثقافة وتطور المجتمع، وفي ما يلي تفصيل كل واحدة منها:

طبيعة متأثرة بخبرات الطفولة

يمر الطفل بمراحل تطور منذ تلقيح البويضة حتى يولد، ذلك كله يحدث في ظل ظروف عامة ثابتة يمر بها كل البشر، ما لم تكن هنالك

ظروف حمل خاصة تؤثر في نموه مثل مرض أمه او تناولها العقاقير والمخدرات وما شابه[١٩].

إذ يولد الطفل ودماغه يكاد يكون كتابا خاليا من أي موضوع، ولا يوجد فيه إلا القلة القليلة مما تعلمه أو اختبره في بطن أمه الذي هو عبارة عن ضوضاء وظلام ومشاعر يصعب عليه تذكرها أو العمل بها في الأقل بصورة واعية.

وتبدأ مرحلة التعلم بعد الولادة مباشرة[٢٠]، فبمجرد ان يولد ويحس بالهواء يدخل إلى رئتيه يبدأ بالصراخ؛ لأن الهواء الذي دخل رئتيه شيء غريب يحدث بداخله مما يدفعه إلى إخراجه، فهي حالة غريبة لم يختبرها قبل ذلك الوقت. وعند الولادة ترضعه أمه أو تضعه قريبا من صدرها فيحس بدف الصدر ودقات القلب، فيشعر بأنه أصبح في بيئة جديدة مختلفة عن التي اعتادها في رحم أمه، وعندما تبعده عنها يجد نفسه في بيئة مختلفة أخرى فيبدأ بالإحساس بالحر والبرد وبالرغم من انه لا يفقه ما هما أو يعرف ما اسماهما، ولكنه يدرك بأن هنالك ظرفين مختلفين جديدين، فهو عندما يجوع وترضعه أمه يربط بين حالتين مختلفتين يحس بهما قبل الرضاعة وبعدها. فمن اللحظة الأولى تعلم ان يبكي لأية حالة جديدة ويرضع في حالة إحساسه بذلك الشعور الغريب في بطنه، ومن هنا تتطور عملية التعلم بصورة تصاعدية إلى ان يصل الى عمر السنتين... سنتان من العمر تعوَّد فيهما ان يكون كل شيء حاضر له وتعوَّد أنه إذا بكى فإن هنالك من يأتي لنجدته وأن الحياة عبارة عن فوضى ولا نظام، والقيود يمكن ان تفكك ببكاء واحد.

ويبدأ دماغه في التطور والنمو وتزداد خبراته وقابلياته العقلية. ومن اهم التغيرات الواضحة في تطور الدماغ هو الحجم، فعند الولادة يكون وزنه ما يقارب ٤٤٠ غراما او ما يعادل ٢٥٪ من وزن دماغ البالغ[٢١].

وربط العديد من العلماء السايكولوجيين بين تطور الدماغ وتطور العمليات العقلية[٢٢]، فبياجت (Piaget) مثلا يقول [٢٣]: «ان الاطفال في عمر ٤-٧ سنين يكون تفكيرهم مركزا حول ذاتهم خلافا لما عند الكبار، ويتشاركون في ما بينهم حياة اقل ذكاء من ما عند الكبار، صحيح انهم عند وجودهم بعضهم مع بعض يتكلمون عما يعملونه اكثر منا، ولكنهم بكلامهم هذا يتعاملون وكأنهم يتكلمون مع انفسهم، ان الطفل يكون غير مسيطر على لسانه الى ان يصل الى عمر السابعة، والسبب في ذلك هوعدم قدرته على الحفاظ على الافكار التي تدور في دماغه».

ويستمر نمو الدماغ وتطور عملياته العقلية حتى يصل الى كامل النضج في السنة الحادية عشرة من العمر[٢٤].

أعجبني شريط مصور شاهدته منذ نحو أربعين سنة عن تربية الطفل، وكان عبارة عن متابعة لأفعال الطفل وترجمتها إلى كلام، وكانت مشاهد الشريط المصور كالآتي: الطفل جالس في سريره وبيده دمية يلعب بها، وبينا هو كذلك إذا بها تسقط، فبكى، وهنا يترجم المعلق هذا البكاء على ان الطفل يقول «أريد اللعبة»... تلتقط الأم اللعبة وتقدمها إلى الطفل، يرمي الطفل اللعبة فتجلبها له أمه مرة أخرى، وهنا يترجم ما يدور بذهن الطفل «إنها لعبة ممتعة حقا، كل ما علي عمله هو ان ارمي اللعبة وابكي فتأتي أمي مسرعة جالبة اللعبة إلي، سألعب هذه اللعبة إلى ان أضجر منها».

وفي موقف آخر تحاول الأم ان تطعمه ولا يقبل الطعام، فتبكي تلك الأم المسكينة وتقول له: «والله انه طعام لذيذ كل» فلا يتقبله منها فتقول

الأم: كل حتى أعطيك كذا، وهي تحاول بكل الوسائل لكي تقنعه بتناول الطعام، ولكنه يستمر بالرفض، فيقول الطفل: «إنها لعبة لطيفة جدا»، تعجز الأم فتأتي الجدة ويحدث معها الشيء نفسه، والطفل مستمتع بكل هذا الاهتمام ويقول: «إنها لعبة رائعة، لقد استطعت ان اجلب لنفسي بهذه اللعبة انتباها وعناية واهتماما ودلالا من الجميع».

وما حالة الفوضى التي يختبرها الطفل عندما يترك وحده مع الطعام إلا مثال آخر، فما ان تمضي عليه دقائق وحده مع الطعام إلا وينثره على كل مكان وكما تتوق إليه نفسه، فنرى ان الأكل قد انتشر على كل ما حوله وفي وجهه ورأسه وملابسه، وإذا ما تساءلنا عن سبب ذلك، يأتي الجواب سريعا ومباشرا وهو ان الفوضى هي الأسهل والأحلى، فالطفل في هذا العمر لم يكتمل نمو فص دماغه الأمامي، لذلك لم يصل عقله إلى مرحلة النضج، ولا توجد قيادة عليه إلا قيادة النفس، وهي حرة تعمل بما تريد وتشتهي.

إذاً الطفولة والشباب هي عبارة عن فوضى وعدم مسؤولية، فهي الحقبة التي تتوفر فيها الحماية وتتوافر فيها المتطلبات وتتحقق الأماني والحاجات من دون بذل أي جهد يذكر... فتنغمر هذه العادات وهذه المتع في النفس التي تعطي هذه الأمور الأولوية في الترتيب بين كل الأمور الأخرى المحيطة بالطفل معتمدة على مخزونها من الفوضى وعدم المسؤولية متذكرة دائما ما يجلبانه لها من سعادة.

يكبر الشاب وتبدأ المسؤولية وتأثير الإرادات الخارجية سواء كانت اجتماعية أم عائلية أم قانونية، وتزداد تراكماً كلما مرّ الزمان، ويحتم هذا التغير في متطلبات حياته عليه ان يعطيها اعتبارات جديدة لا بد له من خزنها لكي يوظفها حينما يتطلب الأمر. وتأتي مرحلة جديدة ألا وهي مرحلة

المقارنة بين الاثنين المخزون الأول والثاني، فيكون هنالك صراع بين مخزون الطفولة ومخزون النضج، وبما ان النفس مائلة بطبيعتها إلى الفوضى التي اختبرتها طوال أيام الطفولة والشباب وعاشت متعتها وسهولتها وراحتها؛ تسعى جاهدة إلى جعل التعامل فوضويا؛ لأنه الأسهل والأحلى.

وفضلاً عمّا ذُكر، يرتبط المخزون الجديد من المتع المتاحة والممنوعة ارتباطا عضويا بالفوضوية التي تعلمها أيام الطفولة والشباب، فكلما كانت هنالك متعة كانت مقرونة بنوع من الفوضى.

ويكبر ويبدأ بتكوين آراء وقيود وشروط لنفسه يؤمن بها ويضع لها حدودا، ويبحث لها عن مجالات تمكنه من التحرك عن طريقها في المجتمع.. ولا يشترط ان تكون تلك الحدود بالضرورة كما يريدها المجتمع؛ لان هنالك مخزونا فوضويا تحبه النفس التي لا يهمها ما تفرضه الإرادات الأخرى إذا ما تعارضت مع الإرادات الذاتية، ولكنها من اجل حماية النفس من الأذى ربما (ان كانت قادرة) ترفضها رفضا قاطعا أو رفضاً جزئياً.

طبيعة متأثرة بالظروف المحيطة بالشخص

لكي يتعايش الفرد مع المجتمع لا بد له من ان يكون لنفسه قوانين وحدودا وشروطا على غرار تلك التي في المجتمع الذي يعيش فيه، والغرض من ذلك لكي يقارب (وعلى درجات) بين ما تتطلبه الظروف وبين ما تطلبه نفسه، فيحصل -بذلك- على درجة من التقارب بين نفسه وبين

الظروف. وتكون العلاقة بين الذات وبين الظروف الخارجية على النحو الآتي:

أولاً: عدم السعي في طلب الأمور التي لا تتماشى مع الظروف الخارجية.

ثانياً: السعي في طلب الامور التي تسمح بها الظروف الخارجية او التي تلاقي اقل درجة من الاعتراض او يمكن اخفاؤها، ولا تسعى او تمتنع عن السعي وراء الأمور التي تلاقي قدرا كبيرا من المعارضة.

ثالثاً: السعي وراء كل الأمور التي تتطلبها النفس من غير مراعاة الظروف المعارضة لها، ان هذا الاسلوب في التعامل مع الظروف يكون بخلاف التعاملين المذكورين في الفقرتين آنفتي الذكر، إذ ان هذه المساعي متحدية للظروف ومتناقضة معها، ولكن مهما يكن عنادها مع الظروف، فلا بد لها ان تظهر نوعاً من الرضوخ بعض ما لا تسمح به تلك الظروف.

ان هذه التعاملات أو المساعي إذا ما آمن الفرد بأحدها أو بكلها فإنها تقوده إلى ان يتصرف مع المجتمع الذي يعيش فيه بطريقة خاصة ملائمة للظروف الحاكمة له.

ففي الحالة الأولى نجد ان معظم هؤلاء الأشخاص يمكن ان يتوافقوا ويتماشوا مع المجتمعات التي يعيشون فيها، وذلك لا يجعلهم أنبياء! فلا بد من ان يكون لهم هنالك هفوات وأغلاط، وفي الحالة الثانية نجدهم يتظاهرون بأنهم يتماشون مع المجتمع، ولكن حقيقة أمرهم ان لهم صفتين: صفة مماشية للمجتمع عندما لا يكون هنالك رقيب عليهم، وصفة معاكسة للمجتمع عندما يختلون بأنفسهم أو عندما يكونون خارج نطاق سيطرة المجتمع.

أما المجموعة الثالثة فان عداءهم للمجتمع يكون واضحا، فهم معاندون له وفي بعض الأحيان مضرون به، ولكن هذا لا يمنعهم من ان يكونوا في أحيان أخرى مقيدين بقيم المجتمع، فهم بدافع حماية النفس يمتثلون للمجتمع، وغالبا ما يكون ذلك صوريا وليس نابعا من رغبة بإطاعة أو اكتساب رضا المجتمع.

ويتعامل معظم البشر مع مجتمعاتهم بواسطة واحدة من تلك الوسائل الثلاث آنفة الذكر، ولكن هذا لا يمثل كل الناس، إذ إن هنالك أناسا معادين للمجتمع بنحو تام، وآخرين يمتثلون لمجتمعاتهم بكل الأمور، في هذه الحال هنالك سؤال يطرح نفسه، ألا وهو: إذا كان في كل واحد منا صفات يقبلها المجتمع وفي كل واحد منا صفات لا يقبلها المجتمع (بالرغم من أننا نعيش ونعمل بها كل يوم من أيام حياتنا) فلا بد من ان يجعلنا هذا التذبذب نتقلب بين حالات نعمل فيها خيرا وأخرى شرا، إذاً فما الشيء أو الأشياء التي تدفعنا نحو هذا التذبذب؟ وجواب ذلك يعود إلى مقدار تعلق الإنسان بحاجاته وبتأثير الخبرات السابقة فيه، فكل انسان يتقبل كل ما يجلب له اللذة والمتعة والراحة ولا يريد ما يجلب له خلاف ذلك.

إذاً يمكننا تشبيه ما يحصل لتلك الشخصية بما يحدث لأنبوبة الاختبار، فعندما يوضع فيها مواد أولية تتفاعل في ما بينها لكي تنتج مادة جديدة يكون التفاعل فيها إما بصورة هادئة وإما يكون مصحوبا بانتشار غازات أو فوران أو صوت أو ربما يكون هنالك انفجار.

الإنسان هو الإنسان، ولا يهم أصله سواء كان غربيا أم شرقيا، بدويا أم حضريا، متعلما أم جاهلا، لا بد من ان يتفاعل مع حاجاته ومع الظروف المعرض لها والعوامل الأخرى من مصلحته الذاتية، أو بمعنى آخر بما يقلل

ألمه وتعبه ويزيد من لذته ومتعته وراحته، وعلى هذا الأساس نقول: ان أساسيات الشخصية الفردية مبنية على تلك الاسس المشتركة بين بني البشر اجمعين.

واثبتت التجارب العلمية ان التعبيرات الاساسية الستة لانفعالات الإنسان، وهي: السعادة، والخوف، والغضب، والحزن، والقرف، والدهشة تتشارك فيها كل الثقافات وكل البشر(٢٥).

فكما ان التفاعل الكيمياوي في أنبوبة الاختبار يكون متأثرا بالظروف المحيطة بذلك التفاعل (ظروف مثل درجات الحرارة والضغط ووجود عوامل مساعدة أو عدم وجودها) يكون تأثيرها مباشراً في سرعة ذلك التفاعل ونتيجته... فإن النتائج المتحققة نتيجة للتفاعلات التي يختبرها الإنسان مع محيطه الخارجي يكون حالها حال التفاعل الكيمياوي متأثرا بالظروف المحيطة بالإنسان، مثل الظروف الشخصية أو الاجتماعية أو القانونية أو العرفية أو العقائدية، فتكون عوامل مساعدة ومؤثرة في النتائج النهائية لتلك الشخصية، وبالتالي في خلق تلك الشخصية.

ان تفاعل الأحاسيس مع الظروف (التي تشجع اللذة الناتجة أو تكون ضدها) فضلاً عن ارادة النفس (التي تشجع تلك اللذة وتضاد الألم أو التعب) ممزوجة بالخبرات السابقة حلوها ومرّها (واهم ما فيها تلكم الخبرات الفوضوية المحبوبة) تحفز الإنسان لكي يقارن بين ما لديه كماً وكيفيةً ونوعاً وتوقيتاً، ويبحث عن سبل إنتاج تجارب مماثلة لتلك الحالات الفوضوية التي تمتع بها في الماضي أو ربما يخلقها خلقاً جديدا إذا لم تكن موجودة من قبل.

ان هذه التفاعلات الشخصية هي تفاعلات ديناميكيا مبنية على تراكمات خبرات وإرادات بداياتها منذ سنين الطفولة إلى الوقت الذي تدرس به تلك الشخصية. انه ديناميكيا؛ لأنه قابل للتغير سلبا أو ايجابا. يمكن ان يكون ذلك التغير بدرجات واتجاهات مختلفة، فنتيجة لتلك التفاعلات تبرز شخصية فردية متميزة ولكنها متأثرة بالمجتمع، وعندما تكون تلك التفاعلات خاصة بالمجتمع، فستكون لذلك المجتمع شخصية متميزة ومتأثرة بالمجتمعات الأخرى التي يتعامل معها، والشيء نفسه يمكن ان يقال عن شخصية الدولة.

فلو قارنا أخوين توأمين شقيقين، لوجدناهما ولدا من أبوين، وعاشا في البيت نفسه، وظروفهما العائلية والاجتماعية واحدة، ولكننا نلاحظ ان هنالك اختلافا في شخصيتيهما، وكلما مر عليهما الزمان توسعت هوة الخلاف بين الشخصيتين؛ لأنهما سوف (ولا بد من ذلك) يحصلان على خبرات مختلفة وبالتالي ردة أفعالهما تكون مختلفة حتى لو تعرضا للتجربة نفسها، السبب في ذلك هو ان التجارب وردة الفعل التي يطلقها كل منهما تتأثر بمجمل الأحاسيس المصاحبة لتلك التجارب وبعامل الزمن الذي لا بد من ان يعرضهما إلى تجارب مختلفة وبالتالي إلى خبرات مختلفة.

فكما أسلفنا، ان الإنسان لا يتعامل مع ما يجري حوله من منطلق حاجاته وشدة الهوى فحسب، ولكن -بالضرورة- لا بد من ان يكون محددا بجملة القوانين التي يضعها لنفسه ليحدد سبل تعامله مع المعطيات والقوانين والأعراف الاجتماعية والقانونية والعقائدية السائدة في محيط حياته.

فلو افترضنا بان احد التوأمين (آنفي الذكر) يضع لنفسه اسلوبا يحدد فيه طريقة تعامله مع والديه مفاده: إنه إذا غضب والداه فعليه ان يجابههم

بالدعابة ويجعلهما يضحكان من تصرفه أو قوله، وإذا ما كانت ردة فعل الأبوين انطفاء غضبهما والتسامح معه أو حتى إظهار تعجبهما من جرأته أو سرعة بديهيته أو ظرفه فان ذلك سيكون عملا مشجعا له لاتخاذها طريقة مثلى للتعامل معهما[٢٦].

حال هذا التوأم حال حيدر، إذ كان في الصف الأول الابتدائي وحصل على درجة (١٠/٤) في إحدى الدروس، فذهب إلى مُدرسته يعاتبها ويستنجد بها قائلا لها: «يا ست ما الفرق بين الرقمين أربعة وخمسة أليس رقما واحدا؟ فلماذا لا تغيرين الأربعة إلى خمسة؟ هل تعرفين ماذا يحدث لي لو شاهد أبي هذه الدرجة؟ انه سيشبعني ضربا» فضحكت المُدرسة من نباهته ورفعت درجته إلى (١٠/٥). ولما سمع والده بجرأة حيدر ضحك كثيرا ولم يعاقبه، بل بخلاف ذلك بدأ يخبر الآخرين ضاحكا ومتفاخرا بسرعة بديهية ابنه وجرأته، ولو رجعنا إلى التوأمين وافترضنا ان احدهما يأخذ هذا المنحى في التعامل، وربما الآخر ينكسر ويخضع ويبكي ويذل، ان الأول يجلب انتباههم إليهـ وربما يقابلانه بالضحك والقبول والسماح، وربما يجابهان الثاني بالغضب؛ لأنه زاد من إزعاجهم.

إنهم بعملهم هذا وبإرادة أو بغير إرادة أو بوعي أو غير وعي يشجعون الاثنين على اتخاذ طرائق مختلفة في تصرفاتهم ويجعل الأول يأخذ منحى مختلفا يحس به انه قادر على ان يعمل أي شيء ويقدر ان يتخلص منه بسهولة مستعملا هذه الطريقة، والثاني يحس بأنه مظلوم ومكروه ولا يحس بالأمن والأمان، وربما يظن انه مضطهد مقهور وربما يدفعه هذا الشعور إلى الانطواء أكثر والانكسار أكثر والطاعة العمياء لوالديه وللآخرين لكي لا يوضع في مثل هكذا موقف مرة أخرى. ان طريقة تعامل الأبوين مع هذين التوأمين قد رسمت خطاً من خطوط شخصيتيهما.

وهنا يجب تأكيد ان خلق الشخصية أو تحويلها لا يأتي من تجربة واحدة أو مصدر واحد، وإنما هي عملية تراكمية نتائجها مستقبلية وليست آنية، فإذا كان محيط العائلة له ذلك التأثير الكبير في تكوين ملامح شخصية الأولاد فالمجتمع له التأثير نفسه وربما بدرجة اعلى، وكذلك يكون تأثير الدولة التي يعيش فيها والذي بالضرورة يكون الإنسان متاثرا بنظامها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتطور العلمي التي تعيش تحت مظلته.

ان الثقافة هي عبارة عن الأفكار والتصرفات والاشياء المادية التي ابتدعها اعضاء المجتمع وطورها لكي تؤدي الواجبات الحياتة اليومية بصورة ملائمة، وهي تمرر من جيل الى جيل. ان تلك الاشياء المادية هي أمثال تلك الطرائق في تأدية الواجبات للحصول على الغذاء والسكن مثلا، والانتاج والعناية بالاطفال، وحل المنازعات. ان المجتمعات متكونة من ناس يعيشون في منطقة جغرافية محددة يشتركون بثقافة واحدة، لذلك فإن الثقافة والمجتمع يسيران يدا بيد[٢٧].

من هنا يمكننا ان نتوسع في مجال الشخصية الفردية إلى مجال الشخصية الاجتماعية، فنقول ان كل مجتمع له شخصيته التي تميزه من بقية المجتمعات الأخرى وذلك بسبب الاختلاف في ما بينهما في المستويات الثقافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية حتى ولو كانت تلك المجتمعات تحتويهم مدينة واحدة، مثال ذلك نقول: ان شخصية مجتمع يعيش في ظروف اقتصادية صعبة وحالة فقر لا بد من ان تتأثر شخصيته بتلك الظروف. فالدول كذلك تملك شخصيتها المستمدة من طبيعة مجتمعاتها وطبيعة نظام الحكم فيها ومحيطها الخارجي (إي موقعها في المحيط الدولي).

ان العالم المحيط بنا مقسم على مجاميع تُسمى دول العالم المتقدم وأخرى تلقب بدول العالم الثالث، ونتيجة للفروق (في كل المجالات) بين هذين العالمين نجد ان دول قليلة تتحكم بأكثرية دول العالم، وما مجلس الأمن الدولي إلا مثال على ذلك، وحتى بين دول العالم المتقدم فان هنالك دولة وحيدة (أميركا) هي القائدة له.

ان أكثر دول العالم واقعة تحت ضغط الدول الكبرى وتأثيرها، فلا قراراتها خالصة ولا إراداتها خالصة ولا مصالحها خالصة لها، ان تخليها هذا سواء جاء بإرادة أم مرغمة عليها يؤدي بها إلى ان تحصل على شخصية دولية خاضعة ذليلة تأتمر بأمر الدولة القوية، ان ذلك يشجع ويسمح ويعطي الحق للدول القوية في التسلط والسيطرة على مقدرات الدول الضعيفة، ان موقع أميركا اليوم في العالم لا ينازعها عليه احد، فهي الحاكم وهي الحكم، جنودها يجوبون العالم يقتلون ولا يحاكمون؛ لأنهم محصنون، أما إذا قتل جندي أميركي فتقوم الدنيا ولا تقعد.

ان هذا التمايز بين الدول وشخصيات الدول يجعل الهيمنة على معظم المقدرات مقصورة بيد الدولة الكبرى، ولن تكون تلك الهيمنة محدودة بالقوة العسكرية والاقتصادية فحسب، ولكن حتى بالعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية لتلك الدولة الكبرى، فمثلا بحكم هيمنة أميركا على العالم تفرض عليه حتى قيمها ومبادئها وعاداتها، ومن يرفض هذا الأمر يعد متخلفا. وهذه الهيمنة ليست مفروضة على بقية الدول من أميركا نفسها فحسب، ولكن حتى شعوب دول العالم الثالث تمتلك شعورا مفاده ان كل شيء أميركي هو جيد وكل ما هو عائد لتلك الشعوب غير جيد ومتخلف. ووصل الأمر بان أصبحت شعوب بعض دول العالم الثالث تؤثر اللغة

الانجليزية على لغاتها، فهم يُعَلمون أولادهم اللغة الانجليزية ويتكلمون معهم بها بدلا من لغتهم الوطنية معتقدين انهم بعملهم ذلك إنما يخلقون لأولادهم ثقافة متطورة خلافا لثقافاتهم المتخلفة.

وبرغم ان الدول الغربية أجمعها تشهد تقدما اقتصاديا عسكريا وتكنولوجيا وثقافيا، تظل مختلفة الشخصية، فهنالك تفاوت حتى في دول الوحدة الأوروبية، إذ تعد دول الشمال أفضل من دول الجنوب، لذلك تختلف شخصياتها.

وخلاصة القول في هذا المجال: ان سمات الشخصية سواء كانت فردية مجتمعية أم دولية تحددها الظروف المتاتية من الخبرات والطموحات والإرادات والحاجة التي تختبرها تلك الشخصية.

طبيعة متأثرة بثقافة المجتمع وتطوره

ذكرنا ان هنالك سمات للشخصية شاملة على المستوى الإنساني، وكذلك هنالك سمات خاصة لتلك الشخصية تحددها الخبرات الفردية والقوانين التي تضعها تلك الشخصية لطريقة التعامل مع الأمور والإرادات الخارجية التي تعيش تحت وطأتها. ان اختلاف الظروف والخبرات التي يعيشها الفرد لها أثر في خصوصية شخصيته، وكلما توسعت الهوة في تلك الظروف التي يعيش تحت وطأتها الأفراد كلما كان الاختلاف كبيرا، لذلك لا يمكن ان تقاس شخصية فرد يعيش في ظروف ملائمة مع شخص يعيش في ظروف قاهرة، ولا يمكن ان تقاس شخصية على أساس شخصية أخرى تعيش في مجتمع أو دولة أو ظروف مختلفة. ومثل هكذا قياس يكون قياسا غير واقعي ولا يعكس حقيقة الأشخاص بصورة صحيحة، وبالتالي يكون تطبيقه غير واقعي ومنحازا.

فلا نتوقع مثلا ان نجد شخصا ما يعيش في حالة فقر مدقع لا يجد ما يأكله أو ربما يأكل مرة واحدة في اليوم وغير متوافر له أي سبب من أسباب الراحة من نوم وملابس ومفرش وبرامج تثقيف وتوعية ان تكون طريقة تفكيره وطموحاته وفهمه لبعض الأمور؛ مطابقة لمن عاش في بحبوحة عيش كل شيء سهل يسير، لذلك فان وضع مثلا اختبار ذكاء مطابق لمفاهيم الثاني متوقعين ان يجيب الأول عنها بالدقة والقدرة أنفسهما، لا تكون منصفة ولا واقعية ولا تعطي تقويما صحيحا لقدرات الاثنين، ان حتمية النتائج التي يحصل عليها الأول لا بد من ان تكون واطئة، فبذلك نحكم عليه بالتخلف والثاني بالذكاء.

لا يمكن لشخص عاش كل حياته في المدينة ولا يعرف عن الصحراء شيئا ولم ينل شيئا من شمسها ولم يتطبع ببيئتها ان يعيش في الصحراء إذا ما تُرك فيها وحده يجابه حياة لم يختبرها، ولا يمكننا ان نتوقع منه ان يكون قادرا على إيجاد مأكل ومشرب ومسكن، بل حتى لا يمكننا ان نتوقع منه ان يخرج حياً منها، في المقابل لو أخذنا بدويا وابن مدينة وعملنا لهم اختبارا عمليا عن كيفية المعيشة بالصحراء والخروج منها احياء سنجد ان ابن الصحراء يسجل اكبر درجة من الذكاء وابن المدينة أدناها، ولو تركناهما وحدهما كلٌّ على انفراد في الصحراء لجابها الظروف أنغسها، وسنجد ان ابن الصحراء اذكي واقدر من ان يستعمل قواه وذكاءه في تلك الظروف من ابن المدينة، وربما سنجد ان ابن الصحراء قد دبّر أمره ونجى، في حين يموت ابن المدينة، فهل هذا يعني ان ابن المدينة غبي وان ابن الصحراء ذكي؟ فيأتي الجواب بكلا.

إذاً العلة في الاختبار نفسه، إذ كان خاطئا لاستناده إلى فرضية انه بإمكاننا ان نجد اختبارا للذكاء مبنيا على معطيات وظروف نتصورها هي

الأمثل والأصح في تقويم الناس، والذكاء لا بد من ان يكون جزءا من الشخصية الفردية (سنتطرق إلى هذا الموضوع لاحقا عندما نتكلم عن العقل وعلاقته بالشخصية الفردية) إذ ان العقل له تأثير محدود في عوامل الشخصية التي سوف نسهب بشرحها لاحقاً.

الصفات العامة المشتركة بين كل بني البشر

تحدثنا في الفقرة السابقة عن كيفية تقديرنا لدرجة الذكاء، وبالتالي عدمية جدوى اختبار ذكاء مصاغ ومفصل على قياس بلد معين أو جنس معين (مثلاً على قياس أشخاص في مجتمع أميركي من طبقة ذات مستوى اجتماعي واقتصادي عالٍ أو على قياس أناس من الجنس الأوروبي) ونعممها على كل شعوب العالم، مثلاً على أشخاص يعيشون في الصحراء. لذلك الاختبار مصداقية عالية فحسب، حينما يختبر أناسا من خلفيات متشابهة، ما عدا ذلك لا مصداقية له، وعلى هذا الأساس وإذا ما أردنا اختبار ذكاء عالمي شامل فلا بد من ان يكون ذلك الاختبار مقياسا لشخصية موحدة هي الشخصية الإنسانية. والمقصود من تلك الشخصية هو الشخصية التي فيها متشابهات بين بني البشر، إذاً لا بد لنا من ان نحدد معالم الشخصية الإنسانية تمكننا من صوغ اختبار عالمي لدرجة الذكاء، وإذا ما صيغ مثل هكذا اختبار فالفائدة منه لن تكون قاصرة على مصداقية الاختبار فحسب، وبالتالي درجة الذكاء وحدها ولكن تتعداها إلى تحسين التعايش بين الأفراد والمجتمعات لكي تكون على أسس عادلة وموحدة. نحن جميعا بشر لنا شخصيتنا الإنسانية المشتركة التي هي الأساس في بناء شخصياتنا الفردية، وبذلك نكون قد حولنا التجارب النفسية على أساس أكثر صلابة وأكثر مصداقية وأكثر شمولية في تطبيق النظريات النفسية.

فماذا نعني بالشخصية الإنسانية؟ وللإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من الاعتماد على مجموعة صفات وحاجات إنسانية أساسية، هي:

ان جميع البشر يولدون من بويضة ونطفة ينتج منهمت طفل يعيش في بيئة تكاد تكون متشابهة إلى حد كبير جدا في ظروف رحم الأم (ما لم تكن هنالك ظروف اقتصادية أو صحية لدى الأم). إذاً من الوهلة الأولى يعيش الجنين الظروف وحاجاته وإراداته والإرادات الخارجية أنفسها التي يتعرض لها، فلا يمكننا ان نقول بان شخصيتيهما مختلفتان بدرجة كبيرة. نحن ندرك بان هنالك تفاوتا بين تصرفات الأجنة في رحم أمهاتهم، منهم من يكون هادئا وآخر كثير الحركة، ربما هذا يعود إلى حالة الام في أثناء حملها أو اختلاف في الشخصيات، ومهما يكن لن يكون بالاختلاف نفسه بين طفلين احدهما ولد لأبوين أميركيين أغنياء، وآخر ولد لأبوين صحراويين فقيرين من دول العالم الثالث.

بمجرد ولادة الطفل سيجد نفسه قد وُجد في ظروف مختلفة عن بقية اقرانه من الأجنة، وبالتالي نجد ان تلك الظروف تكون عاملا في تكوين شخصية مختلفة عن الآخرين، ولكن ستبقى هنالك سمات إنسانية مشتركة بين الجميع، فالكل سيجدون الراحة عندما يشربون حليب أمهاتهم، والكل سيجدون الحماية والحنان من أمهاتهم، وأجمعهم سيحتاجون إلى الاحتياجات الأساسية أنفسها، وتلك الحاجات ستبقى ثابتة، ولكن الذي يتغير هو قيمتها ونوعيتها وشدة الارتباط بها، وسيؤدي الزمن والظروف التي يمر بها كل شخص منهم دورا مهما في خلق طرائق تعاملات مختلفة بينهم من اجل الحصول على تلك الحاجات، ونتيجة لذلك يبدأ التباعد في كينونة شخصيتهم الإنسانية، ويكون ذلك بداية لخلق شخصيات ذاتية خاصة بكل واحد منهم.

ويمكننا ترتيب المشتركات بين البشر على الأسس الآتية:

أولاً: الحاجات الإنسانية الأساسية من غذاء وشراب وحماية وامن وحب وحنان وتقبل وتملك.

ثانياً: الملذات المصحوبة بتلك الحاجات.

ثالثاً: الدوافع للملذات.

رابعاً: النتائج الحاصلة نتيجة تلك الملذات.

ولا يمكننا أبداً ان ننكر ان جميع البشر مشتركون بهذه الأمور، وإذا ما جعلنا هذه المشتركات هي الأساس في تقديراتنا وتثميننا للشخصية الفردية فإننا سنكون قادرين على ان نضع قياسات أكثر واقعية وأكثر وأوسع تطبيقا.

وهنا دعنا نناقش كل واحدة من تلك المشتركات على حدة:

أولاً: الحاجات الأساس

يسعى جميع البشر، وفي أي ظرف وأي مستوى وأي أفق، إلى توفير حاجاته الاساسية بشتى الطرائق. فالإنسان الذي عنده ما يفيض عن حاجته المال والمصادر التي تسهل له توفير او الحصول على حاجاته مثل الغذاء والشراب، لا يجد عناء ولا تعبا في الحصول عليها، فتكون تلك المسألة ليست ذات أهمية، وربما تتكون عنده رغبة كبيرة او هوى يدفعه للإكثار منها فتصبح سبباً في سمنة مميتة مثلا، أما بالنسبة إلى شخص لا يجد ما يأكله ويعيش في الصحراء، فلا بد ان يشقى لكي يحصل على طعامه، وبالتالي الاثنان وفرا تلك الحاجة بطرائق مختلفة ولكن لا بد لكل واحد منهم من ان يوافرها، وذلك يكون عاملا انسانيا مشتركا بينهم.

ثانياً: الملذات المصاحبة لتلك الحاجات

البشر مختلفون في تفاعلهم مع الأشياء، فهنالك من يعد الأكل وسيلة للمتعة وآخر وسيلة للبقاء، والسبب في ذلك ربما ان الأول حصل على لذة تفوق ما حصل عليه الثاني، فكانت سببا في ان تقوده إلى حالة من الهوس بالطعام، مع العلم ان كثيرا من الناس يتمتع بالطعام، ولكن لن تكون المتعة بتلك الدرجة كما هي عند الأول. ان شدة اللذة التي يجنيها هي التي تقرر طريقة تعامله مع الطعام، لذلك لا بد من ان تكون تصرفاته حياله مختلفة عن بقية الناس، نشاهد ان بعض الناس يأكل ويفرط فيه وتكون نتيجة ذلك عنده سمنة مميتة، ومع ذلك يستمر بإفراطه، ليس الإفراط بالطعام فقط بل في كل ما فيه من لذة، فهنالك هوس حاصل نتيجة لذة الشرب ولذة المال ولذة السلطة ولذات أخرى.

ثالثاً: الدوافع التي تحث الإنسان نحو طلب الملذات

يفرق علماء النفس بين الاحاسيس (sensations)، والادراك (Perception). فيقولون: ان الاحاسيس هي مقاييس لقابلية حواسنا الرئيسة الخمس (السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس) على التقاط المعلومة ليس تلك فحسب، بل أيضا كل الاحاسيس الاخرى التي تلتقط معلومات عن الجسم. ان تلك الاحاسيس تجمع البيانات وترسلها الى الدماغ وعليه تفسيرها، عند ذلك تكون ادراكا. وتوجد الاحاسيس معنا منذ الولادة، وتبدأ بالعمل في ذلك الوقت(٢٨).

وتدفعنا تلك الاحاسيس وبالتالي ادارك ما يدور حولنا وما في داخل اجسامنا الى طلب الحاجات التي فيها لذة والابتعاد عن الحاجات التي

تسبب لنا أذى. ان الطبيعة البشرية لا بد لها من ان تخلق دوافع عند الإنسان تحفزه على العمل من اجل الحصول على كل حاجاته الإنسانية؛ لأنه بخلاف ذلك لن يكون الإنسان مستعدا لصرف طاقة وجهد من اجل الحصول عليها، لذلك يعتقد الغني ان تحقيق الحاجات من مال مثلا يتطلب منه أو يدفعه (إذا اقتضى الامر) الى الغش أو السرقة أو الظلم لكي يحصل عليه أو على المزيد منه، وتلك الدوافع لا بد لها من ان تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بقوة اللذة والمتعة والراحة التي يجلبها المال. والفقير وبدافع الحصول على الحاجات الأساسية من طعام مثلا تدفعه إلى الاستجداء أو العمل المرهق أو السرقة والقتل من اجل إرضاء نفسه وتخفيف ألم جوعه.

تؤثر العوامل الثلاثة آنفة الذكر في الشخصية تأثيرا مركبا، وربما تكون قيمة ذلك التركيب وقدره مختلفا من شخص الى شخص اخر. ان تسلسل الاهمية لتلك العوامل يمكن ان يكون مختلفا بين إنسان وإنسان آخر، فمثلا يوجد أناس يعدون المال على انه هو الحاجة الأولى والأهم بحياتهم، ويعدون محبة الناس الأقل أهمية في حياتهم، أما بقية الحاجات فهي بين هذين الطرفين، في حين هنالك اناس يرتبونها بطريقة اخرى مختلفة. ان ذلك الترتيب يكون نتيجة لمقدار اللذة التي يحصل عليها الإنسان كنتيجة لتحقيق تلك الحاجات، فاللذة المطلوبة تولد دوافع نحو تحقيق تلك الملذات وبالتالي العمل على تحقيق الحاجات المطلوبة. ومن ذلك نستخلص الى أنه لكي تكون هنالك حاجة لا بد من وجود لذة ولتحقيق تلك اللذة لا بد من وجود دوافع.

رابعاً: النتائج المتحققة

ان نتيجة اي عمل لا بد ان يكون لها تأثير في مجمل العمليات التي يقررها الإنسان في تحقيق النقاط آنفة الذكر. ان ردة الفعل الشخصية لتلك النتائج لا بد من ان تعتمد على العوامل الثلاثة الأولى، لذلك هي الأخرى يمكن ان تكون بطيف واسع بين بني البشر، فمن يقتل لأول مرة بدافع الخوف والحفاظ على نفسه ربما يصيبه الندم ويحس بالجرم ولن يعيدها مرة اخرى أو يحس بنشوة وقدرة وإمكانية تجعله قاتلا محترفا، فالمتغيرات الكثيرة التي تحدد تصرفات الناس تجعل كل شخص منفردا بتعاملاته مع نفسه ومع الآخرين، وهذا ما يعقد طريقة التعامل معه، ولكن اذا ما ادركنا تلك المتغيرات فان ذلك سيجعلنا نهتم بالفرد كفرد وسيعطينا فهما بأن معاناة احدهم من علة نفسية لا بد من ان يكون لها أسباب وتعاملات وتصورات ذاتية خاصة به. وعلى هذا الأساس يجب ان تكون المعاملة والمعالجة شخصية، فما ينجح مع شخص ما لن يكون بالضرورة ناجحا مع شخص آخر، ان هذا الفهم يجعلنا اقدر على حل المشكلات النفسية والاجتماعية والدولية إذا كانت هنالك إرادة حقيقة من المُعالِج والمعالَج.

الفصل الثالث

الحاجات المكون المادي الأول للشخصية

العلاقة بين الإنسان وحاجاته

مدارات حب الذات

هل للحاجات حدود؟

سمو الإنسان ودنوه

العلاقة بين الحاجات والدوافع ونتيجة تفاعلهما

تذبذب الحاجات في مدارات حبّ الذات

طغيان الحاجة وتأثيرها في الشخصية

الفصل الثالث

الحاجات المكون المادّي الأوّل للشخصية

يولد الفرد الإنساني وتولد معه حاجاته، ويكبر وتكبر معه حاجاته ، ويموت وتنتهي حاجاته الدنيوية،فمن هنا نجد ان هنالك ارتباطا عضويا بين الإنسان وبين حاجاته، فالاثنين معا يمثلان الركن المادي للشخصية، في هذا الفصل سوف نبحث في الحاجات ونترك الإنسان (الركن المادي الثاني) للفصل الرابع.

وهنالك أمور أخرى تؤثر في شخصية الإنسان، ولكنها ليست جزءاً منه، فإما ان تكون تلك الأمور أمورا خارجية مفروضة على الإنسان وإما هي من صناعة ذلك الإنسان.

إذاً يمكننا القول: إن المكون المادي للشخصية يبقى محصورا في الفرد الإنساني وحاجاته، وهنا يجب ان نجد أنموذجا يمكننا من ان نحدد العلاقة التي تربطهما وطريقة التفاعل في ما بينهما.

العلاقة بين الإنسان وحاجاته

في الطبيعة هنالك تشابه عجيب بين مكونات هذا الكون وعلى كل المستويات؛ لأن الكون ومكوناته عبارة عن مركز قوة كبيرة تدور حوله مكونات صغيرة وفي مدارات محددة، كل مدار يمثل طاقة مختلفة عن المدارات الأخرى، ففي المجموعة الشمسية مثلا، نرى ان مجموعة كواكب تدور حول شمسها، والكوكب الذي يملك أقمارا نجد ان أقماره

تدور حول ذلك الكوكب نفسه، وفي الذرة نجد ان الالكترونات تدور حول نواتها.

ان هكذا أنموذج يمكن ان يستعمل لبيان العلاقة بين الإنسان وحاجاته، وفي هذه الحالة لا بد من ان يكون الإنسان هو المركز والحاجات تدور حوله في مدارات مختلفة، فعندما تكون طاقة تلك الحاجات مساوية إلى مدار ما من تلك المدارات فأنها تتحرك باتجاهه لكي تأخذ مكانا في ذلك المدار.

ان الحاجات (حالها حال الالكترونات في الذرة) تتمكن من الانتقال من مدار إلى مدار آخر، ويكون ذلك الانتقال إما مصاحبا لفقدان طاقة وإما نتيجة لاكتساب طاقة، ولا بد لتلك الطاقة المكتسبة أو المفقودة من ان تكون مساوية لفرق طاقة المدارين اللذين حصل الانتقال بينهما.

فبناء على ذلك يمكننا ان نقول: ان الحاجات يمكن ان تنتقل من مدار إلى مدار آخر اعتمادا إما على إضافة طاقة وإما على فقدان طاقة تساوي الفرق بين طاقتي المدارين اللذين حصل الانتقال بينهما. وكما يحصل بالذرة، إذ ان الطاقة المضافة أو المفقودة ربما تكون على شكل أشعة ضوئية، فإن الطاقة التي تنتج أو تستهلك عند الإنسان فتسبب إما سموا إنسانيا وإما دنوا (انحطاطا) إنسانيا.

وبناء على ما تقدم يمكننا تحديد قوتين تعملان على أية حاجة من اجل تحديد المدار الذي يجب ان تسكنه:

الأولى: قوة الشد:

وهي القوة التي تحدد بمقدار الطاقة التي يصرفها الإنسان من اجل الحصول على تلك الحاجة، وليس بالضرورة ان تكون تلك الطاقة جهدا

عضليا، وإنما يمكن ان تكون بوسائل مختلفة الأشكال والأعداد والأنواع، كلها مجتمعة أو منفردة تستعمل من اجل تحقيق تلك الحاجة. فالفقير الذي لا يملك قوت يومه ربما لا يجد ما يأكله فعليه إما ان يؤجر قوته العضلية في أداء عمل ما ويأخذ أجرا عليه، وإما ربما يضطره جوعه إلى التسول أو السرقة أو القتل، أما رجل الاعمال فربما يستعمل الحيلة والكذب واللف والدوران وربما العنف من اجل ان يحصل على ما يريد. ان الذي يحدد طريقة التصرف للحصول على الحاجة هي قوة الشد التي يسلطها الإنسان على تلك الحاجة.

الثانية: قوة السيطرة:

وهي القوة التي تتحدد بمقدار الطاقة التي يصرفها الإنسان لمقاومة الحصول على تلك الحاجة، فمثلا لو كان هنالك مال سائب لا حماية له ولا مراقبة عليه، فان مقاومة الإنسان لإغراء ذلك المال السائب وبكلمة أخرى سيطرته على نفسه (لكي لا يسعى إلى سرقته لاعتقاده بان لا حق له في ذلك المال) يجب ان يكون مصاحباً لمقاومة شديدة لذلك الإغراء، فنجد الناس على أنواع، فمنهم من تكون مقاومته ضعيفة فيأخذ ما يستطيع أخذه، ومنهم من يأخذ القيل منه، ومنهم من لا يجد لنفسه عذرا وأحقية في ذلك المال فلا يأخذ منه شيئا، ان كل واحد من هؤلاء قد صرف طاقة تختلف في قيمتها ونوعيتها عن طاقة الآخرين. تلك الطاقة هي طاقة السيطرة.

على هذا الاساس، فإن كل حاجة معرضة لقوتين متضادتين كل واحدة منهما تسحبها في اتجاه معاكس للآخر. في الشكل رقم (١) مثلنا الحاجة بشكل بيضوي تسحب بواسطة زنبركين (نابضين) الأول يسحبها إلى الأعلى ويرمز إلى قوة السيطرة (دفع الإنسان لتلك الحاجة بعيدا عن نفسه)

والثاني يسحبها الى الاسفل ويرمز لقوة الشد (شد الحاجة إلى نفس الإنسان). ان الزنبرك الأقوى هو الذي لا ينفتح بسهولة، أما الزنبرك الأضعف فينفتح ويطول، ان الفرق في تمددهما يحتم موقع الحاجة في المدارات، فإذا ضعف احدهم أو قوى الآخر فإن النتيجة تكون انتقال الحاجة من مدار إلى مدار آخر.

شكل رقم (١)

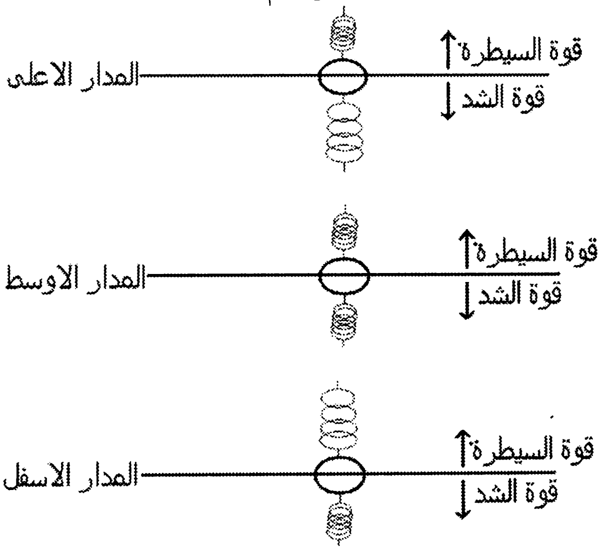

وهنا نجد ان الحاجة التي في المدار الأوسط معرضة لقوة سيطرة مساوية لقوة الشد، وهذا ما يجعل الحاجة تأخذ مدارا وسطا. فإذا ضعفت قوة الشد فان الحاجة تأخذ مدارا اعلى، وإذا ضعفت قوة السيطرة تأخذ مدارا أسفل، وبناء على ذلك فان هنالك احتمالات لعدد من المدارات التي يمكن ان تحتلها تلك الحاجة بناء على الفرق الحاصل بين القوتين.

يقال بان شخصا ما قد عُرض عليه عرض مغرٍ جدا، وكان ذلك العرض كالآتي: انه يستطيع اخذ ما يشاء من ارض زراعية بشرط واحد الا وهو ان يقطع طول الارض التي يرغب في الحصول عليها مستعملا رجليه وليس بأي واسطة اخرى، فما يحصل عليه يكون محدودا بما يمكن ان يقطعه من تلك الأرض.

فرح بذلك العرض وبدأ بالركض وبأسرع ما يمكنه لكي يتمكن من ان يقطع اكبر مسافة منها، ولما تعب خفف من سرعة ركضه، ولما تعب بدأ يهرول ثم يمشي ثم يزحف إلى ان توقف نهائيا، ولما أتوا ليعطوه حجة تلك الأرض وجدوه ميتا، ان هذا مثال على ضعف سيطرة ذلك الإنسان على حاجة التملك، فلم تكفه المسافة التي قطعها ركضا ولا مشيا ولا هرولة ولا زحفا، ولكنه أراد ان يأخذ أكثر ما يستطيع فلم يأخذ منها شيئا؛ لأنه مات، فما حاجته لتلك الأرض؟ فلو تمكن من التوقف بعد ان تعب من الركض لكانت حاجة التملك عنده تكون ساكنة في مدار اعلى مما تسكنه التي يتوقف عندها بعد الهرولة والاخيرة اعلى من المشي ولكنه اراد لها ان تكون في اسفل المدارات.

ان أماكن وجود الحاجات في المدارات ليس ثابتا وإنما هي حالة ديناميكية، ففي وقت يمكن ان تسكن حاجة ما في المدارات [illegible]

حالة أخرى يمكن ان تسكن في المدارات العالية، ان كل واحدة من تلك الانتقالات تكون مصحوبة أما بسمو وإما بدنو إنساني، فنجد ان إنسانا مجرما ظالما ربما ينقلب إلى إنسان رحيم تقي والعكس صحيح. وفي الإسلام يقول الإنسان: «ربي ارزقني حسن العاقبة» والمراد بذلك هو ان كنت سيئا حسن من وضعي، وان كنت تقيا لا أريد ان أتغير فأصبح سيئا.

ان تلك المدارات ممكن تسميتها بمدارات حب الذات؛ لأنها مرهونة بمقدار تعلق الإنسان بتلك الحاجات، ليس هذا فحسب، ولكن قربها وبعدها من الإنسان محدد بمقدار تعلقه بتلك الحاجات، فالتي تسكن مدارا قريبا منه تدفعه إلى ان يعمل المستحيل من اجل تحقيقها والحصول على المزيد منها، أما التي يكون تعلقه فيها ضعيفا فهو إما لا يأبه بالحصول عليها وإما لا يعمل من اجل الحصول على المزيد منها.

ويمكن تصنيف حاجات البشر على أربعة أصناف:

* الحاجات المصيرية: وهي الحاجات الأساسية التي تمكنه من الاستمرار بالحياة وأداء كامل أعماله الطبيعية، ومن دون تلك الحاجات تكون نتيجته الفناء، من أمثال هذه الحاجات الأكل والماء والنوم والتنفس الخروج والتبول.

* الحاجات التي تساعد على تأمين الحياة وتسهيل صعابها، أمثلة على ذلك الأمان في الجسد، والموارد، والعائلة، والصحة، والتملك.

* الحاجات التي تضيف متعة وطفرة نوعية في الحياة، مثل الصداقة، والعائلة، والجنس.

* الحاجات التي تسهل مسألة التعامل بين الإنسان ونفسه وبينه وبين ومحيطه الخارجي، مثل الثقة بالنفس، وتحقيق الانجازات الذاتية، وكسب

احترام الآخرين، واحترام الشخص لنفسه، والأخلاق، والابداع، وسرعة البديهية.

ان كلا من هذه الحاجات يمكن ان تسمو بالإنسان أو تدنيه. وتلكما الحالتان الانسانيتان مرهونتان بالإنسان نفسه وفي طريقة بحثه عن حاجاته والتعامل معها. وبصورة عامة فان التوازن في السعي وراء تلك الحاجات ربما يكون المقياس الذي يقرر مدى السمو أو الانحطاط الإنساني، ان الإنسان في سعيه لتحقيق تلك الحاجات يجب ان يكون حريصا على ان يعيش ويسمح للآخرين بالعيش، فكما يحب الإنسان ان يوافر حاجياته لنفسه فلا بد له من ان يسمح للآخرين بتوفير حاجاتهم ولا يغصبهم إياها.

وهنالك أمور أساس تؤثر في مسيرة الإنسان وطبيعة شخصيته وهو يسعى إلى تحقيق حاجاته، ان الطريقة التي يستعملها من اجل تحقيق تلك الحاجات تكون متأثرة بالقيمة التي يعطيها هو لكل أمر من الأمور الآتية:

*توفير ما يحتاج اليه لديمومة حياته ولجعلها مريحة إلى حد ما.

*ان الآخرين لهم حاجات ولا بد لهم من الحصول عليها.

*إذا ما اخذ أكثر مما يحتاج اليه فربما يؤدي هذا الى نقصان في حاجات الآخرين.

ان فهم وإقرار تلك الأساسيات لا بد ان يقود الإنسان إلى السمو أما إذا خالفها فلا بد له من ان ينحرف عن السمو، ولكي نوضح ذلك نقول: ان توافر الحاجات ليس مطلبا إنسانيا فحسب، ولكن حتى الحيوانات والنباتات والجماد لهم حاجات يجب توفيرها، ان هذه الحاجات ربما تكون في بعض الحالات مشابهة أو مقاربة لحاجات الإنسان.

ان الإنسان يحتاج إلى أراض ليجعل منها مزارع لمنتجه الزراعي، ان تلك الحاجة تدفعه إلى قطع لأشجار (وكما حصل لغابات الأمازون) مما خلق خلل في التوازن الطبيعي للأرض وبالتالي اثر سلبا في البيئة، وذلك أدى إلى إحداث خلل في البيئة المناسبة لبعض الحيوانات والنباتات وتعدى ذلك إلى ارتفاع في درجة حرارة الجو على الكرة الأرضية اجمع مصحوبة بزيادة في ثاني أوكسيد الكاربون، ان هذا الخلل في التوازن الطبيعي حذر منه الباري عز وجل في سورة الرحمن [٢٩] بقوله ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾.

ان حاجة الإنسان إلى استعمال السيارات أثرت في البيئة بزيادة الملوثات البيئية مما أحدث ضررا على البشر والحيوان والنبات، كما أثرت زيادة التلوث البيئي في الضفادع إلى حد كانت مهددة بالانقراض وكذلك على بعض الأنهار التي كانت تعج بالأسماك والإحياء المائية وأصبحت شبه ميتة. من اجل الحصول على الوقود قطعت الأشجار مما أدى إلى التصحر. لذلك يجب ان يحافظ الإنسان على التوازن بين حاجاته وحاجات المجتمع والبيئة التي يعيش فيها.

وهنا يجب تأكيد ان هنالك حاجات لا بد ان تتوافر لديمومة الحياة، ان مثل هكذا حاجات لا يمكن للإنسان ان يتنازل عنها فهي بطبيعتها لا يمكن له ان يأخذ منها أكثر مما يبقيه على قيد الحياة، وذلك يعني إنه لا يخالف او يخرق التوازن الطبيعي، مثال على ذلك هو الحاجة إلى الهواء من اجل ان يتنفس، فلا تنفسه يفيد أو يضر المجتمع ولكن من دون الهواء فلا حياة له ولا يمكنه ان يشارك المجتمع بتلك العملية، أما في بقية الحاجات المصيرية مثال الأكل او التملك فلا بد من ان يوجد هنالك توازن.

ان أي حاجة من الحاجات يمكن ان تأخذ الإنسان إلى مدارات واطئة وبالتالي الانحطاط الإنساني، أو تأخذه إلى السمو الإنساني، يوضح جدول (١) ان سعي الإنسان لتحقيق أي حاجة من حاجاته يمكن ان يكون طريقا نحو السمو أو طريقا نحو الانحطاط، ان الحكم في ذلك يعتمد على الوسائل التي يستعملها الإنسان من اجل حصوله وبالتالي تعامله مع تلك الحاجات.

الحاجة	السمو	الانحطاط
الغذاء	اخذ ما يحتاج اليه	الإفراط والتخمة
نوم	اخذ ما يحتاج اليه	الإفراط والكسل والاتكال
أمان في الجسم	الحفاظ على النفس من دون الإضرار بالآخرين	اتخاذ مسألة أمان النفس حجة للإضرار بالآخرين
التملك	يأخذ ما يحتاج اليه ويبذل بعضه في سبيل الفقراء والمساكين	يملك ما يستحقه ويسلب حقوق الآخرين
العائلة	استمرارية النسل وحنان العائلة	تربية سيئة وظلم لأفراد العائلة وأفراد المجتمع
صداقات	مشاركة اجتماعية ومساعدات	أصدقاء السوء
جنس	استمرار النسل	الإباحية وسوء

	والمتعة الشخصية	المصاحبة
ثقة بالنفس	القيام بأعمال من دون تردد	طغيان على الآخرين
احترام النفس	عدم ارتكاب الأخطاء	الاعتداء على الناس وظلمهم
احترام الآخرين	الحصول على قبول الآخرين	احترام الأقوياء ومداهنتهم على حساب الضعفاء
أخلاق	حسن الخلق	سوء الخلق
إبداع	انجاز شخصي	اعتداء على الآخرين
بديهية	الدفاع عن النفس وعن الفكر	تزوير الحقائق
حل المشكلات	السيطرة على مصاعب الحياة	انحياز في حل المشكلات والتمييز
العنصرية	عدم قبول التمييز	يميز بين الآخرين
قبول الحقائق	التي تجلب فائدة لنفسه	رفض الحقائق غير المناسبة أو تغييرها

جدول رقم (١)

من هذا الجدول نجد ان كل حاجة يمكن ان تأخذ منحيين الأول فائدة للشخص وربما للمجتمع والثانية إذا ما تمادى الشخص في حاجته يمكن ان تضر بالآخرين وحتى بنفسه، وبما ان المجتمع مكون من افراد لهم

الحاجات أنفسها ويطمحون إلى الانجازات المتحققة للشخص انفسها فمن باب السمو والإنصاف ان يسمح لهم بالحصول على مقدار من حاجاتهم تلك.

ولكي يتمكن الفرد من تحقيق توازن لنفسه في مقدار الخير والشر أو السمو والانحطاط يجب ان يخلق توازنا بين حاجته وحاجات الآخرين الذين يعيشون معه في هذه الحياة، ان الإنسان الذي يعرض حاجاته إلى قوة شد قوية وعلى حساب حاجات المجتمع يكون اقرب إلى الدنو منه إلى السمو، أما الإنسان الذي يأخذ ما يحتاج من دون ان يؤثر في المجتمع فهو يفرض قوة سيطرة قوية أو شد ضعيفة على تلك الحاجات وفي هذه الحالة يكون اقرب إلى السمو منه إلى الانحطاط.

وكلما كان موقع الحاجة في المدارات العليا كلما كان الإنسان أسمى وكلما قربت من المدارات الواطئة كلما انحط.

ان الحاجات ليست أشياء مادية في مدارات حب الذات تحوم حول الإنسان، حالها حال الالكترونات في مدارها حول النواة، وإنما أشياء معنوية، لذلك لا تكون محدودة بكمية ما، فيمكن ان تكون بأية كمية يريدها الإنسان ان تكون ولكنها تبقى منضبطة بحسب موقعها في مدارات حب الذات.

مدارات حب الذات

هنالك أربعة مدارات لحب الذات أسميتها بالتسميات التالية، بدءا من المدارات الواطئة إلى المدارات العليا، وكما موضح بالشكل (٢) فنرى ان الإنسان في المركز وتدور حوله حاجاته في مدارات أربعة، الأقرب هو

مدار الانحطاط والأبعد هو مدار السمو، وكلما يكون هنالك انتقال من المدارات الواطئة إلى الأعلى كلما كان سموا وبعكسه فهو انحطاط، وفي ما يلي سنتكلم على كل واحد من هذه المدارات:

شكل رقم (٢)

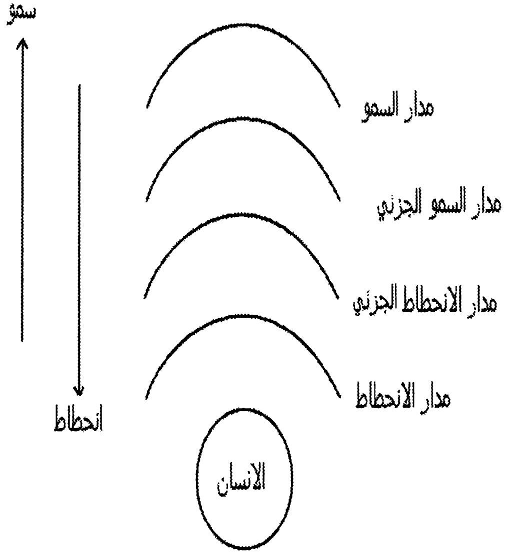

الاول: مدار الانحطاط:

هذا المدار هوالأقرب إلى الإنسان وتسكنه الحاجات المشدودة إلى الإنسان بقوة كبيرة تفوق قوة السيطرة، ففي هذا المدار لا يوجد هنالك حدود لكمية الحاجة التي يسعى إليها الإنسان، فهو يسعى إلى ان يأخذ منها أي كمية يمكنه الحصول عليها، لذلك فانه يحاول بشتى الطرائق وبكل الإمكانيات المتوافرة عنده لكي يحصل على المزيد منها وفي كل الأوقات ومهما كانت الظروف وبما يجلب الخير واللذة لنفسه ولا يهمه مقدار الأذى الذي يتعرض إليه المجتمع أو أفراده.

الثاني: مدار الانحطاط الجزئي:

يأتي هذا المدار بعد المدار الأول لذلك يكون موقعه ابعد عن الإنسان، ان قوة الشد فيه متغلبة على قوة السيطرة لدرجة ما، ان في هذا المدار هنالك طلب متزايد على كمية الحاجات التي يحصل عليها، ولكنه يحسب حسابا لمقدار الأذى الذي ستتعرض له نفسه من جراء طلب المزيد من تلك الحاجة، فإذا ما كان هنالك أذى لنفسه فانه يتوقف عن طلب المزيد منها إلا إذا كانت اللذة التي تأتي من تلك الحاجة تفوق شدة الأذى الذي يتعرض له.

الثالث: مدار السمو الجزئي:

هذا المدار موقعه ابعد من المدار الثاني وتكون قوة السيطرة فيه متغلبة على قوة الشد بدرجة ما، وفي هذا المدار هنالك طلب متزايد على كمية الحاجات التي يراد الحصول عليها، ولكن الإنسان يحسب حسابا لمقدار الأذى الذي يمكن ان يسببه طلب المزيد من تلك الحاجات على المجتمع ككل أو على احد من إفراده.

الرابع: مدار السمو:

وهو المدار الابعد عن الإنسان وتكون قوة السيطرة متغلبة إلى درجة كبيرة على قوة الشد، في هذا المدار تكون كمية الحاجة محدودة بالمقدار الذي يفي بحاجات الإنسان المصيرية ولا يزيد عنها، وإذا ما زاد فلا يكون على حساب الاخرين، ولا يوجد مانع او يمكن القول بانه توجد رغبة في التخلي عن تلك الزيادة حين يتطلب الامر ذلك.

ان موقع الحاجات في مدارات حب الذات فضلاً عن العوامل الأخرى التي سنناقشها لاحقا يمكن ان تؤدي بالإنسان إلى ان تكون له شخصيتان مختلفتان الأولى بينه وبين نفسه والأخرى بينه وبين المجتمع، ففي الشخصية التي يظهرها للمجتمع ربما تكون تقية ورعة ولكن في شخصيته الذاتية هو خلاف ذلك، وربما يظهر أمام المجتمع على انه نزيه ولكنه مع نفسه فاسد.

إذا ما تمكن الإنسان من ان ينقل جميع حاجاته من المدارات الداخلية إلى المدار الخارجي فانه يكون قد سما في إنسانيته ولا يكون هنالك فرق بين الشخصية التي يظهرها للناس وشخصيته الحقيقية.

ولا بد لنا هنا من القول: ان هذه الحالة نادرة جدا؛ لأن ذلك يعني ان على ذلك الإنسان ان يصرف طاقة كبيرة جدا لكي يقاوم شدة الارتباط بتلك الحاجات فضلاً عن الطاقة التي يجب ان يصرفها من اجل السيطرة عليها وإبقائها في ذلك المدار الخارجي.

ان مكان الحاجات في مدارات حب الذات يعتمد على أمرين اثنين: وهما كمية الحاجة، ومقدار الفائدة التي يجنيها المجتمع، وهنا يجب ان نركز على نقطتين مهمتين:

الأولى: ان شدة التعلق تكون إما بطلب المزيد منها وعلى حساب الآخرين فتخلق دنوا، وإما اخذ ما يحتاج اليه ولا يتعدى حاجات الناس ويكون سموا.

والثانية: ان شدة التعلق تكون بتوظيف تلك الحاجة لجلب المزيد من المصلحة الشخصية للفرد فتكون دنوا، أو المزيد من الفائدة للمجتمع فتكون سموا.

فلو أخذنا حاجة معينة مثلا العائلة التي وأخذت مدارا خارجيا، لكانت نتيجته سموا؛ إذ ان صاحب الحاجة يحافظ ويراعي تلك العائلة ويوظفها من اجل خدمة المجتمع وينتج منها أناسا جيدين مفيدين للمجتمع أو في الأقل يسعى إلى ذلك، أما إذا كانت ساكنة في المدار الداخلي فان رب تلك الأسرة ربما يكون ظالما قاهرا لتلك الأسرة ويفرط فيها وفي تربيتها ورعايتها، فيسخرها لمصالحه الخاصة ويجعل علاقتها بالمجتمع علاقة شر. وفي هذه الحالة يكون انحطاطا إنسانيا لهذا الشخص.

ان الإفراط في التعامل مع أي حاجة أو استعمالها في غير مكانها المناسب هو الذي يسبب ذلك الانحطاط، ان ذلك الإسراف لا بد من ان يكون سببه التعلق الأكبر بالمصلحة الذاتية التي يمكن ان تدفع الإنسان إلى تحقيق المزيد من تلك الحاجات وبالتالي انتقال تلك الحاجات من المدارات العليا إلى المدارات الواطئة ضمن مدارات حب الذات.

هل للحاجات حدود؟

وهنا لا بد لنا من ان نحدد قيمة وقدر تلك الحاجات لكي نتمكن من تقديم أنموذج يوضح لنا حدودا أو كمية تلك الحاجات، وبكلمة أخرى

متى تكون سامية ومتى تكون منحطة، وبصورة خاصة ان درجة الإسراف في تلك الحاجات هو الذي يؤدي إلى الانتقال بين المدارات في حب الذات، ان الزيادة في مقدار تلك الحاجة يمكن ان يكون سببه زيادة في شدة التعلق بها ربما تصل إلى حد التخمة وما يصاحبه من تغيرات في طريقة التعامل معها ومع المجتمع.

ولتوضيح ماهية الحاجة والزيادات التي تصاحبها يمكننا استعمال المثل الآتي:

لو أخذنا قدحا من الماء (الذي بطبيعته عديم الطعم) وأردنا تحويل طعمه إلى حلو المذاق فلا بُدَّ لنا من إضافة قدر من السكر إليه، ولو افترضنا أننا أضفنا إليه بعض حبيبات السكر وتذوقناه ووجدناه ما زال عديم الطعم فنضيف إليه حبيبات أخرى إلى ان تصل به الحالة إلى ان يكون ذا طعم حلو، عند ذلك نقول ان ذلك القدر من السكر يكفي لسد حاجة الماء لكي يكون حلوا، ونعد تلك الكمية من السكر هي الحاجة المطلوبة لكي تجعل مذاقه حلوا.

أما إذا أردنا زيادة في حلاوته فيجب علينا ان نضيف المزيد من السكر، سنلاحظ أننا كلما زدنا في كمية السكر المضاف كلما زادت حلاوته، وإذا ما بقينا نضيف السكر فإننا سنصل إلى الحد الذي نجد فيه ان السكر المضاف يلاقي صعوبة في الذوبان.

ففي البداية يذوب بمجرد سقوطه في الماء وبعد ذلك يحتاج إلى تحريك بسيط ويليه تحريك كثير ومستمر وربما نحتاج إلى زيادة في حرارة الماء من اجل تذويب قدر اكبر منه، وعند ذلك الحد نقول بان الماء أصبح مشبعا بالسكر، وإذا ما بقينا نضيف المزيد منه ومع استمرارية التحريك

الكثير والحرارة فإننا سنجابه بصعوبة في عملية الذوبان، وإذا ما تركنا المحلول ليبرد ومن غير تحريك فان السكر يبدأ بالتبلور من جديد والخروج من الماء وتلك حالة تنم عن ان الماء قد وصل إلى درجة ما فوق الإشباع.

إننا عندما نقارن بين الحاجات الإنسانية وحاجة الماء ال السكر فإننا نجد بأن كمية صغيرة من السكر كافية لجعل الماء ذا مذاق حلو والشيء نفسه ينطبق على الحاجة الإنسانية التي هي محددة بالكمية التي لها القدرة على ان تبقي الإنسان حيا ويتمتع بصحة جيدة وقدرة على الاستمرار، أما إذا تعدت ذلك فأنها ربما تصل (حالها حال ذوبان السكر) إلى درجة الإشباع ثم الى ما فوق الإشباع.

ان خروج السكر من محلوله على شكل بلورات ينم عن ان تلك الكمية من السكر التي خرجت هي فائضة عن حاجة ذلك الماء، وإذا ما قارنا الإنسان بذلك المحلول السكري نجد ان كل ما يزيد عن حاجة الإنسان اليومية هو فائض، ان السعي وراء الحصول على ذلك الفائض يفرض قوة شد على تلك الحاجات تعمل على ان تكون محفزا لعملية انتقال تلك الحاجات من المدارات العليا إلى المدارات الواطئة وبالتالي ستكون خبثا، ان أي عمل يجلب أذى للإفراد أو للمجتمع أو للنفس (وبصورة خاصة إذا كان دائما أو طويل الأمد) يعد خبثا، ليس ذلك فحسب ولكن كلما اشتد ذلك الأذى كلما كان ذلك الخبث أكبر.

وإذا ما رجعنا إلى الواقع فان حاجة الإنسان محدودة بحدود طبيعية. فالجائع منا يحس بألم في بطنه من شدة الجوع فإذا ما أعطيته قطعة خبز واكلها ربما تكفيه الم الجوع ويرتاح، إذا ان تلك القطعة من الخبز ربما

تكون هي حاجته الإنسانية لأنها تنقله من حالة الم الجوع إلى حالة الراحة من الجوع.

أما الجائع الذي يكون أمامه ثلاثة أو أربعة أطباق ويأكل من كل واحدة منها، ولا يكون غرضه فقط إيقاف الم الجوع ولكن التمتع بكل أنواع الطعام الموجود أمامه، فلا يمكننا عد تلك الأصناف الموجودة أمامه على أنها حاجته الإنسانية.

وبحسب هذا المفهوم وإذا تكلمنا على تلك الحاجات، نجدها تنتقل؛ لأنها حاجة إنسانية الغرض الأساسي منها إيقاف الم الجوع وتجهيز الجسم بما يحتاج اليه من مواد إلى حالة من الترف والتخمة ربما تصل إلى حالة ما فوق الإشباع وبالتالي تفيض.

هنالك الكثير من العائلات التي تطبخ طعاما كثيرا يفيض عن حاجة إفراد العائلة، ولا يُأكل ذلك الفائض في الوجبة التالية أو في الأيام التالية بل يرمى مع النفايات، في وقت هناك أناس لا يجدون أي شيء من الطعام ليأكلوه وربما يأكلون مرة واحدة في اليوم.

ان التخمة في أنواع الطعام وصلت ببعض المترفين إلى ان يضعوا الذهب ليأكلوه كجزء من وجبة الطعام، ليس هذا فحسب بل تعداها إلى تصميم أماكن مخصصة للطعام بأشكال وأنواع راقية وغالية الثمن والى استعمال أدوات طبخ وتقديم واكل بأشكال مبتكرة وغاية في الذوق والثمن، فصار الطعام ترفا غذائيا بدلا من ان يكون حاجة غذائية، وصار بعض الناس يصرفون آلاف الدولارات ليس على الطعام نفسه فقط ولكن على كل ما يصاحبه من أشياء أخرى.

وإذا أخذنا مثلا حاجة إنسانية ثانية (السكن) التي الغرض منها هو حماية الإنسان وعائلته من عوارض الطبيعة من برد وحر ومطر وريح، فالحاجة الإنسانية هي غرفة واحدة محمية جيدا أو كهف، ولكن تعدد المطالب زاد من إشباع تلك الحاجة إلى درجة أصبح فيه السكن بيتا من عدة غرف لكل طفل غرفة وفيه مكان لطبخ الطعام هو المطبخ ومكان يستحم فيه أهل البيت ليصبح حماما، وغرفة خاصة ومنفردة لاستقبال الضيوف وغرفة أخرى للجلوس على مائدة الطعام.

وعندما ازدادت الطلبات تعدى عدد الغرف في القصور إلى العشرات بل المئات، ليس لحاجة سكان تلك القصور إلى استعمال كل من هذه الغرف وإنما لغرض إظهار النعم والترف الذي يعيشه أهل تلك القصور، فانتقلت الحاجة من إنسانية إلى ما فوق الإشباع وبالتالي إلى فائض.

انا لا ادعي ولا ادعو الناس الى ان يتخلوا عن طلب الراحة في معيشتهم وتذوق ما لذّ وطاب من طعام ما داموا قادرين عليه، ولكني اقول ان الطلب المتزايد والاسراف والترف يتطلب ويحث الإنسان على العمل من اجل ايجاد مصادر تمويل لتلك الحاجات، وهنا يكمن الخطر، فكلما كانت هنالك زيادة في الطلب والترف كلما كان هنالك سعي الى الحصول على التمويل (اقل ما يمكن القول عنها) بطريقة ملتوية.

ان الغلو في طلب الحاجات الإنسانية ينقلها من مجرد حاجة للبقاء على الحياة إلى حاجة الغرض منها المباهاة والترف. فتصل ببعض الناس إلى درجة ما فوق الإشباع الذي هو فائض عن الحاجة الإنسانية ليتحول الغرض الأساس للسكن من الإيواء والحماية إلى التباهي وعرض النعم، ان دوافع ذلك الغلو لا بُدَّ ان ينقل تلك الحاجات من المدارات العليا إلى المدارات السفلى وبالتالي تعني ارتباطا متزايد القوة بين الإنسان وبين حاجاته

ان استمرارية تزايد الطلب على الحاجات تؤدي بصاحبها إلى ان يتصرف بصورة غير عقلانية مع علمه بان الزيادة في ذلك الطلب يمكن ان تؤدي به إلى الغلو في السعي من اجل الحصول عليها ولا يمكن ان يتوقف عنها ومهما تجابهه من صعوبات ومهما يتسبب به من أضرار.

فلو أخذنا مثلا الأكل فنجد ان الناس يأكلون من اجل غرضين:

الأولى: حاجة الجسم الى الطعام لكي يؤدي واجباته الوظيفية كرد فعل للشعور بالجوع.

الثانية: اللذة التي يجلبها ذلك الطعام، ان بعض الناس لا يأكلون إلا ما يجدونه طيب الطعم وشهيا لكي يحققوا المتعة المطلوبة منه.

ولكن الأكل عند بعضهم أصبح هوسا إلى درجة أنهم يبتلعون أي شيء يحبونه بنهم وشغف مدفوعين بالمتعة التي يوافرها لهم ذلك الطعام وليس لحاجة أجسادهم إلى الغذاء من اجل البقاء على الحياة ولعمله اليومي، ولا من اجل المتعة فحسب؛ لان القليل منه يمكن ان يفي بالغرض، إنهم يأكلون لشدة تعلقهم بالأكل وبكلمة أخرى الأكل من اجل الأكل.

ان نتائج ذلك الإفراط في الأكل ربما يوصل بعض الأشخاص المبتلين به إلى نتائج كارثية قد تؤدي بهم إلى السمنة المميتة. فهم مع ثقتهم بان الأكل المفرط يمكن ان يؤدي بهم إلى فقدان حياتهم فأنهم قد ارتبطوا بتلك الحاجة إلى درجة أصبحوا لا يأبهون بما يمكن ان يجلبه لهم ذلك الطعام من أذى.

ان حالة مدمني المخدرات والخمر والسكاير لا تختلف عن حالة مهووسي الأكل، فتجد عند بعضهم شدا كبيرا لها برغم علمهم بمضارها

الصحية والاجتماعية والاقتصادية، فهي تبدأ من لهو ولعب وتنتهي إلى هووس وإشباع.

وإذا أخذنا حاجة المال عندما تكون في مدار الانحطاط نجد ان ذلك الوجود في هذا المدار يعبر عن مدى قوة الشد التي تربط تلك الحاجة بالإنسان فهي مالكة لكيانه، وإذا أراد الشخص التخلص من قوة ارتباطه بها فانه يحتاج إلى طاقة عظيمة لكي ينقلها من هذا المدار إلى المدارات الأعلى. فهو بسبب قوة الشد تلك يكون مدفوعا بقوة شديدة لكي يعمل المستحيل من اجل تحقيقها، ان ذلك التعلق ينفي أو يخفف أي صعوبة أو الم أو مضار يمكن ان ينتج بسبب السعي الى تحقيق تلك الحاجة. فهو يكذب ويسرق ويحتال وربما حتى يقتل إذا تطلب الأمر منه ليحقق المزيد منها ولا يهمه ان يموت أو يدخل السجن فهو ينظر إلى ايجابيات الحصول على المال ويخفف من سلبياته ليقنع نفسه بان الذي يعمله هو الصحيح.

أما من تكون عنده حاجه المال في مدار الانحطاط الجزئي فهو يتغزل بذلك المال ويتصور المتع التي يمكن ان يجلبها له، فيفكر ويخطط ويحاول جاهدا للوصول إليه، ولكن مثل هذا الشخص الذي تكون حاجة المال عنده في هذا المدار، لا يخطو خطوة إلا ويحسب لها ألف حساب قبل القيام بها، فإذا سبب الحصول عليها ضررا له فانه ربما يغير خطته أو يتركها لوقت أكثر مناسبة أو لظروف تكون فيها الخسارة محسوبة وصغيرة.

أما إذا سكنت حاجة المال في مدار السمو الجزئي فان الشخص يتمنى ان يحصل على المال ولكن لا يفكر ولا يخطط للحصول عليه ولكن إذا توافرت الظروف له لكي يسرقها مثلا فلا يتورع في ذلك على شرط ان لا ينكشف، أما إذا كان عنده شك في سلامته أو أنها تسبب ضررا مباشرا للآخرين فربما لا يقدم على الحصول عليها.

وإذا ما سكنت حاجة المال في مدار السمو فان المال لا يعنيه بشيء إلا بما يحتاج ولا يسعى إلى الحصول على فائض منه فانه راض بما عنده، ان الشخص الذي تكون حاجته في هذا المدار لا يهمه ان ينفق ماله في سبيل الآخرين ولا يهتم بتوفيره وجمعه، فحاجة امتلاك المال بالنسبة إلى مثل هذا الشخص تكاد تكون معدومة وبالتالي فانه لا يهتم بجمعه والإكثار منه، أما إذا حصل وكان عنده بعض المال فلا يهمه ان ينفقه في خدمة الآخرين.

ان الظروف الاجتماعية والبيئية التي تحيط بالإنسان الساعي للحصول على ما يريد من حاجات تمثل عاملا آخر في تقدير مدى الخبث الناتج من الطريقة المستعملة في الحصول عليها، فمثلا العامل الذي يعمل لقوت يومه لا يحتاج إلا إلى الذهاب إلى مكان تجمع العمال فإذا حصل على عمل فإنه ينهي عمله ويقبض أجوره ويرجع إلى بيته بما يحتاج اليه ذلك البيت، ان مثل هذا الشخص لا يحتاج إلى الكثير من الأمور لكي يتعامل معها غير أداء العمل المناط به، فهو لا يحتاج إلى ان يغش ولا الى الكذب ولا إلى ان يسبب الأذى (متعمدا) لنفسه أو للآخرين.

أما الرجل الذي عنده بضاعة للبيع فربما يحتاج ان يكذب ويقسم وربما يغش لكي يحصل على اكبر قدر من الربح، ورجل الأعمال لا بُدَّ من ان يخادع ويتحارب ويعالج مشكلات أكثر تعقيدا واكبر خطورة فكلما زادت صفقاته كبرا وعظمت أرباحه كلما ترتب عليه ان يفقد جزءاً من إنسانيته لكي يتمكن من ان يزيد أرباحه.

كان عندي مختبر للتحليلات المختبرية وكان لي شريك، جاءني في يوم من الأيام احد المرضى وكان عنده تحليل إدرار، وعندما أراد دفع أجور التحليل والتي كانت نصف دينار قال ليس عندي غير ٣٥٠ فلسا، قلت

له: ان الأجور نصف دينار ولا يمكنني ان اقبل اقل من ذلك (فماذا سأقول لشريكي) بدأ يحلف إيمانا غليظا انه لا يملك غير ذلك، قبلت بذلك بعد ان رأيت إصراره على انه لا يملك أكثر من ذلك، أخبرت احد الأشخاص بذلك فضحك علي وقال: انك لن تصبح غنياً أبدا.

سمو الإنسان ودنوه

السؤال الذي يجب ان نسأله هو: من ذا الذي يضع هذه الحاجات في المدارات المشار إليها، فيكون الجواب:

إن شدة الارتباط مرهون بالشخص وهو من يقرر ذلك، وبناءً على ما توافره تلك الحاجات من سعادة للشخص، فلا يمكن لأية قوة أخرى غير إرادة الإنسان ان تقرر مكان تلك الحاجات في مدارات حب الذات.

هنالك تأثيرات اجتماعية اقتصادية قانونية،وربما هنالك إرادات أخرى تساعد على توجيهها أو تدفع نحو وضعها في المدار الذي تعتقده مناسبا، ولكن القرار الأول والأخير مرهون بالشخص نفسه؛ لان نتيجة ذلك القرار ومردوداته مرتبطة بالإنسان نفسه بالدرجة الأولى.

يجب ان ندرك بأن الحاجات والإنسان هما جزءان أساسيان من الشخصية الفردية، فكما قلت سابقا إن تلك الحاجات تتأثر بالإرادات الخارجية مما تجعل الإنسان يخلق لنفسه إرادات داخلية يضع نصب عينيه حاجاته ولكن بما يلائم الإرادات الخارجية المؤثرة فيه، وبسبب هذه العلاقة المعقدة للشخصية الفردية نجد ان الإنسان الاتكالي لا يعمل جاهدا على تحقيق الكثير من حاجياته فتكون ساكنة في المدارات العليا ليس لعدم رغبته بها ولكن بسبب تأثير الإرادات الداخلية مما تخلق منه كائنا اتكاليا،

وإذا ما توفرت له الظروف الموضوعية فنجد ان تلك الحاجات تقفز إلى المدارات الواطئة بسرعة فائقة، إذاً وجود تلك الحاجات في المدارات العليا لا تعني بالنسبة إلى مثل هذا الشخص سمواً، بالرغم من انه ربما يكون اقرب إلى السمو منه إلى الدنو.

ان موقع الحاجة في مدارات حب الذات لا بُدَّ ان تكون مصحوبة بخبث (دنو إنساني) أو خير (سمو إنساني) لذلك يكون الشخص هو المسؤول وهو الطالب وهو العامل على ذلك التغير، فبعضهم يقبل بقليل من الخبث والآخر لا يهمه عظم الخبث، وهنالك من يريد القليل من السمو وآخر يريد ان يصل إلى قمة السمو الإنساني.

وبما إن الإنسان يكون مدفوعا بمدى تعلقه بحاجاته فان التحول بالشخص من الخير إلى الشر أو العكس ليس مرهونا بالانتقال المداري لحاجة واحدة فحسب، فربما يكون مرتبطا بأكثر من حاجة وبالتالي عملية التغير هذه تكون ذات مردودات كبرى، ان المواقع المتبادلة بين المدارات تلعب دور إضافيا في هذا التحول، فمثلا الانتقال من مدار الانحطاط الجزئي إلى مدار الانحطاط يكون سببا في دنو أعظم مما يكون عليه إذا ما كان الانتقال من مدار السمو إلى مدار السمو الجزئي.

ان الحاجات هي أشياء مادية موجودة في الطبيعة، أما بالنسبة الى الإنسان فيمكننا ان نمثلها بفراغات يسعى الإنسان إلى ملئها، فالإنسان عندما يريد ان يملأ تلك الفراغات يأخذ من ما توافره له الطبيعة أو الحياة من تلك الحاجات، ان حجم تلك الفراغات لن يكون إلا بيد الإنسان نفسه فهو الذي يكبرها أو يصغرها، فهنالك من يقدر على ان يجعل تلك الفراغات كبيرة جدا بحيث تستوعب كميات كبيرة جدا من تلك الحاجات أو صغيرة جدا بحيث تكتفي بكميات قليلة من تلك الحاجات.

ان وجود الحاجات في الطبيعة أو الدنيا تعمل كعامل أو دوافع للإنسان لطلب تلك الحاجات، هنالك الكثير من المغريات والدوافع التي تكبر من تلك الفراغات وبالتالي تحث على طلب المزيد من تلك الحاجات.

العلاقة بين الحاجات والدوافع ونتيجة تفاعلهما

يقول المثل الانجليزي: «إذا أردت ان تعرف حقيقة الإنسان فأعطه مالا وسلطانا». إنهما حاجتان لو امتلكت الشخص يمكن ان تحوله إلى وحش مفترس، نقرأ على مر العصور التاريخية، عن تأثيرهما في من يمتلكانه فنجد ان هنالك أبناء قد قتلوا آباءهم من اجل المال والسلطان، ونجد آباء قتلوا أولادهم من اجل هذا وكذلك الحال بين الإخوة، إنها وقائع تاريخية موثقة ووقائع حاضرة شاخصة في أيامنا هذه.

ان ذلك الخبث الناتج من انتقال تلك الحاجات من مدارات عليا إلى مدارات واطئة تؤدي بالأخ أو الأب أو الابن ان يقتل أو يعزل أخاه أو أباه أو ابنه.

اسرد في ما يأتي أمثلة لما يمكن ان يحدث عندما يتحول الإنسان من حالة إلى أخرى بسبب التنقلات المدارية في حاجاته، لكي استعملها في شرح هذا الإنموذج:

١ ـ الانتحاريون الذين يلبسون الأحزمة الناسفة:

ان الغالبية العظمى من البشر تعد الحياة اثمن شيء تملكه، ولكننا نقف مشدوهين وغير مصدقين ومتحيرين من أمر أولئك الانتحاريين الذين يقتلون الناس وفي الوقت نفسه يقتلون أنفسهم، فما علة هذا الأمر؟ وكيف يمكننا تفسير مثل هكذا تصرف؟

يصنف علماء النفس[٣٠] التضحية بالنفس (الايثار) على ثلاثة اصناف:

الاول: الإيثار الاجباري: وذلك بسبب وجود الاكراه والقسر المسلط على الإنسان، نرى مثل هذا النوع عند الاشخاص الذين يعانون من الظلم والاستبداد.

الثاني: الإيثار الاختياري: وذلك لدفع العار عن النفس، ونرى مثل هذا عند التجار الذين يعلنون افلاسهم او السياسيين الذين تلاحقهم فضائح سرقة او غش.

الثالث: الايثار الفطين: وذلك بسبب تعلق الإنسان بعقيدة اساسية في حياته ونراها مثلا عند الانتحاريين الذين يعتقدون أنهم ينصرون عقيدتهم، ونراها عند المؤمنين الذين من عمق ايمانهم بدينهم يضحون انفسهم من اجل الاخرين نتيجة لذلك الذوبان بالعقيدة.

ومهما يكن السبب فإن الحياة اثمن ما يملكه الفرد والتضحية بها وبكل هذه السهولة لا بُدَّ ان يكون له مردود وبديل أفضل واثمن، اما خلاف ذلك فلا يمكن تصديقه او تعليله لأن أي إنسان (ومهما قل او زاد ذكاؤه ومهما وصل به السمو او تدنت انسانيته) يمكن ان يقبل بالتضحية بنفسه من دون مقابل. ففي مثل هذه الحالات لا بُدَّ من ان تنشأ أو تنمى حاجة في ذلك الشخص تفوق أهميتها على أهمية الحياة. فعندما تهول القضية وتؤكد وتستمر وتتصاعد تكون الاستجابة لها حاضرة[٣١]. ان هذا هو ما يفعله محرضو ومشجعو وقادة هذه المجاميع الإرهابية، فهم يشحنونهم ويدفعونهم إلى حاجات يصورونها لهم على أنها في غاية الأهمية وتتفوق على أي حاجة أو رغبة أو حب حتى تكون أهم من الحياة نفسها، وعندما تصل بهم الحالة إلى هذا الحد تجعلهم يقدمون حياتهم ضحية لتلك القضية وهم على اسعد حال مما يمكن ان يكونوا عليه.

إنا قلت: ان الإنسان مدفوع للعمل بما يرغب به، وإذا ما فرض عليه امر فان استجابته تكون على أساس أي الاحتمالات المتوافرة أمامه هي الأكثر ملاءمة له من حيث مقدار اللذة التي يجنيها أو الألم أو عدم الراحة التي ستنصب عليه، ان اختياره لا بُدَّ ان يكون متوافقا مع إرادته، ان مدى تأثير الاخرين في الشخص في هذه المسألة حاله حال التنويم المغناطيسي فهنالك أفراد ينامون بسهولة وآخرون بصعوبة أو لا يصلحون للتنويم، لذلك هنالك من يكون مادة سهلة للتخريض وآخرون أصعب، وهذا يعتمد على مدى استعداد ذلك الشخص لتقبل ذلك الدفع.

ونرى ذلك جليا أيضا في المساجين السياسيين، لقد قطع البعثيون الشيوعي سلام عادل قطعة قطعة ووضعوا الملح في جروحه من اجل ان يعترف على رفاقه، فقضى ولم يعترف، ولكن كان هنالك شيوعيون قد اعترفوا و توافقوا مع حزب البعث بمجرد تعذيب بسيط.

فالشخص الذي لا يحلم بان تكون عنده زوجة بسبب فقره أو قباحة وجهه أو وضاعة نسبه أو أي سبب آخر ثم يأتيه من يثق به ويؤمن بكلامه ويقول له ان الجنة فيها الحور العين ويصف حلاوة وجمال ورقة وعذوبة صوت وطاعة أولئك الحور العين لمن يدخل الجنة، ويقول له بأن بمجرد دخولك الجنة (ومن دون حساب) ستتقاطر عليك الحوريات بالعشرات كل اثنتين معا، فيدفعه ذلك إلى طلب الموت اليوم قبل غد.

ويأتي اليوم الموعود الذي ينتظره بفارغ الصبر ويقول له شيخه: ان الفرصة قد حانت لك وإن الحور العين في الانتظار فلا تدعهم ينتظرون طويلا... لقد أتته فرصة لا بُدَّ ان يستغلها قبل ان يفوت الأوان ويخسر الدنيا والآخرة، فلا هو يفكر بمن يقتلهم ولماذا يقتلهم وما ذنبهم ولا الذي يحفزه

يقول له لماذا إلا أنها تدخله الجنة، ويموت وهو معتقد بأنه قد عمل خيرا وانه سينال جزاء ذلك خير الجنة ولذة الزواج من الحور العين، أما ما يترك وراءه من دمار وترمل وتيتم وموت فلا يهمه ذلك بشيء.

لو أردنا ان نبحث عن نوعية الحاجة التي دفعته إلى مثل هذا العمل الشنيع لوجدناها هي حاجة "الأمان" أو الحاجة الجنسية أو ربما تكون حاجة التملك، فهو يفتقد كل واحدة من هذه الحاجات، أو ربما نجد عند انتحاري آخر ان شعوره بالخوف والتهديد من عدو حقيقي أو خيالي بحسب ما يصوره له ذلك الشيخ ليكون دافعا له للقيام بمثل هذا العمل من اجل (بحسب اعتقاده) بأنه يحمي من ينتمي إليهم ويحبهم ويخاف عليهم من ذلك الخطر.

ولو بحثنا في أسباب التصرفات غير المقبولة أو المرفوضة من المجتمع سنجد ان كل شخص يتصرف بطريقة خاطئة أو مضرة بنفسه أو/و بمجتمعه يكون ربما مدفوعا بسبب الحاجات التي ذكرناها في الفقرات السابقة أو بحاجات أخرى. فالمدمن على المخدرات بكل أنواعها ربما يكون مدفوعا بالحاجة إلى الأمان، فهو يعتقد ان إدمانه على المخدرات تبعده عن واقع غير مرض له فيبعده ذلك المخدر عن مجالات الحياة البائسة التي ربما يعيشها، فالمخدرات تساعده على تقليل آلامه ومعاناته، أما من يقدم حياته من اجل قضيته فربما يكون مدفوعا برغبة ان يخلد التاريخ اسمه.

ان نقل تلك الحاجات من المدارات العليا إلى المدارات الواطئة فضلاً عن الإرادات المحرضة تحفز ذلك الشخص إلى عمل ما مطلوب منه، وان شدة الارتباط الذي يحصل له مع تلك الحاجات تكون سببا ودافعا ذاتيا لذلك الانتقال والتحول. فهو لا يسمع ولا يعي ولا يقبل أي حجة أو قضية

يمكن ان تجعله يعدل عنها ومهما كانت قوة المعارضة من الإرادات الأخرى سواء كانت اجتماعية قانونية أم أخلاقية أم أي إرادات أخرى.

ان الانتماء إلى مجموعة تفكر بالأسلوب نفسه وعندها التطلعات انفسها يقوي من تلك القناعة ويكون عاملا مشجعا إضافيا لها، فهو ومن داخل الجماعة يكوّن لنفسه قناعة ثابتة لا يزحزحها من مكانها احد، فيعمى عن رؤية الصواب لان الحقيقة بالنسبة اليه هي ما يراها هو وما تؤيده الجماعة ، وعند ذلك (وفي تصوره) يكون قد عرف الحقيقة من كل أوجهها، فإيمانه بها لا يزحزح. ووجوده مع تلك المجموعة يشد من عضده ويثبت إقدامه، فنجد ان الإرهابي الذي يذبح إنسان ويسمع من مجموعته صيحات التكبير فان ذلك لا يزيده إلا تصميما وعزما ولا يزيده إلا قسوة وانحطاطا.

ان الانتحاري إذا ما اعتقد ان الانتحار بتفجير نفسه وسط الناس عمل صحيح، عند ذلك لا تهمه معارضة المجتمع واستنكارها لعمله، فربما تصل به القناعة إلى ظنه بأن المجتمع كله على خطأ وضلالة والحق معه فحسب ومع مجموعته... فهم أصحاب الحق ولا احد سواهم يملك الحقيقة.

ان أمثال هذا الشخص موجودون في المجتمع وليس بالضرورة على شكل إرهابيين، فهنالك أناس يضحون بحياتهم من اجل قضية يؤمنون بها، فربما بعملهم هذا يخالفون المجتمع والعرف الاجتماعي وحتى العقائدي والقانوني ولكن مع هذا ينفذون ما يريدون من تضحية بأرواحهم من اجل تلك القضية، وليس بالضرورة ان تكون قضيتهم قضية عامة فربما تكون قضية شخصية.

لا بُدَّ لنا هنا ان نتساءل عن مصير الحاجات الأخرى وتأثيرها في ذلك الانتحاري فنقول: أين هن؟ ولماذا لا يظهر تأثيرها في أولئك الإرهابيين؟

فنجيب: ويكون الجواب مصداقا لأنموذجنا، بالتأكيد هنالك حاجات وبالتأكيد لها أهمية في حياة ذلك الانتحاري ولكنها لا بُدَّ ان تكون في مدارات عالية وعملية التضحية بهن عملية سهلة التحقيق بسبب ضعف طاقة شدها للنفس، أما إذا كانت هنالك حاجات مشدودة بقوة إلى ذلك الإنسان فربما تعمل مجتمعة على تغيير قراره وربما هو يغير رأيه من تلقاء نفسه وفي آخر لحظة وقبل تنفيذه لمهمته، ان الحاجة أو الحاجات التي تدفع بذلك الإرهابي إلى تنفيذ مهمته لا بُدَّ من ان تسلب منه إنسانيته بسبب انبعاث ذلك الخبث.

ان ذلك التخلي عن الإنسانية ومهما كانت الدوافع والحاجات والقضية التي يؤمن بها الفرد لن يكون امرا سهلا يسيرا أبداً. ان كل من يريد ان يعمل عملا غير إنساني ويجلب ضررا لفرد أو افراد لا بُدَّ ان يعاني من معارضة داخلية (سنتكلم عليها لاحقا) أو معارضة اجتماعية مما تسبب ترددا أو ندما وربما تكون من القوة لكي تجعله يتوقف عن ذلك العمل، أو ربما ينفذه فيندم ولا يعمله مرة أخرى وربما يعمله فيندم ولكن يعمله مرة ثانية، وكلما كرر العمل مرات أكثر يتطبع به وتصبح طبيعية ولا يجد فيها حرجا أو مشكلة أو صعوبة في التنفيذ.

ان نتيجة تراكمات الحاجات سواء كانت متساندة أم متضاربة (الجنس والدين مثلا) مع بعضها لا بُدَّ لكلها مجتمعة من ان تسود، ان الحاجة أو مجموعة الحاجات التي تسقط إلى المدارات الواطئة لا بُدَّ لها من ان تسود على الحاجات التي تسكن المدارات العليا وذلك بسبب قوة سيطرتها على الإنسان، وبالتالي تنتج أكثر قدر من الخبث، كلما كانت شدة الارتباط بين الحاجة أو الحاجات قوية مع الشخص كلما كانت القوة التي يحتاج اليها

الشخص للتخلص من ذلك الشد القوي وبالتالي تقرر مقدار عبوديته لتلك الحاجات وما تجلبه تلك العبودية من خبث.

ان عملية تحرير النفس من قوة شدّ تلك الحاجات تتطلب طاقة كبيرة وجهدا كبيرا يتناسب طرديا مع قوة شد الحاجات إلى ذلك الإنسان. فمتى ما تمكن من تحرير نفسه من ذلك الشد ومتى ما تمكن من نقل تلك الحاجات من المدارات الواطئة إلى المدارات العليا كلما تخلص من عبوديته لها وبالتالي يرتفع سموا وينتج منه خير بدلا من الشر.

وعندما تكون الحاجات جميعها في مدار السمو، يوصل ذلك الإنسان إلى قمة الوجود الإنساني فيقول للدنيا كما قال لها علي ابن أبي طالب عليه السلام: « يا دنيا إليك عني أبي تعرضت أم بي تشوقت هيهات هيهات لا حان حينك غري غيري لا حاجة لي فيك قد أبنتك ثلاثا لا رجعة لي اليك فعمرك قصير، وعيشك حقير وخطرك يسير»[٣٢] لأنه سما فأصبحت حاجاته حاجات بقاء ليس إلا، فتحرر من الدنيا وعبدَ اللهَ كما يجب ان يعبد.

وإذا أخذنا مثالا آخر لأناس ينتحرون بسبب مرض عضال يؤثر في نوعية الحياة أو ينتحرون لقسوة الزمان عليهم، فلا بُدَّ لنا من ان نعلل ذلك بحسب هذه الأنموذج فنقول (نسبة إلى مثل هكذا مريض) لا بُدَّ من ان تكون الحاجات التي فقدها بسبب مرضه هذا هي في غاية الأهمية بالنسبة اليه وفقدانها تجعل فقدان الحياة أهون وطأة واقل ضرر؛ لأنه يعتقد بأن الحياة لا قيمة لها من دونها، والتعليل نفسه يمكننا ان نفسر به السبب في إقدام احد على الانتحار بسبب قسوة الزمان عليه مثلا.

يقال وفي زمن صدام وفي أثناء الحصار الاقتصادي، كان هنالك رب أسرة فقد كل شيء، باع كل ما عنده في البيت ولم يكن يملك قوت يومه،

ومن حرصه على شرفه وكرامته وكرامة أهله اشترى سمكة وسممها وأطعمها لعائلته واكل منها لكي يتخلص من تلك الحياة القاسية غير المشرفة.

وإذا أردنا ان ندخل في المجال الإسلامي الإيماني العقائدي يمكننا شرح الأنموذج من آية الكرسي(٣٣)، يقول عز من قائل: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

تدل هذه الآية على ان الإنسان غير مجبر على الاختيار وإنما هو مخير، إذ فُتحت عينيه وقلبه على الخير والشر والحق والباطل فله الخيار في ان يجعل مساكن حاجاته في أعلى المدارات أو أوطئها وعليه وعلى المجتمع تبعات ذلك السكن، ثم تنتقل الآية إلى نقطة أخرى فتضع شروطا أو خارطة طريق للحياة ضمن الاختيارات الشخصية فتقول: ان نتيجة الإيمان بالله هو التحرر من عبودية الحاجة على ان تكون مشروطة بمصاحبتها بالكفر بالطاغوت وعدم إطاعته، فبذلك يكون التحرر كاملا، فهما حريتان الاولى الحرية من الحاجات والثانية حرية من الدوافع التي تعظم تلك الحاجات، ومن يكن تحرره كاملا يصل إلى قمة السمو الإنساني مما يجعل انحداره بإنسانيته أمرا صعبا عسيرا.

وتستمر الآية فتقول من تحرر فانه قد انتقل من ظلمات الحاجة والدوافع لتلك الحاجة إلى نور السمو الإنساني، ومن يبقَ على عبوديته

للحاجات والدوافع ينحدر في ظلمات اللا إنسانية، ومن ينحدر في تلك الظلمات فخسرانه كبير ومأواه جهنم وبئس المصير.

ان عملية السيطرة الكاملة على كل الحاجات وتطويعها لكي تسمو إلى أعلى مداراتها يبدو (لمن لا يريد او لا يسعى لذلك السمو) امرا صعبا جدا وليس كل إنسان قادرا عليه، ان الدلالات تؤكد عكس ذلك فهوغير مستحيل بدلالة وجود أناس كانوا مثلاً أعلى للإنسانية وهم الأنبياء والصالحون، ان وجود مثل هؤلاء البشر الذين لهم حاجات تشابه حاجات كل البشر وبرغم ذلك نجحوا بالسيطرة على تلك الحاجات وكذلك تفوقوا على كل الدوافع لدرجة جعلتهم يسمون على الغالبية العظمى من البشر. إذا دل ذلك على شيء فإنما يدل على ان تحقيق هذا السمو ممكن متى ما أراد الإنسان ذلك.

دائما كان عبيد الأصنام يسألون الأنبياء عن سبب عدم إرسال الله لهم ملائكة رسلا بدلا عن إرسال بشر رسلا، وكان الجواب دائما ذا شطرين:

الأول: إنكم لستم ملائكة، لكي يرسل الله لكم أنبياء فلا بُدَّ ان يرسل لكم أناسا من طينتكم يتألمون كما تتألمون ويفرحون كما تفرحون ويحزنون كما تحزنون، ما يسؤكم يسؤهم وما ينجيكم ينجيهم، أناس لهم كل خصائصكم ولا يختلفون عنكم في شيء خلقيا ولا يختلفون عنكم في حاجاتهم.

والثاني: إنهم أناس برغم كل التشابه بينكم وبينهم تمكنوا من ترك كل الحاجات إلا الضرورية منها ولم يزيدوا على القدر الأدنى من تلك الحاجات، فهم قد اكتفوا بالقدر الذي يبقيهم أحياء وقادرين على أداء الأعمال المناطة بهم كبشر وكأنبياء مختارين من الله، فإذا تمكنوا من تحقيق

ذلك السمو فمعنى ذلك ان كل واحد منكم يستطيع ان يحقق ذلك السمو، ولن يكون ذلك امرا صعبا. ان الفرق بينكم وبينهم إنهم تمكنوا من حاجاتهم وتمكنوا من المغريات الدنيوية فسموا ولكم ان تسموا مثلهم ان أردتم ذلك.

لم يحصل على شرف هذه النبوة إلا من تمكن من محاربة حاجاته فتحرر بذلك من عبوديتها وتحرر من سيطرتها لكي يتفرغ لما هو مبعوث له.

تذبذب الحاجات في مدارات حبّ الذات

ليس كل البشر سواءً في تعاملهم مع الحاجات، وليسوا كلهم متساوين في درجة التعظيم لتلك الحاجات، ان ذلك التعظيم يمكن ان يكون متغيرا بتغير الزمن ولا يبقى ثابتا طوال الحياة، فهنالك احتمالية تذبذب الحاجات في مداراتها، ان ذلك التذبذب يعتمد على نوع الحاجة ومكانها في مدارات حب الذات. فالحاجات التي تجلب الكثير من اللذة أو الراحة والساكنة في مدار الانحطاط مثلا يكون تذبذبها أصعب من الحاجات الساكنة في الانحطاط الجزئي أو السمو الجزئي.

وهذا الأمر يبدو جليا جدا عند أصحاب رسول الله محمد ﷺ، فمما لا شك فيه أنهم قد ناضلوا وقدموا الغالي والنفيس من اجل نصرة الإسلام، ولكن مع ذلك نجد ان ذلك التذبذب واضحا في بعض ممارساتهم، ففي سورة الجمعة(٣٤) تقول الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

ففي هذه الآية يبين الله عز وجل ترك اكثرية الصحابة لمسجد رسول الله ﷺ وتركهم له وهو قائما بمجرد ان وصول تجارة أو لهو، فهم لم يروا ضرا بذلك فهم مؤمنون وهم على دين محمد ﷺ وسنته ولكنهم آثروا تركه قائما لكي لا تهرب منهم الفرصة، ورأوا ان لا بُدَّ لهم من ان يلحقوا بتلك التجارة أو اللهو قبل ان ينتهي وتفوتهم الفرصة، ان هذا يظهر تذبذب صغير واضح في أولويات تلك الحاجات.

ويدخل أصحاب الرسول في حروب طاحنة مع قريش ويعرفون ان هنالك احتمالية الاستشهاد ولا يبالون... ولكن في يوم الخندق[٣٥] عندما عبر عمرو بن ود العامري الخندق وتحدى المسلمين للقتال بقوله: « تقولون ان من يقتل منكم يذهب إلى الجنة فتعالوا إلي ونازلوني لأرسلكم إلى الجنة» ولا مجيب، فيدعوهم رسول الله ﷺ لنزال ذلك الكافر ويقول لهم: «من ينازل هذا الكافر اضمن له عند الله الجنة» ولم يتحرك احد...

نتساءل كيف لأولئك الصحابة الذين لم يتوقفوا عن مقاتلة العدو في الحروب السابقة، يخافون ويتخلفون عن مقاتلة هذا المقاتل برغم ان رسول الله ﷺ يضمن لهم الجنة، لماذا هذا التهاون في طلب الشهادة وهي واحدة (في سوح القتال أو في منازلة عمرو)؟ لا نجد إلا عذرا واحدا إلا وهو ان القتال في المعارك هو بين فريقين ويكون عند كل مقاتل منهم دافعان اثنان الأول وجود الجماعة يشجع ويرفع درجة الحماسة والثاني ان هنالك نوعا من الضمان في السلامة لأنه محاط بأصحابه فيحمي بعضهم بعضا، أما في حالة منازلة عمرو فإنه أمام عدو ارتعد منه كل العرب فهو عدو قوي قاتل للأبطال، وبكلمة أخرى ففي الحالة الأولى ان فرصة النجاة فيها أعلى من فرصتها في الحالة الثانية ألا وهي منازلة عمرو التي تعني الموت المحقق.

برغم كل المعجزات التي حققها نبي الله موسى عليه السلام أمام أعين بني إسرائيل التي كانت لا بُدَّ ان تؤدي بهم الى ان يثقوا ثقة عمياء به وبدينه

ولكنهم وبمجرد ان غاب عنهم تركوا عبادة الله، إله موسى (الذي أخرجهم من ظلم فرعون وقهره وحولهم أحرارا لكي يعبدوا الله وحده) ليرجعوا إلى عبودية الأصنام. السبب في ذلك ربما يكون بسبب حاجة التملك التي ربما امتدت إلى حتى تملك الإله الذي يجب ان يعبدوه، ليس هذا فحسب ولكن ربما كانت صناعة ذلك الاله من الذهب الخالص علامة للقوة والسلطان، وبما ان عبودية الصنم عبودية شخصية فله ان يختار له صنما شخصيا يصوغه من شكل معين ومادة معينة ويسميها ربه فهذا الرب من اختياره وبإرادته وليس مفروضا عليه فله ان يصوغه بالطريقة التي تلائم مصلحته، وعلى هذا الاساس نقول: ان الإنسان هو صاحب القرار في ارادته وليس الإله الذي يعبده.

نتساءل هنا: ألم تكفِ كل براهين التي قدمها موسى عليه السلام لإثبات صحة نبوته، ومن أين إذاً أتى ذلك الشك عندهم؟ الجواب لا يمكن لمن رأى كل تلك المعجزات التي أرغمت فرعون الجبار إلى ان يتنازل لموسى عليه السلام ويتركه يغادر مصر هو وبنو إسرائيل إلا ان يؤمن بما جاء به موسى عليه السلام، ولكنا نرى ان العكس صحيح، إذاً لماذا عبدوا العجل؟ ان موسى عليه السلام وضع لهم قوانين غيبية تحد من حبهم لذاتهم وحبهم للحياة والتخلي عن حاجاتهم إلا ما يبقيهم إحياء، فلم يرق لهم ذلك؛ لأنهم قد شاهدوا وخبروا قيمة الوفرة في كل الحاجات فلم يكن فرعون بهذا الجبروت إلا بقوته الاقتصادية والعسكرية فلا بُدَّ ان يعظموا تلك الحاجات لكي تؤهلهم ليعيشوا حياتهم كفرعون.

وبرغم كل المعجزات الذي عملها عيسى عليه السلام؛ خانه احد حوارييه ببضعة دراهم، لماذا لأن الدراهم وحب الذات أهم من حبه لله وحبه

لعيسىعليه السلام. فنزلت به المنفعة من المدارات العليا إلى المدارات السفلى ونتج ذلك الخبث.

طغيان الحاجة وتأثيرها في الشخصية

لكي أبين تاثير الغلو في الحاجات وبالتالي تأثيرها في الإنسان في سعيه لتحقيقها، أضع مثالا عمليا للحاجات الإنسانية، دعني اخذ السيارة مثلا، ان السيارة تحتاج إلى الوقود من اجل ان تسير فتحتاج إلى لتر واحد لكل عشرة كيلومترات تقطعها، ولو افترضنا ان صاحب السيارة يستعملها لتسير ١٠٠ كيلومتر في اليوم فلا بُدَّ ان يملأ السيارة بما يكفي من الوقود لكي تكمل هذا الكيلومترات المطلوبة، إذا تحدد بهذا العدد من الكيلومترات فعليه ان يضع خزان بنزين يسع لعشرة لترات، ويملأه يوميا، ان هذه العشرة تقضيه ذلك اليوم ولا يحتاج إلى غيرها، ولكي يبدأ يومه التالي فلا بُدَّ له ان يملأ الخزان عشرة لترات أخرى.

فإذا وجد المالك ان ملء الخزان يوميا غير مريح ويفكر ان يكبر الخزان ليكفيه أسبوعا كاملا، ان ذلك سيتطلب منه تكبير الخزان، ان هذا التكبير سوف يؤدي إلى تقليص جزء من حجم السيارة المتاحة لكي تفسح المجال لتلك الإضافة.... وسوف تضيف ثقلا جديدا يحتم على المحرك ان يعمل أكثر من اجل تحمله وبالتالي صرفا لطاقة إضافية، ان تلك الزيادات لم تفرضها الخدمة اليومية للسيارة ولكن فرضتها مغريات تسهيل الأمر فبدلا من ملء الخزان يوميا أصبح مثلا أسبوعيا، ان هذا التغير لم يكن من دون مقابل فهنالك صرف إضافي للطاقة لا حاجة لصرفها، وهنالك ضياع في حجم السيارة لا داعي له، مقابل ذلك حصل على تسهيل أمر الاستخدام.

ويأتي شخص أخر ويقول حسنا حاجتي هي ١٠٠ كيلومتر باليوم ولكني أريد سيارة تسير بقوة اكبر فتسير بسرعة أعلى فبدلا من الحاجة إلى عشرة لترات يوميا تصرف السيارة الجديدة اثني عشر لترا يوميا، ويأتي شخص آخر ويقول: أريد سيارة اكبر واقوى وأفخم.

كل واحدة من تلك التغيرات للحاجة الأساسية تضيف حاجات مصطنعة جديدة تحتم على أصحابها البحث عن مصادر تمويل لتلك الحاجات الجديدة ما يعني بالتالي ان هنالك تزايدا مضطردا بتعلقهم بتلك الحاجات وبالتالي لا بُدَّ من البحث على مصادر تمويل لتحقيق تلك الحاجات.

وعلى نقيض هذا من يدرك ان الحاجة هي سيارة تنقله ١٠٠ كيلومتر يوميا على ان يملأها يوميا وبالطاقة المتوافرة يمكن ان يؤدي الغرض نفسه من دون الحاجة إلى اتباع طرائق تفرض عليه استهلاك المزيد من اجل الحصول على تخمة لا مردود لها على الغرض الرئيس من امتلاك السيارة.

ان ذلك التزايد في طلب الحاجات مدفوع بمغريات، وفي هذه الحالة تسهيل الحياة أو المباهاة، ولم يحسب حساب للتبعات التي يمكن ان تتولد من تلك الزيادة، فلقد أضافت حاجات جديدة أخرى، وبدلا من تكون ميزانية تشغيل السيارة في الحالة الأولى مثلا ١٥ دولارا بالأسبوع ازدادت لكي تصل ربما إلى ٢٠ دولارا بالأسبوع..

ان الطبيعة البشرية وحب الذات تلعب دورا مهما في الاتجاه الذي يسير به الفرد، فهنالك أقلية ترضى بالقليل ولا تعمل على زيادته ولكن أكثرية البشر يعملون من اجل الحصول على التخمة. فهنالك أناس يجمعون السيارات كجمعهم للطوابع لا لحاجة يقضوها في يومهم ولكن كزينة،

وهنالك أناس عندهم سيارات فخمة من نوع خاص مثلا رولزرويس، ومنهم لا تكفيه سيارة واحدة فإذا ما اشترى جاره سيارة بلون لا يملكه هو فلا بُدَّ ان يشتري هو السيارة نفسها وباللون نفسه، بل طغى بعضهم إلى درجة ان صنعت له سيارة من الذهب الخالص.

ان أصحاب القرار في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية هم النخبة التي تملك المال أو السلطة والقوة العسكرية أما بقية الناس فإنهم (بالمقارنة) لا يملكون شيئا، في احصائية عن توزيع الثروات في الولايات المتحدة سئل ٥٥٢٢ اميركيا عن تصوراتهم في نسبة توزيع الثروات بالولايات المتحدة، لقد طلب منهم ان يقسموا المواطنين الاميركان على خمس طبقات لتمثل كل طبقة ٢٠٪ من الشعب الاميركي، فتتدرج لتكون الـ٢٠٪ الاولى الاغنى والـ٢٠٪ الاخيرة الافقر. فكان نتيجة هذا الاستفتاء (بحسب تصور المستفتين) ان الـ٢٠٪ الاولى تملك ٥٩٪ فحسب، وقالوا ان من العدل ان تلمك تلك الـ٢٠٪ ليس ٥٩٪ وانما ٣٢٪. لم يكن يعرف هؤلاء المستفتون حقيقة الامر الذي هو ان هؤلاء الـ٢٠٪ يملكون ٨٤٪ من ثروات الولايات المتحدة. ان هذا التناقض بين الحقيقة وبين تصور الناس سببه الاعلام المضلل الذي هو مملوك من الاغنياء من تلك الشريحة الاغنى(٣٦).

ولأن القوة بيد هؤلاء الأقلية فإن كل ما بقي يسير بحسب رغبة وإرادة تلك الأقلية، فرغبة تلك الأقلية تدير موازين الأمور لكل المجتمع وهذا ليس بدواعي الحاجة الإنسانية الى تلك الأقلية ولكن بدوافع المزيد من الحاجات المصطنعة التي تحتمها التخمة في طلب الحاجة. فتنتقل الحاجة من المدارات العليا إلى المدارات الواطئة، وعندما تصل إلى مدار الانحطاط يكون كل شيء مشروعا لتحقيق الطموح حتى ولو كان الظلم والقتل.

ان هذا الوضع ليس قاصورا على مجتمع معين او دولة معينة او زمان معين، فأصحاب القوة والسلطة والهيمنة الاقتصادية تعمل ما تشاء من اجل تحقيق المزيد من الحاجات والاغلبية مغلوبة على امرها لا تدري ما حقيقة الامور، وفي هذا المجال يقول علي الوردي[٣٧] واصفا حالة الناس في عهد معاوية ابن أبي سفيان: «فالعامة لا تعرف ماذا يجري... ولكن يتبعونهم أي القادة ويأتمرون بأوامرهم». كان الذين دعوا الحسين للتوجه إلى الكوفة هم قادة أهل الكوفة ووجهاءها أي أصحاب الحل والعقد. وعندما وصل مسلم بن عقيل صلى وراءه هؤلاء القادة وبالتأكيد العامة اتباعا لقادتهم وكان تعدادهم يعد بعشرات الآلاف، ولكن لما تخلى هؤلاء القادة عن مسلم تبعهم بقية العامة إلى ان ترك وحيدا فريدا يدور في أزقة الكوفة ولا يعرف طرقها ولا يجد مكانا يأوي إليه، فبالنسبة إلى العامة المسألة ليس مسألة دين أو إيمان ولكن مسألة عصبية قبلية أو طموح بنصرة الغالب ولما تنقلب الأمور تراهم يهربون.

وفي مكان آخر يقول[٣٨]: «لقد استرضى معاوية الرؤساء واشترى دينهم فترك العامة معسكر علي بن أبي طالب عليه السلام إما إلى بيوتهم أو إلى معسكر معاوية حيث المال والجاه، وقيل لعقيل بعد ان منعه علي عليه السلام من العطاء وأغدق عليه معاوية، أي الحياتين احلى مع علي أم مع معاوية، فقال ان الدنيا احلى مع معاوية ولكن الآخرة أفضل مع علي».

ان عليا عليه السلام يقول[٣٩]: «ان الحق واضح والباطل واضح. وهو يكاد يراهما رأي العين. لكن الناس في الغالب يتحيزون في رؤية الحق والباطل من حيث لا يشعرون».

كان عبيد الله بن العباس (وهو ابن عم الحسن قتل معاوية ثلاثة من أولاده)[٤٠] قائدا لمقدمة جيش الإمام الحسن عليه السلام وكان بالتأكيد متحمسا لقتال معاوية في الأقل ثأرا لأولاده الذين ذبحهم بسر والي معاوية[٤١] ولكن ما ان دفع له معاوية الدنانير حتى ترك ليلا معسكر الحسن عليه السلام... وفي الصباح استيقظ الجند والمعسكر من دون قائد. ما الذي دفعه إلى هذا غير شدة تعلق ابن العباس بالمال الذي تعدت أهميته حدود صلة القربى مع الحسن عليه السلام وتعدت حدود الثأر لأجل أولاده والإيمان بالحق، فلقد أنساه المال الأولاد وصلة القربى والحق وأرضاه بالباطل.

اما الوجه الآخر للانسان فيمكن ان يمثل بأبي ذر الغفاري[٤٢] الذي عاش فقيرا ومات فقيرا لا يملك من الدنيا شيئا، ليس لعدم تمكنه من الحصول على المال ولكن لإرادته بالتخلي عن الحاجات الفائضة. وإذا ما تطور المجتمع الإنساني ليكون أبو ذر مثلا له لتحول الى مجتمع إنساني مثالي يكون كل افراده مكتفين فالكل يأكل، والكل يسكن، والكل يشرب لأن في الأرض خيرات لا تنضب.

أما في المجتمعات البشرية اليوم فالاقتصاد العالمي بيد النخبة المتخمة والبقية لا يجدون إلا الفتات.

تدور الحروب والصراعات من اجل ان يستولي الأقوى على كل شيء ويتصدق بما يشاء لمن يشاء بما يشاء، كل ذلك من اجل ان يعيش القوي بملايين المرات أكثر مما يحتاج لغرض العيش فحسب ويترك الفقير لا يجد قوت يومه ولا ما يسد رمقه.

في واقعنا الإنساني الذي نعيش فيه نرى ان الحق بيد القوي، فيكون حيث يكون القوي وليس عكس ذلك، فالقوة والسلطة تعطي بعضهم القدرة

على إثبات مشروعية أعمالهم وفي أي وقت وأي زمان، فهم وربما بسبب التخمة في الحاجات يتصورون انهم اصحاب الحق لأن حاجاتهم أكثر من حاجات الآخرين فبالتالي ان من حقهم الحصول على المزيد من تلك الحاجات حتى ولو كانت على حساب نقصان حاجات الآخرين، ونتيجة لذلك لا بُدَّ من ان يزيدوا من قوتهم وقدراتهم ولا يسمحوا لأحد ان يزيد من قدراته لكي لا يكون منافسا شرعيا لهم وينافسهم في طلب المزيد من الحاجات كما ونوعا وهم بذلك يعتقدون بأنهم يدافعون عن الحق.

عندما تصل الأمور بالإنسان إلى حالة من الغرور ليتصور ان الحق معه في كل ما يقول وما يفعل وما يعتقد فلا تبقى له حدود تحده في ظلمه وطغيانه، كان احد رجال بني المهلب[٤٣] وهو من ارستقراطيي خراسان، قد مر على مالك بن دينار متبخترا، فقال: «اما علمت انها مشية يكرهها الله إلا بين الصفين؟» فقال المهلب: «اما تعرفني؟» قال: « بلى، اولك مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وانت في ما بين ذلك تحمل العذرة». فانكسر، وقال: «الآن عرفتني حق المعرفة».

ان في الكون ميزانا ينظم الحياة ومكونات الكون بعضها ببعض، ولو اقتصرنا ببحثنا على الأرض فحسب نجد ان هذا الميزان قد حفظ التوازن بين الكائنات الحية وغير الحية، هنالك توازن في كل الأشياء فالشعوب البسيطة مثل الاوبورجين في استراليا والهنود الحمر في الأميركيتين الشمالية والجنوبية كانوا يعيشون في توافق وتوازن مع الطبيعة فلذلك كان هنالك وفرة من كل شيء ولكل الكائنات الحية من بشر وحيوانات ونباتات وحتى الجماد. إلى ان جاء الإنسان العصري فاستغل الأرض أبشع استغلال وفوق قدرة الطبيعة على تحمل ذلك التغير مما أدى إلى اختلال في ذلك الميزان،

ان نتيجة ذلك نراه في الاستهلاك المفرط لخيرات الأرض وفي التلوث الكبير والمستمر للأرض فأصبحت قاحلة وماتت كثيرا من الأنهار وقلت الإمطار وكثر التلوث فأصبح الجو والأرض والماء والهواء أكثر تلوثا وسوف تستمر على هذا المنوال إلى نهاية هذا العالم، ان السبب في ذلك هو الغلو في طلب الحاجات سواء كان ذلك عند الإفراد أم المجتمعات أم البلدان. لقد فاق هذا الغلو قدر الأرض والطبيعة على تحقيق التوازن المطلوب لديمومتها، هنالك مجموعة صغيرة من الناس أو الدول ونتيجة اطماعهم وعدم اهتمامهم بذلك التوازن (ما دامت مصالحهم مؤمنة) يستغلون معظم خيرات الأرض وينتجون اكبر كمية من التلوث وعلى حساب العالم ومعاناته.

ان حب الذات والانجرار وراءها هو الذي يسبب ذلك الخلل وهو الذي سوف يزيد من الظلم والاستبداد وربما سوف يعم هذا الظلم وهذا الفساد الأرض كلها وبالتالي سوف تسوء الحياة على الأرض إلى درجة لا تطاق. ان ذلك الخلل سوف يدفع الإنسان إلى ان يكون مستعدا للتغير وتبديل ذلك الوضع. ومتى ما تبدل ذلك الوضع وينتهي حب الذات ويصبح كل شيء وكل الموارد الطبيعية مشاعة للكل تحدث السعادة لبني البشر ولكل سكنة الأرض من حيوان ونبات وإنسان.

ان الحاجات هي جزء مادي واحد من الشخصية، ولكن من دون الإنسان (الذي هو المالك للشخصية والذي يمثل الجزء المادي الاخر) ومن دون سعيه في طلب تلك الحاجات وعوامل اخرى سوف تناقش تباعا فلا وجود للشخصية. وفي الفصل التالي لا بُدَّ لنا من ان نفهم الإنسان نفسه ممّ مكون ومن يقوده؟

الفصل الرابع

الإنسان الجزء المادي الثاني والمالك الشرعي للشخصية

الإنسان الممثل الشرعي للشخصية

الجسد الممثل الظاهر للشخصية

الدماغ الممثل الباطن للشخصية

مقارنة بين ادمغة الحيوانات والانسان

وظائف فصوص مخ الإنسان

قسما الدماغ الرئيسان

العلاقة العضوية بين اجزاء دماغ الإنسان

العقل المخطط والموجه للشخصية

العقل النفسي

العقل الميتافيزيقي

القوالب والشخصية

القوالب صلة الوصل بين النفس والعقل

تأثير الإرادات الخارجية في القوالب

تفاعلات الإنسان التي تسهم في إبراز شخصيته

التفاعلات في بودقة واحدة لإنتاج الشخصية

الفصل الرابع

الإنسان الجزء المادي الثاني والمالك الشرعي للشخصية

ناقشنا في الفصل الثالث الحاجات التي هي الجزء المادي الاول للشخصية، وحددنا المدارات التي يمكن ان تحتلها كل حاجة في مدارات حب الذات، لكي نوضح مدى النبل والسمو أو الانحطاط والدنو اللذين يمكن ان ينتجا بسبب موقع تلك الحاجات في مدارات حب الذات، ان موقع الحاجات في تلك المدارات ينعكس في جملة التصرفات والقيم والمفاهيم للشخصية.

وهنا لا بُدَّ لنا من التكلم على الإنسان نفسه (الجزء المادي الثاني) الذي هو الممثل الشرعي للشخصية والمعبر الوحيد عنها، ان فهم مكونات الإنسان ووظائف وواجبات كل واحدة منها، ستساعدنا على فهم الطرائق التي يمكن ان يتعامل بها الإنسان مع جزئه المادي الآخر (الحاجات)، ليس ذلك فحسب، ولكن لكي نفهم طريقة تعامل تلك المكونات مع الجزء المعنوي من الشخصية (الإرادات الداخلية والخارجية والظروف المحيطة بالإنسان) فيبرز تصوراته ونتائجه على شكل شخصيته التي يقدمها للمجتمع.

الإنسان الممثل الشرعي للشخصية

التعبيرات والتصرفات والكلام والافكار الناتجة عن كل فرد ،هي المعبر الحقيقي للشخصية.

إن اجزاء الانسان الثلاث الاتية (الجسد، والدماغ، والعقل) هي التي تظهر الشخصية بكل جوانبها :

الجسد الممثل الظاهر للشخصية

ان خلايا الجسد على أنواع كل نوع يؤدي وظيفة خاصة به مما يجعل الأعضاء المتكونة من تلك الخلايا تؤدي وظائف مختلفة، هذا بالرغم ان كل خلايا الجسم تشترك بصفات عامة وهي أجمعها تحتوي على نواة وسايتوبلازم وغشاء خلية. فخلايا الجلد تؤدي وظيفة تختلف عن خلايا العضلات، وهي بالتالي تختلف عن الخلايا الحسية. ان خلايا الغدد الصم مثلا وبالرغم من أنها جميعا مشتركة بأنها خلايا تفرز هرمونات ولكن كل واحدة منها تفرز هرمونا مختلفا عن الآخر.

لذلك فان الجسد هو ذلك الجزء من الإنسان الذي يؤدي كل الأعمال الحيوية التي تبقي الإنسان على قيد الحياة، ليس ذلك فحسب وإنما تتعدى ذلك إلى خارج حدود الإنسان فبالقوة العضلية والهيكلية الجسمانية يستطيع الإنسان ان يبني ويعمر ويصنع وبالحواس يمكنه التفاعل مع محيطه الخارجي. ان وظائف الجسد الرئيسة يمكن ان تحدد بالآتي:

أولاً: وظائف لتسهيل المهام التي يقوم بها الإنسان من حركة وبناء وعمل، والجهة المسؤولة عن هذه الواجبات هو الهيكل العظمي والعضلات.

ثانياً: وظائف حسية لكي يعرف الإنسان مكانه ومحيطه الخارجي ويحدد ردود الفعل المطلوبة منه وذلك بتأدية الوظائف الحسية من سمع ونظر ولمس وذوق.

ثالثاً: وظائف استمرارية الحياة وتشترك فيها جميع أجهزة الجسم من دوران وتنفس وهضم، إذ من دون ذلك لا يستطيع الإنسان العيش ولا يستطيع أداء إي مهمة أخرى.

رابعاً: وظائف الدفاع عن الجسم من الأمراض والأجسام الغريبة التي تدخله.

ان كل عضو أو جهاز أو خلية تعمل عملها من دون ان تعي ما تفعله، فالخلية وبالتالي العضو أو الجهاز المتكون منها يؤدي واجبات معينة مرسومة له، يصل إليه الغذاء والهواء فتتفاعل معهما بالطريقة التي صنعت من اجلها، فمثلا الخلية أو العضو الذي ينتج الهرمون يستعمل جزءا من الطاقة التي تصله لديمومة الخلية والجزء الآخر من اجل إنتاج ذلك الهرمون ونتيجة لذلك تفرز فضلات لا بُدَّ من التخلص منها. والخلية العضلية تعمل بالطريقة نفسها وهي استمرارية الحياة والتقلص والانبساط عندما يطلب منها تحريك أجزاء الجسد بالطريقة المطلوبة، وخلايا العين تديم نفسها وتبعث طيف أشعة الضوء الواصل اليها على شكل إشارات إلى الدماغ ليفسرها ويتعامل معها.

ان عمل تلك الخلايا والأعضاء والأجهزة هو عمل ميكانيكي روتيني حالها حال اية ماكنة، فعندما تشتغل وتدور وتؤدي الواجب المناط بها تؤديه من غير ادراك لكنه عملها او لماذا تعمله.

ان عمل تلك الخلايا والأعضاء لا يمكن له ان يكون عشوائيا ما لم يكن هنالك خلل عضوي بها، بمعنى آخر ان الخلايا والأعضاء لا يمكن ان تؤدي واجباتها من دون نظام أو سيطرة، لذلك يبعث الدماغ لها الأوامر والتعليمات وعلى أساس ذلك تعمل، ان تلك الوظائف والواجبات تدار بصورة غاية في الإتقان وغاية في التوازن والسيطرة.

من كل ما تقدم نفهم ان الجسد ما هو إلا عبد يقوم بواجبات لا يعي ماهيتها ولا يعي أهمية عمله فما هو إلا آلة ميكانيكية تؤدي ما مطلوب منه،

إذا كان الأمر كذلك فكيف للإنسان ان يبني الحضارة التي نعيشها من دون ان يعي ما يعمل؟ وهنا يأتي دور الدماغ.

يتسلم الدماغ الإشارات من أعضاء الجسم فيتعامل معها ويستجيب لها بما يرتئيه مناسبا، فمثلا عندما يأكل الإنسان لا بُدَّ للعصارات الهضمية من ان تكون في المعدة، وعندما تصعد نسبة السكر في الدم لا بُدَّ للبنكرياس من ان يزيد من ضخ الأنسولين في الدم، وعندما يخاف الإنسان لا بُدَّ للغدة الادرينالية من ان تفرز هرمونها لكي تجعل الإنسان أكثر انتباها، وعندما يحتاج الإنسان لتأدية عمل ما يحتاج فيه إلى استعمال القوة العضلية لا بُدَّ للعضلات من ان تعمل بجهد اكبر من تقلص وتمدد لأداء ذلك الواجب، وعندما يدخل الضوء للعين لا بُدَّ من تحويله إلى إشارات تمثل ذلك الضوء.ان كل واحدة من هذه الاستجابات لا تحصل ما لم يصدر الدماغ اوامره بذلك.

ان صحة وقوة وخصائص الجسد الفيزياوية كالطول ولون البشرة ولون الشعر ودرجة الجمال يمكن ان تكون مؤثرات في تشكيل الشخصية وسنبحث هذا بالتفصيل في الفصول اللاحقة.

الدماغ الممثل الباطن للشخصية

يلعب دماغ الإنسان دورا مهما ورئيسا في تقرير شخصيته، ولكي نفهم ذلك الدور لا بُدَّ لنا من فهم اجزائه واصولها التاريخية (التي ستبين لاحقا) والتي تكون سببا في أن تصرفات الإنسان تكاد تكون (في بعض الاحيان) حيوانية بامتياز لولا وجود العقل، وعلى هذا الاساس نجد اهمية في بحث العلاقة بين ادمغة الحيوانات والانسان.

مقارنة بين ادمغة الحيوانات والانسان

ان دماغ الإنسان ليس جهازا أو عضوا بسيطا وإنما هو مركب من ثلاثة أدمغة، كل واحد من هذه الادمغة له مثيل في فصائل من الحيوانات وبالتالي يؤدي الواجبات والوظائف انفسها التي تؤديها مثيلاته عند تلك الحيوانات، ان هذا التشابه في الواجبات والوظائف بين تلك الادمغة الثلاثة التي يمتلكها الإنسان مع ادمغة الحيوانات هو الذي يجعلنا (في بعض الاحيان) نتصرف مثل تلك الحيوانات.

ولولا تفوق وتطور واحد من تلك الادمغة على أمثاله في الحيوانات المتطورة الاخرى لما تعدى ذكاؤنا ذكاء تلك الحيوانات المتطورة امثال الدولفين والشمبانزي ولما حققنا هذا التطور التكنولوجي والعلمي الذي ننعم به. لذلك نحتاج الى ان نتكلم باختصار على كل واحد من هذه الادمغة وأي الحيوانات التي تمتلك مثيلا لها لكي نتمكن من فهم تفاعلاتنا وتصرفاتنا مع محيطنا الخارجي والداخلي:

أولاً: الدماغ المؤخر[٤٤] (Hindbrain):

نتشارك بمثل هذا النوع من الادمغة مع الزواحف، فهو الأكثر بدائية بين كل الأدمغة التي نمتلكها كبشر، ان تفصيلات تشريح هذا الدماغ (شكل ٣) مشابهة لتلك العائدة للزواحف التي ظهرت منذ مئات الملايين من السنين الماضية، ان هذا الدماغ مسؤول عن غرائزنا البدائية وابسط أنواع الوظائف مثل: البقاء على الحياة، والتسلط، والتزاوج، والتنفس، ودقات القلب، وهو متكون من الأجزاء الآتية:

أوّلاً: الحبل الشوكي (Spinal Cord) وهو الناقل الرئيس للمعلومات من الدماغ واليه.

ثانيــاً: النخـاع المـستطيل (Medulla Oblongata) وهـو المـدير للأعمال اللاإرادية في الجسم مثـل: التـنفس والهـضم ودقـات القلـب وفـي الوقت نفسه يعمل كموصل للإشارات من الدماغ واليه.

ثالثــاً: البـونس (Pons) وهــي مـسؤولة عـن التهـيج الجنـسي والنـوم واليقظة، وكذلك نقل المعلومات الحسية من الدماغ واليه.

رابعاً: المخيخ (Cerebellum) وظيفته مركزة على التحركات فهـو ينظم وينسق توازن الحركـات، فـضلاً عـن تعلـم الحركـات والـسيطرة علـى القامة.

شكل رقم (٣) الدماغ المؤخر (Hindbrain) دماغ الزواحف[٤٥]

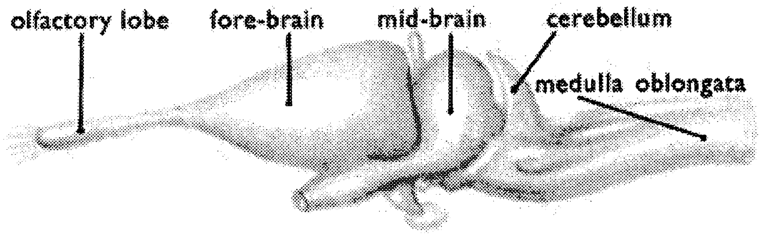

ثانياً: الجهاز الحوفي[٤٤] (Limbic System):

يسمى بعض الأحيان بالدماغ العاطفي، لقـد ظهـر مثـل هـذا الـدماغ أول مرة عند الثدييات القديمة (شكل ٤)، فأول ظهـور لـه كـان منـذ تقريبـا ١٥٠ مليون سنة. فـي هـذا الـدماغ تـسكن مـشاعرنا وبدايـة الـذاكرة وهمـا بـذلك يكونان المسيطرين على تصرفاتنا سواء كان ذلك سلبا أم ايجابـا، ان الجهـاز الحوفي هو المسيطر على كل التفاعلات غير الواعية ويخزنها علـى أنهـا أمـا

مقبولة أو غير مقبولة، فضلاً عن انه مسؤول عن جلب الانتباه إلى الأشياء والعفوية والابداع، انه متكون من الأجزاء الآتية:

أولاً: اللوزة (Amygdala): تساعد على خزن وتصنيف الذاكرة المشحونة بالعواطف، فهي مسؤولة بالدرجة الأولى عن إصدار عواطفنا وبصورة خاصة الخوف والتفاعلات الناتجة من ذلك الخوف من عرق اليدين وسرعة دقات القلب وإفراز الهرمونات المسؤولة عن تحفيز الإنسان عندما يقع بشدة.

ثانياً: الحصين (Hippocampus): وهو مسؤول بالدرجة الأولى عن الذاكرة، وهو الذي يشكل ويصنف المعلومات وكذلك يسيطر على الخزن طويل الأمد.

ثالثاً: تحت المهاد (Hypothalamus): إنها مرتبطة بالغدة الدرقية التي تسيطر على العديد من وظائف الجسم، فهي تسيطر على الساعة البيولوجية للجسم (دورة النوم واليقظة)، والشهية، والعطش فضلاً عن السيطرة على الوظائف الحركية والوظائف اللاإرادية.

رابعاً: المهاد: (Thalamus) وهي تعمل كمحطة توصيل للإشارات الحسية من سمع وبصر ولمس كذلك توصل الإشارات لأعضاء الجسد الداخلية، فضلاً عن وظيفة التحكم بالحركات.

شكل رقم (٤) الجهاز الحوفي (Limbic System) عند الثدييات القديمة[٤٦]

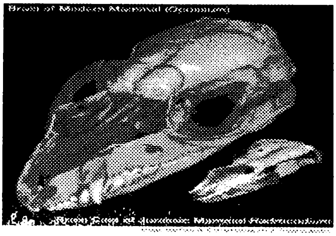

ثالثاً: دماغ الثدييات الجديدة (Neocortex)

يوجد الدماغان آنفا الذكر في دماغ الثدييات الجديدة (شكل ٥) لذلك نلاحظ ان الكثير من تصرفاتنا الغريزية مسيطر عليها ومدارة بهذين الدماغين، اما التفاعلات العقلية المعروفة عن الإنسان مثل حل المشكلات والذكاء فهي نتيجة لتطور دماغ الثدييات الجديدة وتكوين دماغ ثالث الا وهو المخ (Cerebrum).

شكل رقم (٥) الادمغة الثلاثة التي داخل دماغ الإنسان (٤٧)

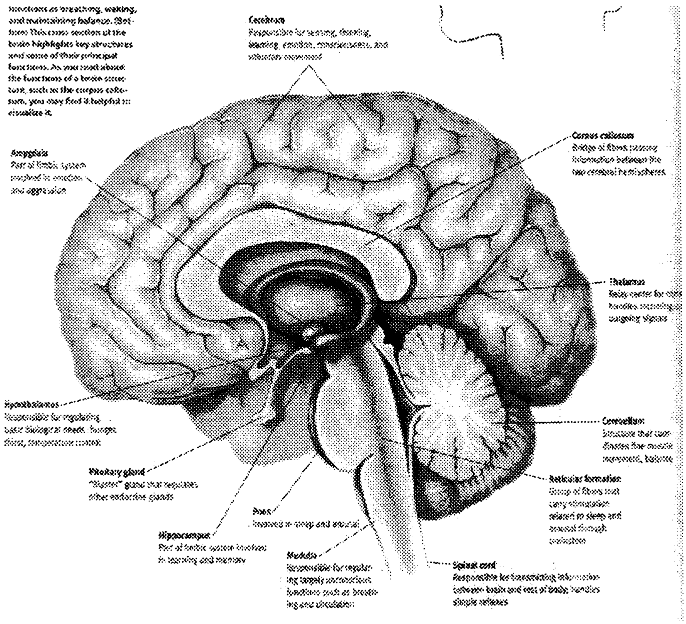

يتشارك دماغ الثدييات الحديثة بها الإنسان مع تلك الثدييات ومع هذا فإن الإنسان قد فاقهم بدرجة هائلة في انجازاته وتطوير بيئته، وهنا لا بُدَّ لنا من ان نتساءل: إذا كانت الثدييات الجديدة ومن جملتهم الإنسان متشابهة في أدمغتها فلماذا كان الإنسان أكثر تقدما من بقية حتى أكثر الثدييات ذكاء (وهما الدولفين والشمبانزي)؟ توضح الصور التالية بعض الاختلافات:

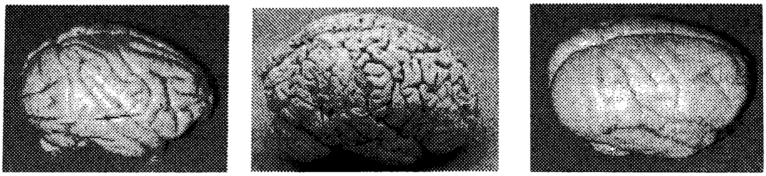

دماغ الإنسان دماغ القرد دماغ البابون دماغ الدولفين

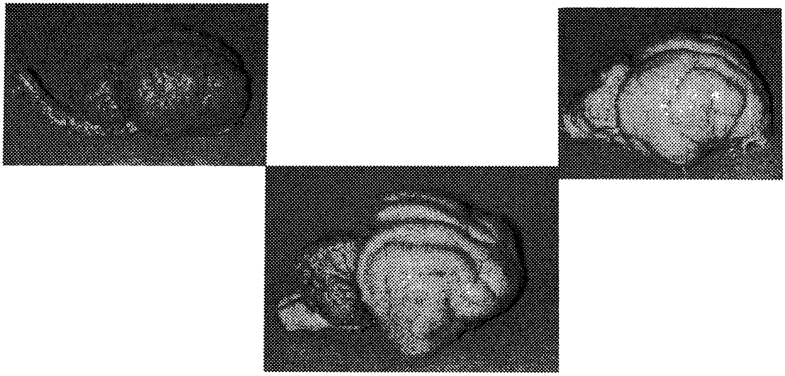

دماغ الجمل دماغ الكانكرو دماغ القط

شكل ٦ مقارنة بين ادمغة الثدييات [48]

من المقارنة بين تلك الأدمغة نلاحظ الأشياء الآتية[٤٩]: ان القشرة المخية الحديثة (المخ) (Neocortex) للإنسان هي الأكثر تطورا والأكثر تعرجا والأكبر حجما بين كل الأدمغة، وإذا ما قارنا نسبة وزن الدماغ إلى وزن الجسم في بعض هذه الثدييات الجديدة نجد ان النسبة للإنسان ٧،٤٤ وللدولفين ٥،٣١ والشمبانزي ٢،٤٩ وللبابون ٢،٠٩ وللقط ١.

إن الزيادة في التعرجات والحجم والوزن هي التي زادت من قوة وقابليات دماغ الإنسان وتفوقه على ادمغة الثدييات الجديدة، دليل ذلك اننا نجد انه إذا ما تعرض المخ إلى ضرر ما يكون سببا في قلة في التعرجات أو موت لخلاياه فإن ذلك يؤدي الى نقص في قوة وكفاءة الإنسان العقلية، ان ذلك النقص يتناسب طرديا مع مدى التلف.

ولو نظرنا الى مخ الإنسان المصاب بمرض الزهايمر[٥٠] (Alzheimer) الذي يسبب موت خلايا الدماغ وضياع نسيجه نجد قلة في تعرجات ذلك المخ وزيادة في انكماشه وكلما تقادم الزمان على ذلك المرض كلما زاد الدمار وبالتالي زاد التأثير السلبي على الأعمال العقلية لذلك المريض.

شكل رقم (٧) مقارنة بين المخ المصاب بالزهايمر والآخر الطبيعي[٥١]

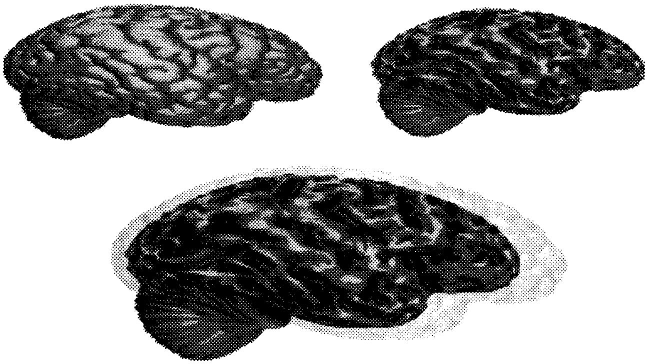

وظائف فصوص مخ الإنسان

ان ذكاء الإنسان هو الذي جعله يتفوق على كل الكائنات حتى الى اقرب تلك الكائنات التي تمتلك مخا كمخ الإنسان وهي الثدييات الجديدة، وتكلمنا وقارنا بين ادمغة الإنسان وتلك الثدييات. وهنا يجب علينا ان نتكلم باختصار على أجزاء هذا المخ ووظائف كل جزء منه لكي نبحث عن ذلك الجزء من المخ فائق التطور الذي يملك القابلية على التفاعلات العقلية الذكية والذي فُضلنا به عن الثدييات الجديدة والذي جعل منا بشرا متفوقين ومختلفين عن بقية الحيوانات وحتى الذكية منها امثال الشمبانزي والدولفين.

يقسم المخ على أربعة أقسام هي: الفص الجبهي (Frontal Lobe)، والفص الصدغي (Temporal Lobe)، والفص الجداري (Parietal Lobe)، والفص القفوي (Occipital Lobe). وفي ما يلي صورة لهذا المخ

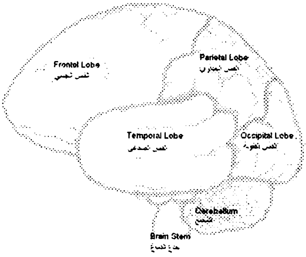

شكل رقم (٨) منظر خارجي لدماغ الإنسان

في الجدول التالي سنجد تفصيلات وظيفة كل فص من فصوص المخ فضلاً عن الخلل الذي يلاحظ إذا ما تضرر ذلك الفص[(٥٢)،(٥٣)]

أوّلاً: الفص الجبهي

الوظيفة	الخلل الوظيفي الظاهر
التفكير الواعي	شلل
التركيز	عدم القدرة على ترتيب الأعمال بخطوات
المثابرة	يفقد سرعة البديهية في تعامله مع الآخرين
الحكم	ضياع العفوية في التعامل مع الآخرين
طول الانتباه	ضياع التفكير المرن
الرصد والإشراف على النفس	البقاء على فكرة واحدة
حل المشكلات	صعوبة الانتباه
التنظيم	تغيرات في المزاج
التفكير النقدي	
التفكير إلى الأمام	
القابلية على الشعور والتعبير عن المشاعر	
التعاطف والإيثار	
ذاكرة العادات والفعاليات الحركية	

ثانياً: الفص اجداري

الوظيفة	الخلل الوظيفي الظاهر
الانتباه البصري	عدم التمكن من أداء أكثر من عمل واحد في الوقت نفسه
الإحساس باللمس	عدم القابلية لتسمية الأشياء
مراقبة الإحساس	عدم القابلية لتحديد الكلمة للكتابة
السيطرة على القراءة	
معرفة الوجه	
فهم الوقت	
توجيه الحركة نحو الهدف	
التلاعب بالأشياء	

ثالثاً: الفص القفوي

الوظيفة	الخلل الوظيفي الظاهر
تسلم المعلومات البصرية تفسير الألوان والأشكال والمسافات	نقص في المجال البصري صعوبة تحديد الأشياء صعوبة تحديد الألوان

رابعاً: الفص الصدغي

الوظيفة	الخلل الوظيفي الظاهر
الذاكرة والتعلم الجديد تسلم الرسائل السمعية فهم لغة المتحدث والإيقاع السيطرة على كيفية تصنيف وترتيب الأشياء بعض من الإدراك البصري	صعوبة في التعرف على الوجوه صعوبة فهم لغة المتحدث إرباك في الانتباه الانتقائي لما نرى ونسمع صعوبة في التشخيص والتعبير اللفظي لبعض الأشياء ضياع الذاكرة قصيرة الأمد تدخل في الذاكرة طويلة الأمد زيادة أو نقصان في الرغبة الجنسية عدم القابلية على تصنيف الأشياء الكلام المستمر (ضرر في النصف الأيمن) زيادة في التصرفات العنيفة

جدول رقم (٢) مقارنة بين وظائف فصوص المخ

يظهر من الجدول السابق جليا ان الفص الذي يميزنا من بقية الثدييات الجديدة ويجعلنا بشرا هو الفص الجبهي، لان معظم وظائف الفصوص الأخرى نشترك بها مع بقية الحيوانات.

قسما الدماغ الرئيسان

مما تقدم إذا يمكننا القول: اننا متقدمون عن بقية الحيوانات بسبب تطور الفص الجبهي لمخنا، ولكننا نتشابه معهم في ما بقي من اجزاء دماغنا. ان ذلك التطور في فصنا الجبهي هو جعلنا نتفوق ونتسيد على بقية المخلوقات، ومن هذا يمكننا إذاً ان نقسم دماغ الإنسان على قسمين: الأول له درجة التطور نفسها في الثدييات الجديدة، والآخر فائق التطور عن تلك الثدييات:

الاول: الفص الجبهي (العقل) أطلقت عليه العقل؛ لان كل العمليات العقلية الإنسانية تحدث هنا. نشاهد في الصورة اللاحقة كل أجزاء الدماغ مظللة ما عدا الفص الجبهي الذي نتصوره مكانا لسكن العمليات العقلية (العقل).

شكل رقم ٩ يبين موقع الفص الجبهي في المخ

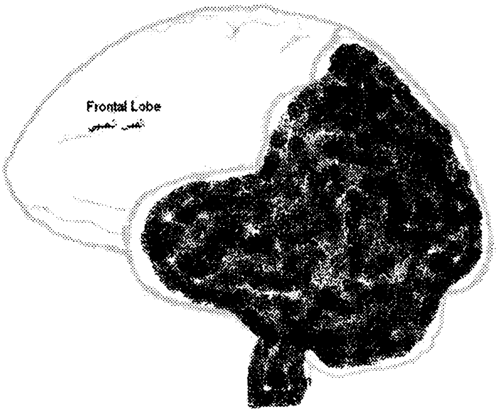

الثاني: ما بقي من الدماغ (مركز القيادة والسيطرة)، وأطلقت عليه هذه التسمية بسبب طبيعة عمله التي هي إدارة الجسم والسيطرة على وظائفه، وفي الصورة التي في الأسفل توضح دماغا رفع منه جزء من النصف الأيسر لكي يكشف عن الدماغي البدائيين الاثنين الموجودين داخل دماغ الإنسان، أما الفص الجبهي فلقد ظلل لترك المجال لبقية الاجزاء لتظهر وحدها على انها تمثل مركز القيادة والسيطرة.

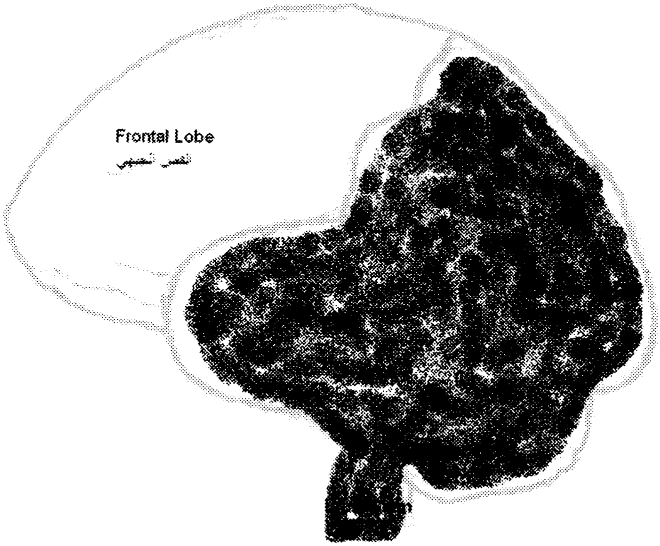

شكل رقم ٩ يبين موقع مركز القيادة والسيطرة في الدماغ

وعلى هذا الاساس يمكننا تقسيم الإنسان على ثلاثة اقسام، هي: الجسد ومركز القيادة والسيطرة والعقل، ولا بُدَّ لنا من ايضاح العلاقة بينها.

العلاقة العضوية بين أجزاء دماغ الإنسان

بعد ان تطرقنا الى وظائف كل جزء من اجزاء الدماغ يمكننا ان نقول: إن الإنسان عبارة عن جسد ودماغ، فالجسد هو العبد والدماغ هو السيد، من دونه لا يمكن للجسد من ان يعمل ولا فائدة منه؛ لأن المتعة في الأكل والمسكن والملبس والتملك وكل المتع الأخرى سوف لا تفهم ما لم يكن هنالك وجود للدماغ، فالجسد عبارة عن آلة تحس بتغيرات (سواء كانت سمعية بصرية ذوقية وما خلافها) وتنقلها إلى الدماغ فهو يفسرها على أنها لذيذة أو مؤلمة وعلى كل درجات اللذة والألم.

ان وجود الدماغ من وجود الجسد؛ لأنه لولا الجسد لما بقي الدماغ حيا، فالجسد يوافر له كل ما يحتاج اليه من اجل ان يبقيه على قيد الحياة، فلهذا السبب لا بُدَّ ان تكون هنالك علاقة عضوية ومصيرية تربط الاثنين وبالخصوص بين الجسد ومركز القيادة والسيطرة اللذين يمثلان تقريبا كل الوجود الفيزياوي للإنسان، فبهما وحدهما يمكن للانسان ان يعيش ويؤدي واجباته على انه حيوان كأي حيوان متطور اخر، وعلى هذا الأساس سأطلق عليهما مجتمعين (مركز القيادة والسيطرة فضلا عن الجسد) بتسمية "النفس"، فكلما ذكرت (النفس) اعني بها انهما الجسد وكل الدماغ ما عدا الفص الجبهي الذي يكون مركزا للعمليات العقلية لذلك سنطلق عليه تسمية (العقل)، وعلى هذا الأساس يمكننا ان نقول: إن الإنسان مكون من جزأين رئيسين كما مبين في شكل رقم ١٠:

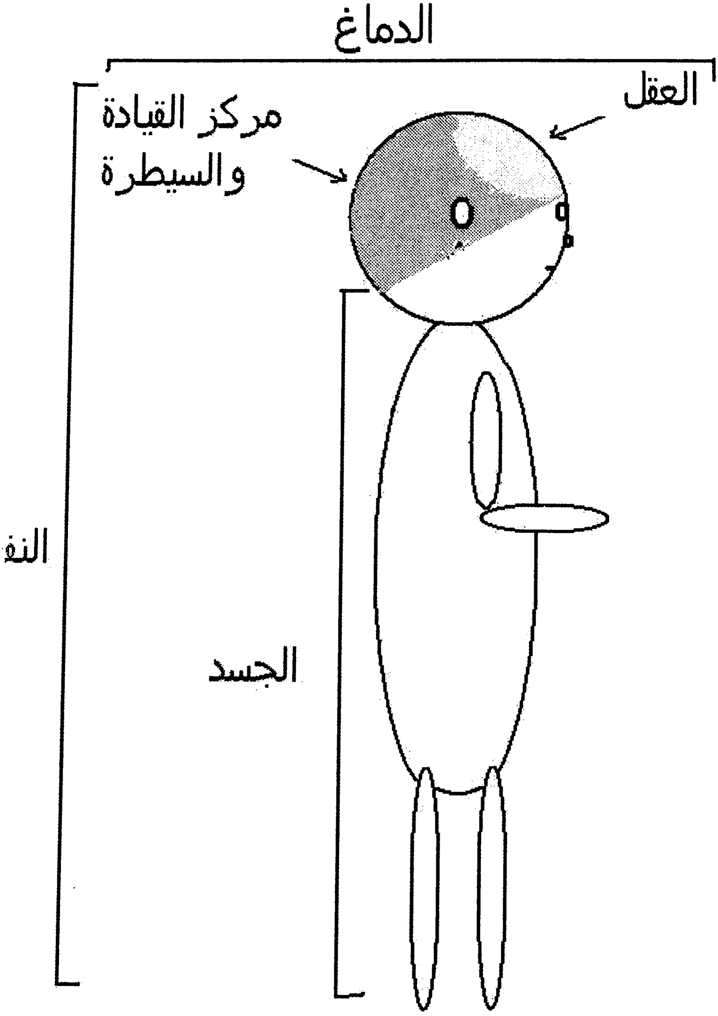

شكل رقم ١٠ اجزاء الإنسان الثلاثة

أوّلاً: النفس: المتمثلة بالجسد ومركز القيادة والسيطرة الدماغية.

وثانياً: العقل: المتمثل بفعاليات الفص الجبهي الدماغي.

ان هذا التصنيف له مصداقية في دعاء الصباح لعلي بن أبي طالب عليه السلام إذ يقول: « قلبي محجوب ونفسي معيوب وعقلي مغلوب وهوائي غالب وطاعتي قليل ومعصيتي كثير....» فلقد قسم علي عليه السلام الإنسان على قسمين العقل والنفس، فالنفس بطبيعتها غير عاقلة وغريزية لذلك نجد فيها عيبا أو عيوبا تجعلها تتصرف كالحيوانات، اما الذي يجعل الإنسان إنسانا فهو العقل، فمتى ما تغلبت النفس على العقل قلت الطاعات وكثرت المعاصي، ولكي ندرس الإنسان وبالتالي شخصيته يجب ان نفهم كيفية عمل كل من هذين الجزأين، لقد تكلمنا سابقا على الجسد احد اجزاء النفس وهنا سنتكلم عن الجزء الثاني من النفس الا وهو مركز القيادة والسيطرة وعن العقل.

ان مركز القيادة والسيطرة متكون من خلايا مختلفة الوظائف وهي الخلايا العصبية التي تودي واجبات الاستجابة إلى الإشارات التي تصل إليها وذلك بإشارات تنبعث منها بناء على معطيات خاصة بتلك الخلايا، فينتقل نتاج تلك الخلايا من ترابطها مع خلايا أخرى في المشبك فعندما تصل شحنة كهربائية إلى ذلك المشبك، يطلق مواد كيمياوية تسمى الناقلات العصبية (neurotransmitters) التي بدورها تنتقل من خلال المشبك إلى الخلايا الأخرى، هنالك ما يقرب من اثنتي عشرة ناقلة عصبية.

شكل رقم (١١) كيفية انتقال الإشارات من خلية عصبية إلى خلية أخرى(٥٤)

فمثلا الخلية العصبية التي تصلها إشارات العين تفسرها على شكل صورة، أما الخلايا العصبية التي تصلها إشارات من الأذن فتفسرها على أنها صوت، ومن هذا المنطلق لا بُدَّ من ان تكون هنالك خلايا عصبية تضع كل تلك التراجم الواصلة إليها والإجابة عليها من اجل خدمة الإنسان، فإذا فسرت الخلايا العصبية الصورة والصوت فلا بُدَّ ان تكون هنالك استجابة إلى تلك الصورة والصوت فتكون واجب تلك الخلايا الرد على تلك الإشارات بما يتناسب مع نوعية الإشارة التي وصلت إليها ومع القوانين الموضوعية التي تحدد كيفية تعاملها مع تلك الصورة.

ان تلك الخلايا لا بُدَّ لها من ان تكون خلايا من صنف يعرف كيفية صوغ شفرات خاصة بكل اشارة تصل اليها وكيفية التعامل معها، فإذا وصلت صورة من العين فلا بُدَّ لها من أما ان ترد بنفسها على تلك الصورة أو تبعثها (على شكل رموز) إلى مكان آخر في مركز القيادة والسيطرة ليرد عليها، ونتيجة لذلك تنتقل تلك الأوامر المتعلقة بتلك الصورة إلى ذلك

الجزء من الجسد الذي له القابلية على التعامل معها، ليس هذا فحسب ولكن لا بُدَّ من وجود خلايا يمكنها خزن كل الإشارات المشفرة من قبل الخلايا العصبية لكي تستعمل في المستقبل.

يعد ذلك المخزون من الصور أو الخبرات أداة من أدوات تلك الخلايا العصبية فهي بذلك تعتمد على مورثوها (وليس من الإشارات التي تأتي إليها فحسب) في اتخاذ قراراتها الجديدة، فمثلا إذا ما لدغت عقرب شخصا ما فان تلك التجربة تخزن فتكون خبرة تستعملها تلك الخلايا في التعامل مع العقرب في المرة المقبلة.

وهنالك خلايا عصبية متخصصة تتسلم الإشارات التي تصل إليها من بقية أعضاء الجسم لكي تفسرها وبناء على معطيات معينة تصوغ أوامر تحتم على أعضاء معينة من الجسم لكي تؤدي تلك الأعضاء الوظيفة المناطة بها طاعة للأوامر الواردة لها.

مثلا عندما يحتاج الجسم إلى الأكل تبدأ نسبة السكر في الدم بالهبوط فتصل إشارة إلى القيادة تقول ان النسبة منخفضة فترد القيادة بأوامر إلى اليد والعين والسمع والعضلات لتبدأ البحث عن غذاء وعند الحصول على الغذاء تنقل أوامر القيادة إلى الفم وتبدأ علمية الأكل ثم الهضم.

وهنالك أعضاء وأجهزة في الجسد تعمل بصورة لا إرادية، وبكلمة أخرى لا تنتظر ان تصلها أوامر مباشرة من مركز القيادة والسيطرة وإنما عن طريق جزء من مركز القيادة والسيطرة (النخاع الشوكي). ان تلك الأجهزة والأعضاء تعمل من دون الحاجة إلى مساعدة الأجهزة الأخرى فالقلب والدورة الدموية يسيران بمعزل عن بقية الأجهزة ربما يتأثران بها ولكن بطريقة غير مباشرة، وكذلك بالنسبة إلى الأجهزة التنفسية فالرئة تتقلص

فتزفر وتنبسط فتشهق وفي اثناء ذلك تحصل عملية التبادل الغازي من دون الحاجة إلى الحواس مثلا أو من غير الحاجة إلى حساب أو تفكير.

ان العمليات التي يقوم بها مركز القيادة والسيطرة سريعة جدا وهي مركزية حالها حال القيادة والسيطرة في الجيش، هنالك خطة عامة لعمل كل القطاعات العسكرية وعندما تحصل حالة جديدة أو هنالك ضرورة لتغيير بعض الخطط وبناء على المعلومات التي تصل إلى القيادة تضع الأخيرة خطة جديدة أو ردة فعل معينة وتصدر أوامرها المناسبة لمعالجة الأمر مثل الرد بما يجب ان تقوم بها القطاعات المناسبة، فكل جزء يتحرك بصورة منتظمة ومتواترة من اجل تنفيذ تلك الأوامر.

ان مركز القيادة والسيطرة لا بُدَّ من امتلاكه أرشيفا من الخبرات السابقة، يستعملها كأدوات لأداء إعماله، ويخزنها في الذاكرة، ان طبيعة عمل هذه القيادة والسيطرة هي ردة فعل لحاجات جسدية واستجابة لخبرات سابقة تعدها القيادة مفيدة.

وهنا يبرز تساؤل وهو بماذا يختلف الإنسان عن الروبوت؟ فلولا المشاعر الإنسانية لكان الإنسان روبوتا يؤدي إعماله ميكانيكيا او لكان حيوانا ولما كان قد تمكن من ان يسود على كل الأحياء على هذه الأرض، ان تلك المشاعر هي التي تدفع وتحفز عقلانية الإنسان الى ان تبدع وتجعل منه شديدا قويا مثابرا متحمسا خلاقا بانيا ومحققا لأكبر قدر من تلك المشاعر.

لولا تلك الأحاسيس التي يملكها البشر لما كان لاستمرارية النسل غرضا وغاية ولولا تلك الأحاسيس لما كان لاستمرارية الحياة حاجة، فلماذا يعاشر الرجل المرأة إذا لم تكن هنالك لذة ومتعة ونتائج ملموسة [illegible]

يرهق الإنسان نفسه في البحث عن غذاء وتحسين نوعيته وإضافة طعم له والبحث عن كل المواد التي يحتاج اليها لكي يكون غذاؤه كاملا ما لم تكن هنالك لذة في الأكل.

إذاً لا بُدَّ للعمليات الجسدية من ان تكون مصحوبة بنوع من اللذة والمتعة والإحساس بالرضا لكي تعطي مركز القيادة والسيطرة دافعا وحافزا للبحث عنها وطلب المزيد منها وبالتالي دفع الجسد لأداء الأعمال المناطة به للحصول عليها.

ويدفع ذلك الإحساس بالمتعة والرضا هو الذي مركز القيادة والسيطرة إلى ان يستغل الجسد إلى أقصى الحدود من اجل تحقيقهما. وفي مخازن الذاكرة تحفظ الذكريات واللحظات الجميلة التي يمر بها الإنسان. ليس ذلك فحسب ولكن حتى اللحظات المرة والتعيسة التي يمر بها لا بُدَّ لها من ان تخزن لكي تذكره بضرورة تجنب التعرض لها مرة أخرى، أو لكي يتقبلها على أنها أمر مفروض عليه لا يمكنه تفاديه (كالموت مثلا)، انه يستعمل تلك الذكريات من اجل ان يعرف ما يجب عليه ان يفعله لتحقيق السعادة وتفادي التعاسة أو الابتعاد عنها.

ان الواجب الرئيس لمركز القيادة والسيطرة يكمن في تحقيق اكبر قدر من المتعة والعمليات المرغوبة والمطلوبة بحسب معطيات الوضع السائد.

ان المشتركات بين هذين الجزأين من الإنسان (الجسد ومركز القيادة والسيطرة) هو ان وظيفة الاثنين هي أعمال ميكانيكية نتيجة فعل وردة فعل وذلك من اجل المحافظة على ذلك الجسد وجلب المتعة واللذة والفائدة فضلاً عن الحفاظ على وضع حال وصحة جيدة. ولكي تؤدي واجباتها فلا بُدَّ للقيادة والسيطرة من امتلاك نسبة من الذكاء ومخزون من الخبرات والتعاملات تمكنها من أداء ذلك الواجب.

ان الإنسان يشترك في هذين الجزأين مع كل الحيوانات، فالجسد موجود في كل الحيوانات وبحسب تطورها الجسدي وأجزاء السيطرة والقيادة هي الأخرى موجودة في الحيوانات الأخرى وبحسب تطورها، لذلك لو كان الإنسان يعيش بهما فحسب لكان حيوانا كالقرد والحيوانات الذكية الأخرى لا يفوقها بشيء.

وبما ان الجسد والقيادة والسيطرة متوحدان في وظائفهما وغاياتهما، إذاً يمكننا ان نضعهم في خانة واحدة أسميناها "النفس"، ان الاثنين لا يفهمان ولا يعملان ولا يجتهدان إلا لكي ترضى النفس، فلا اعتبار آخر للنفس إلا ما يحقق لها أفضل الظروف والمتعة ولا يهمها تأثيرات أعمالها في المحيط الخارجي ما دام ذلك يحقق ما تريد.

ان محدودية ذكاء تلك القيادة والسيطرة يعود سببها إلى الوظيفة التي أنشئت من اجلها وهي قيادة وسيطرة، لذلك السبب لم تطور الحيوانات محيطها وبيئتها بعظم وكبر التطور الذي قدمه الإنسان وفي كل المجالات، لماذا تمكن الإنسان من ذلك وفشلت الحيوانات، سؤال جوابه "العقل"، ان عظم عقله هو الذي سيّده على كل المخلوقات فهو الباني وهو المبدع وهو المنتج وهو المطور، ان ذلك الجزء الثالث من الإنسان الذي أسميناه العقل هو المسؤول الأول عن كل شيء وذلك بسبب قدرته وقابليته على التحليل والتدقيق واستخراج النتائج والتوقعات وبالتالي استصدار أوامر خارقة للعادة تعجز النفس عن تحقيقها اذا ما اعتمدت على امكانياتها الخاصة.

فالإنسان يكون ممثلا بهذين المكونين (النفس والعقل) ولا بُدَّ من تكاملهما، فالإنسان إذا كان نفس من دون عقل فإن ذلك سينهي ويلغي كل الفوارق بينه وبين أي حيوان آخر، أما الإنسان بعقل من دون نفس فلا يوجد لديه من يحقق له ما يخططه ويوصي به وينتجه من فكر

وبما ان المُنَفْذ هي النفس فلا يتحقق شيء من غير موافقتها فان الترابط بين الاثنين يكون عن طريق صمام سيطرة مفتاحه بيد النفس، فعندما تحتاج إلى الذكاء والعمليات العقلية تفتح ذلك الصمام وعندما لا تحتاج اليه تغلقه أو تضيقه، فهي بذلك توقف أي تأثير للعقل على القيادة والسيطرة.

وبالمقابل ومن منطلق محدودية العقلانية النفسية فلا بُدَّ للنفس من ان تبقى في حاجة مستمرة إلى العقل من اجل تحقيق كل الأمور التي تطلبها وتعجز عن التخطيط لكيفية الحصول عليها او الامور التي تحميها.

ان هذه الاعتمادية المشتركة بين الاثنين تكون سببا في جعل التفاعل بين النفس والعقل تفاعلا مستمرا وعلى جميع المستويات وفي كل الظروف، ولذلك برغم طبيعة العقل الموضوعية التي تحتم عليه ان يكون حكيما وان تكون طبيعة عمله الخير ولكن بسبب اعتماده على النفس في البقاء والانتاج فإن ذلك يرغمه على إطاعة النفس في ما تريد، خيرا كان ذلك أم شرا.

العقل المخطط والموجه للشخصية

ان العقل هو نتيجة التفاعلات التي تقوم بها خلايا الفص الجبهي من الدماغ، والذي هو مكون من خلايا عصبية حالها حال الخلايا العصبية الأخرى ولكن وكما قلنا سابقا فكما ان الخلية الجسدية لها وظائف مختلفة بحسب طبيعة عملها فالأمر ينطبق على الخلايا العصبية التي تجري العمليات العقلية؛ لأن وظيفتها مختلفة عن بقية الخلايا العصبية الاخرى.

ان العمليات العقلية التي تجري في الفص الجبهي يمكننا تسميتها بالعمليات العقلية النفسية؛ لانها مرتبطة ارتباطا مباشرا مع النفس (مركز

القيادة والسيطرة فضلا عن الجسد) فلذلك يمكننا ان نسمي هذا النوع من العقل بالعقل النفسي. وهنالك عقل اخر لا ارتباط له بالنفس وانما ارتباطه ميتافيزيقي ولذلك اسميناه بالعقل الميتافيزيقي وفي ما يلي سوف نفصل كل واحد منهما:

العقل النفسي

يعد الفص الجبهي مركزا للسيطرة على عواطفنا ومسكنا لشخصياتنا وهو مسؤول عن حل المشكلات، البديهية، الذاكرة، واللغة، والحكم، والسيطرة على الدوافع، والتصرفات الاجتماعية والجنسية، فهو بذلك يكون مركزا للعمليات العقلية، ويمكننا تسمية ما يحدث فيه بعمليات عقلية او عقل، ان الخلايا العصبية هنا تتعامل مع معطيات وإشارات تصل إليها من النفس (مركز القيادة والسيطرة فضلا عن الجسد) فإذا ما ارادت النفس ان تحل مسألة رياضية مثلا فلا بُدَّ لها من ان ترسل رسالة إلى هذا النوع من الخلايا العقلية لكي يجري تحليلها وايجاد حل لها، فتعمل تلك الخلايا على تحليل ومقارنة وربط واستنتاج ثم تخرج بحل لتلك المسألة.

ان خلايا هذا الفص قادرة على صنع القرار وخزن تلك القرارات للاستعمال المستقبلي، ان هذا النوع من الخلايا يمكن تسميته بالخلايا العقلية النفسية والسبب في تلك التسمية متأتية من علاقتها بالنفس فكل إنتاجها العقلي لا بُدَّ من ان يكون بسبب العلاقة بين النفس وبين ما يحدث بالفص الجبهي من فعاليات عقلية، ان علاقتها مرتبطة بالحواس الإنسانية الخمس بصورة غير مباشرة لأن تلك العلاقة لا بُدَّ ان تكون عن طريق مركز القيادة والسيطرة وبالتالي النفس، فتكون نتائج عمل هذه الخلايا استجابة لتلك الحواس وبالتالي للنفس.

ان الخلايا العقلية تعمل ليس بطريقة محدودة كتعامل النفس مع إلا شارات والرد عليها ولكن لها القابلية على تعلم أمور جديدة لم تمر عليها أو بها سابقا، السبب في ذلك هو قابلية الخزن للعمليات ونتائج تلك العمليات، ان قابلية استخراج المخزون والتعلم هي التي تجعل العلميات العقلية عمليات ذكية خلافا للعمليات التي تجري في بقية سائر الخلايا النفسية.

يولد الطفل ولا خبرات له إلا ما موجود في رحم أمه وبسبب ضيق الأفق الذي يعيشه لن يكون عنده الكثير من الخبرات، فلا تمتلك الخلايا العقلية النفسية أي خبرة عملية فتكاد ان تكون ككتاب ابيض فارغ من أي كتابة، ويبدأ بالتعلم من أول وهلة، يخرج من رحم أمه وبمجرد دخول الهواء إلى رئتيه يبدأ بالتفاعل وذلك بالبكاء، تضعه القابلة على صدر أمه فيحس بالدفء ويسمع دقات قلب أمه، يحس بالأمان ويشعر بسعادة فيه فيضع قانونا ان الدفء وصوت قلب الام مريح، فعندما يحسه ويسمعه تعني راحة لأنهما الإحساس نفسه الذي كان يحسه عندما كان في بطن أمه، إذاً الاقتراب من الام شيء جيد، وعندما تضعه أمه على صدرها وتضع حلمتها في فمه، يضع برنامجا جديدا مفاده بما ان هذا الشخص أعطاني الدفء والأمان فان وضع الحلمة في فمي هذا جيد، فينزل الحليب من صدر أمه وبمجرد ان يلقم ثديها فيستطعم الحليب يضع قانونا. إذاً هذا الوضع يشعرني بالراحة وهو لذيذ، إذاً أي شيء يجلبه هذا الشخص لي هو جيد وإذا ما وضعه في فمي فهذا الشيء هو جيد، وهكذا كلما تطور تتطور برامجه.

ان التطور الذي يحصل في برامج العقل يواكبه تطور في القابلية العقلية والتي نسميها بالعقلانية، ان العملية العقلية والبرامج المتأتية أو الحاصلة إما تخزن وتستعمل في المواقف التي يحتاج اليها الإنسان وإما في تكوين

برامج جديدة أو تحوير برامج قديمة. ان الخزين يمكن ان يكون على نوعين: الأول هو خزين البرامج والثاني هو خزين الخبرات المتأتية نتيجة تلك البرامج، فالبرامج الناجحة تخزن بموازاة الخبرات الناجحة والبرامج الفاشلة تخزن بموازاة النتائج الفاشلة فبالتالي يستعمل العقل كلتا البرامج والخبرات في برامج جديدة أو في تحوير برامج قديمة.

ان اسلوب عمل العقل في تعامله مع المسائل التي تجابهه او تطرح عليه تعتمد على خطوات ثلاث هي كالاتي:

أوّلاً: المشارطة: اذ يضع العقل الشروط اللازمة لأداء عمل ما... وهذا يكون قبل القيام بذلك العمل.

ثانياً: المراقبة: وهي مراقبة كيفية ومسيرة ذلك العمل، وهذا يكون في أثناء الأداء.

ثالثاً: التقويم: وفي هذه المرحلة يقوّم العقل العمل ويصحح الانحراف الذي يحصل فيه، ان هذه المرحلة تكون في أثناء أداء العمل وبعده.

ان هذه الخطوات التي يتبعها العقل في التخطيط والتنفيذ والتقويم تعمل من اجل الوصول إلى الأهداف المطلوبة التي تقود إلى الإصابة في العمل، إننا نعرف ان هنالك تأثيرات عديدة في العقل اولها النابعة من النفس وحاجاتها. فإن طريقة العمل هذه لن تتغير بحسب تلك التأثيرات بل تعمل بالضبط بما هي عليه، والذي اريد ان اقوله هنا هو ان الاصابة بالعمل او انجاز العمل باكمل صورة لا تعني بالضرورة ان تكون نتائجها خيرا، ولكن يعني ان العمل المنجز لا بُدَّ ان يكون متقنا ولكن اتجاه هذا الاتقان يعتمد على التأثيرات المسلطة على العقل، لذلك لو كان العقل يعمل بحرية مطلقة ولا تأثير عليه من اي جهة اخرى فإن نتاجه لا بُدَّ ان يكون خيرا، وهذا ما

تدل عليه الشواهد العديدة من البشر الذين سموا بشخصياتهم لان عقولهم كانت قائدة لمسيرة حياتهم.

العقل الميتافيزيقي

ان ما يفهمه ويدركه الانبياء اعظم واكبر من ما يمكن ان يدركه اي انسان اعتيادي، ان السبب في ذلك هو تغلب عقل اخر وحواس اخرى (ميتافيزيقية) تعمل كنظيراتها الخلايا الحسية الجسدية ولا علاقة لها بالنفس، فهي مستقلة ولها الحرية في العمل والاتصال مع قوى خارج نطاق النفس، ان نتاج تلك الاحاسيس والعمليات العقلية التي تجرى خارج نطاق سيطرة أو قابلية النفس هي صعبة عسيرة على النفس كي تفهمها لأنها تجرى خارج نطاق الضوابط الفيزياوية التي اعتادت عليها.

ان تحديد مكان مثل هذه الحواس وهذا العقل غير معروفة وتحتاج الى دراسة لتحديد مكانها بالضبط. فهل يا ترى هي موجودة في الفص الجبهي أم هل هي في القلب أم هل هي في مكان آخر في الإنسان؟ الى الان لا نعرف مكانها بالضبط ولكن بالتأكيد هي موجودة، وربما تكون موجودة في القلب مصداقية لقول علي عليه السلام في دعاء الصباح عندما يقول «قلبي محجوب» وكأنه يقول اذا كانت النفس طاغية على العقل فلا بُدَّ لها ان تطغى على العقلين الميتافيزيقي والنفسي، فاذا طغت على العقل الميتافيزيقي فانها تحجبه ولا تسمح له بالظهور.

ان هذه الخلايا العصبية تتسلم إشارات ليس كمثيلاتها التي تعتمد على الحواس الخمس عند الإنسان، فهي تتسلم إشارات السمع والبصر واللمس والذوق من دون حاجة إلى أعضاء الحواس الخمس (العين، والأذن،

واللسان، والأنف، والجلد) بل من إشارات ميتافيزيقية خارج نطاق حواس الجسد. ويمكننا تسمية هذه النوع من الخلايا بالخلايا العقلية الميتافيزيقية، فهي لها القابلية على التعامل مع الإشارات الميتافيزيقية أو الإشارات غير المحسوسة بالحواس الخمس التي يملكها الإنسان.

ينقل علي الوردي(٥٥) ما يقوله الفيلسوف الالماني (شوبنهور) فيقول: «فيعتقد "شوبنهور" بأن العبقري يختلف عن الفرد العادي بشيء واحد هو قلة التقيد بما يتقيد به عامة الناس من اندفاع في سبيل الحياة وتنازع على البقاء».

ويقول في مكان اخر نقلا عن (شوبنهور) نفسه: «العبقرية هي الموضوعية الخالصة في الفكر. فهي تلك القوة التي تجعل صاحبها يهمل مصالحه ورغباته واهدافه».

وفي مكان اخر ينقل عن (برجسون) فيقول(٥٦): «بأن العبقري فيه نزعة من التصوف، ذلك أنه حين ينغمر في ساعة الابداع يغيب عن وعيه ويدخل في ما يشبه الوجد الصوفي او الغيبوبة. إنه عند ذلك يتحد مع الدفقة الحيوية الكبرى التي تسير الكون، ويستشف من الحقيقة المطلقة ما لا يستطيع ان يستشفه المنغمسون في همومهم الضيقة».

ان الأنبياء يصلهم ما لا يصل الآخرين من الناس، وسبب ذلك هو تخليهم عن التكالب على طلب الحاجات وما توافره الدنيا من متع زائلة غالبا ما يتعلق بها بقية البشر، فهم لا يهتمون بالمغريات لأن حاجاتهم محدودة، فاغراؤها ضعيف عليهم ولا يهتمون إلا لعبوديتهم لله، ان انعدام الغلو في الحاجات عندهم والذي يودي الى انعدام تأثير المغريات فيهم قد فسح المجال للعقل الميتافيزيقي الحرية المطلقة [illegible]

ويسمعون ويلمسون ويستطعمون ما لا تستطيع الحواس الخمس ان تحسها، وبالنسبة الى المسلمين فان معجزة الإسراء والمعراج(٥٧) مثال على ذلك.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

نرى ونسمع عن اناس لهم قوة غير اعتيادية كالتنبؤ أو الاتصال الذهني وما أشبه، وهؤلاء يختلفون عن الانبياء بان تلك القابلية ليست ناتجة من تخليهم عن طلب المزيد من الحاجات وانما شحذ لتلك الحواس الميتافيزيقية، وقابلياتهم موثقة بتجارب علم الباراسايكولجي الذي بدأ يأخذ حيزا مهما من التجارب العلمية في هذا المجال.

يقول علي الوردي(٥٨): «ان القوى النفسية الخارقة اصبحت اليوم، كما اسلفنا، من الحقائق العلمية المقررة وقد اخذت التجارب المختبرية تؤيدها تأييدا لا بأس به» وفي البحوث التي تدعم وجود تلك القوى الخارقة يحاول العلماء استعمال طريقتين في هذا المجال وكما يقول(٥٩): «هنالك طريقتان في البحث العلمي للقوى الخارقة عند الإنسان الاولى طريقة جمع الوثائق عن الحوادث الخارقة والثانية التجريب والاحصاء».

ان طغيان العقل الميتافيزيقي على العقل النفسي هو الذي جعل الأنبياء والصالحين أناسا متفوقين بكل معنى الكلمة على بقية الناس، وكلما كثرت وطغت الحاجات كلما قصر تأثير ذلك العقل الميتافيزيقي في النفس، لسببين:

الأول: ان عدم الاهتمام بالحاجات يفسح المجال للعقل من ان يتحرر من ضغوطاتها.

والثاني: ان الإنسان يبتعد عن حيوانيته وغرائزه فيسمو ولا يكون عبدا لهما.

وإذا ما أردت ان ابحث موضوع وجود العقل الميتافيزيقي، فأبدأ من خبرة شخصية، كنت في شبابي وفي الدراسة الثانوية وفي درس الفيزياء بصورة خاصة أحس بتأثيرها، كان المدرس يشرح لنا الدرس ويعطينا واجبات بيتية وهي متكونة من مسائل عديدة، وكنت عندما ارجع إلى البيت وإبدأ بحل تلك المسائل أرى (رأي العين) الجواب وانقله نقلا... ولكني كنت اسمع على التلفاز عندما يتكلمون عن الدراسة بأنهم لا يشجعون على الحفظ من دون فهم وكنت أتصور بان سبب رؤيتي للجواب هو أني احفظ من دون فهم للمادة ليس إلا، فعملت جاهداً على إنهاء تلك الحالة وبالفعل وبمرور الزمن اضمحلت تلك القابلية وانتهت.

ليس هذا فحسب، كانت عندي القابلية ان أرى حالات قبل وقوعها، فمثلا لو كنت جالسا بالحافلة أرى مثلا ان رجلا ما يصعد إلى اليها ويبدأ بالرقص والغناء، وبمجرد ان تقف الحافلة يصعد ذلك الرجل نفسه الذي رأيته مسبقا، إلى الحافلة ويبدأ بالرقص والغناء، فقدت هذا أيضا، ولم أر شيئا من هذا القبيل إلا قبل عدة سنوات.

كنا أنا وزوجتي نحيي ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان التي يتوقع ان تكون فيها ليلة القدر، قضينا الليلة كلها في العبادة وانهينا كل العبادات وفي نهاية وقت الفجر وبينما كنا نصلي وفي آخر ركعة بدأ يظهر أمامي شيء وكأنه مطر وازدادت غزارته وبعد ذلك بدأت تتجمع غيمة طولها نحو ٥٠ سم وقطرها نحو ٣٠ سم. وانا اصلي وانظر إلى كل هذه الأمور تحصل أمامي، بعد ان انتهيت قلت لزوجتي: هل تشاهدين ما أشاهد

قالت: لا، قلت: انظري انه أمامنا قالت لا أرى شيئا فتقدمت نحوه ومددت يدي ووضعتها في وسط الغمام وقلت لها: انظري ألا تنظرين؟ فقالت: لا، لم تتبلل يدي ولم تتحرك تلك السحابة برغم إني وضعت يدي في داخلها.

ان البراسايكولوجي[٦٠] علم نشط هذه الأيام وهنالك الكثير من البحوث عن هذا العلم وهنالك أبحاث وتجارب عن أناس لهم قابلية غير طبيعية على الاتصال مع الخارج والتنبؤ، هنالك في تكنولوجيا المعلومات بحوث لجعل السيطرة على الحاسوب علن طريق الأمواج العقلية وليس عم طريق مفاتيح الطابعة أو الفارة.[٦١]

القوالب والشخصية

ناقشنا مكونات الإنسان (الجسد ومركز القيادة والسيطرة والعقل) وتوصلنا الى ان شخصية الإنسان يمكن ان تمثل بمكونين اساسيين، الا وهما النفس والعقل. وهنا يجب ان نبحث عن امرين مهمين الا وهما كيف لهذين المكونين ان يتفاعلا مع بعضهما من اجل ابراز تلك الشخصية؟ وما تأثير الإرادات الخارجية فيهما عندما يحاولان ابراز تلك الشخصية؟

القوالب صلة الوصل بين النفس والعقل

يكون الاتصال بين النفس والعقل عبر قوالب تصنعها النفس او عبر صمامات متخصصة لتمرير ما يتوافق مع إرادة النفس، ففي احد امثلتنا السابقة عن علاقة الام بالطفل وارتباطهما العضوي والمهم جدا لحياة الطفل قد حتم صوغ قالب عند الطفل يربط بين نفسه وعقله النفسي، يمكننا تسميته بقالب الام، فكل العمليات العقلية النفسية التي لها علاقة بالأم لا بُدَّ لها من ان تمر عن طريق هذا القالب وتتمحور في دقائق ذلك القالب.

كلما زادت خبرة الإنسان تتطور قوالب جديدة تقوم بمهمة تحديد نتائج العمليات العقلية النفسية وبالتالي ما تريده النفس، وهنا يجب ان نذكر ان القوالب بالنسبة إلى العقل كالحاجات بالنسبة إلى النفس، فكما ان النفس منقادة بالحاجات الإنسانية فان العقل منقاد بتلك القوالب.

نأتي بقصة يمكن ان توضح كيفية تشكيل قالب من القوالب: يقال ان طفلا وجد بيضة كانت قد وضعتها دجاجة إحدى جيرانه فأخذها وركض بها إلى بيته، قال لأمه يا أمي لقد باضت دجاجة جيراننا هذه البيضة فأخذتها وهربت بها، فشجعته أمه ومدحت عمله وقالت له تعال أطعمك اياها، وبالفعل كان عمل الأم هذا ليس التشجيع بالكلام فحسب ولكن حتى بإعطائه جائزة عليه. كبر هذا الولد وتعلم ان له الحق في امتلاك مال الآخرين وأصبح بمرور الوقت لصا.

وفي إحدى المرات دخل بيت احد الناس وتصادم مع رب البيت وقتله، ألقت الشرطة القبض عليه وحكم عليه بالإعدام، اليوم الذي سبق الإعدام قالوا له ما آخر رغبة لك، قال: أريد ان أرى أمي، جلبوا له أمه فقال يا أمي أريد ان أقبلك من لسانك، تعجبت إلام، قدمت لسانها فأخذه بين أسنانه ولم يتوقف إلا واللسان قد قطع، سألوه لماذا اقدمت على هذا العمل؟ قال عندما أتيتها بالبيضة شجعتني على عملي وأعطتني الانطباع بأنه حق لي، ولولا ذلك لما بقيت اسرق لأصل إلى هذا اليوم الذي اعدم فيه.

فهو من هذه التجربة وربما بمحاولات "ناجحة" أخرى وجد سهولة في الحصول على ما يريد بواسطة السرقة من الآخرين، وبرغم علمه انه لا حق له في تلك الممتلكات المسروقة استمر بالسرقة لأنه خلق لنفسه قالبا يقول فيه ان من حقك السرقة ولا بُدَّ ان تعمل بكل طاقتك وقدراتك على النجاح في تلك العمليات. من هذا القالب تطلب النفس المال وتطلب من العقل ان

يخطط، وعندما تخرج نتائج تخطيط العقل لا بُدَّ من ان تدخل في ذلك القالب لكي تنتج خطة متوافقة مع إرادة النفس وفي الوقت نفسهتسهل الغرض المطلوب منها، اما اذا كانت تلك الخطة مخالفة لإرادة النفس فلا تسمح له تلك القوالب بالمرور. فبسبب ذلك القالب تخرج قرارات العقل بأفضل خطة ممكنة لتحقيق هدف السرقة.

يمكننا تمثيل تلك القوالب بشكل رقم ١٢ إذ ان القالب متمثل بوردة بسبعة بتلات تمثل كل بتلة شرطا من شروط النفس، فتكون الشروط الممانعة او المرفوضة من النفس مغلقة ولقد ظللناها في هذا الشكل، اما الشروط المؤيدة او المقبولة من النفس فمفتوحة ، وبذلك تسمح لكل تفكير عقلي يتماشى مع إرادة النفس وتمنع المغاير لها. ولكي يفرض العقل قراراته يجب ان تكون من القوة والقدرة بحيث تتمكن من إعادة فتح البتلات المغلقة.

شكل رقم ١٢

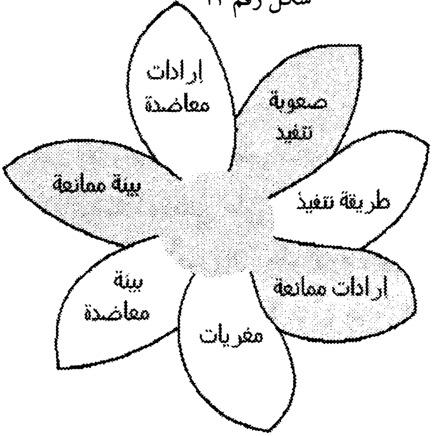

ان نفس الإنسان وفي مسيرة الحياة تحتاج الى اشياء كثيرة تزداد كثرة وتعقيدا كلما تعقدت الحياة، ان ذلك يحتم وجود قوالب جديدة تتماشى مع المتطلبات الجديدة، الكثير من البشر يتخذون المشاهير مثلا أعلى لأنهم يصورون اؤلئك المشاهير على أنهم: معشوقون من الغرباء، والهدايا تمطر عليهم، ويمنحون تشريفات من دون الحاجة الى طلبها، الهيبة التي يتمتعون بها يعدنها حقا مشروعا لهم، ولهم اليد الطولى في عرض السلوك الاخلاقي، ويسمع لهم في اللقاءات الاجتماعية(٦٢)، ان تقليد المشاهير هذا الغرض منه ربما الوصول إلى الشأن نفسه الذي وصلوا إليه، هنالك أناس تتخذ من الممثلين والمغنين مثلا أعلى في تصرفاتهم وبذلك يخلقون لأنفسهم قوالب تحور كل الأوامر العقلية وبما يتناسب مع العمل الذي يتوافق مع مثلهم الأعلى.

ان أول القوالب التي يصنعها الإنسان هي القوالب العائلية، يقولون علماء الاجتماع: «ان العائلة هي وسيط قوي للحقيقة الاجتماعية وهي مركزية في حياتنا اليومية لأن اعضاءها يتشاركون في فضاء عام ممنوع الانتساب اليه لغير الاعضاء، وهم يمتلكون مجموعة معلومات بعضهم عن بعض. ان الجزء الكبير من هوياتنا وسيرتنا متشكلة بصورة كبيرة في "العالم الصغير" التي تصنعها كل عائلة لنفسها».(٦٣)

وهم يقولون: ان التنشئة الاجتماعية(٦٤) تمر بثلاث مراحل:

أوّلاً: التنشئة الاجتماعية الاولى: في هذه المرحلة تتكون الجوانب الاصلية والاساسية للتفاعلات التي تساعد على تطوير الوعي الذاتي للشخص، ان هذا المستوى من التنشئة الاجتماعية يحدث في المدة بين الرضاعة والطفولة، وهو متأثر بصورة قوية بالعائلة.

ثانياً: التنشئة الاجتماعية الثانوية: تحدث مثل هكذا تنشئة في المراحل الاخيرة من الطفولة الى مرحلة البلوغ، فتتسع الدائرة الاجتماعية وتتحرك التأثيرات الاجتماعية الى خارج العائلة وتمتد الى جماعات الاصدقاء والقوى غير العائلية.

ثالثاً: التنشئة الاجتماعية البالغة: تحدث هذه التنشئة عندما يتخذ الشخص ادوار البالغين وذلك بأن يصبح متزوجا، موظفا، او أبا، ان هذا المستوى يجعله قادرا على التكيف الى تعقيدات الادوار المتغيرة التي تحدث خلال البلوغ.

ان محيط الطفل وفي بداية حياته يكون محدودا وقاصرا على العائلة فحسب، لذلك يبدأ الالتزام الديني والمذهبي ويبنى من العائلة. فالعقيدة المسيحية والإسلامية واليهودية والمذهبية تبدأ من نقطة العائلة، وبناء على ما تتبناه العائلة فإن الطفل سيصنع قوالب تحدد مفاهيم ودين العائلة فتكون كل العمليات العقلية النفسية وما يتعلق بالدين من تلك القوالب. ان هذا الأمر ليس قاصرا على الناحية الدينية فحسب ولكن حتى من الناحية الثقافية وحضارة تلك العائلة.

وبعد ان يخرج الطفل إلى المجتمع يبدأ بصوغ وصناعة قوالب جديدة تتلاءم مع المجتمع المحيط به وبالتالي تكون نتائج العمليات العقلية النفسية محكومة بتلك القوالب.

ان الفرد الإنساني يمر بمراحل تطورية (جسدية وعقلية) في اثناء حياته، وإذا ما أراد ذلك الإنسان ان يغير شخصيته في تلك الحقبة فلا بُدَّ ان يكون هذا التغير مصاحبا لعملية تصنيع قوالب جديدة والأهم من ذلك مصاحبا لعملية إلغاء وإتلاف بعض القوالب التي تضبط نتاج عمل العقل.

وبما أنها قوالب موجودة بين النفس والعقل ولا يجوز الخروج بقرارات عقلية إلا عن طريق تلك القوالب لذلك يكون صعبا جدا تدمير تلك القوالب وبناء قوالب جديدة مخالفة لها، ان ذلك ممكن الحصول عليه عندما تكون إرادة العقل وحجته قوية جدا بحيث يجبر النفس على الاقرارعلى ان إرادة العقل هو من صالحها مما يجعلها تقبل وربما تطالب بذلك التغير، فمتى ما سمحت النفس بتغيير او تدمير تلك القوالب وبناء قوالب جديدة مغايرة للقوالب القديمة تكون عملية التغيير أكثر سهولة، لذلك نجد ان الأشخاص الذين يرغبون، ومن دوافع ذاتية، في التغيير تكون فرصة نجاحهم في التغيير أفضل من الأشخاص الذين تفرض عليهم أو عندما تقدم لهم على شكل مساعدة وهم بحقيقة أمرهم غير راغبين في ذلك التغيير.

ولكي أعطي مصداقية لهذا الأنموذج فاني سوف اسرد أمثلة تاريخية من التاريخ العربي الإسلامي؛ لأنها توثق الكثير من الشخصيات الإسلامية توثيقا دقيقا يمكننا ان نفهم منها بعض الطبيعة الشخصية. وانا سوف أركز على ما وثقه القرآن في هذا الخصوص:

مما لا ينكره احد عظم التضحيات التي قدمها أصحاب رسول الله ﷺ للقضية الإسلامية، فلقد قدموا أنفسهم وأموالهم وأهاليهم من اجل الإسلام، ولكن لا بُدَّ لنا من تأكيد امر غاية في الأهمية الا وهو ان أغلب الأصحاب تربوا في عهدين مختلفين الأول عهد ما قبل الإسلام والثاني عهد ما بعد الإسلام. وكما قلنا سابقا بان القوالب والأمثلة العليا لأولئك الأصحاب كانت قد صنعت لهم وموورست من قبلهم من قبل ان يصبحوا مسلمين.

لقد كانت تلك المجتمعات مبنية على عادات وتقاليد وقيم غير إسلامية، لقد كانت المجتمعات قبل الإسلام مجتمعات متخلفة تسودها العادات القبلية والأعراف البدوية أو الحضرية المتعارف عليها آنذاك، ولما تحولوا إلى الإسلام كان لزاما عليهم تحطيم كل تلك القوالب وبناء وتصنيع قوالب إسلامية جديدة مخالفة جدا لما كانوا عليه ايام الجاهلية.

ان عملية التغيير من حال الى حال عملية صعبة وشاقة، لأنه يتوجب على الإنسان ان يحطم الكثير من قوالبه التي اعتاد عليها وتمتع بها وتصنيع قوالب جديدة، كما وإن عليه ان يترك مثله العليا وارتباطاته ويتحول إلى مثل عليا جديدة وارتباطات جديدة.

وفي مثالنا عن الصحابة كان عليهم ان يتركوا عبادة الأصنام المتعددة والمصنوعة بأيدي البشر إلى عبادة الإله الواحد خالق البشر، وعليهم ان يتركوا ارتباطاتهم العائلية والقبلية إلى ارتباطات مع غرباء تحت تسمية الاخوة الإسلامية، ويتركوا ارتباطاتهم بحب الذات إلى حب الإسلام والرسول ﷺ وإخوتهم من المسلمين ومن كل البشر، كما ان عليهم ترك حب المال والدنيا بكل ما تعطي من مغريات إلى حب الآخرة الموعودة بجنات ونعيم، ترك حياة جربوها وعاشوها وتمتعوا بها الى حياة موعودة لا يعيشونها إلا بعد موتهم، فهي في عالم الغيب.

ان ذلك ربما كان سببا في ان يكون أصحاب الرسول ﷺ الأوائل من الفقراء والمساكين والعبيد الذين لا يملكون شيئا في هذه الدنيا ويتمنون ان يحصلوا على شيء أفضل في الحياة الأخرى الموعودة، فعليهم ان يتركوا ويدمروا كل تلك القوالب والمثل، فلم يجدوا صعوبة في ذلك؛ إذ كانت قوالب مؤذية ومريرة، إنهم عندما يحطموها فأنهم يعملون قوالب جديدة ارحم واعدل واكثر انصافا وتسمو بهم من العبودية إلى الحرية والانعتاق.

أما عملية تدمير القوالب والمثل عند بقية الصحابة الذين لم يكونوا من العبيد أو المساكين لم يكن أمرا يسيرا كما كان بالنسبة إلى الفقراء والمساكين، لأنه كان لزاما عليهم ان يحاربوا أنفسهم وكل معتقداتهم وقيمهم، ليس ذلك فحسب بل كان عليهم العمل على بناء قوالب جديدة في ظل ظروف صعبة كان يمر بها المسلمون بسبب رفض ومحاربة قريش لهذا الدين.

ان الإسلام متمثلا بالقيادة الحكيمة لرسول الله ﷺ وباليقين الإسلامي عملت معجزات في هذا المجال لكي تمكن الإنسان من تحطيم جميع أصنامه وذلك بواسطة تحطيم قوالبه وبناء قوالب جديدة، ان الإنسان هو الإنسان نفسه ولا يمكننا ان نصدر أوامر بالتغيير فيتغير كل شيء وبجرة قلم، فالإنسان لا يحكم بهذه الطريقة أبدا. لا بُدَّ للإنسان من ان يمتلك إرادة ذاتية تدفعه نحو ذلك التغيير، وبما ان تلك الإرادة الذاتية تختلف من شخص إلى شخص آخر فلا بُدَّ ان تكون قوة الإيمان ومدى التغيير ممتدا على طيف بدايته تغيير بسيط وينتهي بتغير يكاد يكون كاملا، أنا قلت: يكاد يكون كاملا؛ لأن ذلك امر صعب التحقيق؛ لأن تحطيم كل القوالب وكل المثل يحتاج الى جهود جدا كبيرة ويجب على الإنسان هو نفسه ان يبذلها.

وإذا ما طالعنا القرأن نجد في سورة الجمعة ان الله عز وجل يقول: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ قصة هذه الآية هو انه بينما كان رسول الله ﷺ قائما في مسجده محاطا بالصحابة إذ وصلت قافلة من الشام محملة بالبضائع فبدأ الأصحاب بالانسحاب من المسجد الواحد وراء الآخر ولم يبق مع الرسول إلا اثنا عشر صحابيا (فتغلبت قوالب اللهو والمال

والتجارة على قالب الاسلام واحترام رسول الله) والرسول ﷺ ما زال قائما بالمسجد، فيقول الله عز وجل: قل ما عند الله خير من اللهو والتجارة، وذلك دليل على وجود بقايا قوالب قديمة لم تحطم بعد.(٦٥)

وعند معركة احد وبالرغم من ان أمر الرسول ﷺ إلى الصحابة الذين اعتلوا الجبل كان على ان لا يتركوا مواقعهم سواء غلب المسلمون أم خسروا وذلك لكي يحموا المسلمين من احتمالية التفاف القرشيين خلفهم، ولكن الصحابة وبمجرد ن انتصر المسلمون (في بداية المعركة) وفرار القرشيين نزلوا من مواقعهم لكي يلتقطوا حصتهم من الغنائم، ان ذلك العمل كان سببا في اندحار المسلمين ورجوع القرشيين لكي يتغلبوا عليهم.

صاحت الأصوات بأن الرسول ﷺ قد قتل فهرب الأكثرية الساحقة من الصحابة ولم يبق مع الرسول ﷺ في ساحة القتال إلا نفر صغير من المسلمين لا يتجاوز عددهم عن عدد أصابع اليد الواحدة، لقد كان سبب فرارهم ربما اعتقادهم ببطلان رسالة محمد ﷺ وإذا قتل الرسول ﷺ فان هذا يعني ان الدين قد اندحر ولا يوجد داع للموت من اجل عقيدة خاسرة او ربما ان حلاوة الحياة افضل من مجهولية الاخرة.

وفي معركة الخندق يعبر عمرو بن ود العامري الخندق ويتحدى المسلمين إلى منازلته بقوله: إنكم تدّعون بأن الذي يستشهد منكم من اجل الإسلام يذهب إلى الجنة فتعالوا إلي لكي أرسلكم إلى جنتكم. ولم يتحرك احد من الصحابة لمقابلته، فيخاطبهم رسول الله ﷺ ويقول لهم من يخرج إلى هذا الكافر وأنا أضمن له عند الله الجنة، ولم يخرج له احد، فيصف القرأن ذلك اليوم وحالة المسلمين بالآية(٦٦):

﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ ان بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ان يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولا﴾.

ارتفعت دقات قلوب المسلمين من شدة خوفهم إلى درجة إنهم أحسوا بدقات قلوبهم وكأنها قد وصلت الى حناجرهم.

وهنا نتساءل: لماذا يقاتلون في معارك أخرى ولا يقاتلون في هذه المعركة، السبب ان القتال في معركة تشترك فيها مجموعتان مسلمة وكافرة تكون احتمالية النجاة كبيرة، ليس هذا فقحسب ولكن وجود المسلمين في المكان نفسه يعطي دفعا ويشجع ويحمي احدهم الآخر فتكون فرصة النجاة عالية وكذلك هنالك دائما احتمالية الهرب وكما حدث في أحد او احتمالية الاستسلام ايضا، أما مجابهة عمرو بن ود فان الموت محقق. ونتساءل مرة اخرى، هل ان الموت في معركة يشترك فيها المسلمون مع الكفار تُدخل الجنة ومقابلة مع عمرو لا تُدخل الجنة، الموت واحد والشهادة واحدة ولكن قوالب النفس وحب الحياة ما زالت موجودة عند أولئك الصحابة ولم تنته باعتناقهم الإسلام.

وفي مكان آخر يقول الله عز وجل مخاطبا المسلمين ومنهم الصحابة (٦٧):

﴿وَمَا مُحمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ أَفإنْ مَاتَ أَوْ قُتلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابكُمْ وَمَن يَنْقَلبْ عَلَى عَقبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزي اللّهُ الشَّاكرينَ﴾

يدَلّ ذلك على ان هنالك قوالب ربما تطغى على بعضهم لكي ينقلب على عقبيه، وما ان توفي الرسول ﷺ حتى صار خلاف بين المسلمين، لقد برز خلاف بين الصحابة من الأنصار والمهاجرين على من يخلف الرسول ﷺ. وبالنتيجة انتقل الاسلام من حكومة نبي إلى حكومة حاكم. وبما ان الاثنين مختلفان فالأول مبعوث من الله والثاني اختير من بين الناس ومهما تكن مكانته في الإسلام فلا بُدَّ ان يكون هنالك فرق بين الحكومتين، وبالفعل فان عمر بن الخطاب أوصى أهل الشورى الذين اختارهم هو بنفسه بأن يبايعوا من يقبل بالحكم بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ وسيرة الشيخين، فهنا قد أضيفت سيرة الشيخين لتلك الحكومة.

ان إلغاء المكتوب من السنة النبوية(٦٨) كان سببا في تحويل الأحكام من كتاب الله وسنة نبيه إلى كتاب الله وسيرة الشيخين، ان هذا التغيير في طبيعة الحكومة الإسلامية كان سببا في تقسيم الإسلام على معسكرين أو قسمين: الأول إسلام الحكومة والثاني إسلام المعارضة فالأول يريد الإسلام الذي يعتمد على كتاب الله وسيرة الشيخين والثاني يعتمد على كتاب الله وسنة رسوله، وكلا الفريقين يمثلون النخبة من المسلمين، ومما يجدر ذكره ان النخبة الثانية كانت قلة قليلة.

ولا بُدَّ من إيضاح أمر طالما بنينا عليه هذا الأنموذج ألا وهو ان الشخصية الفردية والشخصية المجتمعية والشخصية الدولية أساسها واحد تتأثر بعضها ببعض، ففي عهد رسول الله ﷺ كانت الشخصية الفردية والشخصية المجتمعية تقريبا واحدة، اذ ان رئيس ذلك المجتمع وبالرغم من انه مبعوث الهي (يعني ان أمره أمر إلهي) فانه عاش بينهم كواحد منهم بل

ربما أفقرهم مالا وأبسطهم عيشة وأحسنهم خلقا ومنطقا، ولكن عندما تحول المجتمع إلى مجتمع حكومة تغيرت مفاهيمها ولم تبق على ما كانت عليه أيام رسول الله ﷺ، فلقد تغير المجتمع إلى مجتمعين احدهما مجتمع حكومة والآخر مجتمع معارضة وأصبحت القرارات محط جدال واجتهاد، وبالتالي انعكس ذلك على الهوية الشخصية الاجتماعية وعلى الهوية الشخصية الفردية، فأصبح طلب الغنى الفاحش مثلا حقا ولا بُدَّ منه مما جعل الكثيرين من الصحابة أغنياء جدا.

سأل رسول الله ﷺ صحابته مرة فقال(٦٩): «كيف أنتم بعدي اذا شبعتم من خبز البر والزبيب وأكلتم ألوان الطعام ولبستم ألوان الثياب، فأنتم اليوم خير أم ذاك؟» قالوا: «ذاك»، فقال: «بل أنتم اليوم خير». وقال ﷺ «فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكن اخشى عليكم ان تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما اهلكتهم».

ولا يخفى على احد خطورة هذه القوالب الجديدة التي دخلت الاسلام والتي كانت نتائجها وكما خبر بها رسول الله ﷺ كارثية، وبالفعل انتجت قوالب (إسلامية) جديدة وهي قوالب الحكام فاصبح الحكم ملكا عضوضا، يجب ان نذكر ان واحدا من تبعات هذا الوضع الجديد هو انقسام المسلمين على ثلاثة أقسام: وهم إسلام الحكام وإسلام المعارضة (الاثنان يمثلان النخبة من الصحابة) والاخير وهو الذي يشمل الأكثرية وهو إسلام العامة، وهو إسلام يذهب مع من هو الأقوى وهنا نتجت قوالب جديدة بين الناس مبنية على هذه الانقسامات، فلما وصل الحكم إلى بني أمية انتقل الإسلام إلى إسلام جديد يأتمر بأمر الحاكم وينفذ إرادته وبما يحقق مصالحه وطموحاته وإرادته فكل الأمور لا بُدَّ ان تسير في فلك ذلك الحاكم.

وبما ان الإسلام أصبح سلاحا بيد الحاكم، فلقد أصبح الحاكم يمتلك قوة كبيرة جدا استغل بها بعض أصحاب الرسول ﷺ لكي يدعموا أحقيته وشرعيته في الحكم، فوصل الحد بوعاظ السلاطين إلى القول بوجوب إطاعة حتى الحاكم الجائر(٧٠)،(٧١) والحاكم الفاسق والحاكم الذي يتسلط على رقاب الأمة بالعنف والقوة العسكرية.

لقد استخدم معاوية سلاحين في سبيل تثبيت حكمه وبث سلطانه الا وهما سلاح الحرمان الاقتصادي لمناوئيه وسلاح الرشوة لأعوانه ومناصريه.(٧٢)

أنا لم أتعدَ حدودي في ما ساقول، وإنما اذكر واقعة إسلامية خطيرة جدا ألا وهي حرب الجمل، فهنالك فريقان من المسلمين الأول يمثله الخليفة المنتخب ومعه قسم من صحابة رسول الله ﷺ والفريق الثاني متمثل بعائشة والزبير وطلحة وقسم من صحابة رسول الله ﷺ، ان العقل لا يتقبل ان تكون مجموعتان متحاربتان كلتاهما على حق، فلا بُدَّ ان يكون احدهما على باطل والآخر على حق، فمن مع الحق ومن هو على الباطل؟ والاثنان من صحابة رسول الله ﷺ؟ إذاً فأن كون الصحابي صحابيا لا يعني انه على حق دائما والسبب بذلك هي قوالب ذلك الصحابي، وهنا نجد مصداقية تأثير قوالب في كلا من الفريقين المختلفين بحسب المواقع التي اتخذوها في تلك المعركة.

ان ذلك التشرذم بين أصحاب رسول الله ﷺ واتباع بعضهم حكام الأزمنة التي عاشوا فيها أعطى أولئك الحكام قوة تمكنهم من خلق جو إسلامي جديد لا يمت للإسلام بشيء، فأصبحت القسوة المفرطة والقتل المتعمد والظلم حقا الهيا للحاكم لكي يستغله في بسط سيطرته وقهره

لرعاياه. فنشأت مدرسة إسلامية جديدة اسميها (مدرسة طغيان الحاكم)، فلهم الحق في كل عمل يعملونه واحلت لهم كل الوسائل من اجل الوصول إلى السلطة والحفاظ عليها.وما قتل سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب اهل الجنة الحسين عليه السلام الا شاهد على ذلك.

اليوم نرى ان القاعدة والمتطرفين المسلمين ورثوا تعاليم تلك المدرسة فهم يحللون قتل الأبرياء وذبحهم وتدمير البلاد وانتهاك الحرمات. ذلك كله ناتج من طبيعة القوالب التي صنعت في دواخلهم أما عن طريق التربية وإما عن طريق الظروف الموضوعية والإرشاد الديني الذي ساد الأمة الإسلامية منذ ذلك اليوم، ان القلة القليلة من المعارضة كان لها قوالب مختلفة إذ بقوا على تعاليم الرسول ﷺ وعلى إرشاداته وسنته، فلو قارنا مثلا بين معاوية وعلي ابن أبي طالب عليه السلام سنجد:

ان عليا عليه السلام قد تربى في حجر محمد ﷺ منذ طفولته ولم يسجد لصنم ولم يتعلم شيئا إلا ما علمه رسول الله ﷺ وهو يقول بأنه كان يتبع الرسول ﷺ كاتباع الفصيل (ابن الجمل) لأمه، فهنا لا بُدَّ ان تكون قوالبه مصنعة ومماثلة لقوالب رسول الله ﷺ. أما معاوية فانه ابن أبي سفيان أعتى أعداء الإسلام ورسول الله ٬، وتربى في جاهلية أبي وفي عصبية قريش وغنى أبي سفيان وكل مفاسد وقوالب قريش وبكل أشكالها، وهنا نريد ان نبين الفرق بين أخلاق الاثنين.

في معركة صفين[(٧٣)،(٧٤)] احتل جيش معاوية الشريعة ومنعوا جيش علي عليه السلام من الحصول على الماء وبرغم كل المطالبات من جيش علي عليه السلام للسماح لهم بالنيل من ذلك الماء فلقد قوبلت بالرفض من معاوية، وعندما هجم جيش علي واحتل الشريعة وعطش جيش معاوية وطلب معاوية

السماح لجيشه بأخذ الماء وافق علي، وبالرغم من معارضة جيش علي القوية على موافقة قائدهم على السماح لجيش العدو لأخذ ما يحتاجون من ماء.

وهنا نرى فرقا اخر بين الحسين بن علي عليه السلام ويزيد بن معاوية، فقبل معركة كربلاء قدم جيش يزيد بقيادة الحر ألرياحي[٧٥] (لكي يمنع الحسين من دخول الكوفة) إلى معسكر الحسين بن علي عليه السلام وكان يحتل آنذاك الشريعة. ولكن برغم ذلك العمل العدواني من قبل جيش يزيد الذي كان عطشانا أمر الحسين جيشه ان يسقوا جيش يزيد ويزودوهم بما يكفيهم بل وحتى اسهم هو بنفسه في سقي جنود ودواب جيش يزيد.

في المقابل منع جيش يزيد الحسين واصحابه والنساء والاطفال عن الماء ولم ينجُ من العطش حتى الطفل الرضيع، فلما خرج الحسين إلى جيش يزيد يطلب الماء لطفله الرضيع كان جوابهم بأن رموه بسهم مثلث الرأس قطع نحره من الوريد إلى الوريد.

ومعركة الخندق[٧٦] مثال اخر لقوالب اخرى.

عندي صديق هرب من العراق (أيام حكم صدام وظلم الحصار الاقتصادي) إلى الأردن واشتغل عند احد الأردنيين الذي كان لا يترك فريضة ولا نافلة إلا واداها، لقد كان التصاقه واتصاله بالمسجد متواصلا ولحيته طويلة. اشتغل ذلك الصديق عند ذلك (التقي) ثلاثة اشهر من دون ان يتسلم رواتبه، وكان كلما طالب برواتبه يعتذر صاحب العمل بطريقة أو أخرى، كان لدى صديقي التزامات وحاجات عائلية وعليه ان يوفيها ولكن من دون رواتب كان صعبا عليه الإيفاء بها، ان استبداد صاحب العمل ورفضه إعطاءه مستحقاته جعل حياته صعبة شاقة.

ذهب صديقي إلى شيخ الجامع الذي يصلي به صاحب العمل وحكى له أمره، ولما جاء صاحب الشغل وكلمه الشيخ رد على الشيخ بأن الدين شيء والعمل شيء آخر، ان هذا الإنسان صنع له قالبا يقول ان المال مهم جدا ولا بد من الحفاظ عليه وتوفيره حتى ولو كان في ذلك المال حقوقا للآخرين، وفي هذه الحالة عليه ان يتفاداها بأي صورة كانت، أما تدينه وممارسته للشعائر الدينية فذلك شيء آخر، فهو يتعامل مع كل واحدة بطريقة مختلفة وكما تهوى نفسه. ان قوالبه تدفعه إلى عدم الدفع.

ان كل الأنواع البشرية دولية كانت أم مجتمعية أم شخصية لا بُدَّ لها من قوالب ولا بُدَّ للعملية العقلية من ان تمر بها وتصاغ بحسبها وتكون نتائج عمل العقل على صلة وثيقة بطبيعة تلك القوالب فان كانت خيراً خيراً تنتج وان كانت شراً شراً تنتج.

تأثير الإرادات الخارجية في القوالب

يكون صوغ القوالب بحسب معطيات وإرادات نفسية تحقق الحاجات المحورية والمرغوبة جدا والتي تتماشى مع إرادات النفس. وبما ان الإرادات الخارجية لها ضغوط وممانعات فلا بُدَّ ان يكون هنالك مساومات بين إرادة النفس والإرادات الخارجية. من هذا نستخلص بأن الإنسان محاط بإرادات كثيرة تكون عوامل في تحديد ماهية ونوعية تلك القوالب.

فالعائلة ومنذ بداية حياة الإنسان تمتلك إرادات يجب التعامل معها، وعندما يخرج الإنسان إلى الشارع هنالك إرادات معاشرة مع من في الشارع، وهنالك الدين، والمذهب، القومية والوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقانوني. كلها تقوده وتطالبه بان يطيعها أو يتعامل معها بما يرضيها، فضلاً عن تلك الإرادات هنالك مغريات الحياة من مال وجمال

وجنس وسلطة وسكن وشهرة وما لفّ لفّها تدفعه وتتناغم مع حاجاته التي صنفها هو بنفسه. فلا بُدَّ إذاً للإنسان من ان يصنع قوالب تؤمن له حاجياته واعتماداً على شدة تعلقه بتلك الحاجات وبما يتلاءم مع كل الإرادات الخارجية وفي الأقل ان يقلل من ضوابطها أو ممانعتها. فلا بُدَّ له من ان يصنع قوالب تؤمن له تلك الحاجات وبأقل معارضة أو سيطرة من تلك الإرادات.

لو ناقشنا مسألة إدمان شرب الخمر مثلا فان أول بداية للشرب ربما يكون لأسباب اجتماعية فربما يشرب الإنسان من اجل التعايش الاجتماعي، وكلما زادت كمية الشرب كلما أحست النفس -بالمزيد من التخدير- ربما بشعور من النشوة واللذة والراحة، وإذا ما ازداد ذلك التخدير ليصبح عاملا للسيطرة على بعض الآلام أو حالات عدم رضى بما يحصل للنفس من الإرادات الخارجية، فان ذلك يقود الإنسان إلى الاعتماد عليه أكثر وأكثر في حل المشكلات ومقاومة الصعوبات.

بسبب المشكلات العائلية بين الأبوين وتناول الأم للمخدرات تشجعت البنت (X)، هي الأخرى، على تناول المخدرات، ولم تكتفِ بذلك فحسب ولكنها بدأت ببيع المخدرات إلى صديقاتها، ان اعتمادها على تلك المخدرات كان قد اثر في حياتها نفسيا واجتماعيا وصحيا، ولكنها أدركت عظم المشكلات التي سببتها لها تلك المخدرات وأرادت ان تتوقف، حاولت بعدة طرائق منها زيارة الأطباء أو أخصائيي النفس ولم يساعدوها بشيء، ولكنها وجدت بالكنيسة ملاذا وقوة إضافية أعطتها القدرة على التوقف، فأصبح الدين بالنسبة اليها المنقذ لأنه ربما نَفَّسَ عنها وعوضها عن ما كانت تعانيه من عدم أمان أو طمأنينة أو إيمان بشيء مهم.

أو بخلاف ذلك فان الشخص الذي لا يرى في التغيير مصلحة نفسية وإنما يراها على أنها مجاراة للإرادات الخارجية المسلطة عليه وان لا قدرة له على مواجهتها، فانه وان تغير بتأثيرات تلك الإرادات فانه لا بُدَّ ان يرجع إليها في اقرب فرصة متاحة له أو بعد ان تضعف شدة تلك الإرادات الضاغطة عليه.

ان للإنسان القابلية (إذا ما أراد) على ان يحطم قوالب (وإذا ما أراد) ان يخلق قوالب جديدة، ان هذه الديناميكية في التعامل مع القوالب هي التي مكنت الإنسان من هذا الكم الهائل من التقدم العلمي والتكنولوجي، فالإنسان البدائي لم تكن تجابهه التحديات التي تجابه إنسان هذا اليوم ولذلك تحتم على إنسان هذا اليوم ان يخلق قوالب أكثر بكثير من الإنسان البدائي وكل هذه القوالب مدفوعة بالحاجات وبحب الذات وبالإرادات.

فكما ان الفرد الإنساني، وفي أي حقبة من حياته، يمر بمراحل تطور منذ طفولته إلى ان نهاية عمره فان الإنسان وعلى مرّ العصور لا بُدَّ له ان يطور قوالبه وبما يتوافق مع طبيعته الإنسانية ولكن بحسب الظروف المحيطة به وتحت ضغوط الإرادات الخارجية التي يعيشها في عصره. ذلك كله بفضل مطاطية كل دماغ الإنسان. فلقد أثبتت التجارب بان الإنسان الذي فقد نصف دماغه[٧٧] يمكن ان يستعيد قابلياته من جديد.

ان درجة العجز او الاختلال الوظيفي الناتج من اصابات الدماغ يعتمد على قابلية الشخص قبل الاصابة فضلاً عن درجة وموقع وطبيعة تلك الاصابة، ان تلك الاصابة تؤثر في ما تؤثر في الشخصية وربما تكون دائمية، وبالعلاج واعادة التأهيل يمكن ان تعيد بعض القابليات السابقة. ان الغرض من اعادة التأهيل هو تقوية القابليات الموجودة والتعويض عن القابليات المفقودة[٧٨].

وهنا أيضا يجب ان ننظر إلى كمية ونوعية القوالب التي يخلقها الإنسان لأنها تعتمد -كما قلنا- على ما تأتي له بها حواسه فالإنسان الذي يعيش في محيط (متخلف) فان قوالبه، كثرت أم قلت، لا بُدَّ -بالتأكيد- ان تكون مختلفة عن القوالب التي يصنعها من يعيش في مجتمع (متحضر).

أنا وضعت الكلمتين (متخلف) و(متحضر) بين هلالين لان التخلف والتقدم مشروطان بما ينفع الناس، فهل نسمي الذي يستعمل القنبلة الذرية متقدما والذي لا يملك القنبلة الذرية متخلفا، وهل نسمي الذي يظلم الناس بقوته وسلطانه متقدما والإنسان الاعتيادي البسيط متخلفا، لكل واحد ظروف تحدد له طريقة تفكيره وتعاملاته وبالتالي نتائج عمله.

تفاعلات الإنسان التي تسهم في إبراز شخصيته

مما تقدم، نخلص بأن الإنسان كائن ذكي لأن له عقلا قادرا على اجراء عمليات فكرية غاية في التعقيد، فضلاً عن امتلاكه للنفس التي هي شركة بين قائد والمتمثل بمركز القيادة والسيطرة والعبد المتمثل بالجسد الذي يعمل بقوة وسلاسة لاداء الواجبات المناطة به.

لقد قلنا ان الإنسان هو الجزء المادي الثاني للشخصية وهو الممثل الوحيد لها، وهنا نستكمل بحثنا لكي نتكلم على التفاعلات التي تجرى داخل هذا الإنسان فضلاً عن التفاعلات التي تجري بينه وبين الإرادات الخارجية التي تريد ان تتحكم به، ان ذلك سوف يسهم في توسيع فهمنا لدور الإنسان ككل في ابراز الشخصية، وفي ما يلي نصف تلك التفاعلات:

أولاً: التفاعلات النفسية:

ان هذه التفاعلات مرتبطة بوجود الفرد في هذه الحياة وفي سعيه لتحقيق المنجزات المطلوبة لديمومة الحياة وتحسين وضعها. فلذلك يجب على النفس ان تتعامل مع الحاجات المرتبطة بها لكي تجني اكبر قدر من الفائدة. ان غريزية النفس وقلة عقلانيتها ربما تدفعها الى ان تتصرف بطرائق غير صحيحة عندما تتعامل مع الحاجات او الإرادات او الظروف الخارجية، لذلك نرى مثلا هنالك هوسا في حاجة ما او تصرف غير مقبول مثلا العصبية، وعدم السيطرة على ما تقوله النفس في مواقف محددة كامثلة على ذلك.

ان تفاعلات النفس تلك تحتاج الى طاقة تحرقها النفس لإداء الواجبات المراد انجازها، لذلك يكون لصحة الجسد وقوته دور في ابراز شخصية معينة، فربما تستعمل تلك القوة في الخير او ربما تستعمل في الشر وكل واحدة من تلك الطرائق تبرز شخصية مختلفة، ليس هذا فحسب ولكن شكل الجسد ولونه وجمال الوجه كلها تؤدي ادوارا في ابراز الشخصية.

الكثير من الناس الذين هم غير راضين عن انفسهم لأن صفاتهم الفيزياوية غير متلائمة مع ما يرغبون فيه يتعاملون ويتفاعلون مع انفسهم ومع المحيط الخارجي بطريقة مختلفة عن الذين راضون عن انفسهم، ونتيجة لذلك تبرز شخصيات مختلفة ايضا. وفي دراسة اميركية اثبتت ان نظرة المجتمع ككل وحتى الملونين منهم يعتقدون بأن البيض هم الأفضل لانهم يملكون القوة والسلطة والمكانة الأجتماعية.[٧٩]

ثانياً: التفاعلات العقلية:

وهي التي أساسها القيم العلمية ومبنية على معطيات ووقائع محددة، فالعقل ينظر إلى الإشارات أو الحاجات أو المسائل المطلوبة منه ويقارن ويحسب ويبحث عن تجارب سابقة وإرادات مؤثرة لكي يصل إلى نتيجة وبالتالي يستنتج الدرس ويصدر القرار الذي يصل إليه. ان الفرق بين التفاعلات النفسية والتفاعلات العقلية هي ان الأخيرة لا تحتاج إلى اسهام النفس في كل الأحوال اذ بإمكانها التوصل إلى قراراتها من دون أي تدخل من النفس، ان النتائج الأخيرة لتلكم القرارات (لكي تنفذ من النفس) لا بُدَّ من ان تكون منضبطة بقوالب النفس التي تحتم بواسطتها على العقل ان يحور قراراته لكي تكون منسجمة مع تلك القوالب حتى تسمح لها النفس بالمرور من دون اعتراض وبالتالي تنفذ.

جميعنا اختبرنا حالات نمر بها ونحن نؤدي عملا جسديا ولكن عقولنا تعمل وتفكر بأمور لا علاقة لها بما يعمله جسدنا. وهذا الأمر يحدث عند الكثير من الناس، فمثلا هنالك أناس وهم يؤدون فريضة الصلاة يفكرون بما حدث لهم في أثناء النهار أو ربما في مشكلة حصلت لهم في أثناء العمل أو في أمور أخرى لا علاقة لها بالصلاة، ونرى مثل هذا يحدث عند بعض الطلبة في المدارس أو الجامعات، أو الأشخاص الذين يشاركون في المؤتمرات أو قاعات الاجتماعات فهم موجدون بأجسادهم فينظرون ويسمعون ويتفاعلون ولكن عقولهم غائبة عما يدور في الدرس أو المؤتمر.

ذلك يعني ان هنالك احتمال ان يكون، في بعض الأحيان، انفصام مؤقت في العلاقة بين العقل والنفس، فالنفس تؤدي الواجب الجسدي بميكانيكية وكأنها ربوت فطالما ان النفس منشغلة بتلك العملية فان العقل

يجد عنده متسعا من الوقت لكي يفكر بمسائل لا علاقة لها بما تعمله النفس، ان ذلك الانفصام لا يمكن ان يحدث عندما يكون العقل هو القائد والمسيطر على النفس، فعند ذلك تكون اعمال النفس محكومة كليا بإرادة العقل.

ثالثاً: التفاعلات بين العقل والنفس

العلاقة بين الاثنين مبنية على أساس ان العقل فكر ونتاجه فكريا لا يمكن ان يتحقق إلا بالمادة وتلك المادة لا بُدَّ ان تتحقق بواسطة النفس،. فلو ان شاعرا فكر بشعر ونظمه بعقله فلولا وجود ادوات النفس من لسان أو يد فلا يمكن لذلك الشعر ان يخرج من عقل ذلك الإنسان بصورة مكتوبة أو منظورة بالعين أو معبر عنه بصوت مسموع.

ولكي يكون للنتاج العقلي وجود خارج النفس لا بُدَّ للنفس ان تسمح وتعمل على اظهاره وذلك بترجمته واعلانه بواحدة او عدة صورة، كان تكون حركة جسدية او عن طريق حواس الإنسان الخمس. ان النفس تستغل ذلك الارتباط لصالحها فهي التي تقرر نتاج ذلك العقل وتقرر تطبيقه وبالتالي تقرر الاتجاه الذي يسير فيه ذلك الفكر، هنالك أنفس سمت فنتج العقل فكرا أفاد العالم وهنالك أنفس دنت فدمرت العالم. ان النفس إذا عصت فالعقل لا قيادة له وشتان ما بين قائد عاقل وقائد مدفوع بغريزة أو حاجات أو هوى.

التاريخ حافل بحكام غلبت نفوسهم على عقولهم وطوعتها لعمل الشر فَأذَلوا وعَبّدوا وقتلوا الآلاف والملايين من البشر، فهتلر وصدام وبول بوت وفرعون أمثلة على مثل هكذا قادة وهكذا أنفس، وهنالك قادة طوعوا نفسهم فنشروا عدلا وإنصافا وإخوة وخيرا بين الناس، والأنبياء أمثلة عليهم.

ان التفاعل بين العقل والنفس يمكن تمثيله بشكل رقم ١٣ اذ ان النفس تخلق حاجزا بينها وبين العقل، ويكون لها ممر مفتوح من خلال ذلك الحاجز على ان يكون ذلك الممر باتجاه واحد (من النفس الى العقل)، كما وتضع في ذلك الحاجز قوالب خاصة بما تريد ان يستجيب العقل به، ولا يسمح بمرور نتاج ذلك العقل الا عن طريق تلك القوالب، فاذا ما تعارضت نتاجات العقل مع تلك القوالب لن يمر منها شيء الا في الحالات الاستثنائية التي تحتاج فيها النفس الى تفكير العقل لانها غير قادرة على مواجهة ظرف ما، فبذلك تفتح له ممرا مؤقتا ومن دون عائق الى ان تنجلي تلك الظروف.

شكل رقم ١٣ تفاعل النفس مع العقل

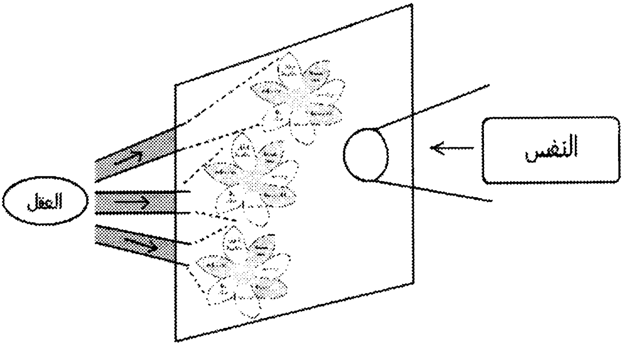

رابعاً: التفاعل بين الإنسان والارادات الخارجية

الإنسان بعقله ونفسه قوة جبارة، وفي الماضي والحاضر والمستقبل دائما كان ويكون وسيكون هنالك بشر قد بنوا أو دمروا واخرون سموا أو انحطوا، إن لدى الإنسان القابلية على تحدي الإرادات الخارجية من اجل تحقيق ما يريده. فبتعاون العقل والنفس يتمكن الإنسان من صوغ ارادات داخلية في احيان تتفق مع الإرادات الخارجية وفي احيان اخرى تتعارض وثالثة متوافقة، كل ذلك من اجل ان يحقق ما يريد.

ليس كل البشر بالقدرة نفسها على التحدي او بنفس التخاذل والخضوع، إن ذلك التباين هو سبب في ابراز شخصيات مختلفة بين بني البشر.

خامسا: تفاعل الإنسان مع المغريات

ان المغريات هي كل الأمور سواء كانت مادية أم معنوية والتي تجلب لذة وسعادة وراحة ومتعة، فالجنس والجمال والغنى والسلطة والجاه أمثلة على تلك المغريات، ان العلاقة بين تلك المغريات وبين الإنسان (بعقله ونفسه) هي علاقة عضوية يمكن ان تدفعه في الاتجاه التي تريد ان يتخذه. وبما ان المغريات تصل إلى النفس عن طريق الحواس، فإن الحواس تلعب دورا مهما في تلك العلاقة.

لا يمكن لشيء ان يكون مغريا ما لم يكن هنالك طلب عليه من النفس، فإذا كان الطلب قويا وتحس به النفس يصبح ذلك الشيء مغريا، وإذا ما حصل هذا التناغم بين المغريات والنفس فإن ذلك سيدفعها الى التوجه نحو ذلك الإغراء. وبما ان النفس تبحث عن اللذة والمتعة والراحة فلا بُدَّ لها ان

تصنف وتعطي تلك المغريات درجات مختلفة واعتمادا على كمية ونوعية اللذة والمتعة الناتجة عنها. وإذا ما اتفق العقل والنفس على الامر نفسه فإن الإنسان يندفع بقوة وعزيمة نحو تلك المغريات.

ان المغريات لها تأثير آني في الإنسان فلذلك يعطيها الأولوية في أي اعتبار من اعتباراته بل ربما تتفوق في اولويتها حتى على الإرادات الخارجية التي ربما تقف حائلا بين الإنسان وتلك المغريات، فمثلا ان بعض الإرادات التي تمنع الزنا مثل الدين والأخلاق الاجتماعية تجد ان مغريات الجنس ربما تدفع ببعضهم الى ان يزني برغم علمه بان عمله هذا غير أخلاقي وليس مسموحا به دينيا. ان دور العقل في هذه الحالة يكون في البحث عن الطرائق والسبل التي تضع الدين والمجتمع جانبا في سلم الأولويات فيكذب ويعمل الخطط من اجل ان لا ينكشف أمره.

ان عمل المغريات يشبه عمل الجراثيم المرضية لأنها تصيب الشخص بحالة مرضية ومن نوع آخر مختلفا عن الاصابة التي تحدثها الجراثيم، ان عظم مشكلة إصابة النفس بجراثيم المغريات عائد إلى حقيقة ان للنفس حاجة ورغبة فيها، مثلا الأكل للنفس حاجة فيها لبقاء الجسد وصحته فلذلك لا بُدَّ منه ولكن عندما تصبح إغراء ومتعة تفوق الحاجة الإنسانية تصبح جرثومة تكون سببا في تدهور الإنسان.

ان لكل من السبل التالية امثال التكرار والتربية والإرشاد والعزل أهمية في معالجة المغريات، ان تحيد الحواس وتمنعها من الاطلاع على المغريات بحيث تكون سببا في تقليل شدة اندفاع تلك الحواس، فإذا منعت الحواس من الإحساس (عن طريق العين أو السمع أو اللمس أو الذوق) بالمغريات فان ذلك يكون عصمة لذلك الإنسان من تلك المغريات، لأن عدم السماح

للحواس بنقل الإشارات المغرية سوف لا ينبه غريزة النفس فبالتالي يكون الإنسان قد لقح نفسه ضد تلك المغريات.

ان الدين مثلا يدفع الإنسان الى ان يغض بصره وسمعه ولمسه عن المحرمات، فإذا ما التزم الإنسان بتلك الإرادة الدينية وطبقها فسينجلي عنه خطر التعرض للمغريات، وخلافا لذلك فانه بمجرد ان ينظر او يسمع او يلمس يبدأ داء المغريات بالاستفحال.

ان المتدينين الملتزمين يعملون بكل قوتهم من اجل حجب حواسهم عن المغريات، فهم لا ينظرون إلى الجنس الآخر، ولا يلمسونه، لا يكذبون ولا يسمعون الكلام البذيء والنميمة والغيبة، ان كل ذلك يقلل من درجة الارتباط بتلك المغريات بل يزيد على ذلك بان يجعل خزين الذاكرة فيه شحة من تلكم الخبرات المرتبطة بتلك المغريات. ان النجاح في تلك الأمور وعند هؤلاء الناس يدل على ان الإنسان قادر على تقليل الضرر وبالتالي السيطرة على المغريات.

ان السارق عندما يرى ان المادة المسروقة سهلة الحصول عليها فان ذلك يشجعه على التقاطها، أما إذا منع عينه أو إذنه أو لمسه من الشعور بتلك المادة القابلة للسرقة فلن يسرقها. وإذا ما كانت الإرادات الخارجية قادرة على ان تصبح عائقا أما بواسطة العقوبات أو بواسطة التعامل الاجتماعي مع الشخص فإنها بذلك تضع المشكلات والمعوقات أمام ذلك السارق فتعينه على تجنب تلك السرقة. وإذا ما عاش الشخص في الظرفين السابقين غض الحواس وإرادات خارجية مانعة فان ذلك الإنسان سوف يعيش حياة خالية من جرثومة الإغراء.

وفي المجتمعات المنفتحة نرى ان العكس صحيح فالاغراء شيء مطلوب ويدفع الناس اليه دفعا (ليس في كل الأمور ولكن فقط في الامور المقبولة منها) فنرى مثلا الدعايات والأفلام التي تشجع وتسهل وتدفع نحو النظر والسمع لكي تدغدغ النفس وبالتالي تدفع الإنسان الى ان يصاب بجرثومة الإغراء، ففي الدعايات يظهر الجمال باجلى صوره وبأوضاع مثيرة ومغرية، ليس هذا فقط ولكن هنالك دعايات لا علاقة لها مثلا بالجنس ولكن تظهر فيها لقطات جنسية مبطنة.

التفاعلات في بودقة واحدة لإنتاج الشخصية

لكل واحدة من التفاعلات التي ذكرناها سابقا تأثير في الشخصية، اما الكل مجتمعة فهي خالقة للشخصية، فالعقل يفكر ويحل المشكلات ويخطط، وكل تفاعلاته في هذا الاتجاه، النفس ترغب وتدفع وتعمل وتنتج، والحاجات تدفع وتغري والارادات الخارجية تفرض وترغم وتعاضد وتمنع، وبالنتيجة يخرج الإنسان بشخصية فريدة متفقة مع تلك التفاعلات المتضاربة مرة والمتعاضدة مرة اخرى او النقيضين في آن واحد.

وإذا ما اردنا ان نوضح تأثير هذه التفعلات في ابراز وتطور الشخصية فيمكننا ان نناقش تطورها ومن نقطة البداية ومباشرة منذ ولادة الطفل الى ان تكتمل شخصيته وتنضج تفاعلاته لتصوغ شخصيته، نحن قلنا سابقا ونعيده هنا ايضا، ان الشخصية ديناميكية وليست ثابتة، وبهذا نعني ان الإنسان يمكن له ان يحور تلك الشخصية بمحاولته تغيير تلك التفاعلات كلها او اجزاء منها.

فالرضيع يخرج الى الدنيا وهو على الحالة الآتية:

أوّلاً: التفاعلات النفسية: لا يفقه من المحيط الخارجي الا اليسير فلذلك فإن حاجاته ونفسه لا تمر بعمليات معقدة من الإرادة والبحث عن توفير تلك الحاجات.

ثانياً: التفاعلات العقلية: ان العمليات العقلية غير ناضجة.

ثالثاً: التفاعلات بين العقل والنفس: بسيطة جدا فلا التفاعلات النفسية ولا العقلية ناضجة كفاية لكي تحدث اي تصادم بين الصنفين.

رابعاً: التفاعل بين الإنسان والارادات الخارجية: لا سيطرة للإرادات الخارجية عليه لانه مصون وغير مسؤول وله كامل الحرية ان يعمل ما يشاء وكل الامور متوافرة ولا صراع قاهرا بينه وبين المحيط الخارجي (كإرادات).

خامسا: تفاعل الإنسان مع المغريات: لم ينضج كفاية لكي يكون للمغريات أثر.

ان شخصية ذلك الرضيع تكاد تكون مشابهة لكل الرّضّع، فشخصياتهم تكاد تكون متركزة على اشياء بسيطة جدا: تصرفاتهم عندما يجوعون، وعندما يمرضون او يحسون بألم، وعندما يتغوطون او يتبولون، واوقات نومهم.

ويكبر الرضيع فيصبح طفلا فتزداد مداركه نضجا وتبدأ الكثير من التفاعلات المذكورة اعلاه بالظهور وبالتعقيد.

فيبدأ يرى الإشياء بوضوح ويبدأ بالتجاوب مع المحيط الخارجي، وتبدأ تتطور عنده رغبات. وهنا نشاهد مظاهر جديدة للشخصية: مثلا تفاعله مع الغرباء، وتعلقه بالوالدين، وتعامله مع بقية الاطفال.

ويكبر فيدخل الروضة فيعيش في محيط جديد وتتعقد التفاعلات جميعا فيبدأ باظهار صفات شخصية معتمدا بذلك على مجموعة التفاعلات التي تسير داخله، فتبرز صفات شخصية جديدة.

وكلما كبر تتعقد تلك التفاعلات وتتطور شخصيته فتبرز صفات جديدة.

وعند البلوغ يكمل نضج عقله، وتزداد احتياجاته، وتزاد مغرياته، وتطالبه الإرادات بوجوب طاعتها، وتزاد طلبات نفسه وحاجاتها فعند ذلك تكون شخصيته قد وصلت الى مرحلة كبيرة من التغيير وتعلمت كيفية التعامل مع ما تريد النفس ومع كل التفاعلات المعارضة لها. إذاً التفاعلات تتطور وتزداد تعقيدا بمرور الزمن ويرافق ذلك التغيير تكامل لصورة الشخصية.

فلو رجعنا إلى المثال الذي سردناه سابقا عن السارق للبيضة التي طبختها له أمه وبالتالي تخرجه لصا، فيسرق ويقتل ويقطع لسان أمه ويعدم: لم يكن يعرف ذلك الطفل بان السرقة غير مقبولة، ولكنه وجد بيضة التقطها ولم يكن مدركا انه يقوم بعمل غير مقبول، فطالما انه لا يوجد احد يراه أو يمنعه فلماذا لا يأخذها، ذهب إلى أمه بتلك البيضة وشجعته أمه على ذلك العمل وأكرمته عليه بان طبخت له البيضة وأطعمته إياه، ولما أكلها تلذذ بطعمها، دعنا نحلل هذا الأمر

* طفل لم يدرك ماهية عمله التقط بيضة وليس له علم بتبعات ذلك العمل لأنه لم يختبر هذا الأمر بالسابق.

* جاء بها إلى أمه، شجعته، وأكرمته على ذلك العمل، إذا ان هذا العمل عمل مقبول ولا غبار عليه.

* تعلم ان السرقة عملية سهلة للحصول على ما يريد.

* يكبر وتتطور قابلياته وتزاداد حاجاته وتزداد مغرياته وتزداد رغبات نفسه ونضج عقله لكي يخطط الى عمليات اكبر واموال اكثر ووسائل اشد واقوى الى ان تصل به الحالة الى القتل.

* بعد إلقاء القبض عليه وحكمه بالإعدام ولا مناص إلا فقدان النفس للحياة عند ذلك ادرك ان الانجرار نحو السرقة لها تبعات لم يكن يضعها في حسبانه فلذلك انتقم من مهّد له الامر (امه).

لقد تكلمنا على الإرادات الخارجية من دون ان ندخل في تفصيلات تلك الإرادات بالرغم من أننا قدمنا بأن الشخصية تعتمد على ركنين اساسيين الا وهما المكون المادي (الحاجات والإنسان اللذان فصلناهما في الفصلين السابقين)، والمكون المعنوي (الإرادات والظروف). وفي الفصل التالي سوف نسهب في شرح تلكم الإرادات.

الفصل الخامس

الإرادات المكون المعنوي للشخصية

الإرادات سبب في تذبذبات الشخصية

علاقة القدرات الشخصية بالإرادات الداخلية

الإرادات وعلاقتها بالسمات العامة للشخصية الفردية والشخصية المجتمعية

الاول: الأخلاق

الثاني: محورية الذات

ثالثاً: الشعور والإدراك

الفصل الخامس
الإرادات المكون المعنوي للشخصية

في الفصلين السابقين حددنا مكونين اثنين من مكونات الشخصية وهما الحاجات والانسان نفسه، وهنا سوف نبحث في مكون ثالث الا وهو الإرادات وهما على نوعين: خارجية، وداخلية يصوغها الإنسان مقابل كل إرادة خارجية يمكن ان تعترض طريقه. وهنا يجب ان ندرس تأثير هذا المكون (الإرادات) في بناء الشخصية.

الإرادات سبب في تذبذبات الشخصية

قلنا سابقا بأن العوامل التي تقرر نوعية الشخصية لها تأثير تضامني وتكاملي في نوعية وطبيعة تلك الشخصية، وان الإنسان بطبيعته العقلانية (ومهما كانت شخصيته) لا بُدَّ له من استعمال عقله في الكثير من تصرفاته وأعماله، ان هذا الاستعمال للعقل لا يؤدي بالضرورة إلى نتائج جيدة أو ايجابية أو مفيدة للإنسان نفسه أو للمجتمع أو للاثنين معاً، والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة الصراع بين النفس والعقل الذي طالما يكون وفي اغلب الناس منحازا نحو النفس، فعندما تكون القيادة بيد النفس لا بُدَّ للعقل من تنفيذ أوامرها، ففي هذه الحالة يكون العقل مطية تركبه النفس وتسوقه في الاتجاه التي ترغبه، فتكون العمليات العقلية أداة لتحقيق أهداف النفس.

لا بُدَّ للنفس من تحديد مواقع حاجاتها قبل ان تدخل في صراع مع العقل، لان مؤجج ودافع ذلك الصراع هو معارضة العقل لبعض الحاجات الموجودة في مدار الانحطاط أو المدارات الواطئة ، وتقل تلك المعارضة

كلما ارتفعت تلك الحاجات في مدارات حب الذات. فمتى ما قررت النفس اتجاهها وحسب حاجاتها وكانت نتيجة ذلك الصراع من صالحها فلا بُدَّ للعقل ان يؤدي واجبه في تحصيل تلك الحاجات أو المزيد منها.

فمثلا ان رجلا يحب المال حبا جما ويريد ان يجمعه بأية صورة وبأية وسيلة فتكون النفس قد وضعت حاجة المال في مدار الانحطاط، ليس هذا فقط ولكن لا بُدَّ لها من ان تضع حواجز (أسميناها قوالب) أمام العقل لكي لا يصدر إي قرار أو يعمل أية خطة إلا بما يحقق تلك الحاجة أو المزيد منها.

ان الصراع بين النفس والعقل من اجل القيادة لن يتوقف هنا بل هو مقيد بالإرادات الخارجية التي تكون ضاغطة أما باتجاه النفس وإما اتجاه العقل وهنا لا بُدَّ للنفس من ان تعمل بما يجلب لها الكثير من الفائدة حتى ولو يحتم ذلك رفع الحاجات من المدارات الواطئة إلى المدارات العليا وبالتالي تخفيف شدة ارتباط تلك الحاجات بالنفس.

ان تدخل الإرادات الخارجية لن يبقي حتمية لاستمرارية سيطرة النفس ونتيجة لذلك فان القرارات التي تخرج من الإنسان لا بُدَّ ان تكون متذبذبة فمرةً نحو الخير وأخرى نحو الشر، ودورة إيمانية وأخرى كافرة أو تتحول من فسق إلى نبل أو العكس.

فلو رجعنا إلى مثالنا السابق ووجدنا ان الإنسان موجود في محيط ديني يصر على ان المال لا بُدَّ ان يأتي من مصدر حلال وان من يجمع المال غير الحلال فإن عقابه شديد عند الله، فإذا ما تمكن العقل من إقناع النفس بان حاجة المال اليوم لا تساوي حاجة المال في الحياة الأخرى ولا تساوي رضا الله عنه ولا تساوي الجنة فعند ذلك لا بُدَّ للنفس من ان تنكسر وتتأثر بقوة

إقناع العقل لها. أما إذا كان هنالك مال سائب مثلا ولا يهتم ذلك الإنسان بالدين وهو إذا ما حصل عليه لا يخسر شيئا فان العقل ربما لا يتمكن من إيقاف النفس.

ان أي عملية انتقال للحاجات بين مدارات حب الذات لا يحصل ما لم تكن هنالك طاقة قد صرفت أو أضيفت وعند ذلك لا بُدَّ لحدوث سمو أو انحطاط إنساني. ان الانحطاط يمكن ان يكون متمثلا بالكذب، والغش، والسرقة، والظلم وكل ما يؤذي النفس أو الآخرين، أما السمو فيكون متمثلا بالرحمة، والشفقة، والعفو، والصدقة، والصدق وكل ما يفيد النفس (من دون إحداث ضرر بالآخرين) أو بما يفيد الآخرين.

بحكم التفاعلات التي تسيطر على مواقع الحاجات فان عملية التنقل بين أو الحفاظ على مواقع الحاجات في مدارات حب الذات لا بُدَّ ان تكون عملية ديناميكية مما يجعل الانتقال متذبذبا مرة نحو الخير وأخرى نحو الشر.

ان وجود الإرادات والظروف التي تدفع نحو السمو بكثرة تعضد العقل بقوة اكبر في محاربة النفس، وعلى عكسها الإرادات والظروف التي تدفع نحو الانحطاط فان العقل لا بُدَّ ان يكون مطية للنفس، ولذلك فان تذبذب العقل بين هذين الطرفين يكون بثلاث طرائق. كل طريقة منها تعتمد على ما متوافر من ظروف وإرادات فإما يخضع للنفس كليا، جزئيا وإما يكون لها ندا.

ان النفس لا بُدَّ لها ان تتفاعل مع العقل لكي تحقق اكبر قدر من الفائدة وذلك يعتمد بالدرجة الأولى على استعدادها لصرف الطاقات لتوفير تلك الحاجات فضلاً عن قوة تأثير الإرادات الخارجية والظروف فيها.

ان الإنسان يعمل جاهدا لتحقيق ما يريد بحسب شخصيته ولكن تعامله مع الإرادات الخارجية تجعله مرة مطيعا وأخرى ثائرا ومرة راضيا وأخرى رافضا، ان كل موقف يأخذه يكون معتمداً على قوة المعارضة التي يلاقيها أو رفض الإرادات الخارجية لها، فان ضعفت تحدى، وان قوت انصاع.

ان أي طريقة يتخذها الإنسان لا يسعى فيها إلا ان تكون هي الطريقة التي تجلب له اكبر سعادة ممكنة أو التي تبعد عنه اكبر قدر من الألم أو عدم الراحة. ان الإنسان يتعامل مع الإرادات الخارجية بثلاث طرائق وهي كالآتي:

الطريقة الأولى: وهي الانصياع للإرادات الخارجية:

تكلمنا على الكثير من الإرادات الخارجية فهي دينية قانونية اجتماعية ثقافية وما شابه، وربما تكون واحدة منها أو مجموعة منها، ان الإرادة التي لها حظوة كبيرة عنده ربما تكون هي الإرادة التي يتأثر بها ويطيعها أكثر. فإذا ما كان الدين هو الإرادة الأقوى فهو يمتنع عن المحرمات طاعة لتلك الإرادة، فلذلك يرضى بما عنده ولا ينتقل بحاجته من المدارات العليا إلى السفلى بل وربما يجاهد نفسه من اجل الصعود إلى المدارات العليا. وإذا ما كان القانون هو الإرادة التي لها الأهمية الكبرى عنده، فهو سيتصرف معه كتصرفه مع الدين فهو يعمل ضمن ما يقره ويسمح به القانون ويبتعد عن ما لا يقره أو يرضاه ذلك القانون.

الطريقة الثانية: وهي إنكار الحاجة:

فبسبب تلك الإرادات، أيَن كانت، ينكر اضطراره إلى الحاجات التي تتعارض مع تلك الإرادات، فبذلك يضع تلك الحاجات في المدارات المناسبة ولا يسمح لها ان تنتقل من المدارات التي لا تتفق مع الإرادات

الخارجية، متذرعا بحجة انه لا يحتاج الى تلك الحاجات للدرجة التي تحتم عليه صرف الطاقة لعملية الانتقال تلك.

الطريقة الثالثة: هو التحدي لكي يحقق الحاجات: فهو يعد ان تلك الحاجات مهمة جدا له ولا يمكن ان يتخلى عنها ولا تهمه الطاقات التي يجب ان يصرفها من اجل تحقيق الانتقالات المطلوبة، وهو بذلك يتحدى كل الإرادات من اجل ان يحقق ما تريده نفسه.

ان هذا التسلسل قد وضع عمدا لكي يبين ان الأسهل لا بُدَّ ان يكون أول الخيارات، لان ليس كل الناس باستطاعتهم تحدي الإرادات أو إطاعتها، فالإنسان يختار ان ينصاع لتلك الإرادات لأنه مؤمن بها وموافق عليها ولا يجد هنالك سببا لكي يعارضها، أو انه لا يستطيع أو لا يرغب في ان يصرف طاقة من اجل تحقيق تلك الحاجات، أو ربما ان قوة الإرادة الخارجية قاهرة لا قدرة له على مجابهتها.

أما الطريقة الثانية وهي إنكار الحاجة فهي أصعب من الأولى، بسبب انه ربما يكون راغبا في تحقيق حاجته ولكنه يكون مجبراً على تركها اما بقوة الإرادة الخارجية المفروضة عليه ومن دون رضاه واما لعدم استطاعته صرف الطاقة للحصول عليها أو الاثنين مجتمعة، فهو في هذه الحالة يعلل لنفسه بأنه غير محتاج اليها، فلذلك لا داعي لها في الأقل في ظل الظروف الحالية، وهذا لا يعني بأنه قد تخلى عنها كليا فانه وبأقرب فرصة تسنح له سوف يسعى من اجل الحصول عليها، فهو إذاً عندما اتخذ هذه الطريقة فانه اتخذها مجبرا أو مضطرا عليها، وبالتالي فان هذه الطريقة لا بُدَّ ان تكون مصحوبة بعدم رضا.

ان أصعب طريقة بين كل الطرائق الثلاث هي التحدي من اجل تحقيق الحاجات، السبب في ذلك لان الإنسان يحتاج إلى ان يصرف طاقة وجهدا اكبر من اجل تحقيق حاجاته، ليس هذا فقط ولكن لا بُدَّ ان تكون عنده قدرة وقوة لمجابهة ومعارضة الإرادات الخارجية. فهو يتحدى تلك الإرادات ويعمل من اجل تحقيق حاجاته، وفي هذه الحالة يجب ان يعمل وبكل السبل لتحقيق ما يريد وحتى ربما في بعض الحالات عليه ان يتظاهر بمماشاة الإرادات الضاغطة لكي يعبر عائقا ما.

إننا عندما نتكلم عن الإرادات الخارجية نتكلم عن الإرادات المعارضة والمساندة ، ولكن يجب ان نفهم بأن ليس كل الإرادات الخارجية هي معارضة لكل عملية انتقال للحاجات من مداراتها.

فلو أخذنا المال مثلا فانتقال تلك الحاجة من المدارات العليا إلى الواطئة إذا كان مصاحبا لخبث لا يرضاه الدين أو القانون أو المجتمع فإنها ستلاقي معارضة منهم، ولكن يجب ان لا ننسى انه كما ان هناك ارادات معارضة فان هنالك ارادات مساندة لذلك سوف يلاقي هذا الانتقال تشجيعا وترحيبا منها كلما سعى الإنسان الى الحصول على ذلك المال، من الامثلة على الإرادات المشجعة ربما تكون القانون (إذا ما تمكن ذلك الشخص من الالتفاف على القانون) أو الطبقية الاجتماعية أو الإعلام (الذي يحث على الغنى ونعمه) أو مغريات المال.

وعلى العكس من ذلك يلاقي الانتقال من المدارات الواطئة إلى العليا ربما ترحيبا من قبل الدين والمجتمع، واستهزاء أو معارضة من إغراءات الحياة أو الإعلام.

ان بعض مستعملي الطريقة الأولى (الانصياع) يأخذونها كوسيلة لإظهار عدم قدرتهم على مواجهة التحديات التي تجابههم مدعين بان لا حول ولا قوة لهم، فهم بذلك يكبتون إراداتهم وينساقون إلى حيث تسوقهم الظروف. فهم مصداقية للمثل الشعبي «من يأخذ أمي اسميه عمي» وذلك لفقدانهم للإرادة والتصميم على الانجاز، فهم إذاً محكومون بعدم رغبتهم في صرف الطاقات لتحقيق إي حاجة، وبكلمة أخرى إنهم يقبلون حتى بالقليل ما دام ذلك القليل لا يتطلب منهم اي جهد، برغم أنهم يريدون المزيد.

قلنا: ان هنالك نوعين من الناس الذين لا يطالبون أو لا يسعون من اجل الحصول على المزيد من الحاجات، فالنوع الأول يكون متمثلا بأناس لم يتركوا حاجاتهم أو المزيد منها إلا من اجل خوفهم من الأذى الذي يمكن ان يحيق بهم أو لكسلهم في السعي نحوها، فأنهم يريدون المزيد إذا ما كان من دون صرف أي جهد أو خوفا من الأذى وهذا لا يمكن عده سموا. أما النوع الثاني فهو قادر على الحصول عليها إذا ما أراد ولكنه (وبمحض إرادته) يختار ان لا يتمتع بها فيدفعها إلى المدارات العليا، ان هذا هو السمو.

هنالك الكثير من الناس الذين عندهم القابلية على التلون بكل الألوان، فأولئك هم الذين يتخذون الإنكار طريقة لحياتهم، وشاهدناهم في كثير من الأحوال، فهم مثلا شيوعيون عندما تكون الشيوعية مسيطرة وبعثيون عندما تتطلب الحاجة لذلك ومتدينون عندما يحلو لهم ذلك. فلم يتخذوا ويؤمنوا بهذه العقائد عن قناعة بها ولكنهم مدفوعون بمصالحهم وتمشية أمورهم.

وهنالك أناس يأخذون الإنكار وسيلة للحفاظ على النفس من ظلم الأقوى، فلقد رأينا ذلك في اثناء حكم البعث فبسبب الظلم والاستبداد والقهر كان على العراقيين ان يقبلوا بأشياء ولولا ذلك القهر لما قبلوها،

ولكن حفاظا على النفس كان لا بُدَّ لهم من ان ينصاعوا ويَدَّعون بأنهم يعملونها بسبب (حبهم) للقائد والحزب والوطن. فكلما دعا الحزب الناس إلى العمل الشعبي أو الانضمام إلى الجيش الشعبي يتهرب الناس وبكل الوسائل، ولكن عندما لا يجدون مهربا منها يذهبون وهم كارهون متظاهرون بأنهم ناكرون لحاجاتهم في العيش الرغيد وتخليهم في بعض الأحيان عن حاجاتهم خدمة للحزب وللقيادة (الحكيمة).

ان الشخص الذي يختار طريقة الانصياع يصعب عليه التغير إلى الطريقتين التاليتين، اما من يختار طريق التحدي فان تحوله الى الطريقتين السهلتين الإنكار أو الانصياع لاي جد فيه حرجا كبيرا، ان ذلك مرهون بقوة المقاومة الموجودة عند مثل هكذا شخص، فإذا ما ضعفت فلا بُدَّ له من ان يتحول إلى الطرائق السهلة.

ان ذلك التذبذب من طريقة إلى أخرى مرهون بالمتغيرات التي تحدث للشخص، فربما تكون هنالك متغيرات في الإرادات أو متغيرات في نفس وعقل الإنسان أو في قوة تأثير المغريات أو تغير في الحاجات أو قوة شد الحاجات.

ان بعض الإرادات الخارجية تكون داعمة لهوى النفس فمثلا ان الجنس حاجة إنسانية وإذا ما شجعت تلك الإرادات ممارسة الجنس فإنها ستكون داعمة ومقوية إلى تلك الحاجة، فنجد ان الكثير من وسائل الإعلام داعمة لهذا الأمر من خلال الأفلام الخلاعية وأفلام الحب والعشق وما تصوره من متع تشد الإنسان إليها شدا وتزيد من قوة وتأثير هوى النفس الى ذلك الشخص. مثال آخر ان عرض القوة والسلطة والراحة التي يتمتع بها

الأغنياء ومن خلال وسائل الإعلام تؤدي إلى تعظيم قوة هوى النفس للمال وبالتالي تأثيره في الإنسان.

ان الغرض الأساسي من اتخاذ الإنسان لأي طريقة من الطرائق المذكورة أعلاه لا بُدَّ ان يكون من اجل إرضاء النفس التي تكون بواحدة او اكثر من التالي:

أوّلاً: مدفوعة بسهولة الحصول على الحاجات ولا تريد ان تعمل جاهدة، فكل حاجة يمكن الحصول عليها بسهولة مقبولة، أو

ثانياً: التنازل عن حاجة من اجل حاجة اكثر أهمية، مثلا يعذب إنسان في سجون الطغاة فيعترف على الآخرين من اجل تخفيف الألم عن نفسه، أو

ثالثاً: من اجل الحفاظ على ما عنده من حاجات، ينظمون إلى حزب البعث من اجل ان يتوقف الحزب عن ملاحقتهم، أو

رابعاً: من اجل طلب المزيد منها ينظمون إلى حزب البعث من اجل مصالح ذاتية، أو

خامسا: القناعة بما تمليه الإرادات، يؤمن بالدين عن قناعة فيطيع أوامره.

وعلى هذا الأساس يكون اختياره بواحد او اكثر من التالي:

أوّلاً: العمل من اجل الحصول على ما يريد من حاجات وبكل قوة وبرغم كل شيء وهو بذلك ينقلها من المدارات العليا إلى الواطئة.

ثانياً: القبول بما عنده من حاجات وعدم تغيير مداراتها.

ثالثاً: التقليل من حاجاته وينقلها من المدارات الواطئة إلى العليا.

بما ان كل طريقة تحتاج إلى جهد مختلف عن الطريقة الأخرى فإننا نجد ان الأقلية من الناس تتخذ طريقة الانصياع ونفس القدر من الناس من يأخذ طريقة التحدي.

وبخلاف ذلك يختار معظم الناس الطريقة الوسطى ولا تختار الانصياع والذي يعني التخلي أو الترك أو التحدي وبالتالي تعني المواجهة. فمعظم الناس يستعملون طريقة الإنكار للحاجات كوسيلة للتعامل مع تلك الإرادات الخارجية، فهم بذلك لا يتخلون عنها كليا ولا يعاندون الإرادات الخارجية ولا يتحملون مصاعب الحصول عليها. وإنما يستغلون الفرصة المناسبة للحصول عليها.

وهنا يكون موقع الحاجة في مدارات حب الذات هو الذي يحدد المسار أو الجهة التي ينحاز إليها ذلك الإنكار فاما يكون قريبا من التحدي واما قريبا للانصياع.

ان طريقة الإنكار هي مرتبة وسط بين الانصياع و التحدي فيكون للتصور والتفكير دور فيها، فربما يكون العمل على تحقيقها مدفوعا بمجرد تصور اللذة المتوقعة من الحصول على تلك الحاجة أو ربما تكون في التفكير بالطريقة أو الطرائق التي يجب ان يستعملها الإنسان من اجل ان يعمل على تحقيقها.

ان تصور الحاجة سلاح ذو حدين فهو يمكن ان يعطي انطباعا على انه مقرف فيكون داعيا لتركها، أو ربما يعطي انطباعا بخلاف ذلك بمعنى انه لذيذ فيفكر في طريقة للحصول عليها.

أما من يبدأ بالتفكير فيها وكيفية التمكن منها، فربما يجد ان الحصول عليها يتطلب الكثير من العمل فيقول: إنها لا تستحق ذلك الجهد أو ربما يقول: إنها تستحق ذلك الجهد فيسعى وينفذ ما خططه من اجل تملكها.

هنا يجب تأكيد ان الإنسان الذي ينصاع للإرادات الخارجية ويقتنع بأنها الفضلى له ولا يعمل شيئا يناقضها لا بُدَّ له ان ينسى أو يتناسى حاجته، ان هذا ليس بالأمر الهين فعليه ان يصرف طاقات كبيرة من اجل دفعها إلى

المدارات العليا والحفاظ عليها في تلك المدارات وعدم السماح لهبوطها إلى المدارات السفلى.

وإذا ما أراد ان يحافظ على استمرار ذلك الانصياع فلا بُدَّ له من ان يحصن نفسه ضد تلك الحاجات، فمن يكن ملتزما بالتعاليم الدينية التي تحتم عليه ترك أو عدم السعي من اجل الحصول على بعض الحاجات، يجب ان يحافظ على كل ما يذكره ويدفعه إلى الاستمرار في ذلك الانصياع فهو بذلك يذكر نفسه دائما بالتزامه الديني لكي لا يقع في فخ الإرادات المعادية لهذا التوجه أو إغراءات الحاجة الممنوعة. ان ذلك التذكير والاستمرار عاملان مساعدان في الحفاظ على وتقوية صموده ضد ضغط أية حاجة ممنوعة أو إرادة ضاغطة.

ان الإنسان ضعيف، فهو معرض للنسيان وكذلك معرض للانزلاق نحو أهوائه ومغريات الحياة والإرادات التي تمنعه عن عقيدته وبالتالي تحوله من مرتبة الانصياع إلى مرتبة الإنكار، فلذلك لا بُدَّ له من التعرض المستمر لضوابط العقيدة لكي تقوي عقيدته وتحفظها من النسيان، لا ادري ربما ان الله عز وجل قد أوجب الفرائض التي تعاد عدة مرات باليوم مثل الصلاة وكذلك النوافل والاستغفار والدعاء لكي تكرر موجبات العقيدة ولتذكر الإنسان بالتزاماته وتبطل أو تخفف من النسيان.

ان فاجعة كربلاء واستشهاد الحسين ابن علي عليه السلام وسبي عياله لم تكن لتبقى حية إلى يومنا هذا (وهي قد حدثت قبل ما يقرب من ١٤٠٠ سنة إلا بسبب التكرار، فان عزاء الحسين يقام في عاشوراء من كل سنة فضلاً عن المجالس الحسينية على مر السنة.

أما الإنسان الذي ينصاع عن دون قناعة ولكن لعدم قدرته على مخالفتها أو عدم رغبته في بذل الجهود التي تخلصه منها فهو ليس بحاجة إلى تذكير لان انصياعه متناسب مع ما يريد.

ان واحدة من دعامات التحدي هي ان الإنسان إذا ما نجح مرة في تحديه وحصل على نجاح ولذة ومتعة بذلك فانه سيريد ويطلب ويعمل من اجل المزيد من التحدي، والقليل من المتحدين من يتحولون إلى الطرائق الأخرى بسبب فشلهم في المرة الأولى.

ان الإنسان يختار طريقه في الحياة بحسب إرادته، وما الإرادات الا ضغوط تدفعه باتجاهات مختلفة. ان الإنسان بطبعه خطّاء، ولكنه يعزو بعض الأحيان خطئه إلى الإرادات الضاغطة عليه ولا يعزوها إلى نفسه. فيقول الناس عندما يخطئون «لعنة الله على الشيطان فانه قد زين لي أو دفعني وأغراني»، ان النفس وحاجتها ولذة تلك الحاجات وهواها لهم مجتمعة قوة كبيرة عليه، ولتوضيح هذا الأمر يمكننا ان نتكلم على الشيطان كإرادة خارجية لان جميع الأديان تقول بوجود الشيطان وبإغرائه للناس.

ان إرادة الإنسان كما قلنا سابقا هي الأولى في كل المعاملات وما التذبذب بالطرائق التي ذكرناها سابقا إلا مصداقية لهذا القول، فان الإنسان يطيع الإرادة أو الإرادات الخارجية عندما يقتنع بها (مثلا الدين) أو يخافها ولا يجد طريقة ألا بإتباعها على أمل التخلص منها (مثلا القانون) أو يتحداها ويعمل ضدها مدى ما وجد في نفسه القوة والقدرة على التحدي.

ولإثبات ان قوة إرادة الإنسان فوق كل إرادة فنقول ان كل الأديان تقول بان الشيطان هو الذي يغري الإنسان ويحثه على ارتكاب المحارم، ومن هذا نفهم بان إرادة الشيطان فوق إرادة الإنسان لأنه يزين له الإعمال

فيندفع الإنسان نحو تلك الأعمال وكأن لا ارادة له، ولكن الحقيقة هي ان إرادته تريد ذلك التزين لكي يثبت الإنسان لنفسه ان ذلك العمل صحيح، كل ما يعمله الشيطان تحريك أحاسيس الإنسان فما ان تحس بالأشياء الممنوعة حتى تعمل على الحصول عليها.

ان رسول الله ﷺ يقول بان الشياطين تغل في شهر رمضان ومع ذلك يعمل الناس الموبقات وهم في ذلك الشهر المبارك، فهم يؤدون فرائض ذلك الشهر ولكن يرتكبون المحرمات فكيف يكون ذلك والشيطان مغلول أو غير موجود؟

الجواب على ذلك هو ان الحاجات ولذتها محفورة في نفس الإنسان وليس من الصعب طمرها والقضاء على معالمها كليا، فما عليه ألا ان يعثر عليها أو يبحث عنها حتى تخرج لتداعب مخيلته بحسنها مما يساعده على تحدي إرادة واحدة أو إرادات. أو ربما ترى النفس شيئا يذكره بهذا الأمر فتذهب لتلك الحفرة وتسترجع مخزونها... فمثلا يرى امرأة جميلة فتكون حافزا له للبحث عن الحفرة المرتبطة بذلك الأمر، وكما أسلفنا فان التذبذب بين طرائق العمل يمكن ان يحصل في اي وقت كان وعندما تتوفر المناخات المناسبة.

والشيء نفسه يمكننا قوله عن إي إرادة خارجية أخرى فالإرادة الدينية مثلا، إذا ما كانت النفس مقتنعة بان الدين هو الذي يحقق لها حاجات اسمى من الحاجات التي ربما تطلب منه ان يتركها فعند ذلك نجد ان تلك الإرادة لها تأثير كبير في تصرفات ذلك الإنسان.

وهنا اذكر مثالا حيا لذلك التأثير، في يوم من الأيام ذهب احد رجال الدين الشباب للدراسة في إحدى الجامعات البريطانية وكان محافظا على

إيمانه ودينه ولم تجذبه كل المغريات الجنسية التي شاهدها أو التي كانت متاحة له، وكان يعيش مع مجموعة من الطلبة الذين كانوا معه في الجامعة.

أراد أولئك (الأصدقاء) ان يضحكوا عليه ويسقطوه في المحرمات ومهما كادوا له لم ينجحوا، ولذلك عملوا على ان يكون كيدهم أكثر فعالية وحتمية فظنوا أنهم إذا ما وضعوه في موقف مجابهة مع الإغراء فلا بُدَّ ان يسقط وبالتالي يؤكدون نجاحهم، وفي يوم من الأيام وهو موجود وحده في غرفته ادخلوا عليه فتاة عارية واندفعت نحوه تريد إمساكه وتقبليه وهو يقاومها ويدفعها عنه ويصرخ بها، وما كان منه الا ان ترك دراسته وعاد إلى العراق.

وعلى الجانب الأخر كنا ندرس في انجلترا جاء احد الأصدقاء يتذمر من ابن عمه فقال: بالله عليكم هل سمعتم مثل هذا الأمر، فلما سألناه ما الأمر، قال: بعث ابن عمي رسالة لي يقول فيها أريد منك ثلاثة أشياء وهي ان تحصل لي على قبول في الجامعة وشغل وتصادق لي إحدى البنات.

علاقة القدرات الشخصية بالإرادات الداخلية

ان الإنسان يخلق لنفسه ارادة داخلية لكل ارادة خارجية فبتلك الارادة يتعامل مع الإرادات الخارجية وبما يرضي نفسه او في الاقل يخفف معاناتها.عندما ذكرنا تأثير الإرادات الخارجية في الإنسان كنا قد قلنا بان النفس لا بُدَّ لها من التعامل مع ذلك التاثير بإرادة داخلية، لان لا شيء يمكن ان يجعل الإنسان يعمل عملا ما لم يتوافر امران وهما:

الاول: استعداد الإنسان (استعدادا جسديا او فكريا) لاداء ذلك العمل.

والثاني: لا بُدَّ ان تكون عنده إرادة داخلية للإداء ذلك العمل.

وبكلمة اخرى لو ان ارادة خارجية طلبت من شخص ما ان يؤدي عملا ما ولا يملك ذلك الشخص الارادة الداخلية لعمله فانه سوف يضيع وقته بكل الوسائل لكي لا ينجز الا جزءا يسيرا منه.

ان الناس على أشكال، فمنهم من عنده قدرات ولكن بسبب ضغوطات الإرادات الخارجية (من تأثير عائلي مجتمعي أو خبرات) لا يظهرها اما خوفا واما بإرادة ذاتية تعتقد بان عدم اظهارها هو الأفضل، ففي الحالة الأولى يكون نابعا من احساسه بانه مغلوب على أمره فيختار ان لا يظهرها، أما في الحالة الثانية فانه يتصور انه إذا ما اظهر تلك القدرات فعليه ان يصرف طاقة هو غير مستعد لصرفها.

كان هنالك زوجان طبيبان ويدرسون في انجلترا، الزوج امتحانه بعيد والزوجة امتحانها قريب، فقامت وطبخت الرز وقالت لزوجها إني ادرس رجاء انتبه إلى الرز يطبخ، وبعد وقت شممت رائحة دخان وكأن شيئا قد احترق، ولماذا ذهبت إلى المطبخ وجدت ان الرز قد احترق وأصبح فحما. لقد كان زوجها موجودا في غرفة هي الأقرب إلى المطبخ فلا بُدَّ انه شم رائحة الدخان قبل ان تشمها هي، ولكنه آثر ان لا يقوم من مكانه، فكان لزاما عليها ان تطبخ رزا جديدا وان تصرف وقتا طويلا في غسل القدر الذي احترق فيه الرز.

ان هذا الزوج يتصور انه لو راعى الرز فان زوجته ستطلب منه في يوم من الأيام ان يطبخ الرز أو ربما يطبخ الوجبة كلها وهو غير مستعد لذلك، فترك الرز يحترق لكي تتوب زوجته ولا تعتمد عليه في اي شيء في المطبخ، وبالفعل قالت: لن تدخل المطبخ بعد هذا اليوم والأفضل لي ان اعمل الأشياء بنفسي.

لقد ترك الرز يحترق متذرعا بأنه لم يشمه، ان الإنسان يختلق لنفسه أعذارا وتعليلات لكي اما ان يبرز قابليته وقدراته واما ان يخفيها وفي كلتا الحالتين هو يعمل بما تمليه عليه إرادته الداخلية، أما إذا كانت الإرادات الخارجية قوية جدا بحيث تتمكن من تغيره فانه سيعود إلى سابق عهده متى ما تغيرت الظروف.

ان تعب الجسد لا يمكن بأي حال من الأحوال ان يقرر النتائج ولكن الإرادة الداخلية هي التي تقرر النتائج وانا هنا سأجلب شهودا على كلامي هذا:

في برنامج على التلفاز الاسترالي اسمه الحزمة الزائدة (Excess Package) وهو عبارة عن سباق بين مجموعة من المتسابقين فيها تحد للشخص نفسه وفي الوقت نفسه تحد بينه وبين أشخاصا آخرين، وكان عليهم في احدى هذه التحديات ان يتسلقوا برجا ارتفاعه ٧٨ طابقا ومجموع السلالم التي كان عليهم ان يصعدوها تصل الى ١٥٠٠ درجة، تسلق جميع المتسابقين لتلك السلالم وكانت حالات المتسابقين على النحو التالي:

* احداهم سقطت محطمة القوى.

* واخر تقيأ على السلالم.

* والثالث بمجرد ان وصل الطابق الأخير سقط مغميا عليه.

* ورابعة اكملت صعودها بالتشجيع وبعض المساعدة من المشرف.

* الباقون قسم منهم صعد بأقل معاناة وواحدة فقط تمكنت من الصعود بسهولة نسبية.

المهم في تلك المسابقة ان الجميع وصلوا إلى السطح وأجسادهم منهكة، كل واحد منهم يكاد يكون فقد كل قواه مضافا إلى الآلام التي عانى منه كل المتسابقين، ولكن الحاجة إلى النجاح والفوز مصحوبة بالتشجيع أجبرت الجسد على الاستمرار برغم الإرهاق الشديد الذي كان يعاني منه جسد كل واحد من المتسابقين.

ان حالتي الراحة والاسترخاء التي تسعد بها أنفس بعض الناس تجعلهم يتفاعلون مع المجتمع بطريقة سلبية وذلك عن طريق إظهار صورة للشخصية عديمة الثقة أو ابراز صورة غير مهتمة بما يدور بالمجتمع، لقد ظهر هذا التفاعل جليا في طريقة تعامل احد المتسابقين مع التحديات التي وضعت أمامه، فانه قد وضع له حدودا وقوانين تجعله يفضل الراحة على التحديات أو مواجهة المجتمع الذي يعيش فيه، احد تلك الحدود التي صرح بها وكانت واضحة للعيان هو خوفه من الأماكن العالية والمغلقة.

وضع المشرف السايكولوجي المرافق لهؤلاء المتسابقين تحديا لذلك المتسابق وبمعية بعض المتسابقين الذين كان عندهم بعض التخوف من الأماكن العالية، لقد كان ذلك التحدي هو الانحدار من على جدار سد عال جداً (abseiling). كان صاحبنا هذا خائفا ومرعوبا جدا ولكنه ما ان اخذ الخطوة الأولى وشاهد ان المتسابقين الذين سبقوه نزلوا بكل سهولة ويسر، فضلاً عن تأكده من ان أحزمة الأمان المربوطة بالمتسابقين كانت كافية للحفاظ ومؤمنة لحياتهم وحياته، وبتشجيع المجموعة تكون عنده نوع من الثقة الآنية جعلته هو الآخر يشجع شريكته على تلك المغامرة.

وفي تحد آخر لذلك المتسابق نفسه كان عليه ان يدخل مع بعض المتسابقين إلى مغارة تحت الأرض والمشي فيها. وكانت تلك المغارة ضيقة

فكلما مشوا في دهاليزها مسافة اكبر كلما انخفض سقفها وكلما ضاقت عليهم فجوتها، إلى ان وصل بهم الحال أنهم لم يكونوا يستطيعون المشي منتصبين وكان عليهم ان يزحفوا على بطونهم.

لم يكن ذلك المتسابق يخاف الأماكن العالية فقط ولكنه كان يخاف الأماكن المغلقة أيضا، ولكنه دخل تلك المغارة. أوقفهم المعالج النفسي في بداية الطريق وبعد ان ضاق بهم المكان إلى درجة كان لا بُدَّ عليهم ان ينحنوا لكي يتنقلوا في تلك المغارة، وطلب منهم ان يستريحوا ويمارسوا بعض تمارين الاسترخاء، ثم طلب منهم إطفاء نور مصابيحهم التي كانت على خوذهم وان ويجلسوا في تلك الظلمة وفي ذلك الصمت المطبق، جلس ذلك الشخص وهو مرعوب، يقول «لو لمسني أي شخص لقفزت من مكاني من شدة الرعب»، ولكن الجميع جلسوا بهدوء مع إحساسهم بالخوف الشديد الذي كان يعاني منه بعضهم أكثر من الآخرين.

بعد انتهاء المدة المحددة طلب المعالج النفسي ان ينيروا مصابيحهم، وبدؤوا بالسير في تلك الإنفاق التي كانت كلما تقدموا فيها كلما ضاقت إلى درجة لم يكن عندهم مجال ألا الزحف على البطون، الجميع ومن جملتهم هذا الشخص خرجوا فرحين وقالوا وهو واحد منهم باننا نعتقد بإمكاننا عمل إي شيء كان بعد هذه التجربة.

من هذه التجربة ونتائجها يمكننا ان نتوقع من شخص قد تطورت شخصيته إلى درجة بان يقول بإمكاني ان اعمل اي شيء أريده من الان فصاعدا ان ينجح في المسابقات التي هي ابسط من ذلك ولكن العكس كان صحيحا، فانه بدلا من ان يكون انجح في أداء أدواره في المسابقات التالية فشل في معظمها ورجع إلى سابق عهده (فاشلا) بل أسوأ، وكأنه يريد ان يقول ان الشخصية الجديدة القادرة المتحدية هي ليست أنا، ولا بُدَّ ان ارجع

إلى الماضي وارفض التغيير الذي حصل لي لأنه يضع علي أعباء ويحتاج مني صرف طاقات أنا غير مستعد لعملها وصرفها.

بخلاف ذلك هناك متسابقة ثانية كانت بالكاد تتمكن من ان تقوم بأي دور في إية مسابقة وكان شريكها دائم الذم ودائم التوبيخ لها لأنها غير قادرة، ولكن بمرور الزمن وبصورة خاصة وبعد ان حصل تمزق في ساق شريكها وعدم إمكانيته المشاركة في المسابقات، عملت بهمة وقوة وبمجهودها الخاص الأحادي (وبالرغم من ان جميع المتسابقين الآخرين يعملون بفرق تعدادها شخصان) الى أنقاذ فريقها من الفشل ونجحت وحدها وخرجت بنتائج جيدة (أذهلت الجميع).

لقد أحست بأنها تمتلك قابلية لم تكن تعرفها أو تحس بها ولم تكتشف تلك القابلية الا بعد ان تخلف عنها شريكها، فبقت هي الوحيدة التي تمثل ذلك الفريق وكان هنالك تحد لا بُدَّ ان تواجهه فبدلا من ترك المسابقة والقول بأنها لا تستطيع ان تكمل، أخذت على عاتقها ان تؤدي عمل شخصين، ليس ذلك فقط بل تحول ذلك إلى دافع إضافي لإخراج مخزونها من قابليات وطاقات لم تكن تعرف انها تملكها، اذ حصلت على نتائج جيدة عجزت عن تحقيقها فرق مكونة من شخصين، لم تكن نتائجها اعتيادية فلقد فازت مرة بالدرجة الأولى وأخرى بالدرجة الثانية والبقية بين الدرجات الثالثة او الرابعة.

من هذه التجربة نفيد ان الجهد العضلي لا يمكن ان يكون عائقا في تحقيق ما تريده النفس ففي صعود السلالم ١٥٠٠ كان الجهد العضلي كبيرا جدا ولكن الفوز وإرادة الفوزِ كانت أعظم فلم يتوقف احد برغم ان بعضهم عانى من الم جسدي شديد.

وان الشخص الذي اختار لنفسه التراخي وعدم التحدي أو المجازفة وذلك بإظهار شخصية تبين عدم الثقة بالنفس، يمكنه تحقيق كل التحديات لخوفه من الاماكن المرتفعة والضيقة، لقد أثبتها لنفسه وللآخرين وذلك بنجاحه في انجاز التحديات التي وضعت أمامه. ولكنه عندما رجع إلى نفسه فوجد ان نفسه مجبولة على الراحة والاسترخاء (من خلال إظهار عدم الثقة بالنفس) والتي طالما وفرت له مناخات وتراخيا لم توفره له تلك التحديات التي أنجزها في هذه المسابقة، فكان قراره الرجوع إلى سابق عهده.

أما الفتاة التي كانت تتصور بان لا قدرة ولا قوة لها على التحدي وأداء المسؤوليات المناطة بها ربما بتأثير الإرادات الخارجية (تربية أو خبرات شخصية) وجدت نفسها أمام موقف يحتم عليها العمل من اجل إكمال الواجبات الملقاة على عاتقها. ان شخصية تلك الفتاة لم تكن ضعيفة ولكن كانت متأثرة بظروف موضوعية جعلتها تتصرف بتلك الطريقة وربما كانت تتحين الفرص لكي تتمكن من إظهار شخصيتها الداخلية وكل ما تملكه من قابليات وقدرات، فهي بذلك أحست بأنها أصبحت في المكان المناسب والوقت المناسب لكي تظهرهما، فأظهرت طاقات وقدرات أدهشت الجميع.

الإرادات وعلاقتها بالسمات العامة للشخصية الفردية والشخصية المجتمعية

ذكرنا سابقا بأننا سنطلق تسمية الشخصية المجتمعية على الشخصية العائلية والشخصية العشائرية وشخصية المجتمع وشخصية الدولة وبالتالي الشخصية الإنسانية، وهنا سنبحث السمات التي تظهر على تلك الشخصيات

فضلا عن التي تظهر على الشخصية الفردية، ان جميع تلك الشخصيات بينها تشابه نابع من معطيات إرادات داخلية يكون الغرض منها إدارة الحياة حتى تصبح أكثر متعة وملائمة للمناخات التي تعيشها تلك الشخصيات.

وهنا سنبحث بعض سمات الشخصية:

الاول: الأخلاق

الأخلاق ممارسات ينفذها الفرد او المجتمع تنم عن تفهم وضع الآخرين وتقبل لتجاوزاتهم أو حتى ربما التسامح والعفو عن أخطائهم وفي الوقت نفسه العمل على عدم الإساءة لهم، ان تلك الممارسات هي مجموعة قيم وقواعد ونظم يضعها المجتمع ويتحلى بها الإنسان والمجتمع لكي ترتب حياة الناس، ان الدين والنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الحجر الأساس لها.

ان المفاهيم الأخلاقية هي واحدة بين كل بني البشر وهي من أهم الممارسات التي تحدد للمجتمع صفاته وميزاته لشخصيته، وبما ان الفرد هو جزء من ذلك المجتمع، لا بُدَّ ان يتأثر بتلك الأخلاق وبالحدود التي يرسمها المجتمع لتثبيت وإدامة وتطبيق تلك الأخلاق فيصبغ بصبغة ذلك المجتمع.

نحن لا نتكلم هنا على الصراع بين الحاجات وبين الإرادة الاجتماعية ولكننا نتكلم على الصبغة التي تلون المجتمع والتي تنعكس على شخصية أفراد ذلك المجتمع، فصبغة ذلك المجتمع هي نتاج أخلاقه، إننا هنا لا نتوقع ان يكون كل افراد المجتمع (بالضرورة) ملتزمين أو غير ملتزمين بتلك الأخلاق، ان نوعية ذلك الالتزام يتحدد بشخصية الفرد ولكن لا بُدَّ ان يكون لون صبغته كلون مجتمعه، ان كل فرد على حدة يمكن ان يعمل من خلال

أخلاقيات مجتمعه أو يعمل عكسها، فالمجتمع المحافظ يمكن ان يكون فيه أفراد مستهترون بقيم ذلك المجتمع وآخرون ملتزمون به والبقية وسط بين الاثنين، والشيء نفسه يمكن ان ينطبق في المجتمعات الحرة.

ان نوعية أخلاق أي مجتمع متأتية من حصيلة تفاعل أخلاق أفراد ذلك المجتمع، فعندما تكون تلك المثل الأخلاقية سائدة عند أكثرية أفراد المجتمع تصبح هي أخلاقه، فيصبح كل من يخالف تلك الأخلاق غريبا عن ذلك المجتمع، ان النظام العشائري يحتم اخذ الثأر ومن له ثار لا بُدَّ ان يأخذ حقه بيده وإلا فانه يكون منبوذا من مجتمعه. وما ينطبق على شخصية المجتمع ينطبق على شخصية الدولة وينطبق على شخصية العشيرة أو القبيلة أو الإنسانية جمعاء فان كل واحدة منهم متكونة من أفراد تربوا على أخلاق يتشاركون فيها مع بقية أفراد مجتمعهم، فعندما نقول: ان ذلك الفرد هو من الدولة الفلانية فمعنى هذا له أخلاق دولته، ومن نجد ان فلانا من العشيرة الفلانية نجد ان أخلاقه هي أخلاق عشيرته نفسه.

يقول سيدنا محمد ﷺ[٨٠]: «ان خياركم احسنكم اخلاقا»، و«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وكأن الدين هو الأخلاق، وفي دعاء مكارم الاخلاق[٨١] نقرأ وصفا رائعا لحسن الخلق فيقول: «اللهم صل على محمد وال محمد وسددني لأن أعارض من غشني بالنصح، واجزي من هجرني بالبر، واثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، ان أشكر الحسنة وأغضب عن السيئة،، اللهم صل على محمد واله وحلني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين، وفي بسط العدل، وكظم الغيظ، واطفاء النائرة، وضم أهل الفرقة، واصلاح ذات البين، وانشاء العارف وستر العئبة ولين العريكة وخفض الجناح، وحسن السيرة،

وسكون السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق الى الفضيلة، وايثار التفضل، وترك التعبير والإفضال على خير المستحق، والقول بالحق وإن عز، واستقلال الخير وان كثر من قولي....» وبالفعل لولا تلك الأخلاق لكانت الحياة لا تطاق، تصور مجتمعا لا أخلاق له، فالظلم والفساد والقهر والجور والسرقة وعدم احترام الآخرين أو القوانين وغيرها، بالتأكيد سيكون مجتمعا لا يستحق ولا يطاق العيش فيه.

ان كل الشخصيات المجتمعية وبالضرورة الشخصية الفردية أيضا تلتزم بالأخلاق كجزء من شخصيتها المميزة، فالكل تؤمن بالمسميات الأخلاقية انفسها كالصدق والأمانة والإخلاص والرحمة الخ ولكن مفهوم تلك المسميات يختلف من شخصية مجتمعية إلى شخصية أخرى، وهنا يجب ان ندرك ان الشخصية الفردية تتأثر وتطبق مفاهيم مجتمعها، لذلك وبسبب اختلاف الشخصيات المجتمعية نجد ان أشخاصا من مجتمعين مختلفين يفهمون ويطبقون مسميات الخلق الواحد نفسه بطريقة ربما تكون مختلفة بينهم.

ويمكن ان تقسم الأخلاق على قسمين: أخلاق سامية وأخلاق منحطة حالها حال الحاجات وانتقالها من المدارات السامية إلى المدارات الواطئة، فالصدق خلق سامي والكذب خلق واطئ، والرحمة خلق سامي والقسوة خلق واطئ.

ان مسميات الأخلاق (الصدق الأمانة الخ) ليست قاصرة على مجتمع واحد فكل المجتمعات تدعي بأنها تؤمن بها وتمارسها، فهي صفة مجتمع أو صفة دولة أو صفة إنسانية، وبما ان كل صفة أو مسمى أخلاقي تفسر بطريقة مختلفة بين شتى المجتمعات، فلا يمكن فرض مفهومية أخلاق

مجتمع بالقوة على بقية المجتمعات لان كل واحد منهم يعتقد بأنه على حق.

نجد ان الحرية الجنسية في المجتمعات المتحررة مثلا تعد حرية شخصية في حين يعد ذلك سوء خلق في المجتمعات المحافظة، ونجد ان احترام الأكبر والمعلم والرئيس والأب حسن خلق عند المجتمعات المحافظة وربما يكون ذلك ضعف شخصية في اعتبارات المجتمع المتحرر، ان إظهار المزيد من الجسد يعد مغريا في المجتمعات المتحررة ويعد سوء أدب في المجتمعات المحافظة.

من المؤسف له ان تكون صفة خُلقية عند مجتمع ما قياسا لكل المجتمعات الأخرى، ففي مجتمعاتنا الإنسانية اليوم هنالك دول ذات سطوة وسلطة تعطي لنفسها الحق في فرض مفهومها للأخلاق على المجتمعات الأخرى، ان ذلك نابع من اعتبارات مفادها بما ان القوة المسيطرة هي الأكثر تطورا فان كل ما عندها يعد هو الأفضل والأسمى، ان ذلك لن يكون قاصرا على نظرة تلك القوة فقط بل تتعداها إلى المجتمعات الأضعف.

إننا نجد ان كل المجتمعات المتخلفة تعد ان القيم الغربية أفضل من قيمها ولذلك تحاول ان تقلد الغرب في كل الأمور والتصرفات. ان هذا التصور هو نتيجة عاملين أساسيين الأول تقدم الغرب وتخلف العالم الثالث، والثاني محاولة العالم الثالث مواكبة الغرب باتباع (مع الأسف ليس بالتطور العلمي والتكنولوجي ولكن بأخلاق وقيم الغرب) لكي يثبتوا انهم قد تطوروا.

ان أميركا تعطي لنفسها الحق ان تحتل اي بلد تشاء وإذا ما احتلته فلها ان تقتل باي صورة تراها مناسبة، فهي تعد ان ذلك العمل على انه أخلاقي

لأنها تدافع عن الحرية وحقوق الإنسان، لكنها لا تسمح لأبناء ذلك البلد بالدفاع عن بلدهم ومقاومة ذلك الاحتلال. لقد دفنت قوات الاحتلال الأميركي الجنود العراقيين أحياء، وهي تعد دفاعا عن النفس وان هؤلاء الجنود العراقيين لا حقوق لهم، ان أميركا ألقت قنبلتين نوويتين على هيروشيما وناكازاكي بحجة الدفاع عن النفس لأنها لا تسمح بان تستمر الحرب مدة أطول وبالتالي التضحية بالمزيد من جنودها.

ان واحدة من معالم الأخلاق هو الإحساس بألم ومعاناة الآخرين، وهي الأخرى لها مفاهيم مختلفة بين المجتمعات، فمثلا نجد ان الدول الغربية تؤمن بحقوق الحيوان فيحاسب الفرد إذا ما أهمل أو أذى كلبا أو حمارا أو قطة ولكن عندما يرى شخصا ما من العالم الثالث يتألم لا يعير لآلامه إي اهتمام، ولا يشعر نحوه بالرفق والألم انفسهما كما يشعر نحو الحيوان.

ان أخلاق الأفراد هي شخصية فلذلك نجد ان هنالك أناسا في الغرب يحسون بمعاناة شعوب العالم الثالث ربما اكثر من أفراد من شعوب العالم الثالث نفسه، نجد ان الكثير من الغربيين يتركون راحة ورغد بلدانهم ويذهبون للمساعدة في مناطق محرومة من بلدان العالم ثالث.

إننا وصفنا الأخلاق على إنها صفات أساسها طريقة التعامل بين الناس وعلى هذا الأساس يمكننا تصنيف الأخلاق إلى ثلاثة أصناف:

الأولى: الأخلاق التجارية:

وهي مرتكزة على تبادل المصالح، التي تعني بالضرورة ان لكل عمل أو خدمة أو عطاء يأتي من فرد لا بُدَّ ان يتسلم ثمنا يساوي قيمة ما قدمه، فإذا ما أعطيتك شيئا يجب ان تقابلني بالمثل وإذا كنت طيبا معك يجب ان تكون طيبا معي واذا زرتك في بيتك يجب ان تزورني.

ان هذا الصنف من الأخلاق يكون واضحا عند الشخص الذي يساعد الآخرين ولكنه لا يترك فرصة إلا وذكرهم بأفضاله عليهم وكأنه يريد ان يقول: أريد ان تردوا عطائي بما يساوي قيمته. والله عز وجل[٨٢] يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

الثانية: الأخلاق السامية:

في هذا الصنف ان الشخص الذي يساء إليه لا يقابل من أساء إليه بالإساءة نفسها أو بأعظم منها كما هي الحال في الأخلاق التجارية، بل على العكس ربما يحسن إليه. ان هذا النوع من الأخلاق تجده عند المؤمنين الحقيقيين ولا تجده عند عامة الناس لأنهم تربوا على ان يردوا الصاع صاعين لمن يسيء لهم.

جاء احدهم إلى الحسن بن علي عليه السلام[٨٣] ولم يكن يعرفه فبدأ ذلك الرجل بسب الحسن وأهل بيته واستمر بذلك والحسن يسمع وهو ساكت، ولما انتهى من السب تكلم الحسن وقال: «أيها الشيخ اظنك غريبا... ان سألتنا اعطيناك، ولو استرشدتنا ارشدناك، وإن كنت جائعا أشبعناك، وإن كنت عريانا كسوناك، وإن كنت محتاجا أغنيناك، وإن كنت طريدا آويناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك». فمضى الرجل مع الامام الى منزله ضيفا الى ان ارتحل.

الثالثة: الإيثار:

ان الإيثار وكما شرحنا أشكاله سابقا، يدفع الإنسان إلى التضحية بنفسه من اجل خلق ظروف جديدة افضل للشخص نفسه او للاخرين، انه يعد نوعا ثالثا من انواع الاخلاق، ان الأعم الأشمل من الناس إذا ما آثرت فانها تسعى الى الحصول على فائدة شخصية والقلة منهم من يؤثر مصلحة الآخرين على مصلحته.

في معركة كربلاء وبعد اقتحام طريقه بين صفوف جيش الأعداء حتى وصل المشرعة اغترف العباس بن علي غَرفة من الماء ولكنه رماها ورفض شربها وبالرغم من عطشه، لأنه تذكر عطش الحسين والأطفال وحرم رسول الله ﷺ. لم يكن يتصور نفسه مرتويا من ذلك الماء وهو ليس على يقين بأنه سيكون قادرا على إيصال الماء إلى معسكر الحسين، والسبب في ذلك هو انه لا المعسكر المعادي سوف يسمح له بذلك ولا هو يعول على نفسه ان يكون قادرا على إيصال الماء أو حتى البقاء حيا. فآثر ان يموت عطشانا مواساة لهم بدلا من ان يموت مرتويا والبقية يموتون عطاشى.

في العراق لاحظنا، ان هنالك بعض الناس يقدمون حياتهم من اجل الآخرين والأمثلة كثيرة اذ ان الإرهابيين يأتون مرتدين أحزمة ناسفة ويفجرون أنفسهم وسط الناس، فيأتي شخص ما فيحتضنه ويبعده عن الناس مع علمه بان ذلك الانتحاري يمكن ان يفجر نفسه فيقتلان معا، ولكنه يفضل ان يضحي بنفسه من اجل حماية الآخرين.

في اليابان وبعد التسونامي الذي ضربها والانفجار في المفاعل النووي دخل عمال إلى المفاعل مع علمهم ان الإشعاعات المنبعثة من المفاعل ستودي بهم إلى الموت، ولكنهم ذهبوا لأنهم لا بُدَّ من ان يتعاملوا مع ذلك الخطر لإيقاف كارثة نووية يمكن ان تصيب المنطقة.

الثاني: محورية الذات

ان اي تصرف شخصي لا بُدَّ ان يكون نابعا من محورية الذات، ان الإنسان في تعامله مع الاخرين يسعى الى ان يرضي نفسه وهو في ذلك يحاول ان يحقق أكثر قدر من الفائدة لها. ان محورية الذات إذا ما طغت على الإنسان يمكنها ان تدفعه الى ان لا يسمح لأحد (إذا ما كان قادرا عليه) ان يأخذ حقه أو يغلبه في إي معاملة من المعاملات الإنسانية، فهو يعد نفسه مركز ثقل الكون فمثل هذا الشخص يفكر في نفسه أوّلاً، لأنه (وكما يعتقد) رقم واحد وكل شيء أخر أو إنسان اخر يأتي بالدرجات التالية.

ان المجتمعات الغربية تشجع على مثل هكذا أنواع من التصرفات فأين ما تكون المصلحة تكون الصداقة، ان تشرشل وفي وصفه للعلاقات الدولية يقول[٨٤]: «لا يوجد لبريطانيا عدو دائم ولا صديق دائم وإنما هنالك مصالح دائمة»، لقد امتدت هذه النظرة حتى اصبحت جزءا من المفهوم الاجتماعي الغربي بحيث اصبح الفرد هو الاول اما المجتمع فهو في المرتبة الثانية. ان من طبيعة النظام الديمقراطي ان يكون مشجعا للحرية الفردية واطلاقها من دون قيد او شرط ما دامت تمارس ضمن النظم القانونية المعمول بها.

كل النظم الديمقراطية تؤمن للمجرمين حقوقا ربما تزيد على حقوق ضحاياهم، هنالك مجرمون يغتصبون النساء ويمثلون بهن ويحكمون ثم يطلق سراحهم، ثم يعيدون الكرة ويرتكبون جرائم مماثلة ولكنهم يلقون الرعاية والعناية أنفسها، وكأنهم هم الضحية والضحية قد فقدت حقها، لقد وجدنا هذا في العراق الجديد فضحايا الإرهاب لا يسأل احدا عنهم والإرهابيون يملكون كامل الحقوق الإنسانية ويجدون من يدافع عنهم.

ان عدم التوازن بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع هي احد نواقص الديمقراطية ولكن وكما يقول تشرشل في وصفه للديمقراطية «ان الديمقراطية هي شكل سيئ من اشكال الحكومات ولكن افضل من كل التي جربت قبلها» ويستهزئ بالديمقراطية فيقول: «ان افضل نقاش ضد الديمقراطية هي خمس دقائق كلام مع الناخب».[٨٥]

ان محورية الذات عند القليل من الناس الذين يملكون أخلاقا سامية تذوب عندما تتناقض مصالحهم مع مصالح الآخرين وهم بذلك يتصرفون على عكس النوع سابق الذكر. ان اضمحلال حب الذات عند هؤلاء الناس يتطلب جهدا كبيرا وتضحية عظيمة وتدريبا كبيرا.

لقد تكلمنا على الحاجات وشدة ارتباطها بالإنسان ولكي يتنازل شخص ما عن حاجاته من اجل تحقيق حاجات الآخرين يتطلب منه جهدا كبيرا جدا، لأنه إنسان ككل البشر وله حاجات يجب ان يتمسك بها ولكنه يتنازل عنها لأن الآخرين عندهم الحاجة نفسها ويسعون إلى تحقيقها، فهو بذلك يصرف طاقتين الأولى من اجل مقاومة قوة شد المادة لنفسه والثانية الطاقة التي يجب ان يصرفها من اجل إبعادها عن نفسه وانتقالها إلى المدارات العليا لكي يتمكن من ان يفضل حاجات الآخرين على حاجاته.

لقد كان علي وأهل بيته صائمين عليهم السلام، وفي وقت الإفطار جاءهم مسكين فأعطوه إفطارهم وافطروا على الماء، وفي اليوم التالي وفي الوقت نفسه جاءهم يتيم فأعطوه طعامهم وافطروا على الماء، وفي اليوم الثالث جاءهم أسير فأعطوه فطورهم وافطروا على الماء، بقوا ثلاثة أياما صياما لان هنالك من هم محتاجون للطعام. أين محورية الذات عند هؤلاء، إنها تكاد تكون معدومة. فيقول الله عز وجل[٨٦]: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا﴾.

إذا ان الشخصية الفردية تتأثر تأثيرا مباشرا بالارادة الداخلية وبتشجيع الإرادات الخارجية وبمحورية الذات.

ومما لا شك فيه ان المبالغة في الحاجات تقوي من الالتصاق بالذات مما تدفع الإنسان وبقوة إلى تحقيق حاجاته وبأكبر قدر من القوة ولا تسمح بأي تنازل أو مشاركة. ان عند مثل هكذا إنسان نجد، ان طبيعة شخصيته تكون استعلائية استغلالية، أما الذي محوريته الذاتية ضعيفة فان طبيعة شخصيته تكون أكثر انفتاحا وتقبلا للآخرين ويسعى إلى تحقيق اكبر قدر من المشاركة مع الآخرين.

ان ملكين لا يمكن لهما ان يحكما (في الوقت نفسه) دولة ما لان كل واحد منهما يريد ان يكون هو الحاكم الأوحد وذاته هي الأهم ومنافعه هي الأهم لذلك لا بُدَّ له ان يحارب الملك الاخر، فيتحارب المتنافسون على ذلك الحكم فلا الأب ولا الابن ولا الأخ أو اي احد يمكن ان ينازع الحاكم على حكمه.

ان هارون الرشيد قال لولده المأمون بان الخلافة الإسلامية حق من حقوق آل بيت الرسول وما انتقال تلك الخلافة للعباسيين ألا بأخذ ذلك الحق منهم، ولما سأله المأمون لماذا لا تتنازل لهم عن الحكم لهم إذا، فأجابه: «لو نازعتني على الملك لأخذت الذي فيه عيناك».[٨٧]

بالمقابل نجد ان رجلين زاهدين في الحياة وبعيدين عن محورية الذات بكفيهما سجادة واحدة يتشاركان بها.

ثالثاً: الشعور والإدراك

للشعور والإدراك الأثر الكبير في الشخصية لان جزءا من الشخصية هو الجسد فالجسد القوي يتعامل مع الأشياء بطريقة مختلفة عن الجسد الضعيف، والمريض يتفاعل مع الأشياء بصورة مختلفة عن صحيح البدن ان الصفات الفيزياوية للشخص يمكن ان يكون لها تأثير كبير في الشخصية، فطول القامة ولون الجلد وشكل الوجه والجسم ولون العين وكل صفة أخرى لها تأثير في الإنسان نفسه وفي الناس المحيطين به أيضا.

وبرغم شهرة ونجاح مغني البوب مايكل جاكسون كان للون جلده تأثير كبير في نفسه وإلا لما عمد إلى تغيير لونه بتعاطي العقاقير لذلك.

ليس فقط الطبيعة الفيزياوية للإنسان التي لها تأثير في شخصيته بل ان نظرة الآخرين له هي الاخرى لها تأثير كبير فيه أيضا. فالذي تكون طبيعته الفيزياوية لا تتطابق مع طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه وبصورة خاصة إذا كان ذلك المجتمع عنصريا فلا بُدَّ ان يلاقي تميزا في المعاملة وبالتالي ربما تنعكس وتؤثر في شخصيته.

ان الملونين في الولايات المتحدة هم من من طبقة ذات مستوى اجتماعي اقتصادي واطئ، ان القضاء يتعامل معهم بقسوة وصرامة وحتى رجال الامن والشرطة، والسمة العامة لهم هي أنهم مدمنو مخدرات وسراق وحتى قتلة، ان الاكثرية من الشعب الأميركي يفضلون البيض على الملونين. ان البيض وحتى بعض الملونين يعدون ان الانتماء الى مجموعة البيض تعطي قوة إجتماعية وغنى معتقدين بان بياض جلدهم هو الذي يؤهلهم لذلك، ان هذه النظرة هي الرأي العام السائد والمقبول. ان هذا التمييز والتفضيل نراه حتى بين اعضاء المجاميع العرقية انفسها اذ يوصف فاتحو اللون بصفات مفضلة عن الملونين [٧٩] .

ان الشعور بالقوة وإدراك القدرة على عمل الأشياء تعطي الإنسان دوافع قوة شخصية وإرادة كبرى، يقال ان احد المصارعين الأقوياء لم ينازل احدا الا وغلبه، ان تلك القوة التي يملكها جعلته يغتر إلى درجة يقول فيها أين الله لكي أصارعه، تمرض مرضا شديدا إلى درجة انه لم يكن قادرا على رفع يده، فكانت أمه تطعمه وتسقيه وتعتني به، وصل به الحال ان لا يكون قادرا على طرد الذبابة التي تحط على وجهه، فينادي أمه لكي تبعدها عنه، فبعد ان كان متكبرا مفتخرا ومتحديا أصبح ذليلا يتوسل المساعدة على حشرة صغيرة.

الشيء نفسه يمكن القول عنه بالنسبة إلى الشيخوخة(٨٨)، فالشاب بقوته وزهوه بشبابه وقدرة جسمه ربما يبرز شخصية متسلطة قوية ولكن إذا ما تقدم به العمر فإن ذلك الشخص نفسه يظهر شخصية جديدة ربما تكون عكس شخصية الشباب فنراه اكثر تواضعا واقل حماسة واندفاعا ونراه يحس بالاندحار والخذلان، يتدهور بعضهم فيصبح بعض الجبابرة حينما ينتابهم المرض أو الشيخوخة او الاثنان معا كالأطفال الضعفاء المنكسرين، هناك سببان في هذا الانكسار الا وهما: الاول هو تغير دور ذلك الإنسان في الحياة والثاني تغير اولويات الحياة عنده، ونتيجة لذلك تتغير عاداته، دوافعه، وصحته، ومسؤولياته وظروفه.

ان التجارب التي تحدث للشخص في شيخوخته تتضمن من جملة ما تتضمن فقدان (الصحة، المركز الاجتماعي، والاصدقاء المقربين) لذلك فان الشيخوخة تفرض على الشخص ان يركز في عملياته الشخصية على اصلاح وادامة او حتى ادارة الخسارات من اجل الحصول على الاستقرار والديمومة بدلا من زيادة في التطور(٨٩).

لقد فصلنا في هذا الفصل تأثير الإرادات سواء كانت داخلية ام خارجية في تكوين ومسيرة الشخصية، ولا بُدَّ لنا من ان نشرح بالتفصيل تلك الإرادات المهمة وهذا ما سنفعله في الفصل السادس.

الفصل السادس

ماهية الإرادات المؤثرة في الشخصية

الإرادات الداخلية

الإرادات التي تسعى إلى تحقيق الحاجات

الإرادات التي تسعى إلى التوافق بين الذات والإرادات الخارجية

هوى النفس

الإرادات الخارجية

إرادات العائلة والموروث العائلي

إرادات المجتمع

إرادات البيئة

إرادات القانون

إرادات العقائد

إرادات الثقافة

إرادات النظام السياسي والاقتصادي

إرادات الإعلام

إرادات المغريات

إرادات الخبرات الشخصية

اجتماع كل الإرادات وتأثيرها في الشخصية

الفصل السادس
ماهية الإرادات المؤثرة في الشخصية

عندما تكلمنا على مكونات الشخصية ذكرنا ان الإرادات سواء كانت داخلية ام خارجية تلعب دورا مهما في تحديد الشخصية والآن حان الوقت للكلام على كل واحد من تلك الإرادات بشيء من التفصيل.

ان الإنسان يعيش حياته في بحر لجي من الضوابط والإرادات والدوافع والملذات وهو في خضم هذه التيارات (التي في كثير من الأحيان تكون متضادة) عليه ان يعيش ليرضي نفسه ويرضي الآخرين وربما في ظروف أخرى يتحدى نفسه أو الإرادات الأخرى.

ان البشر يملكون عقولا لو تركت القيادة لهم ولو استغل الإنسان كامل قواه العقلية لكان هنالك خير وفير ولكان بإمكان كل فرد منهم ان يعمل المعجزات، ولما كان ان يكون هنالك اي ظالم اومظلوم. ان الإنسان (إي إنسان كان) لا يستعمل من عقله الا جزءاً يسيرا منه.

ان قوة عقل الإنسان الجبارة وقابلية التعويض حتى عن الاجزاء المدمرة منه تعطي الإنسان قوة فوق ما كنا نتصورها، ففي مايس من عام ٢٠١٠ نشر خبر في جريدة الأيج (The Age) الاسترالية بعنوان (امل جديد للاشخاص الذين يعانون من اضرار بالدماغ) عن علماء بلجيكيين وبريطانيين كانو قد نشروا بحوثهم في مجلة نيو انجلند الطبية (New England Medical Journal)، ان المرضى المصابين باضرار دماغية جعلتهم يعيشون حياة نباتية (في غيبوبة) يمكنهم الان ان يعطوا اجوبة (نعم او لا) على الأسئلة وذلك من خلال استعمال جهاز الـ(MRI)[٩٠].

وفي مجلة الطب الاسترالية (The Medical Journal of Australia) بحث اخر يقول: ان الإنسان الذي اصيب اصابة بالغة في الدماغ يمكن ان يسترجع الكثير من قابلياته الدماغية وذلك بإعادة تأهيل الجزء الباقي من الدماغ ، ان اعادة التأهيل هذه يمكن ان تأخذ حتى خمس سنوات.[٩١]

وتكنولوجيا المعلومات في طريقها إلى تشغيل الحاسوب من خلال انبعاث الموجات الدماغية بحيث يعمل الحاسوب من خلال تفكير الإنسان وليس من خلال دق مفتاح الطابعة[٩٢].

كل إنسان له تلك القابلية العقلية نفسها ولا يختلف احد عن اخر بشيء الا بما بمقدار ما يستعمل من تلك القوى وفي اي مجال يستعملها، هنالك من يستعملون تلك القوى في العلوم واخرون في الادب وقسم اخر في مجالات اخرى. لذلك نرى عطاء انسانيا مستمرا في كل مجالات الحياة، ان كل ما يحتاج اليه الإنسان هو ان يعطي المجال لدماغه ان ينتج عقلا ومن يمنع دماغه عن اداء عمله فلا عقل له، ان ذلك الاستعمال للدماغ يمكن ان ينتج خيرا أو شرا وهنالك بشر عباقرة في كلا المجالين، أنا هنا لست في معرض النقاش حول ماهية ونوعية ذلك الإنتاج العقلي وإنما أريد التركيز على قدرته التي جعلت الإنسان يسود على كل الكائنات الحية الاخرى.

بعد كل الذي ذكرناه عن قدرات وقابليات الإنسان اجد صعوبة كبيرة في قبول التفكير الذي يدعي بأن الإنسان مسكين لأنه محكوم بمجموعة تيارات عديدة ومتصارعة وضاغطة فهو لا حول ولا قوة له وسطها، ان حقائق الأمور تدل على انه وبالرغم من وجود كل تلك التيارات فإن القرار النهائي حول أية مسألة كانت لا بُدَّ ان تكون من اختياره بحسب ما يريد، كما وانه ليس مرغما على إطاعة أي واحد أو مجموعة من تلك التيارات.

إذاً ان صلاحية اتخاذ القرار فردية ولا يملك الحق في فرضها عليه اي شيء أو اي فرد او مجموعة ما لم يكن هو نفسه مستعدا للموافقة عليها، وإذا ما تعرض الإنسان إلى الضغوطات التي تسعى إلى دفعه باتجاهات محددة فلا يكون تأثيرها فيه الا محدودا بأمور عدة: كمقدار قوتها أو قوة شدها وعلاقتها وارتباطها وتأثيرها في أمور محببة إلى قلب ذلك الشخص.

ان للإرادات الضاغطة ان تتخذ قرارات (متعلقة بالفرد) متى ما تشاء وكيفما تشاء ولكنها لا تملك القدرة على تنفيذها والسبب في ذلك بسيط جدا لأن من له القابلية على تنفيذ تلك القرارات هو ذلك الفرد نفسه. فالشخص يتخذ القرار ويقسم الواجبات بين أجزاء جسده وجوارحه لكي تقوم بتنفيذ ذلك القرار، فهو الذي يأمر اليد أو/و الرجل أو/و اللسان وكل الأعضاء الأخرى التي يحتاج لايها في تنفيذ ذلك القرار، وما على تلك الجارحة أو العضو الا القيام بالواجب الملقى عليها لإكمال المهمة.

وفي ما يلي سوف نناقش بالتفصيل تلك الإرادات الضاغطة التي تتنازع في ما بينها لبسط سيطرتها على الشخص من اجل إقناعه أو تحفيزه أو إجباره على تنفيذ جميع قراراتها صغيرها وكبيرها مهمة وغير مهمة مفيدها ومضرها وبالتالي تأثيرها في بقية أفراد المجتمع نتيجة لما يفعله الإنسان بتلك القرارات.

ويمكنني هنا ان اقسم تلك الإرادات الضاغطة على نوعين: إرادات داخلية واخرى خارجية:

الإرادات الداخلية

هي مجموعة الضوابط أو العوامل التي تنبع من داخل الإنسان نفسه والتي لها علاقة بكل أقسام الإنسان من نفس وعقل وهي على أنواع:

الإرادات التي تسعى إلى تحقيق الحاجات، والإرادات التي تسعى إلى التوافق بين الذات والإرادات الخارجية فضلاً عن هوى النفس.

الإرادات التي تسعى إلى تحقيق الحاجات

يصنف ماسلو الحاجات البشرية إلى هرم. يبدأ أسفل الهرم بالطعام والشراب والجنس وفوق ذلك الأمان وتليه المحبة وبعد ذلك التطور ثم تحقيق الذات، فهو يقول: لكي تدفع الإنسان إلى التطور يجب ان تشبع تلك الحاجات، فمن غير المعقول ان تطلب من الجائع ان يصنع صاروخا، ولا ان تطلب من الخائف على حياته ان يحاول تطوير قدراته وهلم جرا.

من هذا نجد انه لا يمكن للإنسان من ان يندفع بحوافز تحفزه للحصول على أعلى درجات النجاح في عمله وبالتالي يقدم انجازات عظمى وهو جائع لا يجد ما يأكله في يومه أو ساعته، فيجب أوّلاً إشباع بطنه وإعطاؤه الأمان لكي يحفز إلى ما هو أعلى في هرم الحاجات.

فمن توافرت له الحاجات الأولية يمكن تحفيزه للحصول على حاجاته الثانوية أو التي تليها، فمثلا: من يحب المال حبا جما، لكي تحفزه يجب ان تضع أمامه الفرصة للحصول على ذلك المال، ومن يحب المنصب يجب ان تؤمله بالمنصب، ومن يحب الجاه يجب ان يجد في ما يعمله وسيلة إلى الوصول به إلى الجاه.

للإنسان حاجات أساسية لا بُدَّ من توفيرها لاستمرار حياته، بكلمة أخرى ان الأكل والشرب لا بُدَّ ان يتوفر لأنه بخلاف ذلك فان الموت يكون محققا، وفي هذا يتساوى جميع البشر ولكن الحاجات الإنسانية لا يمكن ان تتوقف عند الحاجات الأساسية لان الإنسان بطبعه ينظر نحو

الأحسن والأفضل فلا بُدَّ إذا للحاجات التي تكون أصلا أساسية (مثل الأكل والشرب) ثم تتطور وتنتقل من مجرد حاجة لملء المعدة والبقاء على الحياة وإيقاف الم الجوع إلى حاجة لأكل أفضل المأكولات من حيث الطعم والشكل واللذة المصاحبة لها.

لقد أسهبنا في الفصول السابقة عندما تكلمنا على وجود تلك الحاجات وارتباطاتها بالنفس ووجودها في مدارات حب الذات، ولكن هنا يجب ان نذكر ان تلك الحاجات هي المحرك الأساسي للإنسان وفي اي مرحلة كانت وعلى إي درجة تكون تلك الحاجات (أساسية أو كمالية).

ان إرادة النفس هي تحقيق تلك الحاجات، فهي تعمل بما تقدر عليه جسديا وتجبر الجسد ربما ان يعمل فوق الطاقة الاعتيادية من اجل تحقيق تلك الحاجات، وهي في الوقت نفسه توظف العقل لتحقيق تلك الحاجات وعندما تكون هنالك صعوبات من الخارج أو تهديد لهلاك النفس فإنها تجنح إلى حكم العقل الذي بالضرورة سوف يعطيها الحل الأفضل للتعامل مع تلك المعطيات. ولكي تحقق ارادة النفس في طلب حاجاتها لا بُدَّ لها من ان تستعمل الوسائل الكفيلة لتحقيق تلك الحاجات. مثلا تغير كمية او نوعية الحاجات، تبديل حاجة بحاجة، التنازل عن حاجة من اجل حاجة افضل.

الإرادات التي تسعى إلى التوافق بين الذات والإرادات الخارجية

ان الطبيعة البشرية تحتم على الفرد ان يكون شخصية اجتماعية لانه بخلاف ذلك يكون من الصعب عليه ان يعيش فردا منعزلا ويعيش لنفسه بنفسه، لذلك نجد ان جميع الأفراد لا بُدَّ لهم من ان يعيشوا في مجتمعات صغرت ام كبرت، ليس هذا فقط ولكن لا بُدَّ لهم من ان يتزاوجوا وإلا لما

استمر الجنس البشري، فالعائلة والقرابة والعشيرة وبالتالي المجتمع ككل لا بُدَّ من وجودهم جميعا معا لكي يكون الإنسان إنسانا ولكي تستمر البشرية في البقاء وتتطور الحياة.

وبحكم وجود تلك المجتمعات فان الكثير من المسائل أو الحاجات الإنسانية عليها ان تنمو كذلك، ان الإنسان لو عاش وحده فلا حاجة له إلى ان ينظر إلى الملكية (بكل أشكالها)على انها حاجة لأن كل شيء حوله ملكه، فهو لا يحتاج إلى ان يصارع احد من اجل امتلاكها، ولا يحتاج ان يكابر احدا على مقدار ملكيته.

ان مثل هكذا جو لا يحتم على الإنسان ان يدخل في صراع مع احد من اجل سلطان أو إبراز قوة وقدرات، وبالتالي فان الكثير من الحاجات ربما كانت تبقى مجرد حاجات أساسية، ان وجود المجتمعات كان حافزا للإنسان لكي يسعى إلى المزيد عددا والأفضل نوعا من تلك الحاجات.

وبما ان المجتمع متكون من مجموعة من البشر فلا بُدَّ ان يضع قوانين وإرادات تنظم حياة ذلك المجتمع. ان تلك الحدود أو الإرادات التي يضعها المجتمع تكون لسببين: الأول لتنظم العلاقات الاجتماعية والثاني إنها تضع مراتب اجتماعية فالأقوى والأغنى والاحكم هو الذي يحتل المرتبة الأولى أما البقية فيحتلون المرتبات البقية، وهنا يبدأ صراع من نوع جديد ألا وهو ان الكثيرين يسعون من اجل اما الحصول على المركز الأول واما في الأقل المراكز الوسطى، ومن لا يعمل ما يكفي من جهد ليكسب مكانا بين المركزين السابقين فلا يبقى له الا مكان في المراكز الأخيرة وهذا هو حال الأكثرية من الناس.

ان كل فرد من تلك المجموعات سواء الذين يسعون إلى المراكز الأولى أم الوسطى أم الأخيرة يتعاملون مع الإرادات الخارجية بطرائقهم

المختلفة والغرض من تلك هو إرضاء النفس، فهنالك من تجد ان نفسه ترضى بالقليل واخر تجد ان نفسه تريد كل شيء، ان كل واحد منهم يعمل بما تمليه عليه نفسه وبالتالي نتاجه يكون معتمدا على ذلك.

ان الذي يريد السلطة سيعمل جاهدا من اجل الحصول عليها، ومن يرد المال فسيعمل جاهدا من اجل الحصول عليه والشيء نفسه مع اي حاجة يريد ان يحصل على المزيد منها، إننا عندما نقول يعمل جاهدا ليس بالضرورة ان يكون جهدا عضليا فربما يكون جهدا عقليا أو الاثنين معا فالهدف هو المزيد من تلك الحاجة وأية وسيلة أو طريقة ترتئيها النفس من اجل تحقيق ذلك الأمر تكون بالنسبة إليه طريقة ووسيلة مشروعة، فالمشروعية ليس بما يقره المجتمع بل المشروعية بما تريده النفس وإذا حصل وتناقضت تلك المشروعية مع المشروعية التي يفهمها المجتمع فلا بُدَّ للشخص من أما ان يتحدى المجتمع أو يحورها من اجل يقلل التصادم مع المجتمع.

وهنا نجد ان ليس كل ما تريده النفس وتعتقده مشروعا يكون مطابقا إلى إرادة ومشروعية المجتمع فعند ذلك يبدأ الصراع وعند ذلك تظهر قدرة النفس في التعامل مع ذلك الصراع، وهنا لا بُدَّ للشخص من ان يخلق لنفسه السبل التي تمكنه من التعامل مع المجتمع لكي لا يخلق عداوة مع أو مقاومة من ذلك المجتمع لإرادة النفس.

فهو يمكن ان يخبئ أو يحتال أو يكذب أو يتعامل بقسوة أو يرشي أو يتسلط ويظلم من اجل تحقيق إرادة نفسه، أو ربما يرى انه لا قدرة له على معاداة المجتمع لأن ذلك ربما يؤثر أو يكون سببا في الإضرار بمصالحه الذاتية، عند ذلك يمكن ان يتنازل عن تلك الحاجة أما وقتيا أو بتغير شكل الحاجة حتى تظهر للمجتمع بشكل اخر أكثر مقبولية، وإذا ما كانت تلك الحاجة ذات ارتباط قوي بالذات فربما يذهب إلى تحدي المجتمع.

ان النفس تضطر العقل لصوغ إرادة داخلية لكل إرادة خارجية وبما يناسبها، لان تلك الإرادات الداخلية ما وضعت الا من اجل ان تسعى لعمل كل ما يرضي ويسعد النفس. ان وجود إرادة داخلية وما يماثلها من إرادة خارجية يحتم وجود شخصيتين للإنسان الأولى متمثلة بالإرادات الداخلية وهي التي تعكس حقيقة الإنسان والثانية خارجية تظهر وكأنها متوافقة مع الإرادات الخارجية بحسب قوة تأثير كل واحدة من تلك الإرادات.

ومثال هذا نجد ان الإنسان ربما يظهر للعالم على انه نزيه ويعمل كل ما في وسعه من اجل محاربة الفساد وتثبيت النزاهة في الدولة ويكون صوته عاليا في هذا المجال ولكنه بينه وبين نفسه يعمل كل ما بوسعه من اجل الحصول على اي مكاسب حتى ولو كانت غير نزيهة. في عراق اليوم هنالك أمثلة عديدة وفي كل مرافق الدولة والمجتمع العراقي.

ان نجاح النفس في تحقيق إرادتها متوقف على مدى سيطرتها على العقل وكيفية استعمالها للعقل من اجل اختراع طرائق للتعامل مع المجتمع، فالإنسان الذي يكون مندفعا بإرادة النفس والذي لا يسمح للعقل المجال أو الوقت لكي يصور طريقة للتعامل مع الأمور يكون فاشلا سواء كان الحق معه أم ضده.

نجد ان بعض الناس الذين نسميهم متسرعين أو نسميهم متهورين يخسرون حقوقهم لان ردود أفعالهم مدفوعة بما تريد النفس ولا يتدبرون أمورهم بصورة صحيحة، فإذا كان عندهم حق يخسرونه وإذا كانوا على باطل يظهر ذلك للعيان، أما الذين يسمحون لعقولهم في التصرف ولكن بحسب إرادة النفس نجدهم يكيدون ويخططون وينفذون ويحاولون الوصول وربما يصلون إلى غاياتهم ومهما كانت درجة أحقيتهم.

هوى النفس

ان الهوى هو عبارة عن التعبير عن درجة التناغم بين ما موجود من المغريات المرغوبات التي هي خارج نطاق النفس مع الحاجات التي يسعى لها الإنسان، فمثلا شخص ما يحتاج إلى المال ويراه أمامه فان ذلك يحرك فيه درجة من الرغبة في الحصول عليه، والرجل الذي يرى امرأة جميلة تتحرك فيه الشهوة الجنسية، والإنسان الذي يرى عظم ومقدار الامتيازات التي تقدمه له السلطة يتحرك فيه حب السلطة.

بالتأكيد ان هذا التناغم بين الخارج والداخل يعتمد بالدرجة الأولى على شدة تعلق الإنسان بتلك الحاجة وبالتالي موقعها في مدارات حب الذات وقوة الإغراء التي يتعرض له، فمثلا يرى امرأة ذات جمال اعتيادي فلا يثيره ذلك كثيرا ولكن امرأة جميلة جدا تجعله مغرما بها وبجمالها ودلالها. والمرأة التي تحجب جمالها ولا تعمل على إظهاره أو عدم بحثها عن طرائق من اجل تجميل نفسها تكون اقل إثارة من المرأة التي تعمل جاهدة على إظهار مفاتنها.

لذلك لا بُدَّ ان يكون هنالك تناغم بين الاثنين الخارج والحاجة لكي يكون للهوى تأثير، ليس هذا فقط ولكن شدة أو قوة التناغم يلعب دورا مهما، وذا ما بقينا بهذا المثال ونقول ان كل رجل طبيعي عنده شهوة للنساء ولكن احدهم مسيطر عليها والاخر قد أطلق لها العنان لتبحث عن كل ما هو جميل ومثير.

لا يمكننا ان نتوقع من الاثنين ان يتعرضا إلى قوة الشد والهوى نفسها، ولكننا سنرى ان الذي سيطر على شهوته ربما يجبر نفسه إلى غض النظر ليتفادى الإثارة أو تحريك النفس، بينما نجد ان الثاني ينظر بشغف لكي يشبع هواه ونفسه بأكبر قدر من الشهوة والتمني، لا يمكننا ان نتوقع ان

يكون تصرف هؤلاء الاثنين متساويا في النتيجة ولا بُدَّ ان يكون هنالك فرق شاسع بينهما.

الإرادات الخارجية

بالرغم من عظم وأهمية الإرادات الداخلية على الشخصية نجد ان المجتمع والمحيط الخارجي له تأثير كبير في محصلة تلك الشخصية وبالتالي الصورة التي يظهر بها كل إنسان إلى المجتمع. هنالك إرادات خارجية كثيرة يمكن ان يكون لها تأثير مباشر في تلك الشخصية، اسطر هنا بعضا منها:

إرادات العائلة والموروث العائلي

ان المحيط الذي يعيش فيه الإنسان سواء كان ذلك محيطا عائليا أم اجتماعيا هو الذي يكسبه خبرات يخزنها في ذاكرته لتكون دوافع ووقائع يفيد منها في تعاملاته مع المجتمع وفي اتخاذ القرارات المناسبة مع ذلك الموروث. فمثلا نجد ان إنسانا قد عاش في بيئة فقيرة ربما قد يدفعه فقره وعوزه إلى ان يعمل المستحيل من اجل ان يجمع أموالا طائلة، بينما نجد ان إنسانا اخر عاش الظروف انفسها يأخذ خطا مختلفا وذلك بأن ربما يكون راضيا بعيشة بسيطة.

ومن يحرم من الدراسة في طفولته بسبب الفقر أو إي سبب اخر ربما يعمل على ان يكون أطفاله أو إخوانه الصغار أفضل حظا منه، أو ربما سيتخذها مبررا لعدم تسهيل أمر إخوته أو أطفاله لكي ينالوا قسطا من التعليم.

من كان يعيش في بيت عائلي غير مستقر وفيه ظلم يمكن ان يأخذ منحنيات متضادة مع تلك الخبرة، والشيء نفسه يمكن ان يحصل لمن لاقى مشكلات أو ظلما من المجتمع.

ان أول ما يلاقي الإنسان بعد ولادته هي العائلة، فهي الدعامة الأساسية في بناء وتأسيس شخصيته، ففي العائلة يتعلم ان يكون اجتماعيا، وفي العائلة يتعلم ان يكون منضبطا، وفي العائلة يتعلم القيم والمثل، وفي العائلة يتعلم العقيدة الدينية والمذهبية، وفي العائلة يتعلم حدوده وما يمكنه ان يعمله وما لا يمكنه ان يعمله، وفي العائلة تنمو قابليته وقدراته، ان ذلك التأثير العائلي هو الأساس في تكوين الشخصية ولكن لا بُدَّ لنا من ان نقر بأن هذا التأثير (بحسب القاعدة التي وضعناها في الإرادات الداخلية) لا يكتمل ما لم يكن متوافقا مع ما تريده النفس، ولذلك نرى ان بعض الناس يشذون عن قيم وإرادة العائلة ولكن ومع ذلك تبقى العائلة وثقافتها العمود الفقري والأساس الذي تبنى عليه شخصياتهم.

ليس تعاليم العائلة وقيمها ومبادئها وحدها التي تؤثر في الإنسان ولكن حتى ظروفها الاقتصادية والثقافية وطبيعة العائلة كلها يمكن ان يلعبوا دورا محوريا وجوهريا في شخصيته. ففي العائلة التي تعيش حربا بين الأبوين أو التي تعيش تحت ظلم احد الإباء أو الأخ الأكبر تنتج أطفالا يختلفون عن العائلة التي تعيش حالة حب وسلام، والأطفال الذين يعيشون محرومين من احد الأبوين أو الاثنين معا يختلفون عن الأطفال الذين يعيشون بين حنان الأبوين.

أنا لا ادعي بان الأشخاص الذين يعيشون في ظروف عائلية غير جيدة (ومهما كان وضعها وشكلها) يؤدي إلى قصور العائلة في تقديمها للعناية

والرعاية لهم، وبذلك تكون السبب في ان ينمو ويكبر الطفل ليكون إنسانا ضعيف الشخصية أو متهورا، ولست ادعي أو أقول بأنها تكون سببا في تكوين إنسان قوي الشخصية، وإنما أقول ان الطريقة التي تربى عليها ذلك الطفل تكون عرضة لإرادته الداخلية، فهي التي يمكن ان تأخذه إلى واحد من اتجاهين مختلفين للشخصية طرفه الأول "ضعف الشخصية" والطرف الثاني "قوة الشخصية".

ان اكبر مصداقية على هذا القول ما نجده في المجتمع من أطفال ينشأون بعائلة فقيرة وحالة عوز ولكن مع ذلك ينجحون ويتفوقون في حياتهم، وآخرون يعيشون في عائلات غنية ولكنهم فاشلون. هنالك من يكبر في عائلة مشتتة ولكنه يصبح إنسانا سويا، وآخرون يعيشون في عائلة متناغمة وسعيدة ولكنهم يظهرون شخصيات عدائية لأنفسهم وللمجتمع.

ان تأثير الثقافة والمستوى الاقتصادي للعائلة يمكن تفصيله بالطريقة نفسها التي بحثنا فيه التأثير سابق الذكر، ان الذي أريد ان أقوله ان تأثير العائلة سواء كان ذلك سلبا أم إيجابا ومهما كانت تلك الظروف تعتمد بالدرجة الأولى على الشخص نفسه، ان سلبيات العائلة يمكن ان تكون دافعا نحو الأحسن، كما ان ايجابيات العائلة يمكن ان تكون دافعا نحو الأسوأ.

إرادات المجتمع

ان علم الاجتماع يوصف التنشئة الاجتماعية على انها العملية التي بواسطتها يتعلم الشخص الاعتقادات، والقيم، والتصرفات الملائمة للمجتمع، ومن خلال تلك العملية التي (تطول العمر كله) يطور الإنسان شخصيته وحواسه.[٩٣]

ان لكل مجتمع من المجتمعات موروثا وعادات وتقاليد وقيما تكون مقياسا لتصرفات كل فرد في ذلك المجتمع، ان تلك الإرادات الاجتماعية هي عبارة عن مجموعة خبرات اجتماعية، اعتاد عليها ووجدها ذلك المجتمع على انها الحالة المثلى في تحديد تصرفات إفراده، ان الغرض من ذلك هو تكوين مجتمع متماسك يعيش بالأمن والأمان ومبني على أساس التفاهم الاجتماعي والذي يكون المفروض منه ان يشمل كل أفراد ذلك المجتمع.

ان إرادة المجتمع لا يمكن لها ان تكون مقبولة ومرضية من جميع أفراد ذلك المجتمع، ليس هذا فقط ولكن ان تجاوب الأفراد في ذلك المجتمع إلى تلك الإرادات يختلف من فرد إلى أخر فكل واحد منهم مدفوع بإراداته النفسية الداخلية وطريقة تعامله معها ولا بُدَّ ان تكون مختلفة.

ان الحقيقة المرة، التي لا يمكن ان تكون مخفية لمن يبحث عنها وفي اي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، هي وجود أقلية في تلك المجتمعات ممن لهم القدرة والقابلية على ان يتسلطوا على تلك المجتمعات، ان تسلط تلك الأقلية يكون بسبب نوع من القدرات أو الإمكانيات التي يمتلكونها والتي تؤهلهم لذلك التسلط، اما نوعية تلك القدرات التي تمكنهم من ذلك فيعتمد على نوعية المجتمع الذين ينتمون إليه.

فالمتسلط ربما يكون في بعض المجتمعات من يملك المال، وفي مجتمع اخر ربما يكون من يملك القوة العضلية أو الحكمة أو ربما تكون أشياء أخرى، وعلى العموم لا يفوز بتلك السلطة الا من له اكبر القدرات، ان المحصلة النهائية لتسلط أولئك النفر المقتدر من المجتمع هي إخضاع كل الإرادات الاجتماعية لصالحهم بالدرجة الأولى وبعد ذلك تأتي مصالح بقية أفراد ذلك المجتمع.

فإذا ما أخذنا المجتمعات العشائرية مثلا فإننا سنجد ان بعض شيوخ العشائر وفي زمن الإقطاع مثلا قد طغوا طغيانا عظيما، ان الفلاح يشتغل ليله ونهاره في يومه وشهره وسنته وفي اخر المطاف عندما يأتي يوم الحساب يكون الفلاح ما زال مدينا لشيخه، أما الشيخ فانه يتمتع بكامل مجهود ذلك الفلاح.

فالسلطة بيد الشيخ فكل ما يعمله ذلك الشيخ هو صحيح وهو المفروض طاعته والعمل بأوامره وإذا ما اعترض الفلاح فانه قد خالف العرف ويستحق العقاب، الشيخ هو صاحب الأرض وصاحب الماء والحبوب والأسمدة أما الفلاح فلا يملك الا قوته العضلية وجهده الشخصي وشتان بين من يملك وبين من لا يملك.

وفي المجتمعات الصناعية فان صاحب المصنع يحصل على الملايين والعمال لا يحصلون ألا على الفتات، وعندما يطالبون بتحسين أحوالهم يجابهون بالرفض، ان النظام الديمقراطي هو الذي ساعد على تحسين أحوال العمال وأصبحت لهم حقوق لان الشعب والذي غالبيته هي الطبقة العاملة هي التي تقرر من يحكم البلد فلا بُدَّ للحكومات من ان تضع قوانين وشروطا لترضي الشعوب.

ولكن هل انتهت سيطرة أصحاب رؤوس الأموال، الجواب كلا، لأنهم هم الوحيدون القادرون على ان يتحكموا بنوعية الحكومة التي تربح الانتخابات، ان قوتهم الاقتصادية تعطيهم القدرة على قلب موازين القوى لترجيح حزب أو اخر وبالتالي تنصيب الحزب الحاكم.

فالشخص الذي يتربى في مجتمع عشائري لا بُدَّ من ان تتأثر شخصيته بذلك المجتمع وبضوابطه وبإراداته فأما ان يعادي تلك الضوابط فبذلك يكون مذموما من المجتمع (من الرؤوس) وأما ان يقبل به فيرضخ لإرادة

المجتمع أو ان يتخذ موقفا محايدا بين الاثنين. ان الحصيلة النهائية لقرار النفس يكون نتيجة كل التفاعلات والإرادات (الداخلية والخارجية).

ومهما تكن الاختلافات في طبيعة المجتمع فان تلك الطبقة المتسلطة تبقى هي الموجهة والمهيمنة لإرادة المجتمع وذلك من اجل الحفاظ على سلطانها والزيادة في أموالها، لو نظرنا إلى العالم اجمع وعلى اختلاف مجتمعاته فإننا نجد ان الفرق الشاسع بين الغني والفقير يتعاظم سنة بعد أخرى وجيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن.

فلو أخذنا مثلا استراليا وبالتحديد مدينة سدني، ففي السبعينيات من القرن العشرين كان معدل سعر البيت عشرة إلى عشرين ألف دولار ولم يكن بإمكان احد ان يشتري البيت بدفعة واحدة، وكان على من يريد شراء بيت ان يشتغل طول عمره لكي يدفع أقساط ديون شراء ذلك البيت. ويجب ان نتذكر بان في ذلك الزمان كان الغني هو الشخص الذي يملك الملايين من الدولارات، فينعت فلانا بأنه مليونير إذا ما ملك بضعة ملايين أو عشرات أو حتى مئات منها.

اما اليوم فأن سعر البيت يتعدى نصف المليون دولار والمشتري حاله حال أبيه أو جده يجب عليه ان يشتغل كل عمره من اجل ان يدفع أقساط ديون ذلك البيت، وفي المقابل الغني اليوم لا يقاس بالملايين وإنما يقاس بالمليارات.

فلم يتغير الأمر بين جيل وجيل بالنسبة الى الطبقة العاملة والموظفين ولكن تغير تغيرا جذريا بالنسبة إلى الأغنياء، الإنسان البسيط يعمل طوال حياته من اجل ان يؤمن بيتا للسكن في ذلك الزمان ولم تتغير حاله هذا الزمان، ولكن بالنسبة إلى الأغنياء شيء اخر فقلد تغير مقياس الغني من عدة

ملايين إلى عدة مليارات بواقع زيادة ألف مرة، السبب في ذلك لان الذي بيده القوة لا بُدَّ ان يسخر المجتمع إلى جانبه ومصلحته.

وإذا ما بحثنا في اكبر كذبة بالتاريخ سنجدها في تحرير العبيد في أميركا، فلو أخذنا المجتمعين الأميركيين في القرن التاسع عشر فنجدهما مجتمعين مختلفين في التكوين ، مجتمع إقطاعي في جنوب أميركا ومجتمع صناعي في شمالها.

ان طبيعة مصادر القوة في هذين المجتمعين مختلفة، فلا بُدَّ ان يتأثر المجتمع بذلك، فالمجتمع الإقطاعي يحتاج إلى العبيد للعمل في الإقطاعيات وهي عمالة ممتلكة من الإقطاعي، فالعبد وما ينتج وما يولد له هو ملك الإقطاعي الذي له الحق في بيعه وشراؤه. لقد وصل الانحطاط الإنساني بهم إلى درجة ان لا يطلق على الجنين أو الطفل الحديث الولادة للعبد بالطفل بل يسمى (sucker) أو فسيلة تشبيها بشجر النخل أو الموز، فكما ان النخلة وشجرة الموز تعطي فسائل فان ذلك العبد يعطي فسيلة وليس طفلا أو إنسانا اخر.

لقد كان المجتمع الجنوبي مؤمنا بان العبيد ليسوا بشرا وهم اقل درجة في الإنسانية من بقية المجتمع ولذلك للمالك الحق في ان يتعامل معهم بالطريقة التي يرتئيها من اجل الحصول منهم على اكبر قدر من الفائدة.

في المقابل فان المجتمع الشمالي ذو الطبيعة الصناعية والذي لا يملك عبيدا يحتاج إلى أيد عاملة رخيصة لتدير له معامله وفي ظروف صناعية صعبة وغير ما عليه الان، ان ازدياد الحاجة إلى الأيدي العاملة الرخيصة والمطيعة، وصعوبة قبول البيض أداء بعض الاعمال التي أما أصبحت شاقة أو أصبحت وضيعة، حتمت على أصحاب المصانع البحث عن عمالة مستعدة لتأدية تلك الاعمال الشاقة، ان ذلك الأمر شكل ضغطا كبيرا على الحكومة لا يجاد مصدر جديد للعمالة.

لقد وجدوا ضالتهم لهذا النوع من العمالة في فصيلة العبيد، فنادوا بتحريرهم، لا حبا بالعبيد واحتراما لحقوق الإنسان بل لأنهم مصدر عمالة متوافرة ورخيصة، لم يقبل العبد بهذا فقط بل انه كان مستعدا ان يتقبل العمل بأي ظروف ما زال ذلك العمل يضمن له الحرية بدلا من العبودية، فتحرر العبيد لينتقل من عبودية الإقطاعي إلى عبودية الصناعي مع فارق بسيط ففي الحالة الثانية أصبح عنده ورقة تقول انه بشر (حرا). بالرغم من ان ظروف العمالة أفضل من ظروف العبودية ولكنها بقيت مرهونة بإرادة الصناعي وبما يتفضل ويمن به عليهم.[(٩٤)]

ولقد تغيرت حالة العبد من حالة العبودية المطلقة حيث يشتغل في الأرض وبما يرضي مالكه وفي المقابل يتفضل الأخير عليه بإعطائه ما يبقيه حيا من مأكل وملبس ومسكن، إلى عامل يتقاضى أجرا قليلا مقابل عمله وهو حر في اختيار مأكله وملبسه ومسكنه والتي لم تكن أفضل بكثير من مما كانت عليه أيام العبودية، لأن عبيد الأمس وأحرار اليوم لا يحق لهم ان يسكنوا في مناطق البيض ولا بُدَّ لهم من ان يسكنوا في أحياء خاصة بهم وبالفقراء من الأثنيات الأخرى.

ان هذا المورد الجديد من العمالة الرخيصة وافر الكثير من الأموال التي كان على أصحاب المصانع دفعها إلى العمال البيض وبالتالي حققوا إرباحا كبرى وإنتاجا أوفر.

النيات واحدة ولكن المصالح مختلفة بين الشمال الصناعي والجنوب الإقطاعي، لماذا نشبت إذا حرب مدمرة طالت سنين بين الجنوب والشمال، فليس كل الشماليين صناعيين وليس كل الجنوبيين إقطاعيين، الجواب ان أصحاب المصالح في هذين الجزأين من أميركا قد تصادمت مصالحهم

فنشروا آرائهم ودفعوا الناس الى الإيمان بان قضاياهم هي قضايا شعوبهم. لقد صوروا لشعب الجنوب بان تحرير العبيد سوف ينهي اقتصادهم وسيضر مصالحهم وسيعتدي على حقوقهم التي منحهم الله إياه، وذكروهم بان تلك الحقوق هي السيادة واستعباد الضعفاء ممن كان لون بشرتهم اسود لان الله خلقهم لهذا الغرض (خدمة البيض).

أما المجتمع الشمالي فان قادتهم قد صوروا لهم بان العبيد بشر ولا يستحقون العبودية، نعم إنهم ملونون واقل مستوى من البيض ولكنهم بشر ويستحقون ان يكونوا أحرارا (على ان يكونوا بشرا من الدرجة الثانية) ولا بُدَّ من تحريرهم، وفي كلتا الحالتين وفر الإقطاعيون الأموال والعتاد للجنوبيين ووفر الصناعيون الأموال والعتاد للشماليين، إن أصحاب المصالح يعملون على تحقيق مصالحهم والعامة مخدوعة بحقوق لا ناقة لهم بها ولا جمل.

ومن هذا المنطلق خرجت مدرستان في اتجاهين مختلفين ومتضادين أدت إلى حربا مدمرة طالت سنين ودفع ثمنها عامة الناس وكل جهة تظن بأنها تدافع عن الحق.

وعلى هذا الأساس وفي ستينيات القرن التاسع عشر تطوع الآلاف من عامة الجانبين المتحاربين ليشاركوا في الحرب الاهلية، فلا الشماليون لهم فائدة في تحرير العبيد ولا الجنوبيون يتضررون من تحرير العبيد. ولكن المستفيدين الحقيقيين هم الصناعيون، والمتضررون الحقيقيون هم الإقطاعيون.

عشرات الآلاف قتلوا من اجل تلك المصالح والاثنان يقولان إنها على حق. وبما ان المنتصر لا بُدَّ ان يكون هو صاحب الحق، فبانتصار الشمال أصبح تحرير العبيد (انتصارا للإنسانية).

فصار العبيد أحرارا وانتعشت المصانع بعمالة رخيصة ومستعدة ان تقوم بأقسى الاعمال من دون ان تطالب بحقوق، مدفوعين بفهمهم ان ما قد حصلوا عليه مهم جدا وعدوها نعمة اما صاحب المصنع فهو في نعمة كبرى وزيادة ربح اكبر.[٩٥]

لنتوقف هاهنا وهلة ونتساءل: هل تحرر العبيد؟ الجواب كلا؛ ففي الشمال الداعي إلى تحرير العبيد كان هنالك تميز عنصري شديد ضدهم منذ مدة التحرير الى بداية الستينيات من القرن المنصرم، فلقد كان في بعض اجزاء اميركا حرية للعبيد ولكن مشفوعة بعزل مجتمعي، فلم يسمح للأسود بالدخول الى المدارس انفسها، او يأكل في المطاعم انفسها، وحتى الشرب من سبيل شرب البيض نفسه. وفي كل الاحوال فان المرافق التي كانت مخصصة للسود كانت بمستويات دون تلك التي مخصصة للبيض[٩٦].

إذاً المجتمع وعاداته وتقاليده وقيمه لا بُدَّ ان تتخذ منحى يفيد المهيمنين على تلك المجتمعات، الدولة الأميركية سنت قوانين تحرير العبيد وأعطتهم حقوق المواطنة وبناء على رغبة الصناعيين، ولكن لم تكن رغبة أولئك الصناعيين أو حتى الحكومة (والتي هي صنيعتهم) ان يتعامل أولئك العبيد على إنهم بشر كبقية البشر ولكن على أنهم عمالة رخيصة ليس الا. فسنت القوانين لكي تقول ان للعبيد حقوقا ولكن حتى الذي يسن تلك القوانين لا يؤمن بها ولا يطبقها.

ولكن الطبيعة البشرية لا بُدَّ ان تتغير بتغير الأيام ورويدا ورويدا تغير المجتمع وذلك من خلال مروره بمراحل من عدم قبول العبيد إلى قبولهم كبشر ولهم حقوق كبقية البشر، ومع هذا ما زال هنالك الكثير من الأميركيين البيض ممن يؤمنون بان الأجناس الأخرى اقل قيمة من الجنس الأبيض.

إرادات البيئة

للبيئة تأثير كبير في الشخصية، فالبيئة الزراعية تختلف عن البيئة الصناعية والبيئة الصحراوية تختلف عن البيئة الحضرية، ان موجدات تلك البيئات تتطلب من الشخص والمجتمع الذي يعيش فيه ان يطور قيما وعادات وتقاليد خاصة ومناسبة لظروف تلك البيئة، لقد قدمنا مثالا على ذلك في الحرب الأهلية الأميركية وتحرير العبيد.

ان طبيعة الحياة الصحراوية تحتم على البدوي ان يعيش مرتحلا من مكان إلى مكان اخر بحثا عن العشب والماء، ولكن مجتمع الزراعة والصناعة يحتمان عليه ان يبقى في مكان واحد ويستغل موجودات ذلك المكان بأحسن السُبل من اجل ديمومة عيشه.

لكل بيئة ظروفها الخاصة مما يحتم طريقة التعامل معها التي لا بُدَّ ان تكون مختلفة عن البيئات الأخرى، فلا نتوقع مثلا من البدوي ان يبحث عن أمور خارج نطاق التحدي البيئي الذي يعيشه، فيكون همه منصبا على التأقلم وإيجاد أفضل السبل لمجابهة تلك التحديات من قلة عشب وماء ليخلق جوا ممتعا ومريحا في تلك الظروف القاسية التي يعيشها رجل الصحراء.

أما المزارع فبيئته توافر له معيشة على ما ينتجه من أرضه فينصب جل اهتمامه على رعاية وتربية وديمومة إنتاجه الزراعي الحيواني.

ان الحالة في المجتمع الصناعي مختلفة عن سابقيها فان وفرة الكماليات والتسهيلات تخلق وفرة ورفاهية في الحياة أكثر بكثير من البيئتين السابقتين، ليس ذلك فقط ولكن طبيعة هذه البيئة تجعلها قادرة على ومحتاجة الى توفير مواد للبحث والتطور والتجديد في العمليات الإنتاجية وفي كل العمليات الأخرى المصاحبة، وبالتالي لا بُدَّ من ان يصاحبها تطور في كل المجالات التي توصل لتلك التغيرات.

ومما تقدم يبدو التأثير الكبير والواضح للبيئة في المجتمعات والافراد الذين يعيشونها، فالإنسان هو الإنسان ولا بُدَّ له من إرضاء حاجاته وبرغم كل الظروف البيئية وغير البيئية، يتطلب ذلك منه ان يجابه كل الصعوبات والتحديات والتسهيلات التي توافرها تلك البيئة.

فمثلا وبسبب تلك الظروف البيئية تجد ان البداوة لا تسمح بتكوين مجتمعات كبيرة ولا مجتمعات مستقرة، لذلك لا بُدَّ للشخص من ان يعتمد اعتماد كبيرا على طاقته الذاتية في العيش في تجمعات صغيرة لكي يتماشى مع قلة المياه والزرع في تلك البيئة، خلافا للمجتمعات الزراعية التي تعتمد وتشجع العمل الجمعي بصورة اكبر من البيئة الصحراوية. ليس ذلك فقط ولكن في المجتمع البدوي ان محدودية البيئة تجعل التحديات التي يعيشها تحديات محدودة ولكنها جوهرية ومصيرية وبالمقابل فان التحديات في البيئة الصناعية والزراعية أكثر تعقيدا ومختلفة.

فلا ابن الصحراء يسهل عليه العيش في المدن ولا ابن المدن يمكنه ان يعيش في الصحراء، وإذا ما انتقل أين منهم من بيئته إلى البيئة الأخرى فانه سوف يظهر قصورا في قدرته على التعامل مع البيئة الجديدة وبالتالي يرتكب أخطاء في تعامله مع الوضع الجديد إلى درجة ربما لا يكون قادرا على القبول أو التعامل مع تحديات أو عادات وتقاليد وقيم المجتمع والبيئة تلك.

إرادات القانون

قانون المجتمع أو قانون البلد له تأثير أخر على الشخصية حيث ان القانون ما وضع إلا لكي ينظم الحياة في ذلك البلد أو المجتمع وبحكم كونه قانونا وليس عرفا اجتماعيا فله قوة اكبر من قوة العرف الاجتماعي،

السبب في ذلك ان القانون دائما ما يأتي بسلطات تفرض تنفيذه ولا يوجد هنالك خيار إلا بتنفيذه ومن يخالفه فهنالك عقوبة بانتظاره.

ان للقانون قدرة كبيرة في تحدي إرادة النفس، فمثلا السرقة ممنوعة ومن يلقى عليه القبض متلبسا بجريمة السرقة سيكون مصيره الحبس مثلا، فالنفس لا بُدَّ لها ان تتعامل مع السرقة على هذا الأساس، فلها أما ان تتحايل وتفكر بأحسن وسيلة ممكنة لتفادي الوقوع في يد القانون أو تترك محاولة السرقة حتى لا تدفع ثمن تلك السرقة.

يجب ان نعترف بأنه رغم قوة القانون وسلطته فان هنالك طرائق كثيرة تستعملها النفس من اجل ان تعمل ما تريد، قد تصل ببعضهم إلى تحدي القانون علنا ظنا منهم بأنهم قادرون على التخلص من تبعات أعمالهم بطريقة أو بطريقة أخرى، أو ربما أنهم لا يبالون بالقانون والعقوبة التي يمكن ان يتعرضون إليها.

ان الإنسان الذي يريد ان يخالف القانون يمكنه ذلك بعدة وسائل فإما ان يتحدى القانون مع علمه بعواقب الأمور، وإما ان يتصور بأنه أذكى من رجل القانون ولن يصل إليه، أو انه يحاول بأي صورة من الصور ان يكون دقيقا من اجل إخفاء أفعاله حتى لا يناله القانون، الأغنياء جدا مثلا يوظفون جيشا من المحامين والمحاسبين لكي يبحثوا عن ثغرات في القانون تمكنهم من جعل كل عمل غير مقبول ليصبح عملا مقبولا قانونيا.

إرادات العقائد

يتعرض الفرد الإنساني (منذ ولادته إلى يوم يموت) إلى عقائد اجتماعية لا بُدَّ ان يتعامل معها وبالتالي يمكن ان تلعب دورا في ماهية شخصيته، ان تفاعله مع العقيدة الاجتماعية اما بقبولها مرغما واما بقبول

بعض منها ورفض آخر أو بقبولها كليا أو رفضها كليا. ان أي شكل من أشكال التعامل المذكورة أعلاه يمكن ان يكون نتيجة لحاجات نفسية خالصة أو ربما بتأثير الإرادات الأخرى يسمح لها الإنسان ان تلعب دورا في حياته وفي مسيرة شخصيته.

ان أسلوب التعامل مع تلك العقيدة الاجتماعية مرهون بالشخصية التي يمتلكها، فالذي يؤمن مثلا بعقيدة سماوية (ان يكون مسلما وهو مؤمن وملتزم بها) فان شخصيته لا بُدَّ ان تعكس الانضباط بقيم وإرادات تلك العقيدة ليس ذلك فقط ولكن يدافع عنها وبقوة. ولا بُدَّ ان نقول هنا انه ليس بالضرورة ان تكون العقيدة عقيدة سماوية ربما تكون عقيدة ملحدة أو عقيدة سياسية فأية عقيدة يؤمن بها لا بُدَّ ان يكون تأثيرها متشابها.

انه لم يؤمن ويلتزم بتلك العقيدة وقوانينها إلا لإحساسه بان تلك العقيدة تتناغم مع نفسه وتفيده بصورة أو أخرى أو لأنه يعتقد بأنها تفي بما تريد وتطلبه نفسه، ان ذلك الإيمان ربما يدفعه الى ان يقدم حياته فداء لتلك العقيدة وبكل طيب خاطر.

ان الأشخاص الذين يأخذون عقائدهم من تجمعات منظمة لا بُدَّ لهم من ان يفكروا ويعملوا ويطبقوا تلك العقيدة بصورة جمعية، وبكلمة أخرى لا بُدَّ ان تكون الجماعة التي ينتمي لها ذلك الشخص ذات تأثير في قول وفعل وإرادة ذلك الشخص.

وانا هنا لا أستطيع ان أعمم هذا الأمر وذلك لان كل عمل يجتمع به الناس هو عمل جمعي منظم. ليس كل عمل جمعي يعني أو يؤدي إلى النتيجة نفسها فمثلا الذهاب إلى صلاة الجمعة عمل جمعي، والذهاب إلى مجالس العزاء عمل جمعي وحضور الاحتفالات عمل جمعي، ففي كل حالة من هذه الحالات يتفرق الناس بعد انتهاء المناسبة، اقصد بالعمل

الجمعي هو ذلك العمل الذي له أجندات وطريقة عمل واتصالات وأهداف، وبمعنى اخر العمل الجمعي المنظم الذي له أجندات محددة.

ان الجماعة التي تنظر وتفرض أوامر وإرادات على أفرادها هي الجماعة التي تملك القدرة على التأثير المباشر في الإنسان، ان تأثره بالجماعة لا يعني بأنه قد تخلى عن إرادة نفسه، على العكس فأنه لم يعتنق عقيدة تلك الجماعة وارتباطه بها إلا لأنها متوافقة مع إرادة نفسه، وما تحول الإنسان من عقيدة إلى عقيدة أخرى (وإلا أمثلة كثيرة من هذا النوع) إلا لثقته بان العقيدة القديمة لم تعد تنفع نفسه وان العقيدة الجديدة أوفت بما تريده النفس بطريقة أفضل من العقيدة السابقة.

ان ذلك الاقتناع بان الجماعة هي على حق فلا بُدَّ له ان يذوب بالجماعة وكما يقول غوستاف لوبون[٤٢] عن الروح الجمعية للجمهور في كتابه سيكولوجية الجماهير. «ان الجماهير مدركة فقط للاراء والافكار البسيطة وعالية العاطفة، ان لهم الخيار في الافكار التي تقترح عليهم فاما يقبلونها او يرفضونها بالكلية فاما يعتبرونها الحقيقة الكاملة او ليس الا الضلال التام»[٩٧].

لاحظنا هذه الظاهرة حتى في العصابات الإرهابية فلقد وجدنا طيفا من الشخصيات التي تملك خلفيات ثقافية واجتماعية وعلمية مختلفة ومتباينة ومع هذا كله يؤمنون ويفكرون بالطريقة نفسها، وهنا يقول عنهم غوستاف: ان الاشخاص الذين يقعون تحت تأثير المقترحات فكر الجماعة «ما ان اقتنعوا بها ودخلت ادمغتهم فانهم يميلون الى تحويلها الى عمل، ومهما يكن الامر حتى ولو كان اشعال نار في قصر او التضحية بالنفس فالجماهير تقدم نفسها لها وبكل سهولة»[٩٨].

ان الإيمان العقائدي ربما يأخذ منحى متطرفا جدا أو منحى معتدلا، فالذي يتطرف لا يجد حقيقة إلا بما يؤمن به، أما الذي نراه معتدلا فسبب ذلك يعزى اما لأنه يرى العقائد الأخرى فيها حق أيضا واما انه يرى وجهة نظر في قناعة الآخرين بعقائدهم أو ان تلك العقيدة موروثة ولا يتعمق في التفكير بها.

المهم في الأمر ان العقيدة لا بُدَّ ان تكون بمرضاة النفس، فكل إرادات تلك العقيدة مقبولة ومقبوليتها مرهونة بمقدار وعمق الالتزام بها. وهذا جلي واضح بين الإرهابيين الذين يفجرون أنفسهم وسط ناس أبرياء أو يفجرون مفخخات لإيقاع اكبر قدر من الضحايا، وبرغم ان كل إنسان ومهما كان معتقده وقيمه يتصور ان ذلك العمل غير إنساني وبشع، يتصورها الإرهابي ليست مقبولة فقط ولكنها واجب عقائدي يجب تنفيذها ودعمها والاستمرار بها.

إرادات الثقافة

ان ثقافة المجتمع وثقافة الشخص لهما تأثير مهم في الفرد و شخصيته، ان الإنسان الذي يعيش في مجتمع مثقف يختلف عن الشخص الذي يعيش في مجتمع جاهل، ان المعيشة في مجتمع مثقف أو غير مثقف لا يمكن وحده ان يكون مؤهلا لثقافة أفراد ذلك المجتمع، فبعضهم برغم أنهم يعيشون في مجتمع مثقف يمكن ان يكونوا بعيدين كل البعد عن الثقافة وآخرون يعيشون في مجتمع متخلف ولكنهم ذوو ثقافة عالية.

وهنا يجب علينا ان لا نفهم بان مجرد كون المجتمع متطور تكنولوجيا يعني بالضرورة أنه مجتمع مثقف، فالثقافة شيء والتكنولوجيا شيء اخر، اذ

المجتمع التكنولوجي مفتوح للثقافة ولا يعني ذلك بان كل افراد ذلك المجتمع بالضرورة يبحث عن الثقافة وبالتالي ليس بالضرورة كل المجتمع يكون مثقفا، ربما نجد ان في المجتمعات المتأخرة تكنولوجياً ان هنالك دوافع إضافية نحو الثقافة لكي تعوض عن النقص في التطور التكنولوجي لذلك المجتمع، مما يخلق نسبة عالية بين أفراده من المثقفين، نعم ان المجتمعات التكنولوجية توافر كل السبل من اجل حصول افرادها على الثقافة والتكنولوجيا وهذا الذي يجعل المجتمعات التكنولوجية أكثر تقدما من المجتمعات غير التكنولوجية.

ان الثقافة هي نتيجة جهد شخصي فالذي يبحث عنها لا يحتاج إلى ان يكون مجتمعه متقدما تكنولوجيا حتى يحصل عليها برغم ان ذلك المجتمع يوافر ويسهل أمر الحصول عليها.

ويجب علينا ان نفرق بين التعليم والثقافة فهما شيئان مختلفان فان كل مثقف يمكن ان يكون متعلما وليس كل متعلم يمكن ان يكون مثقفا، ان البلدان المتقدمة تكنولوجيا تشجع التعليم وذلك لحاجة تلك البلدان إلى من يؤدي ادوارا مهمة في المجتمع معتمدة على التخصصات المتطورة لكي تحافظ على استمرار التقدم العلمي والتكنولوجي لذلك المجتمع، ولذلك فان مثل هكذا مجتمعات توافر وتسمح المجال لكل من يريد ان يطور نفسه خلافا للمجتمعات غير المتطورة فإنها حتى ربما تقتل النبوغ الفردي لان لا حاجة لها فيه فالنابغة فيهم ربما يكون غريبا.

ان المجتمعات المتخلفة تكنولوجيا عادة ما تكون ثقافتها إنسانية وذلك بسبب ما متوافر لها من إمكانيات يسهل الحصول عليها من الكتب والمصادر التي يمكن توفيرها، أما في المجتمعات المتقدمة فان وفرة

التكنولوجيا تجعل الثقافة تطبيقية أكثر مما هي إنسانية، ونتيجة لذلك تجد ان المجتمعات المتقدمة إتقان العمل فيها له أهمية كبيرة وانضباط اكبر من المجتمعات المتأخرة ، ليس هذا فقط بل ان المجتمعات المتقدمة تعنى بكيفية عمل الأشياء بينما الثانية تهتم بمعرفة ماهية الأشياء. فالفرد الذي يعيش في هذين المجتمعين لا بُدَّ ان يتأثر بهما ويأخذ منهما ما يفيده ويرضاه لنفسه.

إرادات النظام السياسي والاقتصادي

يمكن ان يأخذ هذان النظامان منحيين متضادين: فاما ان يطلقا الإمكانيات الكامنة في الإنسان أو يقتلاها، فالمجتمع الذي يعيش في ظل نظام دكتاتوري قاهر يكون جميع أفراده عبيدا للحاكم وهو السيد، فحياتهم هي حياته ومماتهم رهن إشارته، فكل ما يأمر به الحاكم يصير وكل ما يريده الحاكم ينفذ.

ان من طبيعة هكذا نظام حكم قتل كل الطاقات الخلاقة لأن الجمال هو ما يراه الحاكم جميلا، والنجاح هو ما يراه الحاكم نجاحا، والابداع هو ما يراه الحاكم إبداعا، حتى التفكير يكون بحسب ما يرتئيه الحاكم.

يقال مرة، وفي حكم صدام حسين، أصبح منصب وزير الصناعة شاغرا، رُشح لهذا المنصب شخصان الأول كان وكيل وزارة الصناعة والثاني هو نائب ضابط، فعمل صدام لكل واحد منهم مقابلة شخصية وكان أول من قوبل هو وكيل الوزارة، فسأله صدام «لو كنت وزيرا للصناعة ماذا يمكنك تقديمه؟» وكان هذا الشخص قد حضر نفسه جيدا لمثل هكذا سؤال، فأجاب بقائمة من الإصلاحات والانجازات التي يمكنه تحقيقها عند توليه ذلك المنصب.

فضحك صدام وقال له « سنتصل بك عندما نقرر».

ثم دعا نائب ضابط، وعند حضوره سأله السؤال نفسه، فأجابه وعلى الفور ومن دون تحضير وتدقيق وتخطيط «الذي تأمر به يا سيدي″ فضحك صدام وقال له «عفية، عفية انك تستحق هذا المنصب».

فالمعيار هنا لم يكن إمكانية صاحب المنصب وما يقدمه من خبرات ونشاطات، بل كان مقدار ما يقدمه من طاعة والتزاما بما يأمر به الحاكم.

أما في النظام السياسي الحر فتطلق فيه وتشجع الطاقات و القابليات ولا توجد حدود تحدها أو رغبات وإرادات توقفها.

مرت مدة، وفي أيام حكم صدام ، منع فيها العراقيون من قراءة أي كتاب لا يتلاءم مع خط حزب البعث والحاكم. ليس ذلك فقط بل لم يسمح بالستلايت أو الهاتف النقال، اذ فرض حصارا على الشعب لكي لا يطلع على أمور لا يرضاها الحزب والحاكم.

إرادات الإعلام

الإعلام هو عبارة عن سلسلة من التوجيهات المبرمجة التي تضرب أعين وأسماع وشهوات ورغبات الإنسان ولها تأثير كبير في رسم الإرادات التي يمكن ان يتبناها صاحب الإعلام. ان الإعلام يعرض الفرد إلى اتجاهات عديدة وبما تتلاءم مع المهيمنين على وسائل الإعلام تلك، ليس ذلك فحسب بل يتعداها إلى وضع حواجز كبيرة ورسم خريطة طريق الغرض منها قيادة المتلقي إلى الأهداف التي تريدها تلك الوسائل.

ان كل وسيلة إعلامية مقننة بصورة مدروسة، الغرض منها ان تترك اكبر أثر ممكن في الفرد، وما نجاح الحملات الانتخابية والإعلانات

التجارية عن البضائع وتشجيع الحركات المتطرفة والإغراء بالجنس والسرقة للمال إلا شهود على ذلك. انها جزء من الإرادات التي تصب على الفرد صبا، سواء كان ذلك بإرادة المتلقي أم من دون إرادته لأنها تدغدغ نقاط الضعف في نفسه وبالنتيجة تؤثر في رأي المتلقي وتبني في نفسه إرادات مقاربة ومطبقة لإرادات تلك الوسائل الإعلامية، ان كل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية تغازل وتتناغم مع النفس لكي تدفعها نحو الهدف المطلوب وبالتالي القبول به.

إرادات المغريات

الدنيا مليئة بكل أنواع المغريات، فرؤية وسماع ومعرفة لذة الغنى والراحة والجمال والجنس والمال تحفز وتحث وتغري الفرد لكي يتمناها ويريدها ويطلبها.

ان المال السائب مثلا يغري على الاعتداء عليه. بعد الاحتلال الأميركي للعراق ومباشرة بعد دخول القوات الأميركية وحل الجيش والقوى الأمنية، ترك العراق بلدا مفتوحا لا ضابط له ولا قوى أمنية تحميه، لقد تركت جميع الأبواب مفتوحة لمن يريد دخولها مما خلق جوا فوضويا في المجتمع والبلد العراقي. لقد عملت القوات الأميركية المحتلة على ان تزيد من تلك الفوضى فبدلا من ان تقللها وذلك بالضبط والمحافظة على النظام العام شاركت القوات الأميركية في عمليات القتل والسرقة والتهريب فهربت الآثار وسرقت الأموال من المصارف ومن قصور النظام السابق.

ان عدم وجود قانون أو عدم وجود قوى تفرض القانون نوع اخر من الإغراءات التي يتعرض لها الإنسان، بعد الاحتلال أصبح كل واحد يعمل

بما يريد وأصبح هنالك أناس يعلنون وفي الشوارع العامة عن خدماتهم لقتل من يدفع عدة مئات من الدولارات ثمنا لذلك القتل. كان سائقو السيارات يقودون سياراتهم عكس الاتجاه من غير عناية أو اهتمام بالسلامة المرورية.

لكن مع كل هذه السلبيات والظروف غير الصحيحة كان هنالك أناس قد اظهروا إرادات مغايرة ووقفوا ضد هذه الأوضاع الفوضوية التي هي غريبة على هذا الشعب الخير، فرأينا ان هنالك أناسا اخذوا على أنفسهم حماية الأماكن العامة وحفظ أرواح الناس وهنالك من اخذ على نفسه تنظيم سير العربات في الشوارع وفك الزحام المروري بسبب عشوائية السياقة وتراكم السيارات في الشوارع ومفترقات الطرق، ومنهم من خبأ في بيوتهم الكتب والآثار للحفاظ عليها، ومنهم من مسك السلاح ليحمي مستشفاه أو محلته من السراق والمخربين.

إرادات الخبرات الشخصية

الخبرات الشخصية هي نتيجة للتفاعل بين الإرادات الداخلية والإرادات الخارجية. ان دماغ الإنسان عنده قابلية خزن عظيمة تفوق قابلية خزن أي حاسوب، ليس قابلية الخزن وحدها بل قابلية انتقال المعلومة فهي أسرع من أي حاسوب معروفة لحد الآن أيضا، مع ذلك فله وفي الوقت نفسه قابلية نسيان، ان هذا النسيان ليس ناتجا من محو تلك المعلومة المطلوب نسيانها وإنما إخمادها وتغطيتها وجعلها صعبة المنال.

يعلل علماء النفس ذلك على أساس ان للإنسان عقلين احدهما باطن والآخر ظاهر، فالعقل الباطن هو الذي يخزن التجارب أما العقل الظاهر فهو الذي يتفاعل مع التجارب، وان ملكة النسيان تعمل كحاجز تمنع انتقال التجارب المؤلمة بصورة خاصة إلى العقل الظاهر.

وخير ما يمثل فعالية تلك الملكة نجدها عندما يتوفى شخص حبيب جدا، فترى الإنسان الذي فقد ذلك العزيز مستعدا للموت من اجل ذلك المتوفى ويتصور نفسه انه لا يستطيع ان يعيش من دون ذلك الشخص الحبيب، وما ان تمر مدة على تلك الوفاة حتى يعود الإنسان يمارس حياته بصورة طبيعية وكأن شيئا لم يكن، ليس ذلك فقط وإنما كلما مر على تلك الوفاة زمن تتضاءل درجة التفكير بذلك العزيز بصورة طردية. ولا يتذكره إلا إذا ما حصل شيء أو هنالك شاهد على ذلك المتوفى، أما إذا ما عضت ذلك الشخص حية فانه سوف يخاف من كل شيء يذكره بالحية حتى الحبل وكما يقول المثل الشعبي المعروف «اللي تعضه الحية يخاف من الحبل»، ان ذلك الخوف نابع من الألم أو الرعب الذي سببته له تلك العضة.

إذاً ان الخبرات الشخصية يمكن ان تعمل عملها على الإنسان بان تكون ايجابية بان تجعل منه أكثر حذرا من المخاطر التي يمكن ان تحيط به، أو انه يقر بان الموت هو مصير لا بُدَّ لكل فرد ان يذوقه، أو يخاف من الحبل ويرتعب بمجرد ان يرى أي شيء يشابه الحية، ومن يفقد حبيبا يعتقد انه لا يمكنه العيش من دونه وفي أول أيام الفقدان يمكن ان يقدم على الانتحار.

اجتماع كل الإرادات وتأثيرها في الشخصية

ان غرضي من تعداد الإرادات المذكورة اعلاه هو محاولة مني لتسليط الضوء على بعض الإرادات التي تلعب دورا مهما في ادراة مسار الشخصية وليس الغرض منه ان اسطر كل الإرادات التي لها ذلك التأثير.

ان مجموعة الإرادات التي تتحكم بالإنسان لها تأثيرات عديدة وفي اتجاهات مختلفة. ولكي نتمكن من فهم شخصية فرد لا بُدَّ لنا من ان نتفهم إراداته الداخلية من خلال إفصاحه لنا عنها و بإرادته فضلاً عن بحثنا وتقويمنا للإرادات الخارجية المؤثرة فيه. ان تلك المعلومات ستعطينا القدرة

والإمكانية على التعرف على ذلك الشخص وتمكننا من ان نكون في موقف جيد في كيفية التعامل معه وبالتالي كيفية مساعدته على تحسين وضعه بما يكون مناسبا له وللمجتمع الذي يعيش فيه ولكي نجعله أكثر إنتاجا واتقانا.

مما تقدم كله نجد ان الإنسان محاط بتيارات وأمور وظروف عديدة تلاطمه يمينا وشمالا، وللوهلة الأولى ربما نتصور ان الإنسان لا طاقة له على معايشة تلك التيارات وبالتالي لا بُدَّ ان تكون جميع قراراته مسيرة ومحكومة بها. ولكن الحقيقة تقول عكس ذلك، وعلى العموم، ان أي قرار يؤخذ يجب ان ينفذ من أعضاء الجسد: العين الأنف الفم اليد الرجل ومن الواضح ان ليس لأي واحد من هذه التيارات أو حتى أجمعها مجتمعة القدرة على إدارة هذه الأعضاء أو الإيعاز لها لأداء أمر ما.

فما تأثير تلك التيارات في تلك الأعضاء؟ أقول لا تأثير مباشرا لها، انها تزين وتوجه وتعاقب وتثيب وتقبل وترفض، وللنفس القرار الأخير في ان تجعلها تنصاع أو تتعامل معها سواء ايجابا أم سلبا.

ان إدراك النفس لقوة العقل وحاجتها إليه في الأمور التي تحتاج فيها إلى العقلانية تجعل الاعتماد على العقل جزءا لا يتجزأ من النفس بالرغم من ان ليس للعقل سيطرة مباشرة على النفس.

فإذا كانت إرادة النفس ان تكون العقلانية خبيثة فلا يعمل العقل إلا بما يلائم إرادة النفس، بخلاف ذلك فان النفس ستمنع قراراته من التنفيذ فلا يبقى لما يخططه العقل وزن ولا تأثير، أما إذا ما تمكن العقل من إقناع النفس بان العقلانية لا بُدَّ ان تسير في مسار الخير، واقتنعت النفس على انه من مصلحتها اتباعه فعند ذلك ربما تقبله النفس ويكون نتاجه خيرا.

ان عملية التفكير وبكل طرائقها هي أسرع من أي حاسوب معروف الى الان، نعم ان الحاسوب يمكن ان يودي العمليات الحسابية بسرعة فائقة ولكنه محدود بقوة وشمولية البرنامج الذي يديره.

ان التفكير الإنساني مستمر متفاعل وديناميكي ويتعامل مع متغيرات الظروف غير المتوقعة والمتغيرة وليس الظروف المتوقعة فقط كما هو الحال في الحاسوب، ولكن الحاسوب ليست له القدرة على التعامل مع أي ظرف غير متوقع أو متغير ولم ينتبه لها صاحب البرنامج الذي ينفذه ذلك الحاسوب، وعلى هذا الأساس يمكنني ان أقول وفي الأقل الى الان (وبما متوافر من تكنولوجيا): ان سرعة التفكير عند الإنسان تفوق بامتياز أسرع واعقد حاسوب في العالم.

بعد ان استعرضنا الضوابط النفسية نجد ان الإنسان مسكين لأنه يعيش في خضم تيارات وأمواج عاتية تتلقفه من هنا وهناك وترميه من هنا إلى هناك ويجب ان يتعامل مع كل هذه التيارات والأمواج من اجل ان يحقق ذاته ويحصل على حاجاته، ليس ذلك فقط ولكن لا بُدَّ له من ان يمنع ولا يسمح بخلق عداوة مع الإرادات الأخرى لأن ذلك يجعل حياته أصعب.

والحقيقة ان الإنسان عنده القدرة وهي قدرة عجيبة على التأقلم مع تلك التيارات المتلاطمة وإلا لما كانت قد تقدمت الإنسانية هذا التقدم العظيم، لم تأتي تلك القدرة من فراغ بل جاءت بعد تضحيات جسام من قبل هذا الإنسان، تضحيات على مستوى الفرد والمجتمع، إذا ان عليه في بعض الأحيان ان يجتهد ويرهق نفسه ويعاني نفسيا من اجل تحقيق الذي يريده، وربما يصل إلى مرحلة لا يرى فيها جدوى من الاستمرار بها لأنه ربما وصل إلى قناعة إلى ان جهوده تذهب سدى ولا تجدي نفعا، وفي كلتا الحالتين، نجد ان النجاح أو الفشل يجب ان يكونا مدفوعي الثمن.

ومن المؤكد ان الذي يسعى إلى حاجات كثيرة لا بُدَّ ان يكون تعبه أكثر، ونتيجة لذلك ربما تكون هنالك وفرة من تلك الحاجات، فالذي يريد

الغنى يجب ان يعمل جاهدا من اجل تحقيق ذلك الغنى وذلك العمل الجاد له ضريبة ربما العمل الجسدي أو الفكري أو الاثنان معا. أما الإنسان الذي يبحث عن حاجته الأساسية وكما قلنا ان تكون تلك الحاجات في أعلى المدارات الذات فليس عنده الكثير من العمل أو الجهد الذي يبذله من اجل تحقيق ذلك الهدف. فالذي يريد قوت يومه يكون همه ذلك اليوم وليس القابل من الأيام أو التكثير من تلك الحاجة لتفيض عن حاجاته لسنين عديدة أو لتوريثها لأولاده.

أعطى رسول الله ﷺ(٩٩) عددا من الصحابة كمية من المال وقال لهم أراكم بعد مدة وأريد ان اعرف كيف صرفتموها.... عند اليوم المحدود جاء الصحابة فأمرهم رسول الله ﷺ ان يصعدوا الواحد تلو الاخر على صخرة كانت معرضة لشمس النهار الحارقة لكي يخبروه بما فعلوا بتلك الأموال الذي أعطاها إياهم، فصعد الصحابة الواحد تلو الاخر كل واحد منهم يذكر مصروفاته فالقليل هنا والقليل هناك وكلما طالت نوعية وعدد المصروفات طال أمد بقاء ذلك الصحابي على تلك الصخرة. والصحابة وهم واقفون على تلك الصخرة يقفزون بأرجلهم الحافية على الصخرة من القدم اليمنى إلى اليسرى وبالعكس عسى ان يتقوا قليلا من حرها. فالصحابي الذي جزأ تلك الأموال إلى أجزاء عديدة تعرض إلى وقت أكثر من حرق قدميه، ولما صعد علي عليه السلام على الصخرة قال أعطيتها إلى الفقراء ونزل، لا حاجة له بذلك المال فلم يلقَ الكثير من التعب والمشقة في صرفها ولم يلقَ التعب والمشقة في إيضاح كيفية صرفها.

العبرة من هذا المثل هي ان الذي تكون حاجاته بسيطة لا تتعدى الحاجات الأساسية التي تبقيه على قيد الحياة وبصحة وعافية جيدة لا يجد

الكثير مما ينغص عليه هذه الحياة ولا يهتم أو يتألم أو يعاني من الضوابط التي تملى عليه، فلا يحتاج إلى البحث على المزيد من فائض تلك الحاجات، ولا يحتاج إلى التعامل مع كل الضوابط والعوامل والطرائق التي يجب ان يتبعها من اجل تحقيق أغراضه وذلك بان يكذب ويحتال ويكيد، ولا يحتاج إلى ان يبذل جهدا عضليا وفكريا أو ان يمارس ضغوطا على نفسه.

ان الإرادات الداخلية والخارجية ليس كلها متفقة على امر واحد، وبما انها ليست إرادة واحدة ولكنها مجموعة ارادات تدفع بالانسان الى اتخاذ اتجاهات في اسوأ الاحوال متضادة ومتصارعة وعلى هذا الاساس سنناقش في الفصل اللاحق امرين مهمين الاول ما الصراعات المحتملة بين تلك الإرادات؟ والثانية لماذا تكون ادارة تلك الصراعات من قبل الإنسان خالقة لشخصيته ومعبرة عنها؟

الفصل السابع
صراع الإرادات

وإدارة الصراع الخالقة والمعبرة عن الشخصية

الطرائق التي يعتمدها الإنسان في التعبير عن شخصيته
الصراعات التي تسهم في خلق الشخصية
الصراع بين النفس والعقل
الصراع بين الإرادات الخارجية أنفسها
الصراع بين الإنسان نفسه والإرادات الخارجية المسلطة عليه
المحور الاول: فرض الإرادات الداخلية على الارادات الخارجية
المحور الثاني: تزاوج الإرادات (الداخلية والخارجية)
أوّلاً: الإرادات الاجتماعية ثانياً: الإرادات الدينية
ثالثاً: الإرادات السياسية رابعاً: إرادات الجماعة
خامسا: إرادات شياطين الانس والجن
صراع الخبرات والإرادات (الداخلية والخارجية)
إدراة الصراع
أوّلاً: الثواب والعقاب ثانياً: الذكاء والنجاح ثالثاً: علل الشخصية
الصحة النفسية
كيفية التعامل مع المشكلات الشخصية

الفصل السابع
صراع الإرادات
وإدارة الصراع الخالقة والمعبرة عن الشخصية

ذكرنا في الفصول السابقة ان الشخصية لها طبيعة عالمية انسانية وهي طبيعة طفولية وطبيعة السعي وراء الحاجات الانسانية، ولما تكلمنا على الشخصية بينا انها متكونة من ركنين اساسيين الركن المادي الذي يتضمن الحاجات والانسان والركن المعنوي الذي هو الإرادات. وقلنا: بإمكاننا عد الإنسان متكونا من جزأين رئيسين هما العقل والنفس. ان الإنسان في سعيه الى الحصول على حاجاته لكي يفي بحاجات النفس وربما طلب الفائض من تلك الحاجات يجب عليه ان يجابه مجموعة صراعات منها داخلية واخرى خارجية وثالثة بين الخارج والداخل، وفي هذا الفصل سوف نتكلم على مجمل الصراعات التي يجابهها الإنسان في مسيرة حياته.

ان الإنسان معرض إلى مجموعة إرادات كل واحدة منها وجدت من اجل هدف أو أهداف محددة، ومن اجل تحقيق تلك الأهداف، تعمل تلك الإرادات على دفعه وبيان الطريق الذي يجب ان يسلكه لنيل مبتغاه. يجب ان نتذكر بان تلك الإرادات لا تعمل بمعزل عن إرادة وحاجة الإنسان، فهي تناغي وتناغم وتدغدغ حاجته وإرادته لكي يتبع سبيلها ويجعل هدفه هدافها.

الطرائق التي يعتمدها الإنسان في التعبير عن شخصيته

نتيجة لمحصلة تفاعلات الإرادات الداخلية والخارجية هي تكوين قناعات عند الإنسان تدفعه لاتخاذ واحدة أو أكثر من الطرائق الأربع التي سنوردها ليستعملها في تعامله مع المجتمع:

ابراز شخصية إباحية

يحلل الإنسان الذي يتخذ مثل هكذا طريق لنفسه ان يعمل ما يشاء ما دام ذلك هو ما يرغب فيه وما يريده، فهو لا يضع لنفسه حدودا ولا قيودا أو اعتبارات لأي شيء، بل على العكس يعتقد بان كل ما يعمله ايجابي ومفيد، ان المغريات المحيطة به تكون عاملا مشجعا له على السير في ذلك الطريق، فهو بذلك يكون قد وصل إلى قناعة بان الطريق الذي اختاره مليء بالايجابيات ولا توجد فيه أي سلبيات، وإذا ما وجدت فهي اما ان تكون سهلة التصحيح واما ليست ذات أهمية.

فهو إذاً لا يسمح لنفسه بان يفكر في اضرار وسلبيات ومردودات عمله؛ لأنه قد وضع نصب عينه محورية ذاته فإذا ما ارتضت ذاته بشيء أو عمل فان كل أمر سواه يهون، فلا يوجد عنده حسابات لاحتمالات الأضرار التي يمكن ان يسببه أي عمل يقوم به ولا ما يمكن ان يترتب عليه من سوء على مستوى المجتمع أو الأفراد.

ان مثل هذا الصنف من الناس نراه متجليا ومتغلبا على ذلك النوع من البشر الذي يقتل ويتمتع بالقتل فهو يقتل واحدا واثنين وثلاثة لأسباب يظنها موجبة ولا يمكن ان يردعه رادع، ونراها في حب المال والحصول عليه فلا يهمه من أين يحصل على ذلك المال ومن يتضرر منه وإذا كان نتيجة ذلك

موتا وخرابا فلا بأس به، ونراه عند تجار المخدرات وتجار الحروب، ونراها عند من يطالبون بالإباحة الجنسية فلا قيود ولا توقف عند حد أو حرمة، لا يهمهم من يتضرر منها وكم من معاناة صحية أو اجتماعية تسببها تلك الإباحية فلا يهم ما دام ذلك الفرد يريد ذلك.

ابراز شخصية ذات إباحية مبطنة

وهي الإباحية التي تسير بحدود مرسومة، فطالما ان صاحبها يتمكن ان يظهر للمجتمع بصورة يرضاها المجتمع فهي جيدة أو مرغوبة، فهو بذلك يرضي نفسه والمجتمع في آن واحد، فهو يسرق ولكن يتظاهر أمام الناس على انه أمين، ويقتل ويختفي وراء ستار الرفق والرحمة، ويزني ويختفي وراء العفة، بكلمة أخرى كل شيء مباح ما دام هنالك غطاء يستره ويحميه من عيون ورقابة المجتمع.

صدام حسين أباح هو وأولاده وزبانيته أموال وأرواح واعراض الناس وكان يدعي بأنه حامي لاعراض وأموال العراقيين، وحارب وقتل رجال الدين والمتدينين ولكن عندما ضاقت عليه الأمور وتطلب منه الأمر تظاهر بحمايته للدين فأعلن (حملته الإيمانية)، وادعى بان غيرته على النساء العراقيات كانت سببا له في احتلال الكويت لأن احد القادة الكويتيين اعتدى عليهن بالكلام. هنالك رجال دين (اسلاميون) يفتون بقتل الإنسان الذي حرم الله قتله بدعوة الدفاع عن الدين.

إبراز شخصية منضبطة

ان هذه الطريقة تدعو إلى التعقل والتريث في اتخاذ الآراء والتقييد بمجموعة القيم الموجودة في المجتمع صحيحها وخطئها ان مثل هذه

الطريقة قد يستعملها الإنسان لأنه قد وجدها الأنسب له، فطالما أنها مقبولة من المجتمع فيجب ان يعمل بها ولا داعي لمعاداة الإرادات المانعة حتى ولو كان غير معتقد بصحتها.

ففي المجتمعات التي تعد ان الأخذ بالثأر عرف اجتماعي مقبول وواجب الالتزام به وتنفيذه، نجد ان الإنسان الذي يؤمن بهذه الطريقة لا بُدَّ ان يقتل أخذا بثأره إيفاء لذلك العرف، ومن يتعصب لقوميته أو دينه أو معتقده السياسي يحق له ان يهين أو يظلم أو يقتل من يخالف أو يعتدي على أي واحدة منها.

قبل مدة على شاشة القناة الفضائية العراقية كان احد النواب يشتكي من الظلم المحاق بضباط الجيش العراقي السابق ويقول: «هل من العدل اليوم ما يحصل لأهل الموصل؟ فلقد كان في عهد صدام ثمانون بالمائة من كبار قادة الجيش من أهل الموصل، واليوم في الجيش العراقي الجديد لا يوجد آمر فوج واحد منهم»، عجبا ففي العراق هنالك ثماني عشرة محافظة وبحسب قوله لا يعين منها كقادة للجيش غير عشرين بالمائة ما يعني ان كل محافظة يكون لها حصة بنحو (على فرض أنها توزع بالتساوي بين المحافظات) واحد بالمائة والموصل وحدها لها ثمانون بالمائة، ان ذلك بنظر ذلك النائب بحسب ما يراه هو الإنصاف والعدالة الحقيقية.

ابراز شخصية تؤمن بالحرمات

تدفع هذه الطريقة الإنسان إلى التوقف والمراجعة لكل عمل، فلا طمع في مال أو عرض أو قهر للغير، وإنما طلاق بائن لكل زينة وزخرف للحياة

والرضى بالقليل مما يسد الرمق ويديم الحياة. ان هذا لا يعني ان على الإنسان ان يحفر قبرا وينتظر الموت لكي ينهي تلك الحياة، وإنما يعني ان حياجات الإنسان لديمومة حياته هي بسيطة ولذلك فان تأمين القليل من الأكل والشرب لإشباع بطنه والقليل من الملبس ليحمي نفسه حر الصيف وبرد الشتاء ومكان بسيط يحتمي به ويختلي به هو وعياله كاف، ما عدا ذلك فكله بطر وزائد على الحاجة. ولما يصل الإنسان الى هذا الحال من الزهد تصعب على الإرادات التي تريد ان تحرفه من ان تنجح.

القليل منا من يتبع هذا الطريقة لأنها تعني ان على الإنسان ان يتخلى عن مباهج وزخرف الحياة. أما من يتبعها فيعد ان الطاقة التي يصرفها في الركض وراء الفائض من الحاجات يمكن استغلالها وصرفها في البناء والعمران والتطور الإنساني، وهو في هذا ينطلق من وجهة النظر التي تقول بان الركض وراء التخمة في طلب الحاجات يستهلك كل القوى الكامنة في الإنسان من دون ان يقدم شيئا للآخرين وربما ينازعهم على حاجاتهم التي ربما هم بأمس الحاجة لها، أما إذا اكتفى بالقليل منها فان تلك الطاقات يمكن ان تستعمل في البناء وإسعاد الناس وليس في الخراب.

لا يختلف اثنان على علي بن أبي طالب عليه السلام، فمحبوه ومبغضوه أعداؤه وأصحابه يتفقون على انه علم من أعلام الإنسانية، وصف بكل المواصفات التي تكاد تكون خارقة للعادة في كل المجالات الإنسانية والبدنية والعقائدية والمنطق والعلم ولكنه مع ذلك طلق الدنيا بالثلاث لا ردة فيها ولا رجعة، كان العالم ملك يمينه ولم يكن يأكل إلا الخبز والماء والملح. كانت خزائن المسلمين في بيت المال تحت تصرفه ولباسه يرقعه بيده حتى وكما قال: لقد استحييت منه من كثرة الرقع التي فيه. وهو المحارب القوي المقدام الموجود في كل الملمات وهو العالم بكل أمور

الدنيا. وانا هنا لست بمجال التعرض إلى مناقبه ولكن أردت ان اجلب مثالا كما جلبته للآخرين.

إذاً تلك الطرائق أو الاتجاهات الأربعة التي يمكن ان يتخذها الإنسان في حياته كل واحدة منها تأخذه في اتجاه معين، فهو يستعملها عندما يريد ان يسلك أي الطرائق المذكورة أعلاه أو خليط منهن وبما يناسب إرادته ظانا بأنه يحقق أفضل كسب ممكن لنفسه.

ذكرنا ان الإنسان لا بُدَّ له من ان ينظر إلى حاجاته ويعمل من اجلها ويطيع إراداته الداخلية والإرادات الخارجية وهواه لكي يختار لنفسه واحدة أو مجموعة من تلك الطرائق الأربع المذكورة أعلاه ليستعملها في تعاملاته مع المحيط الخارجي. فهو إذاً لا بُدَّ له من ان يمر بسلسلة من الصراعات التي تقوده إلى طريقة حياة وشخصية متميزة وخاصة به. ان سلسلة الصراعات التي لا بُدَّ له من ان يتعامل معها كثيرة ولكني سأقتصر على:

الصراعات التي تسهم في خلق الشخصية

ذكرنا ان الإنسان يجابه صراعات عديدة مصادرها من داخل نفسه ومن خارجها ومن رحم تلك الصراعات تخرج تصرفاته وبالتالي شخصيته، ان تلك الصراعات هي:

الصراع بين النفس والعقل

ان طبيعة النفس وأسلوب عملها يختلف عن طبيعة وأسلوب عمل العقل، فالنفس بطبيعتها أنانية وتعمل بدوافع غريزية، فعندما تجوع لا بُدَّ ان تجد الغذاء وعندما تعطش لا بُدَّ ان تبحث عن الشراب وعندما تخاف لا بُدَّ ان تبحث عن الأمان وعندما تهدد لا بُدَّ ان تتخذ موقفا دفاعيا، انها تتصرف

من هذه المنطلقات واستجابتها لأي حادث مبني على أساس ردة أفعال، ان الإنسان المتهور مثلا يتفاعل (من دون تردد) مع أي استفزاز يتعرض له من دون حسابات لنتائج ردة فعله، لو كان الإنسان نفسا فقط ولا وجود للعقل عنده لكان حيوانا لا فرق كبيرا بينه وبين أذكى الحيوانات.

بالمقابل يعمل العقل بحسابات وتحاليل ومقارنات واستنتاجات وتطبيقات. فالعقل الإنساني يعمل كمركز لصناعة القرارات وهو شبيه بالـ"processor" للحاسوب يتلقى الإشارات من جميع الإرادات كما يطلب من مخزون تجاربه إشارات وينظر إلى حاجاته لكي يتمكن من ان يصل إلى قرار ما، فطبيعة عمل العقل هو العقلانية ولا اثر للغريزة فيه.

ان هذا الخلاف في الطبيعة وفي منهاج العمل يحتم الصراع بين الاثنين، ان النفس لها السيطرة الكاملة على تنفيذ القرارات سواء كانت نفسية أم عقلية لأن الذي له القدرة على التنفيذ هو الجسد وهو عبد للنفس ويأتمر بأمرها، لذلك فان من بيده قدرة التنفيذ تكون له اليد الطولى في ذلك الصراع.

قلنا: ان النفس تريد ما هو بصالحها وما يجلب لها المنفعة وأفضل أنواعها هي التي تنفذ سريعا وآنياً، وهي لا تفكر بمنطق العقل لذلك لا يهمها نتائج أو توابع تلك المنفعة، فلذلك إذا ما تعارضت إرادتها مع إرادة العقل لا بُدَّ ان تنفذ إرادتها على حساب إرادة العقل.

ان سيطرة النفس على العقل تكون عن طريق القوالب التي تصنعها وتصيغها وتنصبها بينها وبين العقل لكي تجبر العقل على صوغ قرارات بما يناسب إرادات النفس، فلا بُدَّ للقرارات العقلية من ان تمر من خلال تلك القوالب لكي تخرج مطابقة أو محورة وبما يلائم النفس.

والغرض من هذه القولبة هو تحقيق مآرب النفس، ومن اجل تحقيق تلك المآرب تأخذ النفس منحيين: فإما تقولب القرارات العقلية كما أسلفنا أو تسمح للقرارات العقلية ان تمر من دون تغيير، ان الحالة الثانية تحصل عندما تجد النفس أنها غير قادرة ولا تملك القدرة على التعامل مع أمر ما. ان النفس في مسعاها لتحقيق إراداتها ربما تعطي القيادة للعقل لكي يتصرف فتفتح بابا تسمح بمرور أوامر العقل من دون المرور بالقوالب النفسية، فتمر أوامر العقل إلى النفس من دون تغيير، وما اختبرته في حادث السيارة التي حصلت لي، إلا مثال على مثل هذه الحالات.

وعلى هذا الأساس فيمكننا ان نقسم ذلك الصراع بين النفس والعقل على ثلاثة أقسام تكون فيه:

أوّلاً: السيطرة الكلية للنفس على العقل:

ان النفس يمكن ان تخنق العقل و تجعله مطية لإرادتها إلى درجة تجعل العقل يعمل بإردة كإرادة النفس، ولكن وهنا تبرز الخطورة، بما ان العقل له قدرات خارقة في العمليات العقلانية لا تملكها النفس فان نتيجة ذلك ان يكون الشخص الذي عقله خادم لنفسه إنسانا شريرا جدا. والتاريخ قد أعطانا أمثلة كثيرة على مثل هكذا بشر أمثال صدام وهتلر وهولاكو وبول بوت.

ثانياً: السيطرة الكلية للعقل على النفس:

برغم ان النفس هي الوحيدة القادرة على التنفيذ فإن العقل يمكن ان يروضها لكي تستسلم لأوامره وتسير بإرادته وليس بإرادتها، ان ذلك الاستسلام أمر صعبا وشاق وهو طريق وعر وفيه كثير من المطبات

والصعاب، ولكي يسيطر العقل يجب ان يصرف الإنسان طاقة كبيرة جدا في مجابهة الإرادات الخارجية المشجعة للنفس وأخرى من اجل نقل الحاجات من مدارات واطئة إلى المدارات العليا في مدارات حب الذات، السبب في ذلك ان الحاجات إذا ما سكنت المدارات الواطئة فان النفس لا بُدَّ لها من ان تعمل ما تستطيع من اجل تحقيق تلك الحاجات.

ان انتقال تلك الحاجات إلى المدارات العليا تحرر النفس من ضغوط تلك الحاجات وإذا ما حصل ذلك فلن يكون هناك حاجة إلى معارضة قرارات العقل، ليس ذلك فقط ولكن الكثير من القوالب التي وضعتها النفس تبدأ بالانهيار فبذلك تفتح الطريق للقرارات العقلية لكي تمر من دون تغير.

ان انهيار القوالب وانتقال الحاجات إلى المدارات العليا تجعل سيطرة العقل على النفس تكاد تكون كاملة. إذا ما رجعنا إلى الطرائق المستعملة في ابراز الشخصية نجد ان طريقة المحرمات تدفع النفس إلى ان تقول: لا احتاج من هذه الدنيا إلا الى ما يبقيني حيا من أكل وشرب ومسكن ما عدا ذلك ليس لي به شغل.

وقالها علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يبكي يخاطب الدنيا فيقول[١٠٠]: «أمن مثلي تغرين غري غيري فاني قد طلقتك بالثلاث». فلقد طلق الإرادات التي تدفع نحو الإباحية المقننة وغير المقننة وتمسك بالإرادات التي تمنع المحرمات، فكان وجوده وحياته مؤسسين على ان هنالك مبدأ وعقيدة وعملا دؤوبا من اجل البناء، وكان ذلك نابعا من إيمانه بأنه لا غرض من الوجود على هذه الأرض إلا من اجل إيصال الإنسان إلى الكمال الإنساني وذلك بأداء الواجبات والامتناع عن المحرمات.

ويحتاج الوصول إلى تلك الحالة من الاستغناء عن تلك الحاجات إلى تربية وتدريب، جلب له احد التجار حلوى لذيذة يشتهيها كل من يراها، فقال له: ما هذا؟ أجابه التاجر انها حلوى أحببت ان اهديها لك، فغمر علي عليه السلام إصبعه فيها واخرج الإصبع مملوءا بالحلوى، قربه من فمه وكأنه يخاطب نفسه ويتحداها ويقول لها: يا عين انظري ويا انف شم ويا إصبع المس، انقلوا كل تلك الأحاسيس إلى نفسي ليس ذلك فقط ولكني سأصف لها طيب هذه الحلاوة ومقدار المتعة المتأتية منها. وبعد ان يلوع نفسه ينفض إصبعه من تلك الحلاوة ويقول للتاجر خذها فانك لا تستطيع رشوتي بها....ثم امره بالانصراف.

ثالثاً: التوازن بين النفس والعقل:

ان هذا التوازن هو الذي يجعلنا أناسا اعتياديين أسوياء في المجتمع، فيكون هنالك توازن في أصناف الإرادات الداخلية للنفس، مما يجعلنا نتعامل بطريقة غير متطرفة، أي لا للخير كله ولا للشر كله. ان هذا النوع من الناس ربما يستعمل كل طرائق ابراز الشخصية التي ذكرناها سابقا. ان هذا التوازن يجعلنا بقدر المستطاع مواطنين صالحين لأن إراداتنا تقودنا إلى أعمال غريزية ولكن مشروطة بالعقلانية. ان تلك المشروطية هي الأخرى على طرفي نقيض فربما تكون سيطرة النفس اكبر من سيطرة العقل أو العكس ولكن دائما محددة بتوازن ما.

وهنالك تطابق كبير بين هذا التوزيع في التوازن وكل التوزيعات الطبيعية (ومن وجهة نظر إحصائية) فإن هذا الامتداد في التوازن يظهر قلة من الناس من الذين يملكون حاجات في المدار الخارجي أمثال الأنبياء والأوصياء، وهنالك ندرة من الناس من الذين يملكون حاجات في المدار

الأقرب للإنسان وهم متمثلون بول بوت وهتلر وصدام، فأمثال هؤلاء وكما يذكرهم القرآن(١٠١) فيقول: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾.

لأن كل واحد منهم اتخذ هوى السلطة والتسلط على رقاب الناس إلهاً له، أما بقية العالم فهم متأرجحون بين هذين الطرفين ويمثلون الغالبية العظمى من الناس.

يجب ان نعي بأن هاتين القوتين (النفس والعقل) لا تقتصران على الاختلاف في ما بينهما في طبيعة وعمل كل واحدة منهما بل تتعديان ذلك إلى التشابه في ما بينهما، فكما ان للنفس حواس فان للعقل حواس أيضا ولكن حواس النفس مادية متمثلة بالأذن والفم واللسان والجلد، أما حواس العقل فروحية لكنها لها قابلية حواس النفس أنفسها فهي تسمع وتشعر وتتكلم وترى وتتذوق.

يتصور بعضهم بان الحاسوب ذكي جدا وكل من له معرفة بأسلوب عمل الحاسوب يقول: انه غبي جدا، إذاً ما سر عظمة ما يقوم به هذا الحاسوب؟ الجواب يكمن بسرعة انجاز الحسابات الرياضية فهي التي تجعلها تحل عقدا كثيرة وكبيرة يمكن تأخذ من الإنسان وقتا وجهدا كبيرين لكي يتمكن من حلها.

كيف لي ان أقول: انها غبية إذاً، الجواب اترك الحاسوب من دون برنامج ليديره فتجد أنه مجرد قطعة أثاث لا خير فيه ولا يستطيع عمل شيء، ولكي يتمكن ذلك الحاسوب من أداء الاعمال التي تكلمنا عليها أو أي عمل آخر به فلا بُدَّ من تخزين برنامج في ذاكرته لكي يعطي الحاسوب كل المعلومات وكل المعادلات والطرائق التي يجب ان يستعملها لإجراء

عملياته الحسابية، ليس ذلك فقط ولكن يجب ان يزود بكل الاحتمالات التي يمكن ان يلاقيها في عمله، فما على الحاسوب إلا ان يتبع تلك التعليمات والقواعد التي أرسيت له لكي يعطي النتيجة المطلوبة.

فمثلا لو أردت للحاسوب ان يطلب من المشغل ان يكتب اسمه، ولم أضع أي شروط لكتابة ذلك الاسم فكل ما يكتبه المستخدم للحاسوب سوف يعده حروف اسمه، ثم أقول للحاسوب ان يطبع اسمه اكتب له كلمة "أهلا" مصحوبة بما كتب، يفتح المشغل البرنامج فتكتب له: اكتب اسمك، فيكتب اسمه على انه "١٢٣٤" فيجيبه الحاسوب: "أهلا ١٢٣٤"، ولكن إذا وضعت شرطا في برنامجي يقول إذا كان في اسمه رقم فلا تقبله ورد عليه بالرسالة التالية: "يجب استعمال الأبجدية فقط رجاء" عند ذلك لا يقبل الحاسوب منه إلا ما يكتبه من الحروف الأبجدية، وإذا أردت ان احسب حسابا لكل الاحتمالات التي يمكن ان يدخلها المشغل، يجب علي ان أعطي ال حاسوب أوامر عن كيفية التعامل معها، وإذا ما حصل وأعطيت كل الاحتمالات التي أتوقع ان يعملها المشغل ولم يخطر على بالي حالة واحدة فيفعلها فإن الحاسوب لن يعرف كيف يتعامل مع ذلك العمل.

أما الإنسان فانه يتمكن من عمل الأشياء ويراجع نفسه ويتفاعل ويستجيب ويغير ويحور ويصلح، ان هذه الأمور كلها هي قدرات إنسانية جبارة وعظيمة جدا، لذلك لا يحق لنا ان نقول بان الإنسان مسير غير مخير، ان الإرادات التي تعصف بالإنسان لا تتحكم في قراراته ولكن تجمل له نتائج عمله وتحفزه وتقهره ولكن الخيار هو خياره ومرده يرجع عليه. ان الإنسان لكي يقرر يجب ان يرجع إلى مخزونه من الخبرات والى كل الأطواق والإرادات الخارجية ويميز ويشخص وبعد ذلك يصل إلى قرار

وتفاعل، الإنسان ليس كالحاسوب فهو يتفاعل مع الأمور التي تتجدد أمامه آنياً من غير مساعدة احد.

وبما ان نتاج العقل والنفس مرهون بما تقبله النفس وما تريد ان تفعله فان النتيجة النهائية لا بُدَّ ان تكون من فعل النفس، ولكن هذا لا يعني ان النفس تطغى على كل النتاج الفكري للعقل، وانأ قلت سابقا: ان النفس تضع قوالب لا تسمح للعقل ان يفكر وحده ولكن ضمن ضوابط تلك القوالب بحيث لا يمكن لأي نتيجة فكرية ان ترجع إلى النفس بخلاف ما تريده النفس.

فمثلا تبعث النفس رسالة إلى العقل تطلب منه نصيحة حول كيفية سرقة مادة ما، فأي صورة ترجع من العقل خلاف كيفية العمل على تسهيل أمر السرقة ستجد ان ذلك القالب يمنعها من الوصول إلى النفس، وربما يكون ذلك من خلال طوفان منبعث من النفس على شكل إشارات سواء كانت كيمياوية أم كهربائية بحيث يطغى على أي إشارة خارجة من العقل لتضعفها ولا تبقي لها أثرا.

توصل العلم اليوم الى القدرة على تسجيل المناطق التي تزداد فيها الفعاليات الدماغية وذلك باستعمال جهاز التصوير المغناطيسي (fMRI) اذ به يمكن مراقبة تدفق الدم واستهلاك الاوكسجين في الدم واستعمالها في تعيين المناطق التي تكون ذاتو فعاليات كبيرة، فباستعمال هذه التقانة يمكننا ان نراقب فعاليات الدم في مدد زمنية معينة، تعطينا هذه التقانة دقة عالية في طريقة التصوير لتلك الفعاليات، كمثال على مثل هكذا تجارب درس العلماء تأثير الكوكائين في فعاليات الدماغ[١٠٢].

وعلى هذا الاساس ربما يمكننا ان نقول: إن النفس تسيطر على العقل من خلال طوفان يوقف اي اشارة دماغية تضاد إرادة النفس[(١٠٣)].

بما ان الإنسان كائن ذكي لا يمكن ان يتعامل مع محيطه الخارجي من منطلق غريزي حاله حال الحيوان، ولذلك لا بُدَّ ان تكون الكثير من معاملاته عقلانية، وبما ان النفس هي المنفذة للقرارات لا بُدَّ من وجود خطوط تواصل بين العقل والنفس، ان النفس ترسل إشارة معينة إلى العقل وتنتظر جوابا منه فإذا رضيت النفس بذلك الجواب عملت به وبخلافه فإنها ترده وتطلب صوغاً جديداً.

في بعض الأحيان يكون الإنسان في موقف المتردد في تعامله مع بعض الأمور اذ يبدو انه غير قادر على اتخاذ قرار ما، فهو ما بين ان يعمل أو لا يعمل، والسبب في ذلك يعود الى ان شخصية الإنسان هي عبارة عن نتاج الصراع بين هاتين القوتين ولا بُدَّ لأحدهما ان ينتصر أو ان توجد أرضية يتفقان عليها. فأما ان تفوز النفس بجعل العقل يعمل بما يلائمها واما ان يصر العقل على ان قراراته هي التي تجلب للنفس السعادة المطلوبة وان البحث عن ما هو أكثر ملاءمة لها لا يجدي نفعا.

ان أحاسيس العقل لا تأتي بواسطة أعضاء حسية، ان تلك الأحاسيس تبرز للعيان عندما يفقد الإنسان واحدا أو أكثر من أعضائه الحسية. اعرف رجلا أعمى منذ الطفولة، ولكنه كان يتنقل في بغداد كلها من يغير ان يتيه في شوارعها وأزقتها، ولم يكن يتنقل في بغداد فقط بل كان يتنقل في المحافظات الأخرى من دون ان يحتاج إلى من يقوده أو يوجهه نحو أهدافه، لا بُدَّ لنا من ان نتساءل عن كيفية يمكنه ان يعمل كل ذلك من دون ان يرى طريقه أو يقوده احد مع عدم وجود خبرة سابقة بتلك الطرائق.

أنا لا ادعي بان ذلك الأعمى يرى الطريق بعقله، ولكني أقول: ان النفس تتعلم الطريق عندما تراه أو تسمع به فتخزن سبل ذلك الطريق في الذاكرة لكي تستعملها في الاستدلال على الأماكن، ان الأعمى لا يرى وليس عنده رؤية سابقة للطرق حتى ينفعه وصفها ففي هذه الحالة فلا بُدَّ ان تعطي النفس إلى العقل الحرية لكي يرسم خارطة للطريق لكي يتبعها في تنقلاته.

ان طريقة تعامل أصحاب الحاجات الخاصة مع الحياة لا بُدَّ ان تدرس بكثافة لتمكننا من فهم طبيعة العلاقة بين النفس والعقل، ان العالم الفيزياوي هوبكنز[١٠٤] وبالرغم من انه يعاني من شلل في جميع أطرافه ولا يستطيع حتى النطق نجده عبقريا من عباقرة هذا القرن، فنفسه ناقصة وبالتالي فان الغرائز عنده محدودة وربما ذلك أعطى الفرصة لعقله ان يأخذ مركز القيادة في أفعاله وأعماله وتفكيره. ان العملية العقلية تأخذ الجزء الأكبر من حياته وذلك واضح وجلي من نتائج أعماله وانجازاته العلمية.

ان الإرادات الخارجية تتعامل مع الإنسان بطريقتين مختلفتين وذلك يعتمد على النتائج المطلوبة من قبل تلك الإرادات، فالإرادات التي تناغم و تدغدغ الغرائز تتعامل مع النفس مباشرة أما الإرادات التي تريد العقل تخاطب و تحفز العقل.

ان انتقال الإشارات بين الحواس والنفس والعقل سريع جدا ومذهل، فعندما تريد إرادة ان تنقل رسالة إلى النفس عن طريق العين تنقلها بصورة خاطفة بحيث تنتقل تلك الإشارة إلى النفس من دون أي تأخير والغرض منها ردة فعل سريعة.

يقول علماء النفس[١٠٥]: ان هنالك ثلاثة انواع من الذاكرة، هي:

١. ذاكرة الاحاسيس: وهي ذاكرة قصيرة الامد (تسمى ذاكرة تشغيلية) وهي تصف تأثيرات حث الاحاسيس الخمسة. لقد بين الباحثون بان مثل هذه الذاكرة موجودة عندنا حتى لو لم نعرها انتباها وحتى بعد انتهاء الحث او الايعاز. بعض الباحثين يلقبون هذه الذاكرة "بالترددية" لأنها تبقى كصدى.

٢. ذاكرة قصيرة الامد: عندما نعير اهتمامنا الى الايعاز او الحث او بكلمة اخرى نعيه فيصبح جزءا من الذاكرة قصيرة الامد، ان هذه الذاكرة تخزن كل شيء نعيه مباشرة وفي اي وقت كان، الحفاظ على الاشياء في العقل لمدة قصيرة مهم جدا لعملية التفكير والفهم، ولذلك تسمى بعض الاحيان الذاكرة التشغيلية ولكنها جدا محدودة، لان تأيراتها لا تبقى (في الحالة الاعتيادية) اكثر من عشرين ثانية، ولا تتعدى موادها عند البالغين باكثر من سبع مواد.

٣. ذاكرة طويلة الامد: وتحتوي على معلومات (بالمقارنة) دائمية عن ما موجود في العالم الذي حولنا فهي تحتوي على كل شيء نعرفه عن انفسنا، وعن الاخرين، وعن الاشياء، وتمثل التأثيرات طويلة الامد الى كل الخبرات التي حصلنا عليها.

واستغلت ذاكرة الاحاسيس ببراعة فنية وباشكال متعددة وذلك بارسال اشارات سريعة خاطفة لا علاقة لها بموضوع الفليم على شاشة السينما، أو باضافة بعض الكلمات المعكوسة في اغاني الروك او في وضع صور جانبية لا علاقة لها في موضوع الملصقات الاعلانية[١٠٦] ان هذا الاسلوب ينقل رسالة الى المتلقي من غير ان يعيها لأنه يركز على الكل، ولكن تراه عينه ويعيها عقله، فهي تعمل كإشارة لتحفيز النفس عندما يراها في مكان ما

حالها حال الإشارة التي يعطيها المنوم المغناطيسي لكي يحفز النائم لعمل شيء ما. إنها إشارات تسمى في علم النفس (subliminal messages) التي تعني الرسائل اللاواعية(١٠٧).

ان الإرادات تتعامل مع النفس بطريقة مختلفة عن طريقة تعاملها مع العقل. ان هذا الأسلوب في التعامل بين الإرادات الخارجية والإنسان هو الذي يجعل تلك الإرادات ذات قوة وتأثير في شخصيته، ان تلك التعاملات مرهونة بطبيعة كل من العقل والنفس، فلا يكون هنالك فائدة من التعامل مع النفس على أساس العقلانية ولا مع العقل على أساس الغرائز. من المؤكد ان تلك الإرادات لا تتعامل مع كل الناس بالطريقة نفسها؛ لان كل إنسان له إرادات (نفسية وعقلية) تختلف عن الآخر.

ان مما لا شك فيه ان التكرار له قوة في الدفع نحو تحقيق ما ترجوه الإرادات من تأثير في الإنسان، والسبب في ذلك ان الإنسان مدفوع بإرادته نحو السعادة أو تقليل التعب والألم. ولكي تتمكن الإرادات الخارجية من تحقيق ما تريد فلا بُدَّ لها من ان تواظب على تذكيره بوجوب طاعتها، حتى ولو ظهرت للوهلة الأولى بأنها خلاف إرادته الذاتية فان الفائدة المرجوة لا بُدَّ ان يجنيها في نهاية المطاف.

فلو أخذنا مثالين مختلفين يصلحان لبيان هذه الحالة، شخصين احدهما إرهابي يتصور انه إذا فجر نفسه وسط حشد من الناس بأنه يعمل خيرا وصلاحا، وشخص آخر يخرج من بيته في المسيرات الراجلة مشيا على الإقدام لزيارة الحسين متوقعا الموت بسبب التفجيرات التي يمكن ان تصادف طريقه، وهو معتقد بأنه إذا ما مات فان ذلك خير له. فكيف يمكن

للاثنين ان يكونا صحيحين في تفكيرهما وكيف يكون للاثنين القابلية على تقديم حياتهما ثمنا لما يؤمنون به.

لكي يترسخ اعتقاد التضحية بالنفس من اجل هدف ما أو عقيدة ما يجب ان يعرض الإنسان إلى سلسلة من الإرادات الخارجية التي تشجعه وتدفعه وتبين له فوائد ذلك الاندفاع، ليس هذا فحسب ولكن لا بُدَّ له ان يخرج من الصراع بين النفس والعقل بنتيجة مطابقة لتلك الإرادات الخارجية. فالإرادات الخارجية المؤثرة في من يسير نحو الحسين قد تكررت في الأقل في كل عاشوراء وركزت في ذلك الإنسان مظلومية الحسين ووجوب نصرته، أما بالنسبة إلى الإرهابي فهنالك تركيز وتكرار على الالتزام بالصحابة وتبجيلهم لان ذلك يعني هو الدين ومن يخرج عن ذلك فلا يستحق إلا الموت. إذا ان الصراع بين العقل والنفس يتجلى في كل واحد منهما في الطريقة التي يتخذها كل واحد منهما، فلكل واحد هدف معين يصبو إليه ولكل واحد منهما هنالك صراع بين نفسه وعقله مختلف عن صراع عقل ونفس الاخر.

عدنا وكررنا عدة مرات ان عملية انتقال الحاجات بين المدارات تؤدي بخبث أو سمو، ومن هذا المنطلق نجد ان الانتحاري يحدث ضررا للآخرين وهو خبث، أما السائر إلى الحسين فلا ضرر من ذلك على الآخرين فأقل ما يمكننا ان نقول عنه ان لا خبث فيه على الاخرين وانما على نفسه ان صح هذا القول.

إذا ما ناقشنا وبحثنا عن نوعية الحاجات التي يسعى اليها الإرهابي والشيء نفسه للحاجات التي يسعى اليها السائر للحسين، فنقول: ان الحاجات الإنسانية واحدة، فنقول: ان الإرهابي يريد السعادة لنفسه والسائر

الحسيني يريد السعادة لنفسه، فالسؤال: أي سعادة يحصل عليها هؤلاء الاثنان بفقد حياتهم، وهنا يكمن السر في هذه التصرفات.

الاثنان يظنان أنهما سيحصلان على سعادة الآخرة، فالاثنان يظنان أنهما سوف يدخلان الجنة وبكل مغرياتها وسعادتها ونعيم تلك السعادة، إذا فما الفرق بينهما؟ الفرق جوهري إلا وهو:

ان السائر الحسيني يقول أنا بمؤاساة رسول الله ﷺ بمناسبة ذكرى استشهاد ابنه الحسين عليه السلام سأتقرب إلى الله درجة والله يجازي على ذلك، الحسنة بعشرة أمثالها ويضاعف الله لمن يشاء. والجنة هي المأوى والتي تفوق أي حاجة دنيوية أخرى، فهو ترك الحاجات الدنيوية وأخرجها من نطاق المدارات الذاتية فأصبح مستعد إذا ما تطلب الأمر إلى ان يفقد حياته (والتي ربما تكون احتماليتها ضعيفة) وهذا يعني ان فرصة نجاته كبيرة ولكنه كان قد واسى رسول الله بتلك التضحية البسيطة والقليل من التعب، أما الإرهابي فان شدة تعلقه بالجنة والحور العين والغداء مع النبي ﷺ تجعله يقتل من اجل تحقيق ذلك الحلم، ولا يهمه فقدان حياته وقتل الأبرياء، بل ربما يفكر بان التضحية التي يقدمها كبيرة جدا والجائزة ستكون بعشرة أضعاف.

كيف يمكننا ان نفهم ونرضى بهذا المنطق، ان يكون ثواب القاتل والمقتول رضى الله وبالتالي الجنة، أي إله هذا الذي يقبل بهذه المتناقضات؟ وأي إله الذي يقبل بان يَقتل الإنسان أخاه الإنسان ويظلمه، نحن نعلم ان القرآن والسنة النبوية تقول ان القتل حرام ومن قتل نفسا عمدا متعمدا كأنما قتل الناس جميعا، فكيف يرخص لشخص ما ان يقتل الأبرياء ويثيبه الله عليها بالجنة، وكيف يمكن ان يكون الاثنان في ميزان واحد ولا تفضيل لواحد على الآخر.

ان العقل الرشيد يقول، لا ادري ربما ان السائر إلى الحسين مجنون ولكن جنونه مردوده على نفسه، وربما الإرهابي مجنون ولكن جنونه شر على الآخرين، ولكن ما الذي يدفع الاثنين إلى اخذ هذين الطريقين اللذين يدفعانهما إلى التضحية بحياتهم والموت.

إنها سلسلة من الإرادات النفسية والعقلية والخارجية، كل واحدة منهما تحث هذين الشخصين على السلوك الذي يتخذانه، فإذا ما رجعنا إلى الحاجات ونقول: ان الاثنين يريدان تحقيق اكبر سعادة لأنفسهم، وقمة تلك السعادة، بالنسبة إليهما، هي ان يكون مصيرهما الجنة بعد الموت، ولكي يقبل الإنسان ان يضحي بحياته لا بُدَّ ان تكون هنالك ميكانيكية ودوافع تذكره دائما بان الذي يعمله أو يريد ان يعمله هو الصحيح. وهنا يظهر تأثير وعمل تلك الإرادات، فالذي يسير إلى الحسين لا بُدَّ ان يتذكر، دائما، مظلومية الحسين، فضلاً عن ان الذي حصل للحسين لم يكن إنسانيا ولا يقبله كل من عنده ذرة من ضمير ووجدان، وان ذلك التعدي على الحسين الذي هو ابن رسول الله ﷺ يعد تعديا على الرسول ﷺ ما يعني تعديا على الله. فلذلك ان نصرة الحسين تعني بالتالي نصرة لله ومن ينصر الله فجزاؤه الجنة.

والإرهابي يكون مدفوعا بحبه ودفاعه عن الصحابة وهو بذلك يعتقد بأنه يدافع عن الله، ويعتقد بان من ينصر الله فان الله ينصره ويثيبه جنات الخلد، ولا بُدَّ ان يصاحب هذا الفكر قوة إرادة وقابلية وعزم وتصميم على مشروعية إزهاق أرواح الناس الأبرياء، ان الإنسان الذي تربى وتدرب على ان القوة هي الوسيلة الوحيدة في إثبات الحق يكون قتل الآخرين سهلا يسيرا عليه. لا بُدَّ ان يكون ذلك الإنسان مستعدا لقبول فكرة انك (إذا تطلب

الأمر منك) فلا ضير في استعمال القوة وحتى الموت من اجل ان تحقق ما تريد، وذلك أمرا يسير لمن امن بان القوة أسلوبا صحيحا لتصحيح الأخطاء.

فالسائر نحو الحسين تعلم بأن المظلومية أقوى من الظلم، والإرهابي تعلم بان يكون ظالما أفضل من ان يكون مظلوما، وهنا اختلف عقلاهما ونفساهما في فهم فلسفة الحياة وفي الأفعال مما أدى إلى الاختلاف في طرائق التعامل من اجل الوصول إلى هدف واحد إلا وهي الجنة وبطريق التضحية بالنفس وبالتالي الموت، وهنا أعطي مثالا آخر على صراع العقل والنفس وتفوق احدهما على الآخر وبالتالي إضفاء صفة شخصية مختلفة من شخص لأخر.

كنت في الصف الخامس الثانوي في أواخر أيام حكم عبد الكريم قاسم، وكان البعثيون يمهدون لانقلابهم الذي أتى بهم إلى حكم العراق بصورة دموية بشعة وخبيثة لم يشهد لها العراق مثيلا. في ذلك الزمان كان معظم العراقيين يحبون عبد الكريم وكانوا يتصورونه على انه عراقي أصيل ينسب نفسه إلى الفقراء ويحبهم، كما كان وطنيا عراقيا من الدرجة الأولى فلقد صرف كل طاقاته وجهده من اجل تحرير وعزة العراق، بالتأكيد هنالك تحفظات على بعض أفعاله ولكن جلّ من لا يخطئ ولكن أكثر العراقيين كانوا يعتقدون بصدق نواياه وطيبته ووطنيته.

وكبداية لسلسلة من التحضيرات لانقلابهم الدموي ابتدأوا بسلسلة من التظاهرات التي امتدت إلى المدارس. وبما أنهم كانوا يفتقدون أي تأييد شعبي فعندما أعلنوا الإضرابات اجبروا الناس بالقوة على ترك مدارسهم أو وظائفهم. وفي مدرستنا جاء احد قادة التظاهرات وأراد إجبارنا على الخروج من الصف، ولم يكن الكثير ممن في الصف مهتمين بالبقاء في

الصف حبا بالدراسة ولكنهم رفضوا الخروج عنادا مع حزب البعث المتمثل بذلك المتظاهر، بدأ المتظاهر بالصراخ وأمرنا بالخروج، ولم يخرج احد. ولكن وبسبب صراخه العالي والمستمر جاء مدير المدرسة وقال له ابني ان الطلاب لا يريدون الخروج فدعهم لحالهم، فهاج ذلك المتظاهر وبدأ يقلب ويكسير الرحلات، فقال له المدير: لماذا تفعل هذا يا ولدي؟، فقال: انه من اجل الطلاب، فقال المدير: أمن اجل الطلاب تكسر رحلاتهم؟ توقف ذلك المتظاهر هنيهة ثم عاود الصراخ ورمي الرحلات وامرنا بالخروج، خرج الطلاب من الصف خوفا من تفاقم المسألة ومن احتمالية التعرض للاعتداء عليهم بصور خاصة بعد ان جاء أتباعه (معظمهم من الشقاوات) ليساندوه.

ان هؤلاء الناس لا يفهمون إلا وسيلة واحدة يعتقدون ويتعاملون بها مع الآخرين الا وهي استعمال القوة لأجل فرض إرادتهم، بالنسبة اليهم لا يوجد مقياس أو معيار للحق والباطل، فطالما عندهم قوة لا بُدَّ من استعمالها من اجل تحقيق مبتغاهم ومن يقاوم فلا يجد عندهم رحمة أو عفو.

كان والدي رحمه الله يقول: «الهي اجعلني مظلوما ولا تجعلني ظالما» لأنه يعتقد ان ظلم الآخرين محرم لأن الإنسان لا بُدَّ ان يأتيه يوما يقف بين يدي الله وسيكون في ذلك اليوم مسؤولا ومحاسبا على كل أفعاله وأعماله وأقواله ويومها سوف لن يكون متمكنا أو قادرا على رد مظالم الآخرين، أما إذا كان مظلوما فانه سيكون صاحب الحق وهو الذي يكون طالبا وليس مطلوبا.

ان التفاعل بين النفس والعقل له قوة ساحرة على الإنسان وذلك ربما أهم ما يميز الإنسان من بقية الحيوانات، إذ ان ذلك الصراع بينهما يمكن ان يغير اتجاهه تبعا لاختلاف الظروف المحيطة بالإنسان نفسه، فنجد ان

الإنسان يمكن ان يكون في مرحلة من مراحل حياته شريرا وفي مرحلة أخرى خيرا وفي الاثنين هو يسير بحسب إراداته، لأنه ربما تأتي له تجربة أو يشاهد أمرا أو يجابه تجربة تنقله إما إلى ان يسيطر عقله على نفسه وإما تسيطر نفسه على عقله. ان هذا ربما يكون سببا في ما يدعو به المؤمنون (حسن الخاتمة)، التي تعني ان الإنسان يجب ان يسعى ومهما يكن سيئا إلى ان تكون خاتمة أعماله ونهاية حياته على الخير، وبكلمة أخرى ان يدع عقله يتغلب على نفسه إذ ان الله عزوجل يقول(١٠٨): ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ان النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ ان رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ان النفس أمارة بالسوء، ومتى ما تغلب العقل لا بُدَّ ان يجد الحقيقة إلا وهي الخير. والقاعدة الأمثل هي كلما ضعفت سيطرة النفس وزادت سيطرة العقل كلما زاد الخير.

ان الله عز وجل يقول في عدة أماكن في القرآن بوجوب سيطرة العقل فهو يدعو الى التفكر، والتعقل، والتدبر، والتفقه، ان كل واحدة من هذه الكلمات تدل على عملية عقلية والله عز وجل يحثنا عليها ويذكرنا بها في آيات قرآنية كثيرة:

﴿تتفكرون﴾ (١٠٩)، (١١٠)، (١١١)، (١١٢)، (١١٣)، (١١٤)، (١١٥)، (١١٦)

﴿ألا تعقلون﴾ (١١٧)، (١١٨)، (١١٩)، (١٢٠)، (١٢١)، (١٢٢)، (١٢٣)، (١٢٤)، (١٢٥)

﴿ تتدبرون﴾ (١٢٦)،(١٢٧)،(١٢٨)،(١٢٩)

﴿تفقهون﴾ (١٣٠)، (١٣١)، (١٣٢)، (١٣٣)، (١٣٤)، (١٣٥)، (١٣٦)، (١٣٧)، (١٣٨)، (١٣٩)، (١٤٠)

ان تلك العمليات العقلية تساعد على سيطرة العقل على النفس فتنقل تلك النفس من نفس امارة بالسوء الى نفس لوامة ومنها الى امنة مطمئنة وتسمو بها الى الراضية المرضية وكما يصف الله عز وجل كل واحدة من تلك الانفس باللوامة [١٤١]، والمطمئنة [١٤٢]، وراضية مرضية [١٤٣].

الصراع بين الإرادات الخارجية أنفسها

حددنا عدة إرادات عددناها خارجية يعني لا تكون من داخل الإنسان نفسه أو نابعة من الإنسان نفسه سواء على مستوى عقله أم نفسه. ان تلك الإرادات ربما تناقض بعضها مع بعض إلى حد التحارب أو تتوافق بعضها مع بعض إلى درجة تدعم إحداهما الأخرى.

يمر الإنسان في مراحل نضجه منذ ولادته إلى ان يموت بمجتمعات متوسعة، فيبدأ من مجتمع الأم إلى مجتمع العائلة المتمثلة بالأبوين والإخوة إلى مجتمع العائلة الممتدة إلى أصدقاء ومعارف العائلة وبالتالي مجتمع الأطفال الذي يلعب معهم ويستمر هذا التوسع الى ان يدخل المدرسة وبعدها الجامعة ويشتغل ويكون له مكان في المجتمع وبالتالي الدولة وأخيرا إلى المجال الإنساني. أنا لا اعني هنا بالمكان ان يكون له منصبا وشغلا معينا ولكني أتكلم على الموقع الذي يمكن ان يحتله في المجتمع، فربما يكون ذلك الموقع عاملا أو عاطلا عن العمل تاجرا أو فقيرا أو بأي وضع كان فان دائرة المجتمع لا بُدَّ ان تتوسع به وكلما توسعت تلك الدائرة كلما واجهته إرادات جديدة لا بُدَّ له من ان يتعامل معها.

فإذا بدأنا بمجتمع العائلة وهو أول المجتمعات التي ستواجهه، نجد ان العائلة وبالرغم من ان لها التأثير الأول والأقدم بين كل تلك الإرادات

الخارجية ولكن استمرار تأثيرها ربما يكون متأرجحا كلما تقدم الشخص بالعمر وكلما ابتعد عن العائلة أو ابتعد عن مدار تأثيرها.

وهنا لا بُدَّ ان نقول باحتمالية ان يكون تأثير العائلة دائما وقويا إلى درجة ان يسير الإنسان في الاتجاه الذي خطته له العائلة أو ربما يأخذ منحى مغايرا عنها، ليس هذا في الثقافات الشرقية فقط (بالرغم من ان تجليه فيها أكثر من تجليه في الثقافات الغربية) ولكن نراه حتى في الثقافات الغربية، ان تأثير العائلة في المجتمعات الشمولية أكثر سيادة من تأثيره في المجتمعات الديمقراطية وسبب ذلك هو الفسحة من الحرية التي تمارسها المجتمعات الديمقراطية.

كما ان الطبيعة العائلية (العائلة النواة أو العائلة الممتدة) يمكن ان تؤثر في الشخصية، فالشخص الذي يتربى في العائلة النواة التي تستند الى الأبوين والإخوة فقط لا بُدَّ من ان يجابه ظروفا مختلفة عن الإنسان الذي يعيش في العائلة الممتدة التي تشمل فضلاً عن الأبوين والإخوة، الأخوال والأعمام والأجداد وحتى الأقرباء وربما حتى العشيرة.

إذاً يمكن ان يستمر ذلك التأثير ويتعمق ويقوى كلما تقدم الإنسان بالعمر، ولكن هنالك من ينقلب على ذلك وينفصل انفصالا كليا وذلك بسبب تأثره بإرادات أخرى تخالف إرادات العائلة التي ينتمي إليها.

ان أهم تأثير للعائلة في الشخص هو التقاليد والأعراف الاجتماعية والعائلية فضلاً عن نوع الدين والمذهب، يخرج الإنسان إلى مجتمعه وهو موصوف بصفات عائلته وربما تصل الحالة فيه إلى ان يتعصب لما تربى عليه برغم انه ربما لا يمارسها، فنجد ان إنسانا ولد من عائلة مسلمة أو

مسيحية وتعلم انه مسلم أو مسيحي فيتعصب إلى ذلك الدين برغم انه ربما لا يعرف الكثير عن دينه أو لا يمارسه.

بكلمة أخرى يمكننا ان نقول ان العائلة تضع الأسس للشخصية ليس فقط في عموم التقاليد والعادات والدين والمذهب بل حتى في خلق شخصية اولادها، كيف يكون ذلك، فأقول بان التعاملات والظروف الموضوعية للعائلة تخلق ظروفا يعيشها الطفل منذ بداية حياته إلى ان يحين الوقت لخروجه عن نطاق تأثير العائلة الوحيد والمباشر، ان الظروف العائلية التي لها ذلك التأثير متمثلة بـ: تفاهم الآباء في ما بينهما، التفاهم بين الآباء وبين الإخوة، المستوى التعليمي للأبوين، وجود الأبوين معا في حياة الشخص أو عدم وجودهما، المستوى الاقتصادي والاجتماعي للعائلة.

في نهاية الخمسينيات كان علي الوردي يقدم برنامجا اجتماعيا (وعلى شاشة تلفاز العراق) يعتني بمشكلات الناس، في ذلك البرنامج كان المواطنون يرسلون مشكلاتهم إليه وهو يقدم الحلول لتلك المشكلات، بعثت احدى المشاهدات مشكلة لها تشكو ربما من الفقر أو عدم إعطاء أهلها ما يكفيها من مصروف (شيء من هذا القبيل ولا أتذكره بالضبط لأنه لم يكن الأهم في تلك المشكلة)، لم يجب عن سؤالها بل طرح السؤال على المشاهدين ليرى رأيهم فيه. في البرنامج التالي قال تسملت حلولا ولكن أعجبني جواب أريد ان أشارك المشاهدين فيه.

كان الجواب من شاب عمره ثلاث عشرة سنة يقول فيها: نحن عائلة مكونة من احد عشر نفرا مع والدي، وابي يعمل حارسا ليلا ويأخذ راتبا يوميا مقداره ٢٥٠ فلسا (يعني يمكنه ان يشتري به ٢٥ رغيف خبز) ولكننا سعداء لأننا نحب بعضنا بعضا وتعودنا على نمط الحياة التي نعيشها، وانا في المدرسة الثانوية ودرجاتي جيدة. ولا يهمنا قلة المرود.

إذا ما أخذنا تأثير المسألة الاقتصادية في هاتين العائلتين نجد ان ذلك الشاب لم يعد ان حالتهم الاقتصادية عائق في سعادة العائلة أو في الأقل من وجهة نظره، أما الفتاة صاحبة المشكلة فان قلة المصروف تشكل مشكلة لها بحيث تبعث رسالة تشتكي وتطلب حلا.

ان طرفي تلك المسألة، سواء المشتكية أم المجيب، لديهم وجهات نظر مختلفة تجاه مشكلة واحدة وبالتالي فان التأثير فيهما آنيا ومستقبليا سيكون مختلفا، أنا لم اتبع ما حصل لهما بعد هذه التجربة ولكن لا بُدَّ ان يكون لها تأثير في مسيرة واتجاه حياتهم المستقبلية.

الشيء نفسه يمكننا ان نقول عنه: إذا ما عاش طفلان في بيتين مختلفين ويلاقيان من أبويهما معاملة قاسية وتحقيرا وإهانة مستمرة ومصحوبة بعدم رضا، فان الاثنين سوف أما ان يأخذا موقف معاد أو استسلامي أو تحدٍ أو ربما كل واحد منهما يأخذ موقفا مختلفا عن الآخر. كل ذلك بسبب الصراع النفسي العقلي والصراع بين الإرادات الخارجية والتجارب الأخرى التي يمكن ان يختبروها.

عندما يخرج الطفل من محيط عائلته التي تكون قد أسست له البنية التحتية التي تؤهله إلى دخول المجتمع والتعامل معه، تتوسع خبراته ودائرة تعاملاته مع الآخرين ويتعرض لإرادات ربما تدفعه في اتجاه واحد أو في اتجاهات عديدة أو تكون متضادة أو متفقة، ليس ذلك فقط ولكن تجابهه ظروف موضوعية جديدة لا بُدَّ له من التعامل معها بالسلاح الذي قد زودته عائلته به. ليس هذا فقط ولكن بتوسعه في المجتمع تزداد مسؤوليته وتزداد المطالب عليه التي توجب عليه ان يتعلم كيفية التعامل معها من دون إرشاد أو نصح، وفي الكثير من الأحيان لا بُدَّ ان تكون انية.

ان أول صراعات الإرادات الخارجية يحدث بخروج الشخص إلى المجتمع، فهنا ربما يجد ان هنالك الكثير من الإرادات التي ربما تخالف أو توافق إرادة العائلة والتي تنعكس على الكثير من الأمور التي كان معتادا عليها. ان ذلك يخلق وضعا جديدا لم يكن قد اختبره سابقا، إلا وهو صراعات الإرادات الخارجية، ويتوجب عليه ان يتعلم كيفية التعامل معها.

تقود الإرادات الخارجية الإنسان في جميع الاتجاهات ولذلك نجد ان تلك الإرادات في صراعات مستمرة ولا بُدَّ ان يصل الإنسان إلى أما ان يكون متوازيا بين تلك الإرادات أو يستسلم لواحدة منها على حساب أخرى أو أخريات، ولكن بالتالي لا بُدَّ له من ان يحقق ما يريده هو، وانا قلت هنا ما يريده هو ولم اقل ما تريده نفسه لأننا قد أسلفنا بان الإنسان يتعامل مع الأشياء بناء على ما ينتج من صراعات بين النفس والعقل.

الصراع بين الإنسان نفسه والإرادات الخارجية المسلطة عليه

ان الإنسان يسعى إلى تأمين حاجاته وإذا ما تمكن من ذلك فانه يعمل جاهدا على الحصول على المزيد منها، لذلك لا بُدَّ له من تسهيل كل العقبات التي يمكن ان تجابهه في حياته. معظم تلك العقبات سببها الإرادات الخارجية التي تكون لها أهداف مخالفة لأهدافه. فالذي يريد المزيد من الأموال فانه يسعى إلى توفيرها بشتى الطرائق المتاحة له ليس ذلك فقط بل يجب ان يجابه تلك الإرادات.

فإذا ما تعارضت الوسائل التي يستعملها الإنسان مع الإرادات الخارجية (أمثلة إرادة القانون أو الدين أو العرف الاجتماعي) التي كل واحدة منها تملك قوة تسلطها عليه من اجل منعه من الحصول على المزيد، فلذلك تعد

تلك الإرادات على أنها معادية أو معطلة أو مخربة وفي تلك الحالة إذا ما كان اندفاعه نحو تحقيق الهدف قويا جدا وضاغطا جدا فانه سوف يحاول أما ان يتحايل أو يداهن ويغالط أو يجابه أو يتنازل لتلك الإرادات.

كما ان هنالك إرادات معارضة فان هنالك إرادات مشجعة وبالتالي تدفعه إلى الحصول على المزيد، أمثال تلك الإرادات: الضغط الاجتماعي، الاعلام.

ان نتيجة التفاعل (بين الإرادات الخارجية والحاجات ورغبات النفس والقولبة) تخلق عند الإنسان إرادات جديدة اسميها "الإرادات الداخلية"، ان تلكم الإرادات تأتي من تداخل كل من العوامل السابقة وتكون مخفية داخل الإنسان ولا يظهرها إلا في حالات خاصة.

ان نتيجة ذلك التفاعل يمكن ان يكون مختلفا بين الناس، فإذا ما تعرض عدد من الأشخاص للعوامل انفسها سنجد ان الإرادات الداخلية المتكونة عند كل واحد منهم مختلفة عن الآخرين، ان التفاعل ربما يؤثر بالطريقة الآتية: هنالك من تكون إراداته مع الإرادات الخارجية وآخر يتفق مع الحاجات والآخر يتفق مع القولبة أو ربما يمكن ان تكون خليطا من الجميع.

ان الصراع بين الإرادات الداخلية والخارجية يمكن ان يكون على محورين: المحور الأول في الصراع هو محور فرض الإرادة الداخلية على الإرادة الخارجية والمحور الثاني في الصراع هو محور تزاوج الإرادات الخارجية والداخلية.

المحور الأول: فرض الإرادة الداخلية على الإرادة الخارجية:

تتعامل الإرادات الداخلية للإنسان مع الإرادات الخارجية بالطريقة التي تراها أكثر مناسبة لمصلحة الإنسان، فهي ربما تعاند أو تساوم أو تتقبل الإرادات الخارجية من اجل الهدف المنشود، ولكنها تعمل بقناعتها حتى ولو كان ظاهر نتاج ذلك العمل متفقا مع الإرادات الخارجية ومخالفا للإرادات الداخلية.

وفي المثال التالي سأوضح طبيعة الصراع بين الإرادات الداخلية والإرادات الخارجية. انكسرت يدي في موضعين في مرفق اليد اليسرى وفي الكتف وكان الدمار في هذين الموقعين كبيرا جدا اذ قال الجراح المعالج: لو كنت قد أتيت لي بمثل هذه الحالة من قبل لما كنا نستطيع ان نعمل شيء وكان علينا ان نبتر يدك، لان الدمار كان كبيرا وكان لزاما علي ان ارمي الكثير من العضلات التي لم تكن مرتبطة بأوعية دموية أو أعصاب.

وبالفعل عندما خرجت من العملية كانت الذراع عبارة عن عظم مغطى بالجلد ولم يكن هنالك إلا طبقة خفيفة من العضلات، سألني طبيب العائلة فيما إذا عرفت من الجراح عن مستقبل ذراعي، فقلت له لقد فاتني ان اسأله ذلك، وعند زيارتي للأخصائي سألته ذلك السؤال، فقال لي بأنك لن تستطيع ان ترفع يدك أكثر من ربما عشرة أو عشرين سنتمترا ابعد من بطنك وستبقى ذراعك تشكل زاوية في المرفق لا تزيد عن ١٠٠ درجة او اقل، ولما سألته عن السبب في ذلك قال لان السوائل التي تنضح من الجرح قد عملت عمل الصمغ فلصقت العضلات مع بعضها مع بعض.

لم أرد عليه ولكني قلت له، ومع نفسي: ان هذا الأمر ليس بيدك ولكنه بيدي وسترى، لقد عانيت آلاما شديدة جدا كلما حركت ذراعي وفي أي

اتجاه كان، وأحسن وضعا لا اشعر به بالألم يكون عندما اترك ذراعي بوضع على شكل زاوية قائمة ومشدودة إلى صدري.

بعد كلامي مع الأخصائي والآلام المصاحبة لحركة الذراع كان عندي خياران فقط: الأول ان أتفادى ذلك الألم واترك يدي على حالها فارتاح من الآلام المصاحبة للحركة، ونتيجة ذلك فقدان القابلية على استعمال تلك الذراع، أو الخيار الثاني هو تحريك الذراع وتقوية العضلات بالرياضة برغم الألم على أمل ان أمزق تلك الروابط بين العضلات، وإذا ما نجحت في ذلك فسوف ارجع قدرتي على استعمال ذراعي مرة أخرى ولن أكون معوقا بها.

فقررت ان آخذ الخيار الثاني، بدأت بتمارين رياضية بسيطة أحرك بها ذراعي وبرغم كل الآلالم المصاحبة، بعد مدة اشتريت (دنبلا) لكي تصبح التمارين أصعب وبالتالي فالآلام المصحوبة كانت أعظم، ان الذي شجعني على تلك التمارين أني قد لاحظت بعض التحسن برغم انه لم يكون من دون ثمن فلقد كانت الآلام مبرحة جدا.

ولكي أتغلب أو أروض نفسي على قبول تلك الآلام أقنعت نفسي بان سبب الألم هو انفصال الرابطة بين العضلات وهذا تحسن يفيد في زيادة حرية وحركة الذراع، وعلى هذا الأساس فان كل ألم اشعر به يعني تحسنا في وظيفة ذراعي. اقتنعت بهذا الأمر لدرجة (وهذا ربما شيء لا يصدق) قد أصبح الألم له لذة وكنت أتمتع به ولم أنكره أو استنكره لاني اقتنعت بان الألم يعني الشفاء.

بعد شهر أو أكثر كان عندي موعد مع الأخصائي، وعندما رأيته قلت له :ماذا قلت لي عن مستقبل يدي، فكرر ما قاله سابقا، فرفعت ذراعي بأعلى

مما وصفه هو في جوابه بقدر مرتين في الأقل، فصاح بصوت عال «رائع! رائع!» قلت له: كل هذا كان بفضلك، فأجاب لا وإنما هو بسعيك، كل الذي عملته ان أصلحت لك الكسور ولكنك أنت من أنقذ الوظيفة. وكان كلما زرته يبدي تعجبه من التحسن الذي يطرأ على ذراعي.

ان إرادتي الداخلية أقرت بأنه لا يمكن الاستغناء عن الذراع، ليس هذا فقط ولكن البقاء معاقا ليس خيارا مقبولا، لأن ذلك يعني الإعاقة والتي هي ليست جزءا من طبيعة شخصيتي. أما الإرادات الخارجية المتمثلة بمشورة الطبيب والآلام المبرحة التي تصاحب كل حركة للذراع فكانوا يدفعونني إلى ترك الذراع بزاوية ٩٠ درجة ومربوطة إلى الصدر إلى ان تشفى كاملا واتخلص من الآلام.

ان كل إنسان قادر على ان يأخذ أي من الخيارين فمنهم من يختار الخيار الأول ومنهم من يختار الثاني وكل ذلك يعتمد على الصراع بين إرادته الداخلية والإرادات الخارجية، فمن ينتصر يحصد نتيجة ذلك الانتصار.

قصة المتسابق في المارثون (التي ذكرتها في فصل سابق) الذي وصل إلى نقطة النهاية وهو يكاد يسقط ميتا من التعب والإرهاق مثال آخر على ذلك الصراع.

ان الإرادة الداخلية يمكن ان تكون متفقة مع الإرادة الخارجية أو متضادة معها أو منافقة لها كل بحسب طبيعة تلك الإرادات وطبيعة الشخص. ترى ان هنالك أناسا يظهرون أمام الناس على أنهم ملتزمون ومطيعون للإرادات الخارجية ولكن عندما يختلون بأنفسهم يعملون عكس تلك الإرادات، فهنالك من يدعي بأنه نزيه ويحارب الفساد وبصوت عال وفي حقيقته هو فاسد. والأمثلة على مثل هذه كثيرة:

ولو أخذنا صدام حسين كمثل آخر ونتتبع تاريخه نجد انه كان شقيا من أشقياء تكريت وبغداد. لقد كانت عنده طموحات كبيرة وحب للذات عظيمة جدا، بدأ حياته في حزب البعث بان اشترك في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، ثم بعد رجوع البعث إلى الحكم في انقلابهم الأخير على عبد الرحمن عارف أصبح نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة واليد الثانية في الحزب والدولة. ثم و تدريجي أصبح هو الرجل الأول في الدولة برغم انه كان نائبا، فلقد اغتال الكثيرين من رفاقه وذلك بتشكيل قوة من أنصاره سماها القوة الصدامية ظاهرها حماية الحزب من المتآمرين وباطنها تثبيت سيطرته على الحزب وبالتالي على الدولة.

وما ان استتب بيده الأمر حتى أمر احمد حسن البكر إلى تقديم استقالته، حاله حال بقية أعضاء ذلك الحزب من غير المرغوب فيهم فمنهم من قدم استقالته وآخر اغتيل وآخر اعدم بحجة التآمر على الحزب، أورث البكر لصدام قيادة الحزب والدولة. وبمجرد ان تسلم صدام الحكم أراد ان يكون (قائدا للأمة العربية والمدافع عنها) استغل فرصة الثورة الإيرانية وضعف الدولة الجديدة فغزاها، وكانت نتيجة ذلك الغزو حربا مدمرة حطمت الاقتصاد العراقي ويتمت الكثير من الأطفال ورملت الكثير من النساء وعوقت الكثير من الرجال.

ثماني سنين من الموت والدمار مرت ثم توقفت بعدها من غير انجاز لا على مستوى الأرض ولا على أي مستوى آخر، ولكنه خرج إلى الناس وهو فخور بأنه قد انتصر، كيف يسمي هذا الدمار وتلك الخسارة انتصارا؟ ان الانتصار بالنسبة اليه هو بقاؤه بالحكم فطالما انه ما زال حاكما فهو بالضرورة منتصر.

ولم يسترح الشعب العراقي من مصيبة حرب إيران إلا وادخله في حرب أكثر عنفا وقسوة ودمارا وظلما، فلقد احتل الكويت، وهنا بدأت مأساة اكبر وطأة وأعظم تدميرا وخرابا، وإذا لم يكن ذلك كافيا فلقد فُرض على الشعب العراقي حصار اقتصادي ظالم سبب معاناة وجوعا وعوزا ومرضا وموتا، فخرج صدام متباهيا فرحا ليقول للشعب: ان أميركا تظن أنها قد حاصرت صدام، فانا أعيش عيشة أفضل من أي وقت آخر، يجب ان تعرف أميركا بأن الشعب العراقي هو الذي يعاني ولست أنا، ولكي يثبت للعالم ذلك بدأ ببناء سلسلة من القصور الخيالية تحديا للحصار برغم انف الشعب الجائع المحروم الذي لم يجد ما يمكن أكله إلا الباذنجان حتى أصبحت المقولة المشهورة «الباذنجان وحش القدر».

وجاءت الحرب الأخيرة وهرب صدام وقبع في جحر الفئران وأخرجه منها الأميركان مليئا بالقمل وهو يقول: أنا رئيس الجمهورية أريد ان أتفاوض، ولو سمحوا له بذلك وأرجعوه إلى الحكم لقال لقد انتصرت، ان هذا المثال يبين الذروة في حب الذات، الكثيرين ممن فشلوا في تحقيق طموحاتهم استقالوا أو انتحروا ولكنه إذا بقى فهو منتصر. ان مثل هكذا صراع بين الإرادة الداخلية و الإرادات الخارجية تبيان لعظم تشبث هذا الرجل بإرادته الداخلية التي تقول انه هو الرب والقائد وولي الأمر وكل ما سواه من أبناء الشعب العراقي خدم، فما دام هو بخير فان أمور الدنيا بخير. ان الإرادات الخارجية سواء كانت إرادة الشعب أم إرادة الحق أم إرادة حقوق الإنسان أم إرادة القوانين الدولية أم الإرادة الدينية التي تحرم دم الإنسان لم تستطع ان توقفه عن أعماله أو ان تغير من قوة إرادته الداخلية وحبه لذاته.

ان إرادة صدام كانت تحارب الإرادات الضعيفة ولكنه أمام الإرادات الأقوى كان كالفأر، فلو قبل الأميركان ان يحصلوا على كل نفط العراق مقابل إرجاعه إلى الحكم لأعطاهم اياه. إذاً هنالك إرادات خارجية يمكن للإنسان ان يطوعها وأخرى لا يقدر عليها أو يخضع لها مما تجعل الإرادة الداخلية تتفاعل بأية صورة كانت من اجل ان تحقق ما يريده الإنسان. ان تلك الإرادة الداخلية تتشكل على أساس تحقيق ما يصبو إليه الإنسان وفي الوقت نفسه تتعامل مع الإرادات الخارجية بحيث لا تتعارض (في الأقل ظاهراً) مع الإرادات الخارجية ولكن تسعى وبكل جهد إلى تحقيق الحاجات.

ان الإنسان لا بُدَّ له من ان يتعامل طوال حياته مع الإرادات الخارجية وبناء على إرادته الداخلية، فهو لا بُدَّ له ان يعيش صراعا الغرض منه نجاح إرادته وتحقيق حاجاته.

المحور الثاني: تزاوج الإرادات (الخارجية والداخلية):

الى الان كنا نتكلم على وجهة نظر الإنسان وإرادته الداخلية والان يصح ان نتكلم على وجهة نظر الإرادات الخارجية في صراعها مع الإنسان. ان تلك الإرادات تتعامل مع الإنسان على الوجه الاتي:

تغازل النفس لكي تزيد من تعلقها بالحاجات.

تغازل العقل وتحببه بما تمليه وتعرضه من أمور.

تفرض على الإنسان عقوبات وغرامات لتجلبه لطاعتها.

ان نجاح الإرادات الخارجية في جعل النفس والعقل يتماشيان مع الإرادة الخارجية تخلق إرادة من نوع جديد، وهي الارادة التي تتبناها

الإنسان (نفسه وعقله) لتكون إرادة تزاوج (خارجية داخلية) وبمعنى اخر تخلق إرادات داخلية تتماشى مع الإرادة الخارجية ولا تعارضها. في هذه الحالة فان تزاوج الإرادات الداخلية والإرادات الخارجية يخلق تيارا اخر مؤثر في شخصية الإنسان وحياته.

ويعطي نجاح الإرادات الخارجية في خلق ذلك التزاوج قوة اضافية لها في إدارة الشخص. في أدناه سوف أناقش بعض هذه الإرادات المتزاوجة:

أولاً: الإرادات الاجتماعية:

تضع المجتمعات قيودا ومقاييس لتحدد اتجاه المجتمع ككل، وليس هنالك استثناء من هذه القاعدة في المجتمعات المختلفة[٦٤]، فلا يهم ان تكون تلك المجتمعات بدائية أو متقدمة،فإن قيمها ومثلها وقيودها ما وضعت إلا لكي تحدد اتجاه أفراد ذلك المجتمع، إذا اعتنقها الفرد وآمن بها فتكون جزءا من الإرادات الداخلية التي يصوغها الإنسان لنفسه لكي توفق بين حاجاته وإرادة المجتمع.

وهنا تأكيد الفرق بين ان يقتنع الإنسان بإرادة المجتمع فيصوغ لنفسه (بنفسه وعن قناعة) إرادة داخلية تؤمن وتتوافق مع ما تدعو إليه الإرادة الخارجية فبذلك تتزاوج مع ارادات المجتمع فتؤمن بقيمه وعاداته ومثله وتعدها جزءا منه، وبين ان يجبر الإنسان على الانصياع لإرادة المجتمع وذلك لأنه يعتقد بأن لا قبل له على مواجهته أو لأن الانصياع انسب له لأن خلاف ذلك ربما يعرضه لأذى اكبر.

ان الإرادة الاجتماعية تأتي من تفاعل المجتمع مع محيطه وظروفه، وبما ان المجتمع هو مجموعة أفراد فأن تلك القيم والمفاهيم الاجتماعية

توضع بالصورة نفسها وللغرض نفسه والطموحات للقرارات الشخصية، لذلك فان حال المجتمع هي كحال أفراده فكما ان الفرد يريد ان يأخذ أسهل الطرائق وأحبها إلى نفسه فإن المجتمع يأخذ أسهل الطرائق وأحبها إلى نفسه.

يوجد المتسلطون في جميع المجتمعات (بحكم قوة يملكونها) فهم يبسطون سيطرتهم وإرادتهم على المجتمع وذلك بأن يحاولوا إدارة وتسيير المجتمع بالاتجاه الذي يحقق لهم اكبر قدر من المنفعة، فهم يديرون المجتمع بالاتجاه الذي يلائمهم ويخدم أغراضهم. هنالك أشكال متعددة من هؤلاء الأشخاص، فالحكام الظالمون وأصحاب رؤوس الأموال والسياسيون والمافيات أمثلة على مثل هؤلاء الأفراد.

ان الله عز وجل يقول:﴿واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾.

إذا أردنا ان ندمر قرية[١٤٤] نختبرها فنوافر لقادتها القدرة والقوة لكي يصلحوا ولكن بدلا من ان يحسنوا فانهم يطغون فيستغلون المجتمع ويقودونه نحو عمل الشر، ان ذلك الاندفاع في الاتجاه المعاكس يفسدهم ويفسد المجتمع أيضا، ان العقاب الذي يأتي إلى ذلك المجتمع يكون بسبب خنوعه وطاعته والسير وراء أولئك الفاسدين وقبوله بأخطائهم وعدم رفضه لهم فيستحقون الدمار، ان كل ما يعمله هؤلاء المتسلطون الفاسدون هو وضع لبنة الفساد التي هي بطبيعتها لا بُدَّ ان تكون سهلة التطبيق ومغرية لهوى أفراد ذلك المجتمع فيتبعهم المجتمع فيخرب.

ان المجتمعات الغربية بحجة الحرية الشخصية تشجع على القمار؛ لأن أصحاب نوادي القمار لهم القوة الاقتصادية التي تدفع المجتمع على التقبل

بها، وذلك باستغلال هوى الناس للمال وبرغبتهم في الحصول على ذلك المال بسرعة وبأقل جهد ممكن، فيبهرهم المال السريع فيقامرون ناسين ان مجموع ما يخسرونه في حياتهم لو وفروه ربما يكون مساويا أو كثر مما يربحونه.

كان عندي صديق عراقي يدرس في انجلترا، وكان مغرما بالقمار فيذهب إلى نادي القمار (Play boy) في لندن بين حين وحين اخر كلما توافر المال. لم اسمع منه طوال دراسته في انجلترا (التي طالت خمس سنوات) انه ربح في أي من زياراته العديدة إلى هذا النادي.

انتهى من الدراسة ورجع إلى العراق، وبعد مدة رجع إلى انجلترا بإجازة وكالعادة ذهب إلى ذلك النادي، وربح ألف جنيه إسترليني، فجاء فرحا مستبشرا بأنه ربح ذلك المال فقلت له مستهزئا كم ألف جنيه كنت خسرت قبل هذا لكي تفرح بما ربحت.

ان طبيعة الإرادة الاجتماعية هي التفاعل والتعامل مع بقية الإرادات (الداخلية والخارجية) (صراعا وتوافقا) من اجل تحقيق الهدف المنشود. وهنا اجلب مثالا واسأل سؤالا: لماذا جاءت عدة أديان متتابعة وبقوانين أساسية ثابتة، ولو حددت نفسي بثلاثة أديان متتابعة قد أخذت جزءا كبيرا من عمر الإنسان على هذه الأرض الا وهي: اليهودية والمسيحية والإسلام، فيكون سؤالي: ما الحاجة اليها؟ نجد ان الجواب هو التغيرات التي تحصل للمجتمع أو الإنسان، فبمجرد ان يغيب نبي ذلك الدين أو يموت تبدأ حركة جديدة من اجل الالتفاف على تعاليم ذلك الدين، فتصاغ قوانين وقيم جديدة تحدد الإنسان والمجتمع، فتصبح هذه القوانين الجديدة جزءا من الدين ولكن بصورة ملائمة للقائمين على ذلك التغير ولذلك فإنها تكبل

المجتمع وبالتالي الإنسان وطموحاته وتوجهه في اتجاه جديد متوافق مع المتغيرات الجديدة.

ان التغيرات الجديدة لا بُدَّ ان تجد لها أذانا صاغية بين الناس إذا ما جاءت لتفك القيود التي وضعها الانبياء وفي الوقت نفسه تناغم النفس وحاجاتها، لان دين الانبياء يدعو إلى وحدانية الله وان لا يعبد إلا الله ولا بُدَّ من ترك الهوس والشهوات والرغبات طاعة لدين ذلك النبي، وهذا ما لا يطيقه الكثير من الناس ويصعب الالتزام به عند الكثير من أفراد تلك المجتمعات، ونتيجة لذلك فأن مجرد ان يذهب نبي تلك الأمة يأتي شخص ويضع قوانين تخفف من تلك القيود ويبدأ المجتمع بتغيير تلك القوانين تدريجا ويرجع المجتمع بقوانين في أحيان كثيرة مخالفة للقوانين الأصلية، وفي القرآن يقول عز من قائل: ﴿وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾[١٤٥].

نتيجة ذلك نجد في كل الأديان ان هنالك ممارسات اجتماعية سائدة ومتداخلة مع الدين بل ربما تعد جزءا أساسيا من الدين ولكن حقيقة الأمر ان الدين براء منها، مثال ذلك ختان النساء عند بعض المجتمعات الإسلامية، والتي صبغت بصبغة الدين والدين منها براء، السبب بقبول تلك الممارسات هو مقبوليتها من تلك المجتمعات وما يراها المجتمع مناسبا يدخلها في الدين ليعطيها مصداقية ويدعمها.

في مجتمعات إنسانية أخرى اضمحل اثر الدين فيها إلى درجة أصبح لا يشكل إلا جزءا يسيرا من القوانين الاجتماعية والالتزام الاجتماعي ولم تبقَ الشعائر الدينية إلا مناسبات فيها مرح وفرح، فتحول الدين من قائد ومقنن

للمجتمع إلى مناسبات احتفالية لا علاقة لها بالدين أو الأسس التي وضعها الدين كأسباب للاحتفال بتلك المناسبات، ففي الغرب وهو مجتمع مسيحي يكون عيد القيامة مناسبة للحفلات الصاخبة والشرب والرقص وهو بالحقيقة أيام عبادة وتدين.

ثانياً: الإرادت الدينية:

ان الإرادة الدينية هي مجموعة القيم والمثل التي تحكم الإنسان مديرها ومدبرها قوة غريبة غير منظورة وغير ملموسة ومسألة الإيمان بها تعتمد على الدروس التي يتلقاها الفرد من المجتمع ومن رجال الدين فأما ان تعمق إيمانه بها فيلتزم بها أو يماشيها أو يرفضها.

ولكي يتمكن الدين من خلق تزاوج إرادات (بين الخارجية والداخلية) لا بُدَّ ان تتولد عقيدة ثابتة ومؤمنة بما يدعو إليه الدين، ان ذلك الإيمان ربما يأتي بسبب بحث وإطلاع وقبول بها وعن رضى أو بسبب الاستماع الى التعاليم والتوجيهات وبالتالي الرضا بها.

لكي يتمكن الإنسان من ان يقبل بالتوافق بين إرادته الداخلية والإرادات الخارجية يجب ان يكون للعقل فسحة وحرية للعمل لانه بخلاف ذلك لا يمكن ان يحصل هذا الاتفاق. قلنا سابقا بان سيطرة النفس على العقل قوية إلا إذا فرض العقل قراراته على النفس، وبما ان النفس تسعى إلى تحصيل غرائزها والدين يحدد الغرائز ويرشدها فان الصراع ينشب بين الدين والنفس، وإذا لم يتمكن العقل من إقناع النفس فلا بُدَّ له ان يصاغ بقالبها وبالتالي يرفض الدين. أما إذا تمكن العقل من ترويض النفس واتفق العقل مع الدين فلا بُدَّ لتزاوج الإرادات من ان يتحقق.

لم يكن أول المؤمنين بكل الأنبياء جميعا أناسا ذوي سلطة وجاه ومال بل كان كلهم من الفقراء والمعدمين، نجد ذكر ذلك في عدة آيات في القرآن تبين ان الأغنياء وأصحاب الجاه يستنكرون هذا على الأنبياء بقولهم ان هؤلاء الانبياء لم يتمكنوا من اقناع الاغنياء واولي السلطة وانما اقنعوا الفقراء والمساكين أوّلاً وفي القرآن يقول عز وجل(١٤٦): ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾.

لم يؤمنوا بهم الا الاراذل، والسبب في ذلك ان الإيمان نابع من قناعة عقلية وعدم ممانعة نفسية عند هؤلاء الفقراء. فالعبد والفقير المعدم لا يجد في حياته التي يعيشها ما يتعارض مع الدين فيؤمن به وتكون إرادته الداخلية هي إرادة الدين نفسها.

أما أصحاب السلطة والجاه فإنهم لا يرون في الدين ما يتفق مع إراداتهم بل على العكس يجابهها ويعاديها. وإذا ما آمنوا به فلا يكون ذلك إلا بعد ان يتغير الوضع ويصبح الدين ذا سطوة وقوة. ان دخولهم وقبولهم بذلك الدين يكون من اجل التمتع بمنجزاته وليس بسبب الإيمان به، ان مثل هذا الإيمان لا يكون بسبب تزاوج الإرادات ولكن بسبب المصلحة التي تجنيها النفس من ذلك الإيمان وبالتالي هو ناتج من إرادة داخلية.

ورأينا مصداقية لهذا في الدين الإسلامي، فأوائل المسلمين كانوا فقراء ومساكين وعبيدا، أما النفر القليل القليل من الأشراف من الذين آمنوا كان ذلك بسبب طغيان عقولهم على نفوسهم، أما الأشراف الذين التحقوا بالدين بعد قوته وسؤدده فإنهم استعلموا الدين لمصالحهم، وبنو أمية مثال حي على ذلك.

ان سبب قبول الفقراء بالدين ورفضه من الإشراف والأغنياء هو المساواة بين الناس والمشاركة بالأموال والوعد بخير الآخرة وكل واحد من هذه مفيد للفقراء و(مضر) بالأغنياء، ان الأولى والثانية فائدة دنيوية للفقراء والثالثة فائدة أخروية وإذا ما قارنوا ما هم عليه في هذه الدنيا وما يمكن ان تكون عليه الآخرة فإنهم رابحون في كل الأحوال، والعكس صحيح بالنسبة إلى الإشراف والأغنياء.

ثالثاً: الإرادات السياسية:

الإنسان فرد اجتماعي بطبيعته لذلك يتأثر بدرجات متفاوتة بالمجتمع، ولذلك لا بُدَّ له من التأثر بما يجري في المجتمع وهذا التأثر يولد عنده نزعة سياسية ذاتية أو متعلمة، فالذاتية هي تلك النزعة السياسية التي تتلاءم مع مصلحته ومفاهيمه الذاتية.

في المجتمع توجد عقائد سياسية مختلفة وإذا ما اتفقت تلك العقيدة السياسية مع العقيد السياسية الذاتية فان ذلك يخلق توافقا بين الإرادتين وبالتالي تزاوج الإرادات.

ان الإنسان الذي يؤمن بحب الوطن ويؤمن بحقوق الإنسان أو الفلاحين أو الفقراء أو العمال ويدافع عن أي واحد منهم ويجد هنالك حركة سياسية أو حزبا يؤمن بنفس إيمانه فانه يعتنق ذلك الحزب ويكون هنالك توافق بين إرادته وإرادة ذلك الحزب.

ان الكثير من الناس ممن توافقت إراداتهم مع الإرادات السياسية في الساحة قدموا الكثير حتى أرواحهم من اجل ما يؤمنون به، ان تلك التضحيات لن تكون قاصورة على الإيمان بدين فقط فهي أنفسها عند الذي

يعتنق عقيدة سياسية يؤمن بها. سلام عادل سكرتير الحزب الشيوعي العراقي كان قد تعرض الى تعذيب وحشي، وقطعه البعثيون قطعة قطعة على ان يستسلم لهم لم يفعل ذلك، لان إرادته وإرادة العقيدة الحزبية واحدة.

رابعاً: ارادات الجماعة:

يفرض المجتمع (صغر أم كبر) إراداته المتمثلة بقيمه وعاداته وتقاليده وقوانينه وشريعته الخاصة به، فالعائلة مجتمع والقرية مجتمع والمدينة مجتمع ونستمر بالصعود إلى نصل للمجتمع الإنساني. ان الفوارق بين هذه المجتمعات سببها اختلاف مسؤولياتها وقوة وتعدد إراداتها. ان لكل واحدة من هذه المجتمعات إرادات خاصة بها برغم اشتراكها بمجموعة القيم والعادات والتقاليد والقوانين الموجودة بالمجتمع الأكبر المحيط بها. فتكون خصوصية العائلة وخصوصية العشيرة وخصوصية الدولة في المجتمع الإنساني.

ان المجتمع البشري متكون من مجاميع صغيرة اسميها الجماعة او الجماهير وانا هنا أريد ان أبين الفرق في قوة إرادة ذلك الجزء من المجتمع والمجتمع ككل، وهنا سأشرح بشيء من التفصيل إرادة الجماعة وذلك لأني اعتقد بأنها ليست بالضرورة مطابقة أو مختلفة مع إرادة المجتمع ولكنها متميزة في بعض الأوجه عن إرادته.

ان الشيء الذي يميزها هو قوة التأثير التي تملكه على أفرادها، فهي لم تفرض على الأفراد حالها حال إرادة المجتمع، فالفرد له رأى فيها وبما يناسبه فالتحق بها ولم يغصبه احد على ذلك، لقد اختارها لأنها مطابقة لما يريده هو، فالذي يحب الموسيقى مثلا يدخل في مجموعة نشطة في مجال

الموسيقى والذي يحب النحت يدخل في مجموعة تحب النحت والذي يحب الدين يدخل في مجموعة تتعامل بالدين، والذي يحب الثقافة يذهب إلى المجاميع الثقافية بأشكالها والذي يحب السكر يعاشر السكارى.

ان هذه الانتماءات هي انتماءات مدفوعة بقوة وإرادة ذاتية ولذلك تكون شدة الارتباط بها قوية ومؤثرة، فيعطيها الإنسان وقتا وجهدا اكبر مما يعطيه إلى المسائل الاجتماعية الأخرى، وغالبا ما تصبغ هويته الشخصية وربما تكون أكثر وضوحا وتأثيرا فيه من صبغته الاجتماعية أو هوية المجتمع الذي ينتمي إليه.

هنالك الكثير من الأمثلة الشعبية المتداولة التي لها علاقة بهذا الموضوع والتي تعكس أهمية وقوة تأثيرها في الإنسان: من الأمثلة المشهورة:

- «من عاشر العلم علم ومن عاشر السفلي سفل»، واخر يقول:
- «لا تضع التفاح الجيد مع التفاح الفاسد»، واخر يقول:
- «لا تربط الجرباء حول صحيحة خوفي على تلك الصحيحة تجرب»

ان كل واحد من هذه الأمثلة يعطي أهمية كبيرة للمجموعة صغرت أم كبرت فحجم المجموعة لا تأثير لها في نتيجة ذلك الانتماء، ربما يقتصر تأثير حجم المجموعة في علو الأصوات التي تنتج منها أو بتأثيرها في المجتمع ككل، ففي المجموعات الكبيرة وعندما ينشد نشيدا أو هنالك هتافات فان ذلك يهز المشاعر وتعمل ردة فعل قوية اكبر بكثير من الناتج من المجاميع الصغيرة.

ان هذه الجماعات يمكن ان تكون مجموعة أصدقاء يشجع احدهم الاخر ويحفز احدهم الاخر على أداء أشياء ربما لو يكون الشخص وحده لما لكان قادرا على فعلها أو لن يكون عنده كامل الاستعداد لأدائها، وانا سوف أفسر كلامي هذا بالتفصيل لاحقا.

في الغرب يسمون تلك المجاميع الصغيرة بمجموعة الأصدقاء المحيطين بالشخص أو في المواقف والأماكن التي يوجد بها الشخص، كأمثلة على تلك المواقف والأماكن: المدرسة، والشارع، والبار وما إلى ذلك. ان هذا التأثير يسمى ضغط الزمالة (peer pressure)، فنجد بان الأطفال بالمدرسة يندفعون إلى أي عمل يقومون به بسبب ضغط الزملاء عليهم، ويجب ان نقول ان هذا الضغط يمكن ان يكون ايجابيا أو سلبيا أو ان يكون عملا فرديا أو جمعيا.

إننا نجد ان هنالك مجاميع تتحالف من اجل ان يتعاضد إفرادها مع بعضهم، فإذا ما هاجم أشخاص (من مجموعات أخرى) لأحد منهم فيهب الجميع للدفاع عنه. في الغرب هنالك مجاميع من راكبي الدراجات النارية متوحدون بينهم إلى درجة (وكما في العرف العربي أصبحوا عشائر) فكل عشيرة تسير في الشوارع بأرتال، وطالما ما نشبت حروب بين تلك العشائر.

وربما يكون من وحي المزحة أو البغض (وبصورة خاصة في المدارس) يجتمع الزملاء على الضحك أو الاستهزاء بشخصا بحيث يجعلون حياته جحيما. ولقد اضطر بعض من لا قوة لهم على مثل تلك الضغوطات إلى الانتحار أو التصرف بصورة عنيفة دفاعا عن أنفسهم.

إذا ان الإرادة الجماعية لها تأثير مباشر في الشخص لأنها إما ان تكون مرادفة لإرادة الإنسان، في حالة ان يكون الشخص وبمحض إرادته داخل تلك الجماعات، واما تكون معادية ومهددة مباشرة للإنسان حينما تفرض عليه ممارسات من جماعة أو جماعات لا ينتمي إليها.

ان الانتماء إلى المجموعة لا بُدَّ من ان يعكس إرادة تلك المجموعة على إرادة الشخص فيتبنى تلك الإرادة، فالمجموعة التي تحث على الظلم

أو السرقة أو الاعتداء على الآخرين لا بُدَّ ان تؤثر في سلوكه وإذا ما تمادى في ذلك السلوك تصبح جزءا من شخصيته، والمثل الشعبي يقول «من عاشر العلم علم ومن عاشر السفلي سفل».

نحن نرى ان الرياضيين الذين يلعبون لعبا جمعيا تكون نتائج لعبهم معتمدة على مقدار التعاون بين أفراد الفريق الواحد وهذا لا يحصل إلا إذا عد كل عضو منهم ان ذلك الفريق فريقه ونجاح الفريق نجاحه، ان اللاعب الذي يلعب من اجل نجاح فريقه يكون أكثر تعاونا وأفضل إنتاجا، نلاحظ بان الفرق ومن اجل شحذ الهمم تنشد أنشودة أو تنطق بكلمات جمعية حماسية من اجل تشجيع أو تحريض أفراد الفريق على الفوز، ان نتائج العمل الجمعي يكون أفضل عندما تكون نابعة من قلب كل واحد في المجموعة، ويكون أسوأ عندما تكون مجرد لقلقة كلام ليست نابعة من القلب.

تحث المجاميع الإرهابية إفرادها على القتل وذلك بوضع مشروعية وأحقية لذلك القتل، فهم يهتفون بـ(الله اكبر) بينما يذبح احدهم أسيرا بين أيديهم ، فيشعر الذباح بأن تلك التكبيرة هي دلالة على صحة عمله وإنها كرامة له ان يقوم هو بذلك العمل، وعندما يخرج المتظاهرون (وبصورة خاصة في المجتمعات الشرقية) بهتافات وشعارات تلهب المشاعر تجد ان الجميع يعتقد بأحقية تلك الشعارات فيتفاعل معها بشدة.

عندما تخرج مسيرات عزاء الحسين وهم يرددون القصائد ويضربون صدورهم، فلا يجد المشاهد لتلك الحالة، وبصورة خاصة إذا كان متعاطفا معها، إلا ان يرفع يديه ليضرب صدره أو يحس بألم واسى.

هنالك عائلة في الحلة، كان قد تزوج احد أولادها من امرأة البانية وفي زيارته إلى العرق اصطحب الزوجة التي لم تكن تعرف شيئا عن الإسلام ولا تتكلم اللغة العربية، في أيام عاشوراء وفي خلال مسيرات العزاء خرج أهل ذلك الرجل و اخذوا معهم تلك المرأة الألبانية، ولما رأت تلك المسيرات ورأت الناس يلطمون على صدورهم وعلى ظهورهم بكت بكاء شديدا ولما سألوها لماذا تبكين وأنت لا تفهمين ما يقال أو ما يحدث أو أسباب ذلك، فأجابت ان هذا الرجل، الذي يعملون كل هذه الأشياء لإحياء ذكراه، لا بُدَّ ان يكون رجلا عظيما ولا بُدَّ ان تكون مصيبته مصيبة كبيرة وبصورة خاصة ان الزمن بينه وبينهم يتعدى الإلف سنة وما زال هؤلاء الناس يتذكرون مأساته.

ان هذه الإرادات الجمعية إرادات مؤثرة في الإنسان ولها قوة وتأثير في تكوين الشخصية الفردية واندفاعاتها. أنا أعيد واكرر ان الإرادات ومهما كانت لن تكون إرادات دائمة ما لم يرد الإنسان نفسه ان تكون كذلك.

خامسا: إرادات شياطين الإنس والجن:

في الدين وعلى الأخص الدين الإسلامي يقول بوجود شياطين الإنس والجن(١٤٧) ويقول عز من قائل: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾.

فهو يصنف الشياطين إلى نوعين: الشيطان وهو ذلك الجني الذي كان سببا في خروج ادم وحواء من الجنة وهنالك شياطين من نوع آخر إلا وهم شياطين الإنس الذين هم بشر، المقصود بذلك ان الشيطان هو الذي يدفع

الإنسان إلى ارتكاب المحرمات سواء اجتماعية قانونية أو دينية، وهذا ليس قاصرا على شياطين الجن بل هنالك من البشر من يدفعون بهذا الاتجاه، هنالك قصة ولو أنها مجرد قصة ولكن فيها عبرة ربما تكون ذات فائدة في هذا المجال:

يقال انه كان احد عمال البناء، الذين بنو طاق كسرى في العراق، رجل قوي جدا وكان يرمي الطابوق إلى البناء وبرغم ارتفاع الطابق وهو نحو ثلاثة أو أربعة طوابق. ان كل واحدة من تلك الطابوق كانت تصل مباشرة إلى يد البناء.

وبينما كان هذا البناء يتكلم ويمدح هذا العامل وعن إمكانيته في إيصال الطابوق بهذه السهولة، سمعت كلامه إحدى النساء كبيرات السن، فقالت له: «هل تعلم ان الفضل بهذا ليس له بل لزوجته»، فتعجب البناء وقال لها كيف ذلك؟ فأجابته: سأريك.

في منتصف يوم حار ذهبت تلك العجوز إلى بيت العامل، ودقت بابه. من هناك؟ صاحت زوجته: أنا امرأة عجوز وقد أعياني وأعطشني هذا الحر وهذه الشمس المحرقة، فهل من شربة ماء، أسرعت زوجته لتأتي بالماء، وبعد ان شربت وارتوت قالت: لقد حان وقت الصلاة فهل تسمحين لي بالصلاة في بيتك. تفضلي خالتي! قالت الزوجة.

بعد ان أنهت الصلاة جلست تتسامر مع الزوجة وقالت:

- ان بيتك نظيف وترتيبه لطيف وأنت جميلة، فلا بُدَّ ان زوجك يعشقك جدا.

- نعم يا خالة والحمد لله انه رجل جيد ويخاف الله.

- لا بُدَّ ان يعطيك كل ما تشائين لأنك بهذا الجمال وبهذه المواصفات الجيدة.

- الحمد لله انه يعمل كعامل بناء وما يحصل عليه بالكاد يكفينا قوت يومنا.

- إني لا أرى عليك أي قطعة من ذهب أو فضة، إني اعتقد ان أي سوار سيكون جميلا جدا على يديك، وانأ متأكدة بأنك لو طلبت منه لا بُدَّ ان يشتري واحدا.

تركت العجوز الزوجة في حالة من التعلق بذلك السوار، ليس ذلك فقط ولكن ان ذلك السوار سيكون اختبارا جيدا لما يكنه الزوج لزوجته من حب، رجع الزوج تعبا بعد عناء يومه الشاق، دق باب البيت وكانت زوجته بانتظاره فبمجرد ان سمعت الدقات فتحت الباب ورحبت به وتهلل وجهها، ثم جلبت له الماء ليغتسل والملابس لكي يبدلها بملابس العمل، وأحضرت الأكل، ان هذا الاستقبال كان يحدث كل يوم ولم يكن شيئا جديدا. فبدأت الزوجة بالكلام وقالت:

- هل تعلم ان زوج جارتنا قد اشترى لها سوارا غاية في الجمال؟

مبارك عليها.

- لقد جربت السوار وكان جميلا جدا في يدي.

- بالتأكيد فان يدك جميلة من غير السوار.

- متى ستشتري لي اسوارا مثله؟

- أنت تعرفين بأن الذي اجنيه من عملي على قدر قوت يومنا.

وهنا ابتدأت أول معركة بين الزوجين، تركت الزوجة زوجها وهي غاضبة.

وفي الصباح وعلى غير العادة استيقظ الزوج وزوجته ما زالت نائمة، وخرج من البيت من دون إفطار ولا غداء ولا توديع من الزوجة، ذهب إلى الشغل وبدأ برمي الطابوقة ولا تصل إلا إلى ابعد من نصف الطريق، وكلما حاول فشل... وبخه البناء، فأجابه بأنه تعب ومريض فأعطاه البناء واجبا اخر.

رجع إلى البيت ودق الباب عدة مرات ولم يفتح، وبعد مرات من الدق جاءت زوجته وعلى غير عادتها وكأنها الان قد استيقظت من النوم، دخل البيت ولم يأتِ الماء الذي يغتسل به ولم يكن الطعام حاضرا.

استمرت الأمور على هذه الحال عدة أيام مما جعل البناء يسأل العجوز عن ما فعلته لكي يجعله يتحول من حال إلى حال، أجابت العجوز الم اقل لك ان سر نشاطه هو زوجته، ولكن لا تحمل هما سأصلح لك حاله.

في اليوم التالي ذهبت العجوز إلى بيت العامل ودقت الباب ودخلت وبدأت الحديث:

- ما هذا يا بنيتي العزيزة، فأرى انك قد أهملت نفسك وبيتك.

- الحقيقة يا خالة أنا ألان عرفت ان زوجي لا يحبني.

- لماذا؟

- لم يشترِ لي سوارا من ذهب، إلا استحق ذلك يا خالة؟

- بالتأكيد يا بنيتي؟ ولكنك قد قلت لي بان زوجك يحبك ويحترمك ولكنه لا يملك إلا قوت يومه فمن أين يأتي لك بالسوار؟

- ولكنك قد قلت لي ان اسأله.

- أنا لم اقل فليشترِ لك سوارا بل قلت ان السوار سوف يكون لائقا في يدك، من أين يأتي زوجك المسكين بالمال لكي يشتري السوار، وإذا أراد

ان يعمل ذلك فانه لا بُدَّ ان يستدين وهذا سوف يؤثر في قوتكم اليومي وستضيفين لك ولزوجك هما جديدا.

خرجت العجوز وهي توصي الزوجة خيرا بالزوج، ثم ذهبت مباشرة إلى البناء وقالت له ان أمر عاملك قد تحسن، بعد خروج العجوز فكرت الزوجة وأحست بغلطتها، أسرعت في تنظيف البيت وعمل الطعام ورتبت نفسها واستعدت لاستقبال زوجها على عادتها القديمة، جاء الزوج ومن أول دقة باب فتحت له وجابهته زوجته بالترحيب وكأن شيئا لم يكن، لقد تعمدت ان يكون البيت أفضل مما كان عليه قبل خصامهما، في الصباح استيقظ فوجد زوجته بكامل هندامها الجميل والفطور حاضر والغداء حاضر... افطر وخرج إلى العمل. ذهب إلى العمل فناداه البناء وطلب منه ان يرمي له الطابوق، تمكن الزوج من رمي الطابوق على عادته.

ان الزوجة اعتادت ان ترضى بدخل الزوج البسيط، ومما حبب زوجها إليها لطفه وحنانه ورقة معاملته، ولم تكن تطمح في المزيد ربما لعدم توافره، فرضت بما عندها وعاشت سعيدة، ولكن العجوز عملت عمل الشيطان فوسوست لها مما اثأر رغبتها في الأسوار مما هبط حاجة الأسوار من المدارات العليا إلى المدارات الواطئة، فصارت النفس تطلب ذلك الاسوار، والظاهر ان العقل لم يكن قد مارس أي صراع مع النفس فلم يعترض هو الأخر. ولكن لما أعطت العجوز وجهة نظر مختلفة بحيث أدركت ان هذا السوار يمكن ان يكون سببا في تعاستها رجعت إلى سابق عهدها.

هنالك عدة وسائل على عدة اصعدة تتمكن فيها شياطين الإنس ان تعمل عملها، فمثلا نرى شابا بتأثير من الأصدقاء وبداعي الصحبة أو المتعة

يشرب وكلما مر عليه زمان في تلك الصحبة تنمو عنده عادة الشرب وربما تتغلب عليه فيزداد توغلا فيها إلى ان يصبح مدمنا، وآخر ربما يكون مدفوعا إلى السرقة فيبدأ كمجرد مزحة ولعب بين الأصدقاء وينتهي بان يكون لصا، ان تلك التأثيرات هي مصداق للأمثال التي ذكرناها سابقا.

وخلاصة لصراع الإنسان مع الإرادات الخارجية يمكننا القول بان حصيلة الصراع بين الإنسان وبالتالي إراداته وبين الإرادات الخارجية مجتمعة يمكن ان يأخذ منحيين اما ان يكون لصالحه واما ضده، فما دام يبقى مصمما وعاملا من اجل تحقيق أهدافه فلا بُدَّ له من تحقيقها ورغم كل الصعاب التي تضعه تلك الارادات امامه، أما إذا كانت اهدافه مجرد أحلام ففي أول عقبة تضعها اية ارادة من تلكم الإرادات الخارجية في طريقه فانه سيتخاذل ويترك تلكم الأهداف.

ان نتيجة تلك التفاعلات المعقدة يمكن ان تؤدي إلى نجاح سريع أو فشل سريع او ربما يطول امد ذلك الصراع، ان السبب في ذلك هو ان ليس كل الإرادات الخارجية مؤيدة ولا كلها معارضة، وما دام هنالك تصميم على الانجاز فلا تهم درجة العرقلة التي تضعها الإرادات المعادية فان تأثيرها لن يتعدى اطالة مدة الانجاز، بالتالي فان التأخير يمكن ان يطول ليوم أو يومين أو سنة أو سنتين أو عقدا أو عقدين ولكن طالما ان الإنسان مصمم على النجاح فلا بُدَّ له ان ينجح.

ان تلك الصراعات بين كل هذه الإرادات المختلفة الاتجاهات والقوة تخلق شخصيات معقدة التشكيل، ان ذلك يجعل مسألة دراسة شخص من اجل تحديد شخصيته صعبة وليست سهلة يسيرة حالها حال عملية حسابية أو معادلة كيمياوية، فواحد زائد واحد يساوي اثنين، ولا على أنها معادلة

كيميائية فنقول: تفاعل حجمين من الهيدروجين وحجم من الأوكسجين في الظروف الاعتيادية ينتج حجما واحدا من الماء؛ لأن نتاج الفرد مرهون بعوامل كثيرة جدا لا يمكن حصرها بسهولة لان جزءا من تلك العوامل نابعة من الشخص نفسه والجزء الاخر من محيطه الخارجي فلذلك لا نستطيع ان نتعامل مع الإنسان بالطريقة نفسها التي نتعامل فيها مع العملية الحسابية، ولا نتمكن من صوغ معادلة بسيطة لفهم شخصيته.

صراع الخبرات مع الإرادات الخارجية والداخلية:

ان الخبرة التي يكتسبها الإنسان لا بُدَّ ان تخزن في ذاكرته ومهما تكن أهميتها أو نوعها، السيئة والحسنة اللذيذة والمرة المؤلمة والمفرحة، ان ذلك الخزين لا بُدَّ ان يظهر إلى الوجود متى ما أراد العقل ذلك، ان الغرض من ذلك هو أداء العقل لواحدة من عملياته العقلية (المقارنة).

ان العقل قبل ان يعطي رأيا لا بُدَّ له من ان يجد أرضية يبني عليه قراراته وذلك بالمقارنة بين خبرات شخصية سابقة أو من خبرات الآخرين ماضيا وحاضرا، وإذا لم تتوافر له مثل تلك الأرضية للمقارنة فانه يعتمد على عملياته الأخرى في الوصول إلى قرار.

فإذا ما وجدت هنالك خبرات مريرة فانه يحذر الإنسان من الأقدام على ما يريد عمله، أما إذا كانت حلوة فيشجعه. ان التحذير يمكن ان يظهر بعدة أشكال مثل الخوف والرجفان، والهروب، والامتناع وما شابه ذلك.

والقصة التالية توضح هذا الأمر.

كان الطفل "ر" وهو بعمر سبع سنوات مندفعا جدا من اجل ان يذهب إلى المسبح، وكان يقول بأنه يقدر ان يسبح كالبطة، وبالفعل أخذه أخوه

إلى المسبح ولكن "ر" كان متحمسا للسباحة فقفز إلى الماء بسرعة ومن دون علم أخيه، ولكن وبما انه لا يعرف السباحة بدأ يغطس ويخرج من الماء وهو يعالج الغرق، ولما أحس أخوه به أنقذه من غرق محقق، أخرجه أخوه وهو يرتجف خوفا ورعبا من تلك التجربة، لقد تحول جسمه إلى سعفة في مهب الريح فجميع جسمه يرتجف خوفا ورعبا، ان تلك التجربة اصطحبته طوال حياته ولم يدخل حمام السباحة أو النهر أبدا.

وفي عمر الرجولة ذهبت العائلة الإخوة وأولادهم ومعهم "ر" إلى المسبح ودعي إلى دخول حمام السباحة فكان جوابه: انه لا يستطيع لأن الماء بارد، هذا بالرغم من ان جميع الإخوة والأطفال كانوا يسبحون مما يدل على عدم برودة الماء كما ادعى هو. وباستمرار الضغط عليه ابدل ملابسه وجاء مستعدا لدخول المسبح، جاء وهو يرتجف ولم يدخل الماء بعد، ولكنه ومن كثرة الإلحاح والتشجيع وضع رجله في الماء، وهو ما زال خارج حمام السباحة، فأخرجها بسرعة يقول فيها ان الماء بارد، ولكن بالضغط المستمر ومحاولات التطمين بان المكان الذي سيدخله ليس بالعميق ولا يتعدى عمقه اكثر من طول ركبته، دخل وهو يرتجف، بعد ان تأكد بنفسه بان الماء ليس عميقا ولا يتعدى ركبته استمر بالارتجاف، وبتشجيع من الإخوة اقتنع بالجلوس في الماء لكي يغطي قسما من جسده وليس فقط أسفل رجله، جلس وهو يرتجف، وفي محاولة لغطس رأسه في الماء زاد خوفه وخرج من الماء بحجة ان الماء بارد جدا ولا قابلية له على تحمل برودته، هذا مع العلم ان برودة الماء في ظروف أخرى لا تشكل له مشكلة فهو يستطيع ان يأخذ حَمّاما باردا.

ان تلك التجربة المرة التي عاشها أيام طفولته والتي كادت تسبب غرقه في المسبح كانت من القوة بحيث لم تستطع كل الإرادات الأخرى والتشجيع من ان يغير أو يقلل من تأثير تلك التجربة فيه، فحاجة الحياة عنده اقوى من المتعة التي يمكن ان يحصل عليها من الدخول في حمام السباحة.

ان هذا الصراع يكون على النحو التالي: ان النفس تريد السلامة والماء يعني غير السلامة وفي الأقل هذا ما تقوله تلك التجربة، فإذاً الإنسان لا يريد الدخول إلى الماء لأنه خطر والمتعة التي يمكن ان يحصل منها ليست بقيمة الثمن الذي يجب ان يدفعه الا وهو الحياة أما إرادة الإخوة والضغوط التي مارسوها والتشجيع والتحدي الذي وضعوه أمامه لم تكن بالقوة التي تجعله يستمر بالسباحة. نعم كان هنالك تأثير للرغبة في المتعة التي يمكن ان تجلبها السباحة والإرادة الخارجية دافعا إلى دخوله الماء ولكن خوفه كان اكبر من كل تلك الإرادات وحب الذات الذي غلب عليه كان اقوى من كل تلك الإرادات.... فخرج.

لكي يتغلب على خوفه هذا وعلى التجربة السيئة لا بُدَّ له من ان يدمر مخزون تلك التجربة المريرة وإلا لن يستطيع ان يقترب من الماء طوال حياته، لن يستطيع ان يدخل الماء إلا ان تمحى تلك التجربة أو تضاف تجربة جديدة تعلمه ان الماء ليس خطرا وإذا ما عرف كيفية التعامل معه وإذا ما أعطته السباحة متعة كبيرة تكون حافزا له على طلب المزيد منها.

كان هنالك رجل يخاف الظلام وأراد هو ان يتخلص من ذلك الخوف فربط نفسه بشجرة وبقى الليل كله في مكان اظلم مربوط بتلك الشجرة، اندلع ضياء الصباح ولم يحصل له شيء فعرف بان الظلام ليس بالخطورة التي كان يتوقعها فخفف ذلك من خوفه من الظلام.

وبما ان الإنسان يجابه كل هذه الصراعات فلا بُدَّ له من منهجية او اساليب يتعامل بها مع هذه الصراعات وهذه الإرادات المتعددة التي يجابهه. وفي ما يلي سوف نبحث في إدارة تلك الصراعات.

إدارة الصراع

ان صعوبة التحديات والصراعات التي يجابهها الإنسان خلال حياته تحتم عليه إدارتها بطريقة تمكنه من النجاح والتقدم في حياته الخاصة وبالتالي إسهامه في النجاحات الإنسانية وفي بناء الحضارات. لم تمر مرحلة بتاريخ الإنسان لم يكن هنالك فيها أناس منتجون قدموا للبشرية الكثير من الإنتاجات والابداعات وكانوا سببا في انتقال الإنسانية من مرحلة العيش كالحيوانات إلى مرحلة نتمتع بالعيش فيها اليوم وبكل ما تقدمه لنا الحياة من سهولة عيش في حياتنا مقارنة بإبائنا أو أجدادنا.

ان إدارة الصراعات الناتجة عن الحاجات الإنسانية والإرادات الداخلية والخارجية تظهر معالمها في الشخصية التي يبرزها الإنسان للعالم الخارجي (خارج نفسه)، فالشخص الذي يكون متوازنا في إدارته لتلكم الصراعات يظهر شخصية متوازنة أما الشخص الذي يفشل في إدارة تلك الصراعات فانه يظهر شخصية مهتزة غير متوازنة، ان فقدان التوازن في تلك الإدارة يمكن ان تكون في كل التحديات التي تلاقي الإنسان أو في بعض منها.

ان الإدارة الحكيمة لتلك الصراعات تؤدي إلى خلق شخصية وبالتالي سيطرة على النفس تكون محصلته نتاجا ايجابيا وتطورا. فلو أخذنا جنوب العراق مثلا فلقد فرض عليه وعلى مر التاريخ الإسلامي حالة من الفقر والتهميش وعدم العناية جعلت القسم الأكبر منه يتملكه إحساس بالظلم

والهوان، ولكن ومن رحم تلك المعاناة وبدوافع ذاتية خرج منها أناس قدموا للفن والثقافة والعلم الشيء الكثير، لقد تخرج منهم أحسن الأطباء والمهندسين والجامعيين والمثقفين بشهادة الجميع.

دخل صدام حسين إلى مكتب احمد حسن البكر يوما وهو يقول للبكر: «ما هذا؟ لقد جعلت القصر الجمهوري نجف ثاني" فلما سأله عن معنى كلامه هذا قال: ان كل أطبائك شيعة، فرد البكر عليه القول: اجلب لي أطباء أفضل منهم وانا اطردهم جميعا.

ان الحرمان فضلاً عن الرغبة في تحسين الأحوال تدفع الإنسان إلى البحث عما هو أفضل وفي المجالات المسموح بها، وإذا ما خرجت قيادات تشجع وتنمي تلك الطموحات فان ذلك التزاوج يكون محفزا للتطور والازدهار، فإن القيادات التاريخية وبدافع حب السيطرة وبسط النفوذ شجعوا بناء حضارات إنسانية عظيمة، ان حاجة بلد ما أو قائد ما إلى الحصول على التفوق على البلدان الأخرى دفعت القادة لرعاية عملية التطور والتقدم والعمل الجاد من اجل خلق حضارة متفوقة، وفي الغالب نجد ان البناة الأوائل هم الذين يعملون بجد واجتهاد وبكل قواهم من اجل تحقيق الغرض المنشود ونتيجة لذلك تظهر حاجات جديدة ويزداد الطلب على الحاجات القديمة مما يكون سببا في إحداث تخمة وتعال وتفاخر واستهتار في الحاجات.

وتتعاقب على ذلك أجيال لا تعرف إلا حياة التخمة والتفوق والعلو مما يعطيها شعورا بالاكتفاء وعدم الحاجة إلى بذل جهود لعملية الاستمرار لديمومة النمو، ويظهر عندهم شعور بان أيام العمل الجاد الشاق قد انتهت وان أيام التمتع هي حاضرة ومشروعة.

ان مثل هكذا شعور وتهاون لا يكون متوقفا على الشعب فقط ولكن حتى عند الحكام المتعاقبين فهم يطغون ولا يهتمون كأسلافهم بالتنمية، فتتوقف عجلة التطور وتسقط تلك الحضارات، وبما ان المجتمع البشري دائم التجدد فان حاجات شعب اخر تبدأ بالنمو ويبدأ العمل الشاق عندهم، فتبنى حضارة جديدة على أنقاض حضارة شعب قد استهتر بما لديه فدخل في غيبوبة حضارية كما هي الحال الآن مع الشعوب العربية الإسلامية.

ان جميع الحضارات الإنسانية بدأت من نقطة الانحطاط أو اللاشيء وانتهت إلى كل شيء (بحسب وقتها) ثم تنتهي إلى نقطة اللاشيء، بكلمة أخرى إذا ما أردنا ان نعبر عن هذا بخط بياني سنجدها مثل الناقوس من جهة نجد نقطة الصفر وفي الوسط أعلى نمو ثم الانحدار وبالتالي الرجوع إلى نقطة الصفر. لو درسنا جميع الحضارات الإنسانية لوجدنا ان الذي يبني تلك الحضارات بشر يعملون ليلا ونهارا من اجل بنائها، وما ان بدأت التخمة إلا ويأتي الأولاد والأحفاد لكي يتمتعوا بما بناه أسلافهم وينسون ما يجب عليهم عمله ومن هناك تبدأ عملية الانحدار الحضاري.

في عصرنا الحالي نجد ان الحضارة البريطانية عاشت عصرها الذهبي في عهد الملكة فكتوريا وما ان دخلت الحربين الأولى والثانية وخرجت منتصرة حتى بدأ البريطانيون يشعرون بنشوة انتصاراتهم وبدأوا سلسلة من المطالب المترفة وقلة الجد والعمل وكانت تلك بداية الانحطاط للحضارة البريطانية وظهور حضارة جديدة ألا وهي الحضارة الأميركية التي ما زالت هي المهيمنة على المجتمع الإنساني، ولكن لا بُدَّ لها من ان تنحدر وهنالك علامات على ذلك التضاؤل ولا بُدَّ ان يحل محلها بلد اخر يكون رافعا لعلم الحضارة الجديدة، فاليوم نجد ان الصين والهند والبرازيل ربما من ستكون مرشحة لتلك الدورة.

ان قادة المجتمعات هم أولئك الأفراد الذين يمتلكون القدرة على السيطرة والتأثير في الأغلبية من الناس، ربما تكون تلك السيطرة بالقوة العسكرية أو القوة الاقتصادية والكاريزما الشخصية وهم بذلك يكونون مالكين للسبل التي تجعل الغالبية العظمى من الناس تنصاع لهم خدمة و تحقيقا لإراداتهم وتطبيقا لقراراتهم وأفكارهم.

ان نجاحات هؤلاء الأشخاص تكون على أوجها إذا ما كانت تحمل أفكارا تزيد من فك القيود الاجتماعية القانونية الاقتصادية أو الدينية، لأن الإنسان يصبو إلى الفوضى واللانظام لأنها أسهل الطرائق ولأن الجميع يريدون ان يتحرروا منها طالما يكون ذلك التحرر في صالحهم ويفي بحاجاتهم، أما إذا أثرت في مصالحهم وحاجاتهم فانهم يشتكون ولا يقبلونها.

ان مسألة الحق والباطل هي مسألة نسبية لأن ما يراه شخص حقا يراه الاخر باطلا[١٤٨] ولان الحقيقة لها أوجه متعددة، فإذا ما تكلمت على الحقيقة وكما أراها أكون قد قلت الحقيقة وإذا تكلم شخص اخر عن الحقيقة نفسها وكما يراها فهو ايضا يقول الحقيقة.

كل واحد يأخذ وجه الحقيقة التي تتطابق مع إرادته الداخلية، فنجد ان في مسألة واحدة وفي مجتمع واحد انقساما في ماهية الحقيقة وكل واحد منهم يعتقد بان الحق معه فقط ولا يعرف احد غيره ذلك الحق، فلو أخذنا أمثلة من التاريخ الإسلامي فنجد ان الصراع الذي دار بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية والصراع الذي دار بين الحسن ومعاوية والصراع الذي دار بين الحسين ويزيد قد قسم الأمة إلى قسمين فلقد أخذت الغالبية العظمى من العالم الإسلامي جانب معاوية ويزيد لأسباب عديدة اسطر قسما منها وهنالك مجال لإضافة المزيد.

ان شخصية الأفراد وبالتالي المجتمع مدفوعة بحاجة المال والسلطة فهما المسؤولان عن هذا الانحياز، فلقد كان في ذلك الزمان معسكران احدهما يغدق الأموال والسلطات على أصحاب النفوذ من رؤساء قبائل وقادة جيش والثانية لم تفرق بين أبناء الشعب ولم ترشِ ولم تعد بالسلطات لمن يعلن ولأئه. لم تكن تلك هما الحاجتين الوحيدتين فقط ولكن هنالك حاجات أخرى الا وهي حاجة الإحساس بالأمان الذي اتخذها الكثير ممن لم يفد أو يتضرر من ذلك الصراع، فآثروا على أنفسهم اخذ موقف الحياد بانتظار ما ستؤول إليه الأمور فمن ينتصر يعلن ولاءه له.

السؤال الذي يفرض نفسه في هذه المسألة هو، ان الذي يحصل على المال والسلطة والأمان هم نخبة من الناس وهم رؤساء العشائر والقبائل ورجال دين وبعض الصحابة فما بال بقية المسلمين الذين لم يحصلوا على شيء؟ فنجيب بان القادة الذين عندهم حظوة مع قبائلهم صرفوا بعض تلك الأموال إلى أشخاص محددين لكي ينشر الرعب والكراهية والدعايات المغرضة ضد المجموعة التي لا تدفع وتمدح المجموعة الأخرى.

أتذكر عندما كان الحلفاء يتهيؤون للهجوم على العراق في الحرب الأخيرة التي أطاحت بصدام وحكومته، وحينها اجتمع وزراء الخارجية العرب وبعد ان خرجوا من ذلك الاجتماع التقى الصحفيون بوزير خارجية قطر فقال له الصحفي ان الشعب العربي يعترض على هذا الهجوم، فرد عليه أي شعب هذا الذي تتكلم عليه؟ أليس هو الشعب نفسه الذي صفق لصدام، وأضاف ان علينا ان ننحاز إلى الجانب الأقوى، وكأنه يقول ان نتيجة الحرب هي نهاية صدام وانتصار الحلفاء، وبعرفه من الأفضل ان يكون إلى جانب المنتصر لكي يقطف ثمار ذلك الانحياز، فلم يكن هنالك اهتمام بأي

اعتبار أخر من عصبية عربية أو دينية أو أي ارتباط أخر فالمصلحة الذاتية فوق كل شيء وكل اعتبار.

ان ماسلو وفي هرمه للحاجات يقول ان الحاجات الأولية ما هي إلا بداية يجب ان تتحقق لكي تشجع الإنسان لتحسين وضعه وهذا الأخير يتطلب منه جهد إضافي وعمل شاق من اجل تحقيق الأعلى والأعلى. وانا هنا أتساءل: من هم الذين عملوا بجهد وإخلاص ولم يداهنوا ويكذبوا ويتملقوا وربما حتى يؤذوا الآخرين من اجل الوصول إلى غاياتهم؟ ان ماسلو لا يناقش هذا الأمر ولكن يقول: إذا ما أردنا تحفيز شخص ما يجب ان نصور له ما يمكن ان يحصل عليه لكي نشجعه ونزيد فيه الرغبة والتصميم على تحقيق ما نريد. ولن تكون هنالك أهمية بين ما يحدث بين هذا وذاك، إننا بذلك ندفع الإنسان إلى ان يفكر برقم واحد الا وهو (الأنا).

ان شركات التأمين تعمل مؤتمرات لمندوبيها تسمى (مؤتمرات المليونيرين)، يأتي الناجحون من مندوبي تلك الشركات ليسردوا قصة نجاحهم في عملهم وقيمة الأموال التي جمعوها نتيجة ذلك النجاح، وتصرف شركات التأمين على تلك المؤتمرات ملايين الدولارات، ينتهي المؤتمر ويخرج كل من حضر تلك المحاضرات وبمجرد الخروج منها ينسى القسم الأكبر مما قيل، وبعضهم الآخر يعمل ويفشل أو يحقق بعض النجاح، وآخرون وهم قلة يتمكنون من ان يصبحوا أصحاب ملايين، السبب في نجاح الأخيرين هو انهم واجهوا الامر بارادة مصممة على النجاح وبذلك ذللوا كل الصعاب وواجهوا كل الصراعات بادارة حكيمة غرضها النفس.

ان الإرادات الدينية تريد ان تدرب الإنسان على السيطرة على جسمه وجوارحه كلها لكي تحرره من حب الذات وبالتالي تجعل حاجاته في المدارات العليا، ولقد أتينا بأمثلة سابقة بينا فيها قابلية الإنسان على تطويع جوارحه برغم أنها تعاني من تعب وإرهاق لكي يجبرها على العمل المطلوب منها. ان الصوم مثلا يدرب المعدة على استيعاب القيل من الأكل. والفم عن الكلام البذيء والعين عن النظر إلى المحرمات والأذن عن سماع المحرمات، وهو بذلك يمنع النفس من التمتع وزيادة في الرغبة في تلك المحرمات وبالتالي انتقال الحاجات من المدارات العليا إلى السفلى. ومن يصم ولا يدرب نفسه على ذلك فانه لم يعمل سوى الامتناع عن الأكل فيأكل بشراهة عند الفطور ليعوض ما فاته في أثناء النهار.

هنالك الكثير من الكلام عن الفطرة، باعتقادي ان الفطرة هو الأخذ من الحاجات ما يكفي لإدامة الحياة وإذا ما زادت عن ذلك فلم تبقَ فطرة، ان سبب ذلك هو ان من يعيش على الفطرة لا يتنافس مع الآخرين لكي يأخذ منهم ما يحتاجون اليه للمعيشة من اجل ان يزداد رفاهية على حسابهم. ان الابتعاد عن الفطرة يخلق إنسانا ربما يكون في بعض الحالات أسوأ من الوحوش في تعاملاته مع المحيط الخارجي لأنه ليس مدفوعا بحاجات أساسية تبقيه على قيد الحياة وتجعله ينمو في محيطه بصورة طبيعية ولكنه يتعدى هذا إلى حد الإفراط وأكثر بكثير من حاجاته، فيدمر البيئة ويسطو على حقوق وممتلكات الآخرين وربما يقتل من اجل ان يحقق ما يريد.

ان الحيوانات تقتل عندما تجوع ولكنها ان شبعت ربما تمر بالقرب من فريستها ولا تأبه بها لأنها لا تحتاج إلى قتلها لأنها شبعانة، ولكننا نرى اليوم ان الارهابيين لا يكتفون بقتل اعدائهم ولكن يتعدون هذا الى أكل اكبادهم

وقلوبهم وقطع رؤوسهم متفاخرين بذلك العمل ومدعين بانه عمل جهادي في رضا الله.

ان القرارات التي يتخذها الإنسان خلال مسيرة حياته لا بُدَّ ان تكون نتيجة عملية توازن بين امرين اثنين وهما أوّلاً هل يوجد هنالك عقاب وما شدته. والثاني ما الثواب او المحصول وما مداه؟ وبناء على تلك الحسابات يأخذ اتجاهه وينحاز في ادارته للصراع، فاما ان يكون قراره اداء العمل المقصود او التخلي عنه نهائيا او تاجيله. هنالك امورا تساعد الإنسان في قراراته على ادارة الصراع منها الثواب والعقاب والذكاء والنجاح.

أوّلاً: الثواب والعقاب:

ان جوامع الإرادات سواء كانت داخلية ام خارجية أم مزدوجة لا بُدَّ من ان تكون محدودة بالتزامات وضوابط وحدود تقود مسيرة الشخص، ولكي يكون لذلك التقنين أثر فاعل وواقعي لا بُدَّ من ان تكون هنالك شروط موضوعية ترسم وتفرض عقابا وثوابا، ان الأخيرين هما الدوافع والحوافز التي تدفع الإنسان إلى اتخاذ قراراته الشخصية وبالتالي ادارته للصراعات.

فمثلا يمتنع الشخص عن القتل لان المجتمع وضع شرطا جزائيا وذلك الحكم بالإعدام أو السجن لمن يقتل نفسا، يفكر الإنسان مع نفسه ويقول ان قتلت فاني سوف افقد كل حياتي أو جزءا من حياتي وحرصا على تلك الحياة يتوقف عن القتل وبإرادته.

وعلى العكس هنالك من يعرف عواقب هذا القتل ومع هذا يقدم على القتل، فيقول لنفسه بان قراري هو ان اقتل وذلك من مصلحة ذاتي فاني أدافع عن نفسي أو أدافع عن مالي أو أدافع عن مصالحي والتصاقي بتلك المصالح، وإذا ما وصل به الأمر إلى ان تكون مصالحه وحاجاته في مدار الانحطاط فلا يمكن لشيء ان يردعه أو يوقفه، فهو بذلك يعلل لنفسه بأن

العمل الذي يقدم عليه سيجلب له الخير الوفير، ظانا انه إذا ما خطط لعمله تخطيطا جيدا فربما لن يمسك به احد، ويكون بذلك قد حقق ما تريده نفسه.

ان هذه الطريقة (الثواب والعقاب) موجودة حتى في الأديان السماوية، اذ وضعت قوانين دينية تعاقب على الجريمة أو الخطيئة عقابا آنيا الغرض منها ان توقف الإنسان من ارتكاب جريمته. في الدين نوعان من الثواب والعقاب فمنهما الدنيوي ومنهما الأخروي وبما ان الأخيرة غير آنية وغير ملموس طالما ان الإنسان ما زال على قيد الحياة فان وجود الثواب العقاب الآني يكمل ويثبت تعاليم ذلك الدين.

ان إرادة الإنسان المدفوعة بحاجاته وهواه تحفزه الى المحاولة وبكل السبل وكل الطرائق والحجج من اجل تحقيق ما يريد ما دامت هنالك ظروف متوافرة له، فربما يخترع تعليلا يقول فيه انه إذا ما ارتكب الجريمة فستكون هنالك فرصة متوافرة له تمكنه من التوبة بعد ذلك فيغفر الله له ذنبه وذلك بعد ان حصل وحقق ما تطلبه نفسه. لقد حدث عمر بن سعد نفسه بعد ان حاججه الحسين وقال أأقتل حسينا وأأثم به أم اترك ملك الري وملك الري منيتي؟ فوصل إلى قرار ان يقتل حسينا ويتوب للرحمن قبل سنتين من وفاته، فيكون قد حصل على أمنيته (ملك الري) وكذلك التوبة قبل يوم الحساب.

ومن كان إيمانه حقيقيا مترسخا فان مسألة الثواب والعقاب تكون نصب عينيه فلا يتحايل على نفسه ولا على الله. فيخاف سوء العاقبة فيحاول دفع الأذى عن نفسه وذلك بتفاديه الأعمال التي يمكن ان تدخله جهنم، فيتوقف عن الجرائم الكبرى ومع ذلك فإن القليل ممن يتوقف عن ارتكاب الأخطاء الصغيرة وذلك لاعتقادهم بأنها لا يمكن ان تكون سببا في دخولهم النار.

إذاً وجود العقاب والثواب جزء من التركيبة أو القيود التي يمكن ان تضيف إرادة جديدة تضاف إلى الإرادات المذكورة سابقا التي تحكم الإنسان، فهي تقول له افعل هذا لأن فيه ثوابا واترك ذلك لأن فيه عقابا، أما إذا ترك الإنسان من دون عقاب ولا ثواب فانه يطغى ولا يمكن ان يحده حد، وعند ذلك يصبح المجتمع الإنساني مجتمعا غريزيا لا يحكم إلا بالغرائز وبالقوة الشخصية، فيفعل الإنسان كل ما يشتهي وما يتمكن من فعله.

ولاحظنا هذا في أثناء الزحف الأبيض على الغرب الأميركي اذ ان ذلك التوسع في تشكيل المجتمعات كان أسرع من ان يصلها القانون، فكان كل شخص يحمل السلاح ومن عنده القدرة العضلية وبراعة في التصويب يكون هو المسيطر، وكانت مسألة الحماية الشخصية مناطة بالأفراد أنفسهم فيقتل من يقتل من دون حساب أو كتاب. ورأينا هذا في العراق حينما دخل الأميركان إلى العرق وسرّحوا القوات الأمنية.

ان العقاب والثواب ليس الدافع الوحيد للقرارات التي يتخذها الإنسان ان الأنبياء وبالخصوص موسى وعيسى ومحمد ﷺ عندما أتوا إلى أممهم بمعجزات رآها الكثير من الناس، من أراد التصديق بها فقد صدقها وآمن بهم ومن لم يرد التصديق انكرها ولقبهم بالكاذبين والسحرة، إذاً لا الذي عايش زمن الأنبياء ولم يرغب في تصديقهم آمن بهم ولا الذي لم يعايشهم ولم يرد ان يصدقهم آمن بهم. ولكن صدقهم من عايشهم وصدق بما قدموه من معجزات فآمن بهم وهناك من لم يعايشهم وصدق بهم وهو لم يرهم بل رأى آراءهم فصدق بها.

ليس هذا فقط، ولكن يجب ان نتساءل لماذا يؤمن ويلتزم الأشخاص الذين يعيشون في وسط لا يهتم بالدين كما هو في المجتمع الغربي؟ ولماذا

لا يؤمن ولا يلتزم بعض الأشخاص من الذين يعيشون في مجتمعات تؤمن وتقدس الدين؟ الجواب هي الإرادات الداخلية.

هنالك العديد من الناس الذين يسمعون مقتل الحسين يقولون: يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزا عظيما، واذا ما وجد هؤلاء الناس انفسهم في هول المعركة فانهم سيهربون، ان هذا يتضح من ممارساتهم التي هي اقل من التضحية في الحياة وذلك من عملهم الذي يجب ان يكونوا حريصين على إدائه باخلاص وفاء للحسين وللاصلاح الذي جاء من اجله... وفي المقابل هنالك من يقول ويفعل، وكما تقول مس بيل[١٤٩] في مذكراتها: «ان زوار العتبات المقدسة وفي المناسبات الدينية كانوا يذهبون إلى الزيارة وبسبب طول المسافة وقلة الزاد والنظافة كان الكثيرون منهم يلاقون حتفهم، ولم يردعهم هذا بل كانوا يتمنون ان يموتوا وهم في طريقهم لزيارة العتبات المقدسة لأنهم ينصرون الحسين».

وفي يومنا هذا نرى الكثير برغم الإرهاب واحتمال استشهادهم يذهبون إلى الزيارة ولا يبالون بالموت لأنهم يعتقدون بنصرة الحسين. في المقابل فاليوم هنالك من يترك عمله الوظيفي تهربا من الواجب بحجة نصرتهم للحسين وذهابهم للزيارة برغم علمهم ان عملهم هذا لا يرضاه الحسين، لان الحسين استشهد من اجل الإصلاح وليس الفساد.

ثانياً: الذكاء والنجاح:

في خضم هذه الإرادات والحاجات والأهواء نرى ان الأمواج تلاطم الإنسان ومن كل جهاته، فكيف له ان يتعامل معها بهذه الصورة التي تمكنه من السيطرة على حياته والتعامل مع المحيط الخارجي وتمكنه من تقديم الكم الكبير من الحضارات على مر التاريخ، وكلما تقدم الزمن ازداد نشاطه العلمي والتقدم التكنولوجي. ان تلك السيطرة لم تكن ممكنة لولا ذكاء

الإنسان وقابليته العقلية، ولا بُدَّ لنا هنا ونحن نناقش إدارة الصراع من ان نتكلم عن موضوعين مهمين لهما علاقة بإدارة الصراع هذا إلا وهما ذكاء الإنسان وطبيعة العلاقة بين ذلك الذكاء وبين النجاح.

ان الإنسان الذي يتعرض إلى كل هذه المتناقضات من صراعات ومغريات وحاجات ومع ذلك ينتج ويتقدم ويخرج عبقريات قدمت إلى الإنسانية الكثير، وما تقدم الإنسان وتطوره بهذه الدرجة إلا بسبب ذلك المنتج الفكري الفردي والشخصي للإنسان. ان كل البشر يملكون أدمغة ذات وظائف وقابليات وأداء مماثل. ان كل خلايا الدماغ لكل البشر هي من النوع نفسه وتؤدي الوظائف انفسها، ولكننا نجد ان هنالك اختلافات بين ما يمكن ان يقدمه كل شخص لعملية التطور الحضاري، ان ظاهر ذلك الاختلاف هي درجة الذكاء بين البشر.

ان مسألة الذكاء توقفني متفكرا ومتحيرا، ولا ادري هل ان هنالك أناسا ذوي ذكاء مفرط وآخرين ذوي غباء مفرط وآخرين متوسطي الذكاء؟ ان سبب تساؤلي هذا نابع من عدم وجود معادلة تبين علاقة الذكاء بالمنتج الإنساني، فنرى في الواقع ان ليس كل إنسان ذكي يكون بالضرورة ناجحا، وليس كل ناجح هو ذكي.

وبما ان النجاح في العرف الاجتماعي يعني النجاح المادي فأنني سأركز على هذا النوع من النجاح وعلاقته بالذكاء، إننا نجد على ارض الواقع ان هنالك أعدادا كبيرة من الأذكياء لم يتمكنوا من تحقيق انجازات مادية بينما نجد أعدادا كبيرة ممن يعدون اقل ذكاء قد حققوا نجاحات مادية كبيرة.

ولكي نناقش هذا الموضوع (الذكاء والنجاح المادي) لا بُدَّ لنا من ان نحدد ماهية الذكاء أوّلاً وبالتالي ان نحدد معنى النجاح أو مقياس النجاح لأن ذلك مهم جدا في الحصيلة النهائية لبحثنا لكي يكون تعاملنا مع هذا الموضوع تعاملا علميا.

أوّلاً ان الذكاء هو القابلية على التعامل مع المحيط الخارجي بأفضل طريقة، ليس ذلك فقط وإنما هي القابلية على التطور والتقدم العلمي والتكنولوجي، وثانياً وبما ان النجاح له محاور عديدة فإننا سوف نركز على النجاح المادي فقط لأن ذلك هو الاعتبار السائد بين عموم الناس.

إننا نجد ان أكثر الناجحين في الحياة لا يملكون درجة عالية من الذكاء وربما يكونون فاشلين في الدراسة، وهنالك عباقرة نجدهم فاشلين في حياتهم المادية، وهنا يجب ان نقر بان لا التحصيل الدراسي ولا الذكاء يمكن ان يكونا دليلا على النجاح المادي فإننا نشاهد كل يوم أعاظم العلماء يعيشون في وضع مادي يكاد يكون متوسطا أو حتى تحت المتوسط.

كان احد زملائي الأساتذة في إحدى الجامعات الاسترالية وهو متخصص بعلم الكيمياء وله ولد أراد ان يسلك طريق أبيه فدخل قسم الكيمياء، بعد مدة من تركي تلك الجامعة التقيت زميلي وفي أثناء حديثنا سألته عن ولده فأجابني بأنه قد ترك الجامعة وألف فرقة موسيقية، فتعجبت من أمر هذا الولد، وسألت الوالد: وهل رضيت بذلك؟ فأجاب ما اعمل؟ فانا لما اعترضت عليه أجابني وبسرعة: أنت أستاذ جامعي وتعمل بالعلم منذ زمن طويل فما جنيت منه؟ انظر إلى سيارتك القديمة وراتبك القليل، وبالفعل ان سيارته كانت من الموديل القديم ولا تساوي الكثير، واسترسل

بالقول ردا على اعتراض أبيه، قارن بين نفسك يا والدي وبين مايكل جاكسون أو أي مغنٍ آخر وقارن بين ما تملك وما يملك ذلك المغني.

ارجع إلى كلامي وأقول: ان هنالك الكثير من العباقرة والأذكياء في هذه الحياة وهم يملكون طموحات ولكن طموحاتهم غير مادية وإذا ما قيست بالميزان المادي فهم يعدّون فاشلين، إذا لم يكن النجاح المادي مقياسا لدرجة الذكاء فما الشيء الذي يجعل إنسانا ما فاشلا أو ناجحا؟ سنجد ان النجاح مرتبط بالمثابرة، ونجد ان الذي يحقق ما يريد هو ذلك الشخص الذي برغم كل الصعاب يعمل من اجل تحقيق أهدافه، فهو بالمثابرة في العمل والاستمرار في الطريق الذي يوصله إلى هدفه لا بُدَّ ان يصل طال الوقت أم قصر، ان المثابرة هي تلك القوة العظمى التي بواسطتها يمكن تحقيق كل ما يصبو إليه الإنسان، ان عملية الوصول إلى هدف ما (مهما كانت صعوبة أو سهولة ذلك الهدف) يجب ان تصاحبه مثابرة لان من دونها يمكن ان يكون الفشل حليف تلك العملية.

يحكي لي احد الأصدقاء بأنه كان يسكن في بيت يبعد نحو عشر دقائق مشيا على الأقدام عن مركز التسوق ولم يكن يملك سيارة، فكان يتسوق ويحمل أكياس التسوق إلى بيته، وفي كل مرة كانت أكياس التسوق عديدة يحمل عددا منها في كل يد، يقول ان ثقلها أتعبه وكان تحز يده ولكنه اجبر نفسه على ان لا يتوقف، وكان يقول لنفسه يجب ان لا اجعل التعب يؤخرني عن الوصول إلى البيت بالسرعة المطلوبة بسبب توقفي في كل مسافة أمشيها لكي أستريح، وإذا ما توقفت مرات عديدة فان تلك الدقائق العشر التي تفصل بين المركز والبيت سوف تطول إلى عشرين دقيقة أو ربما أكثر، فكان خياره هو الاستمرار وتحمل التعب إلى ان يصل

إلى البيت. ويستمر بالكلام فيقول واصلت مسيري نحو البيت وبرغم التعب والألم لم افنَ ولم تتأثر صحتي ولم انقص شيئا ولكني وصلت إلى بيتي بالسرعة المطلوبة.

كان هنالك سباق مارثون في استراليا لا أتذكر طول مسافته، وصل كل المتسابقين إلى نقطة النهاية لذلك السباق ولكن ظل اخر المتسابقين يعالج تعبه الجسدي وضعف قواه من اجل الوصول إلى النهاية، وبرغم المطالبة من المراقبين له لكي يتوقف لأنه اخر المتسابقين ولا داعي لاستمراره، رفض التوقف وأصر على ان يصل إلى نقطة النهاية، وبالرغم من ان جسمه كان يصرخ ألما وعلامات الإنهاك ظاهرة على كل كيانه كان يسير بضعف شديد جدا ويترنح كأنه سعفة في مهب الريح، لقد كانت قواه وأرجله تخونه فيسقط أو يكاد يسقط ويقوم ولا يرضى حتى بأي مساعدة يقدمونها له فيستمر بالمشي وحده حتى يصل إلى نقطة النهاية.

لقد كان هدفه الوصول إلى نقطة النهاية بنفسه من دون مساعدة مهما كلفه ذلك الأمر من جهد عضلي، ان تلك المثابرة على تحقيق الهدف كانت نابعة من سيطرة عقله على كل الإرادات الداخلية والخارجية، فلا وصوله إلى نقطة النهاية سيعطيه جائزة الفوز في السباق ولا إرهاق جسمه وألمه كان دافعا للتوقف ولكن أراد عقله ان يكون هو السيد في تلك اللحظات ولم يكن لجسده إلا ان يطيع ولنفسه إلا ان تقبل لأنه اعلمها بان نجاحه في الوصول إلى النهاية يوفي حاجة التحدي وقوة إرادة لا بُدَّ من ان تشبع.

وصل إلى نقطة النهاية وقوبل من قبل كل الذين شاهدوا ذلك الأمر وانا واحد منهم بكل الاعتزاز والفخر وعدوه بطلا ورابحا لتلك المسابقة لأنه

اثبت ان المثابرة على الوصول إلى أي هدف ما لا بُدَّ من ان تنتهي بالإنسان إلى تحقيق ذلك الهدف.

ان الشخص الذي يريد ان يكون غنيا ويحلم بما يمكنه ان يعمله بالمال الذي سيملكه ولكن لا يتخذ أي خطوة من اجل الوصول إلى ذلك الهدف؛ لا نتوقع منه ان يصل إلى شيء أو ان يصبح غنيا، وهنالك شخص أخر يأخذ خطوات في طريق تحقيق الهدف وما ان تجابهه صعوبة ما في المرة الأولى يجد لها حلا ثم يعاود المضي في عمله ثم تقابله صعوبة أخرى ويتجاوزها وثالثة ورابعة وخامسة وكلما تقابله صعوبة يتفاداها أو يجد حلا لها، ان شخصا بهذه الإرادة والتصميم على النجاح لا بُدَّ له من الوصول إلى هدفه، أما إذا تنازل عن هدفه في أول صعوبة أو ثاني مواجهة أو حتى ما قبل الأخير فيتوقف فان مثل هذا الشخص لا بُدَّ له من الفشل.

إذا النجاح لا يمكن ان يتحقق بمجرد التمني أو بمجرد المحاولة ولكن يكون نتيجة للمثابرة والاستمرار في العمل برغم كل الإرادات والصراعات التي تريد ان تعرقل وصوله إلى ذلك الهدف، نعم ان كل هدف لا بُدَّ من ان يبدأ كحلم فيكون الخطوة الأولى ولكن المثابرة والعمل الجاد والاستمرار برغم كل الصعوبات هي التي تجعل ذلك الحلم حقيقة.

إذاً النجاح في الوصول إلى الأهداف متأت من الاستمرار والمثابرة، أما اذا جابهت الإنسان صراعات وارادات معاكسةً فلن يكون تأثيرهما إلا في المدة الزمنية التي يأخذها تحقيق تلك الأهداف. فاذا كان هنالك تصميم كامل ولا اعتراضات فيمكن تحقيق الهدف باقل مدة زمنية ولكن كلما زادات وتعاظمت تلك الصراعات والارادات كلما كان تأثيرها في المدة الزمنية التي يمكن بها انجاز الهدف، ان ذلك التأخير ربما يطول يوما او اسبوعا او شهرا او سنة اوعقدا او العمر كله ولكن طالما ان ذلك الشخص يبقى مثابرا على العمل من اجل تحقيق هدفه فلا بُدَّ له من ان يصل اليه.

سئل احد الحكماء، الذي تمكن من تحقيق كل ما يريده في حياته، عن سبب نجاحه فكان جوابه: لو أعطيت مطرقة وصخرة وأردت ان تكسرها، فضربتها الضربة الأولى ولم تنكسر ثم الثانية والثالثة إلى ان وصلت إلى الضربة المائة، ثم انكسرت، فلا بُدَّ ان تتساءل عن أي ضربة كانت سببا في انكسارها، فستجد ان كل ضربة قد أحدثت خدشا في تلك الصخرة وما الضربة الأخيرة إلا الضربة التي أكملت عمل الضربات التسع والتسعين.

ان من يقضي عمره بالأحلام أو الذي لا يحرك ساكنا من اجل تحسين وضعه أو من اجل الوصول إلى هدف ما في حياته تجده واقفا متسمرا وكأن لا اثر ولا تأثير له في هذه الحياة، حاله حال أي حيوان أو جماد.

أريد ان ارجع ألان إلى الذكاء، و أتساءل: هل ان الذكي هو ذلك الشخص الذي له قابلية عالية على الدراسة والتحليل والإنتاج والتصور والتمثيل وما عداه لا يملك ذلك، أجد ان تقبل ذلك الأمر صعب جدا، لان جميع البشر يمتلكون الدماغ نفسه، فإذا ما بحثنا عن سبب نبوغ بعض الناس وفشل الآخرين في مجالات معينة وبصورة خاصة في المجال العلمي والتكنولوجي نجد ان الإنسان الناجح علميا أو الذي يسمى ذكيا يستعمل عقله بكفاءة أعلى من الذي يعد غير ذكي فلذلك ينجح هو ويفشل الاخر. ومن هذا المنطلق سنجد ان إرادة الإنسان ودوافعه الذاتية النابعة من حاجاته ومن الإرادات الداخلية هي التي تدفعه إلى تحقيق نجاح في مضمار معين وعدم نجاحه في اخر.

إننا سنجد ذلك حتى بين الأفراد الذين يعيشون في الظروف الاجتماعية الثقافية الاقتصادي والبيولوجية والوراثية انفسها، فالعالم مثلا ينجح في

مجال علمه ويقدم للبشرية نتاج نجاحه هذا ولكن ذلك لا يوافر له بحبوحة من العيش وربما لو استعمل ذكاءه وقدراته وجهوده في التحصيل المادي لعاش مليون مرة أفضل من حاله تلك، والذكي الذي لم ينجح في العلم ولكنه نجح في التجارة أو الصناعة مثال اخر، فإذاً الإنسان له القدرة على استعمال عقله ليوصله إلى ما يريده هو فان أراد علما وصل إليه وان أراد الغنى حصل عليه وان أراد سلطة قبضها بيده.

إني عندما أفكر في ذكاء الأطفال وتصرفاتهم منذ الرضاعة إلى عمر ما قبل المدرسة أجد ان بعضهم يظهرون ذكاء عاليا وآخرين اقل درجة من الذكاء، فكيف يمكن لهذا ان يحصل وهم الاثنان عديما الخبرة وتأثير الإرادات الخارجية تكاد تكون محدودة عليهم. فنجدا مثلا ان هنالك طفلا في السنة الثالثة أو الرابعة من عمره يتمكن من ان يجري عمليات حسابية ويقرأ ويكتب بينما أخ له لا يعرف القراءة مع أنه في المدرسة الابتدائية فلا يتمكن من القراءة مثلا وإنما يرى الصورة في الكتاب ويقرأ ما يراه من الصور بدلا عما مكتوب تحت تلك الصورة، فإذا ما رأى كرسيا مكسور الرجل مثلا فانه بحسب فهمه ان الكرسي باللفظ العراقي الدارج هو «سكملي»، فيقرأ ذلك على انه «سكملي مكسور»، وتستمر الحياة بالنسبة إلى الاثنين فيحصل الأول على شهادة عليا والآخر لم يتعد الابتدائية.

نتساءل: هل ان الأول ولد ذكيا والآخر ولد اقل ذكاء؟ أم هل ان الأول كان يملك إرادة والثاني لا يملكها؟ تراني أميل إلى أمر ثالث إلا وهو محصلة الاثنين، نحن نعرف بان الفص الأمامي هو الفص الذي يكون اخر من يتطور في دماغ الإنسان، فربما يكون نمو ذلك الفص عند الأول أسرع من نموه في الثاني فضلاً عن ان كل واحد منهما وفي عملية التطور هذه

تخلق في كل واحد منهم إرادة مختلفة تظهر أثرها في نتاجهم الفكري، ونتيجة لذلك تبرز اختلافات في قابليات كل واحد منهما، وربما تكون تلك اللبنة التي تبنى عليها شخصية كل واحد منهما أو ربما تكون جزءا من شخصية كل واحد منهما، فربما نجد ان الذي يعد اقل ذكاء يكون ناجحا في مجال اخر غير المجال الفكري مثلا التجاري أو الحرفي.

ان الطفل يولد وفصه الأمامي ناقص النمو ولكن كلما مر عليه الزمان يتطور أكثر وفي الوقت نفسه تزداد تجاربه فالعقل الذي يدرب ويستخدم أكثر يكون إنتاجه اكبر أما العقل الذي يكون محدود التجارب وقليل الاستعمال فلا بُدَّ له من ان يكون أكثر خمولا، فربما يكون تطور الفص الأمامي عند احدهما أسرع من الثاني وهذا ما يجعله يتعامل مع محيطه وبالتالي حصوله على خبرات قبل وأحسن من الذي تأخر تطور عقله ولكن ومهما حصل فان الاثنين لا بُدَّ ان يصل عقلاهما إلى مرحلة من النضوج الكامل وفي أي سن كان وهذا ما يعطيهما الفرص أنفسها في عمر النضج، ولكن أسلوب التعامل مع هذا العقل ربما تكون مختلفة بحسب الإرادات التي تبنى عند كل واحد منهما، وهنا اسرد قصة برغم أنها من القصص الأسطورية ولكن لها معنى يفيد في إيضاح الفكرة التي من اجلها سردت.

يقال: ان هنالك رجلا لم يكن موفقا في أي عمل يقوم فيه، فقرر ان يخرج باحثا عن حظه لينقذه من الوحل الذي يعيش فيه، ترك بلده بحثا عن ذلك الحظ، وفي طريقه وجد أسدا يتألم من وجع في رجله فساعد ذلك الأسد، بان استخرج شظية خشب كانت قد دخلت رجله، مما سبب الكثير من الراحة لذلك الأسد. وعرفانا بالجميل قال الأسد للرجل: كيف لي ان أرد لك هذا الجميل، فقال الرجل: انا ابحث عن حظي وأريد ان اخرج من

هذه الغابة بسلام، فقال له الأسد اركب على ظهري سوف أخرجك من هذه الغابة، عند وصولهم إلى نهاية الغابة طلب الأسد من ذلك الرجل ان يسأل له حظه عن سبب عدم شبع الأسد برغم كل ما يأكل، وعن وكيفية معالجة ذلك الأمر.

استمر الرجل في طريقه إلى ان وصل إلى مدينة، فوجد ان أهلها في حزن كبير وعندما استفسر عن سبب ذلك الحزن قالوا له بأن بنت الملك مغمى عليها ولا احد يعرف كيف تشفى، دخل على الملك وقال له انا ابحث عن حظي واعدك باني سوف اسأله عن سر إغماء ابنتك وعلاجها، وعرفانا بذلك الجميل أمر الملك جنده ان يوصلوه إلى أي مكان يريد ان يتجه إليه خارج مملكته.

بعد حدود تلك المملكة كان هنالك نهر أراد ان يعبره وفي أثناء ذلك أتت إليه سمكة وقالت له: إلى أين تريد؟ فقال: أريد ان اعبر النهر إلى الجهة الأخرى بحثا عن حظي، فقالت: يمكنني ان أوصلك إلى الجهة الثانية إذا سألت لي حظك عن سر الحساسية في خياشيمي التي تربكني وتؤذيني كثيرا، فوافق واوصلته تلك السمكة إلى الضفة الأخرى من النهر.

وصل إلى الضفة الأخرى من ذلك النهر وبحث عن حظه فوجده غاطسا في بركة من الوحل ولا يقدر ان يتحرك من مكانه، اخرج حظه من تلك البركة ونظفه وأقعده في مكان محترم، فحمد الله على انه قد أنقذ حظه من ذلك الحضيض، وصار عنده يقين بأن أموره ستكون بخير من الان فصاعدا، وقبل ان يتركه قال لحظه في طريقي لك صادفت أشخاصا ساعدوني للوصول إليك وطلبوا مني ان أسألك عن كيفية حل مشكلاتهم وعرفانا بجميلهم لا بُدَّ من ان ارجع لهم بالإجابات المفيدة، اخبر حظه عن

مشكلة كل واحد منهم فكان جواب الحظ كالاتي: بالنسبة إلى السمكة فان في خياشيمها درة ثمينة يجب ان تعطس بقوة إلى ان تخرج، أما بنت الملك فان دواءها موجود في ورق هذه الشجرة اغليها في الماء واسقها شربة منه فتفيق، أما بالنسبة إلى الأسد فقل له ان علاجه في ان يأكل رجلا غبيا لكي يشفى من داء الجوع هذا.

رجع الرجل فرحا لأنه قد أنقذ حظه من ذلك الوحل وان كل أموره ستتحسن، وعند رجوعه التقى بالسمكة التي أوصلته إلى الجهة الثانية للنهر وحصلت منه على الإجابة لحل مشكلتها، عطست عدة مرات فخرجت الدرة وارتاحت السمكة فطلبت منه ان يأخذ تلك الدرة فرفض بداعي ان حظه تحسن وانه لن يحتاج إلى أي فضل ولذلك فهو لا يحتاج إلى درتها تلك وغادر المكان. وصل المملكة وعمل ما أمره به حظه فاستفاقت بنت الملك وفرح الملك وفرحت المملكة وعرض الملك عليه ان يتزوج من ابنته ليكون ملكا بعد وفاته، رفض العرض على أساس ان حظه قد تحسن ولا يحتاج إلى الزواج من بنت الملك ولا ان يكون وليا للعهد.

ترك المملكة وذهب إلى حيث الأسد فقال للأسد ان حظي يقول ان عليك ان تأكل غبيا لكي تتخلص من هذا الجوع المستمر، فقال الأسد له اخبرني قصتك وما حدث لك، فاخبره بما حصل مند ان ترك حظه إلى ان وصل إلى الأسد. وبسرعة فائقة هجم الأسد عليه واكله قائلا لن أجد أغبى منك، لم يكن يفكر ان علامة تحسن حظه انه قد أعطي الدرة ولا عرض الزواج من بنت الملك وولاية عهد تلك المملكة، ولكن كان يظن ان المال سوف يأتيه من كل مكان وليس من هؤلاء الناس الذين التقى بهم.

ان الإنتاج الإنساني المتفوق أو الخارج عن العادة والتي نسميها عبقرية لم تأتِ من فراغ وإنما نتيجة الحرية الكبيرة للإنسان في تكوين إرادات

داخلية قادرة على الوقوف أمام كل العقبات التي تضعها الإرادات الخارجية، ليس ذلك فقط وإنما توجيه الحاجات الإنسانية بالاتجاه الذي يحقق تلك النجاحات التي بسببها سمي العبقري عبقريا.

وعلى العكس فإذا ما سيطرت الإرادات الخارجية على الإنسان (نفسه وعقله وبالتالي إراداته الداخلية) فلا بُدَّ لذلك الشخص من ان يكون نتاجه أو تعامله مع المجتمع من ذلك المنطلق، فالمرأة في المجتمع الحر تعد مخلوقا جميلا ومغريا فلذلك حتى هي تتفاعل مع المجتمع بناء على تلك الصفة التي فرضتها الإرادات الخارجية، فبما أنها مغرية وجميلة فلماذا لا تستغل تلك الصفة في إظهار مفاتنها والحصول على النجاح المالي الذي يجلبه لها ذلك الجمال فتسعى لتكون مغنية أو ممثلة أو موديلا بدلا من ان تكون عالمة أو باحثة أو مهندسة أو طبيبة؟

بما ان كل خلية من خلايا أي جهاز في الجسم متشابهة في التركيبة والوظيفة مما يعطيها القوة لكي تتمكن مجتمعة من انجاز الأعمال المناطة بذلك الجهاز، فان الشخصية الفردية في المجتمعات تعمل كعمل الخلية في الجهاز فان الشخصيات الفردية للمجتمع لها تأثير مباشر في وظيفته، وأننا حينما نتكلم على المجتمع نعني أي مجتمع كبر أم صغر ضعف أم قوي، فربما يكون ذلك المجتمع عشيرة أو قبيلة أو دولة أو المجتمع الإنساني كله، فكل هده المجتمعات هي عبارة عن حصيلة أو خلاصة أو متوسط متغيرات شخصيات إفرادها.

إننا وفي محاولاتنا لفهم الشخصية الفردية تمكنا من ان نساعد على حل بعض مشكلات الإنسان، والشيء نفسه يمكن ان يقال عن الشخصية الإنسانية أو الشخصية الاجتماعية، ولكي نفعل ذلك يجب علينا ان نجد

طريقة لتحليل الشخصية مبنية على أساس المنطلقات المذكورة سابقا التي من خلالها يمكننا ان نرسم خريطة لإصلاح الشخصية الفردية أو الشخصية المجتمعية.

ثالثاً: علل الشخصية:

لن يكون مفهومنا للشخصية كاملا ما لم نستعمل ذلك المفهوم لحل المشكلات النفسية التي يعاني منها الفرد، ان الإنسان يعتاد على حياته ويتعايش معها ولكن كلما ازدادت تعقيدا بسبب الصراعات فان ادارتها تزداد صعوبة وكذلك تزداد الضغوطات التي يتعرض لها وبالتالي تزداد العلل النفسية، وهنا سوف نبحث بصورة مختصرة الخطوط العريضة لتلك العلل.

الصحة النفسية

ان مجموع الإرادات وصراعاتها والحاجات والمغريات والقولبة قوى متناحرة ومتضادة في معظم الأحيان، فكل واحدة منها تدفع في اتجاه معين، وعلى الإنسان ان يتعامل معها بأفضل طريقة لكي يكون ذا صحة نفسية جيدة. ان ذلك هو عبارة عن حرب ضروس مستمرة طوال حياة الإنسان منذ ولادته حتى وفاته، وكلما كان المجتمع الذي يعيش فيه ذلك الإنسان متطورا ومتقدما تكنولوجيا كلما زادت وتنوعت وتضادت تلك الإرادات والعوامل التي يجب ان يتعامل معها.

ان كل المجتمعات والمتقدمة تكنولوجيا بصورة خاصة، تعاني من ضغوطات كثيرة جدا مما يتطلب من افرادها ان يقووا ويقوموا طرائق تعاملهم معها وبالتالي مع المجتمع، وإذا ما ضعف ذلك التعامل مع موجدات

المجتمع فان ذلك يؤدي الى حصول حالات غير طبيعية للانسان مما يؤدي به الى ضعف واضح في العلاقات الاجتماعية، ان ذلك الضعف يبرز من احتمالية وجود اصدقاء قليلين واشغال النفس بواجبات وهوايات فردية، ان ذلك الاتجاه نحو الانعزال نابع عند بعضهم من حساسية شديدة من التفاعلات التقويمية من الاخرين[١٥٠].

فلو أخذنا مجتمعا بدويا مثلا فان الإرادات التي تحكم البدوي إرادات ربما تكون بعدد أصابع اليد فلا يوجد هنالك حاجات كثيرة أو إمكانية الحصول على المزيد منه لقلتها، ولا يوجد هنالك التنافس بين الناس على الأمور الحياتية أو الوظيفية ولا توجد هنالك التأثيرات الخارجية الكثيرة التي تتقاذفها من جانب إلى جانب اخر والنظام العائلي يكاد يكون مستقرا. وإذا ما قارناه في المجتمعات المتقدمة نجد ان الإنسان يجب عليه ان يصارع من اجل تحقيق الكثير مما يمكنه تحقيقه (وهو كثيرا جدا)، فاذا تكلمنا على المال فانه لم يعد يقدر بآلاف بل بالترليونات وبالرغم من عملية الحصول على هكذا أموال ليس بالعملية السهلة اليسيرة، وهنالك الكثير من الإغراءات والكماليات من سيارات وبيوت فاخرة ومتع محرمة ومحللة.

ان نتيجة تلك الصراعات لا بُدَّ من ان تنعكس على الحالة النفسية للإنسان. ان الإحصائيات الاميركية تقول: ان ٢٦،٢٪ اي تقريبا واحد من كل أربعة اميركان يعانون من اضطرابات نفسية[١٥١]، فلا يمكن ان نجد هذه النسبة في المجتمعات البدوية مثلا.

ان المجتمعات العربية قبل الانفتاح كانت تعيش في حالة أسرية مستقرة وكانت نسب الزواج إلى الطلاق كبيرة جدا، ولكن بسبب الانفتاح والمطالبة بالحقوق والتشجيعات الاجتماعية والقانونية أصبحت نسبة الطلاق

كبيرة جدا، كل ذلك لان الإرادات الجديدة التي دخلت إلى تلك المجتمعات عقدت المشهد الأسري مما أدى إلى حدوث تناقضات وصراع في الأسرة.

فكلما زادت صراعات بين الإرادات كافة كلما تعقدت حياة الإنسان وعليه ان يتعامل معها بأفضل طريقة يراها مناسبة، فبعضهم يركن إلى شرب المسكرات والاخر يأخذ المخدرات وقسم يحصل له كآبة وأخر ينتحر والقليل منهم من يتعامل مع تلك الصراعات بعفوية وفي بعض الأحيان من دون مبالاة.

فكيف لك ان تتطور في عملك وهنالك من ينكد عليك يومك كل يوم، وكيف لك ان تنتج وهنالك من يقف حجر عثرة في أي عمل تقوم به، وكيف لك ان تحب عملك وتجد هنالك مراجعين يسبونك أو يعتدون عليك، كيف لك ان تعيش سعيدا وترى ان الآخرين يعيشون حياة أفضل من حياتك وعندهم ما ليس عندك، فإن تداينت لكي تحصل على ما عندهم فانك ستعيش معركة الدين والعمل على تسديد ما تداينته.

ان جميع البلدان الأوروبية واستراليا وأميركا تقول ان هنالك ما يسمى كآبة ما يسبق عيد الميلاد (Christmas blues) وذلك متأت من الضغط الذي يعاني منه أولئك الناس بسبب حاجتهم إلى شراء الهدايا والتحضير إلى ذلك اليوم والضغط المالي عليهم، والمفروض أنها تكون مناسبة فرح وسعادة.

ان بعض الناس تصل بهم الحالة من عدم القدرة على التعامل مع المحيط الخارجي إلى ان تصيبهم الهيستيريا وهو باعتقادي عمل إرادي لان الشخص الذي يظهر أو يتعامل مع موقف ما بهيستيريا إنما هو يفعل ذلك

لانه يتخذ موقفا دفاعيا يريد منه ان يظهر قوة لا يملكها في حالاته الطبيعية الاعتيادية، فتخرج منه طاقة وقوة كامنة لا يستطيع إخراجها في اي وقت اخر، فلذلك ترى (عندما تصيب احدهم حالة من الهيجان) خروج الزبد من فيه وتجحظ عيونه وارتعاد بدنه لكي يشيع رعبا وخوفا منه في نفوس الآخرين، فهو بهذا العمل يتعامل مع الظروف بطريقة لا يقدر على ان يتعامل معها بغير هذا الأسلوب. وهو بهذه الحالة يحاكي الحيوان باستعمال طاقته الكامنة بأعلى مستوياتها وبسيطرة النفس وليس العقل. فالحيوان عندما يجوع أو يخاف أو يتهدد فانه يخرج أصواتا أو يتخذ أوضاعا جسدية تدل على قوته وقابلياته لكي يرعب الآخر ويتخلص من تهديداته.

ومرضى النفس الذين يطلق عليهم منفصلو الشخصية في نظري أنها عملية إرادية يستعملها الإنسان لكي يتعامل بها مع المحيط الخارجي فيبرز شخصيتين أو أكثر على أساس ان لكل شخصية وجها لا يمكنه او لا يريد اظهاره في الحالات الاعتيادية أما بسبب الحاجات أو الإرادة الداخلية أو الخارجية.

ان الإنسان مسكين لأنه معرض لتلك الصراعات والتي يتوجب عليه ان يتعامل معها ولكنه يملك قوة القرار ولا يمكن لأية قوة ان تعمل عليه ما لم يرضها، انه وفي تعامله مع تلك الإرادات ينظر إليها بمنظار المتعة أو الفائدة المرجوة منها ومن منظار الألم والحزن الذي يمكن ان يتعرض إليه فهو يقبلها إذا ما جلبت متعة ويبتعد عنها أو يرفضها إذا ما جلبت له الحزن والألم. المشكلة هنا والتي تجعله مسكينا إنه ليس كل الم سيئ وليس كل متعة جيدة وهذا لا يتوقف على الإنسان نفسه بل يمكن ان يتعداه إلى المجتمع، فشرب المخدرات ربما تأتيه براحة ومتعة ولكنها تضر بصحته

وربما تأتيه بمشكلات اجتماعية أو أسرية، وليس كل ألم سيئ لان لولا الألم لما أحسسنا بالأمراض الجسدية التي يمكن ان نعاني منها.

ان الأمراض النفسية تظهر في كل المجتمعات وليس محدودة بمجتمع خاص أو ظروف خاصة، فلا المجتمعات المتقدمة ولا المجتمعات المتخلفة ناجية منها، ولا المجتمعات الغنية ولا الفقيرة ناجية منها ولا المجتمعات الحضرية ولا المجتمعات البدوية ناجية منها ولا المجتمعات الزراعية أو الصناعية ناجية منها.

ان الأمراض النفسية ليست شاملة لكل أنواع المجتمعات فقط ولكنها لا تفرق بين الأفراد أيضا، فلا الغني أو الفقير ينجو منها ولا الذكي أو الغبي ينجو منها ولا الكبير أو الصغير هو الآخر يتخلص منها، إنها مرتبطة بإمكانية الإنسان من تحقيق ادارة مؤهلة للصراعات التي فيه والتي تدور حوله.

ذكرنا ان واحدا من كل أربعة أميركان (٢٦،٢٪) في عمر ١٩ فما فوق يعاني من مشكلة نفسية، فكيف لنا ان نصدق ذلك في مجتمع حر يعيش الإنسان به بكل حرية وكرامة، ولا يوجد عوز أو إنسان يعيش تحت خط الفقر (إلا من يريد ذلك)، وهنا نقول كما يقول ماسلو بان الحاجات لها هرم وإذا ما اكتفى الإنسان من الحاجات التي في أسفل الهرم فان هذا لا يعني انه قد حقق كل حاجاته بل لا بُدَّ ان تكون هنالك حاجات أخرى يسعى اليها، وفي هذه الحالة إذا لا بُدَّ ان تكون تلك الحاجات الناقصة هي السبب في تلك الحالات النفسية. وبما ان الحاجات تكون متسلسلة هرميا فذلك يجعل تحقيق حاجة ربما محفزا إلى طلب حاجة أو حاجات أخرى.

ان ذلك التكالب والطلب المتزايد لتلك الحاجات والشدة في التعلق بالحاجات هي العلة في كل المشكلات النفسية في العالم وهي السبب في

شمولية تلك الأمراض النفسية في كل المستويات الإنسانية، وربما تكون هي السبب في ان المؤمنين الحقيقيين من الأنبياء والصالحين كانوا قد تخلوا عن الكثير من حاجاتهم لكي يتمكنوا من ان يسموا بحياتهم ويطلقوا العنان إلى حواسهم العقلية لتصل إلى مسافات وأبعاد هائلة لا قدرة للحواس النفسية من عين وأذن ولسان وما أشبه ان تصل إليها أو تدركها.

ان معظم المعاناة من المشكلات النفسية تأتي من العمل أو الأولاد أو العلاقة الزوجية أو الطموحات الاجتماعية وما أشبه. فالإنسان الذي يعمل في مكان ما ويحس بأنه مهمش، أو انه محارب، يحس بانه يعيش ضغوطات عمل متعبة، أو ان العلاقة بين الزوجين مرة جدا وبوجود طرف ضعيف وطرف قوي فيستغل القوي الضعيف فيحس الضعيف بالظلم وعدم القدرة، هنالك الكثير من المسائل والظروف التي تجابه الإنسان وتكون سببا في مشكلات تعرقل الحياة الطبيعية وتسبب قلقا وحرجا وألما.

ان المشكلات وفي كثير من الأحيان يمكن ان تتعقد أكثر بتدخل الآخرين فيها (ومن دافع المساعدة) ففي بعض الأحيان يكون تدخل الآخرين من أهل أو أصدقاء أو حتى دوائر حكومية عاملا مشجعا لتعقيد المشكلات، وبالتالي إلى المزيد من الضغوطات النفسية، فهنا في استراليا مثلا، إذا ما ترك الشاب أو الشابة البيت فان الدولة تعطيه المعونة الاجتماعية وذلك يكون لبعض الشباب حافزا على مغادرة البيت، بصورة خاصة إذا كانت العلاقة بين الآباء والأبناء سيئة، فهو يخرج من صعوبة إلى صعوبة ربما تكون اكبر واشد منها، والزوجة إذا ما تركت زوجها فان الدولة تعطيها معونة اجتماعية فتكون خارج نطاق الحاجة إلى الزوج، ولكن إذا كان

هنالك أولاد تبدأ مرحلة أخرى من المعاناة في تربية الأولاد والعلاقة بين الزوجة والأولاد من جهة وبين الأب من جهة أخرى.

وهنا يجب تأكيد عدم تمكن الإنسان من تغيير كل الإرادات الخارجية بما يناسبه ولكن ربما يتمكن من تحويرها لكي تكون من صالحه. فمثلا مشكلات العمل لا يمكن تغييرها بسهولة فإما ان يتقبلها واما يحاول ان يتعامل معها وعلى علاتها أو إذا لم يستطع فعليه تغير مكان الشغل. كان XXX يعاني من ضغط كبير من رئيسه بحيث جعل حياته جحيما، انه مدين للبنك بدين عقاري كبير وعنده عائلة لا بُدَّ من ان يعيلها وإذا ما طرد أو ترك الشغل فان البنك سوف يأخذ البيت منه، ان المعونة الاجتماعية التي تعطيها الحكومة (إذا ما فقد وظيفته) لا تكفيه ان يعيش مع عائلته بالمستوى الذي يعيشه نفسه وهو في شغله، حاربه رئيسه إلى درجة اخذ منه السيارة التي أعطته إياها الشركة لاستعماله الخاص. ان تلك الضغوطات انعكست على أخلاقه في البيت فأصبح عصبيا يثور لأقل سبب حتى انه حاول ان يقدم على الانتحار. ان شخصا مثل هذا إذا ما ذهب إلى الطبيب فانه ومن دواعي المساعدة سيعطيه المهدئات، ولكن الطبيب الذي عالجه ذهب إلى أساس المشكلة ولم يعطه مهدئات بل اجبر الشركة على إعطائه عطلة طويلة وبراتب كامل ومدفوع، كما انه طلب منه إرجاع السيارة إلى الشركة وان يستمر في البحث عن عمل آخر، وبالفعل استعمل العطلة لكي يبحث عن عمل آخر فوجده، ولما راجع الطبيب كانت قد تحسنت حالته النفسية بدرجات كبيرة جدا.

انه قد عالج المشكلة الأساس وهي العمل والأمان المتأتي من ذلك العمل، أما إذا كان ذلك الإنسان غير قادر على تغيير الإرادات الخارجية

فيجب عليه عند ذاك ان يعمل على تغيير الإرادات الداخلية. إنا لم اقل الشخصية الداخلية لأنها متعلقة بالإرادة الداخلية فكما تكون الإرادة الداخلية فان الشخصية الداخلية لا بُدَّ ان تصطبغ بصبغتها وما لم تتغير الإرادات الداخلية فلا تتغير الشخصية الداخلية.

بما ان تلك الصراعات المؤثرة في الإنسان هي السبب في الامراض النفسية التي لا تكون لاسباب كيمياوية في جسم الانسان ولكن لاسباب حاجات النفس وضغوطات المغريات وفرض الإرادات لذلك يجب ان نتكلم على كيفية تعاملنا مع المشكلات النفسية.

كيفية التعامل مع المشكلات الشخصية

من اولويات فهم شخصية الإنسان هي محاولة الغوص في دراسة كل الإرادات (الداخلية والخارجية) المحيطة به، ومهما تعمقنا في ذلك فستبقى إصابتنا للهدف غير كاملة وتامة، وذلك لانه ربما يمكننا تحديد وبدقة الإرادات الخارجية ولكننا سنجابه بصعوبات عندما نريد ان نحدد إراداته الداخلية. ان هذا الامر يحتم علينا ان ندرس ذلك الشخص دراسة عميقة معتمدين بالدرجة الاولى على مساعدته في ذلك الأمر وذلك بافصاحه لنا عن مكنونات نفسه من اجل ان نتوصل الى مواقع الخلل عنده. لذلك فان أي تعامل مع الشخص الذي يعاني من مشكلة يجب ان يكون على اساس امرين غاية في الاهمية:

- هل يعترف بان عنده مشكلة، الجواب (نعم/لا)
- هل يريد إيجاد حل لها، الجواب (نعم/لا)

من تلك الأجوبة نجد ان هنالك عدة احتمالات، إنه:

- يعترف بالمشكلة ويريد حلا لها.
- يعترف بالمشكلة ولا يريد لها حلا.
- لا يعترف بالمشكلة فلذلك لا يريد حلها.

هنالك أشخاص يعرفون ان عندهم مشكلة ويريدون حلا لها ولكنهم لا يستطيعون حلها ولا يطلبون المساعدة من اجل حلها، وآخرةن يعترفون بالمشكلة ويريدون حلا لها ولكن يعتقدون بان حلها صعب جدا ولا يتجرأون على السعي من اجل حلها.

ان أول خطوة في طريق إصلاح الذات يجب انت بتولد يقيننا عند الشخص بأن هنالك مشكلة حقيقية، ان ذلك اليقين لا يمكن ان يأتي بسهولة ما لم تتكون عنده فهم وإرادة داخلية تقر بتلك المشكلة. ان ذلك اليقين سيكون أول خطوة واهم خطوة في حل المشكلة، وبالرغم مما قلناه سابقا عن تأثير الإرادات الخارجية في إدارة واتجاه حياته.

ولكن وفي حالات كثيرة هناك عراقيل تؤثر وتقف حجر عثرة في طريق الإصلاح وذلك بسبب بعض الإرادات الخارجية أمثال الاجتماعية أو القانونية أو الدينية التي تحدد ما الخطأ وما الصواب، وإذا ما كان القرار الداخلي أو الإرادة الداخلية مخالفا لتلك الإرادات ففي هذه الحالة يكون هنالك تنافس وصراعِ بين الإرادتين ولا بُدَّ للإرادة الداخلية من ان تتغلب على الإرادة الخارجية. وفي الحالات الأخرى التي تكون فيها الإرادات الخارجية قوية جدا ومصحوبة بضغوط عالية فان الشخص يمكن ان يحاول تغيير طريقة عمله كي لا تجابه ذلك الاعتراض الكبير، أو ربما يتوقف عن تنفيذ ذلك العمل معللا لنفسه بأنه غير قادر على العمل أو انه مجبر عليه.

لذلك من عنده مشكلة أو يريد تحقيق غرض ما سواء كان ذلك مقبولا أم غير مقبول من المجتمع فان عملية إصلاح تلك المشكلة أو تحقيق ذلك الغرض لا يمكن ان ينجز ما لم يصل الشخص بنفسه إلى قرار بضرورة الإصلاح أو انجاز الغرض المقصود. ان نوعية ذلك الإصلاح أو الانجاز (ومهما يكن خيرا أم شرا، لذيذا أو مقرفا، سعيدا أو شقيا يؤثر في نفسه هو أو في المجتمع) لن يكون العامل الرئيس في الإصلاح أو الانجاز، لان العامل الرئيس هي قوة الإرادة الداخلية، فلا توجد هنالك قوة على الأرض يمكن ان تغيره ما لم يطلب هو نفسه ذلك التغيير. ان الإرادات الخارجية لا يكون تأثيرها إلا في تأخير مدة تنفيذ ذلك الإصلاح.

أنا لست طبيبا نفسيا ولكني أتصور انه لا يوجد هنالك مجنون على وجه هذه الأرض ما لم يكن عنده خلل في التوازن الكيمياوي المؤثر في عملية نقل الإشارات في الدماغ.

أقول هذا من منطلق ان الإنسان غير مجبر على عمل أي شيء لان الذي ينفذ عمله هن جوارحه التي تأتمر بأمره، ان من نسميه مجنونا قد اختار لنفسه ان يتصرف بالطريقة التي تجعلنا نقول بأنه مجنون وما بهلول إلا مثال على ذلك، من تصيبه الكآبة يعتقد جازماً ان تلك القوقعة الذي وضع نفسه فيها سوف تحميه وبالتالي قرر هو نفسه ان لا بُدَّ له ان يضع نفسه في موضع يجعله بأمان من الصعوبات أو المشكلات أو الآلام.

والذي ينتحر ربما يتصور بأنه بعمله هذا سوف ينهي سلسلة المعاناة المستديمة ولا سبيل له للخلاص منها والاستمرار بالحفاظ على كرامته الإنسانية ونظام حياته الطبيعية إلا بالموت، في الغرب هنالك عدد لا بأس به من الناس يعتقد بأن إرادة الموت (Euthanasia) حق مشروع ما دامت نوعية الحياة قد تأثرت وأصبحت غير مقبولة أو لا تطاق.

ان ارقي واثمن واهم ما يملكه الإنسان هو حياته ومن يقرر ان ينهي حياته لأي سبب من الأسباب وتحت أي ظرف من الظروف فانه يقدم اكبر تضحية يمكن ان يقدمها ولا يوازيها أي تضحية أخرى، فإذا كان هنالك معنى لهذه التضحية فلا بُدَّ من ان تكون الأسباب والظروف أهم من الحياة نفسها.

مما تقدم كله نستخلص بان إرادة نفس الإنسان فوق كل إرادة، ولا يمكن لأي قوة ان تغير إنسانا ما لم يكن ذلك التغيير بمشيئته وإرادته. فلو أخذنا مثلا المرضى المصابين بأمراض نفسية يحتاجون فيها إلى الرجات الكهربائية، والتي بالضرورة تسبب لهم ألما شديدا حتى ولو كانوا مخدرين، ان التحسن الذي يطرأ عليهم وذلك بأن يصبحوا اكثر هدوءا أو تتغير أحوالهم إلى حالات جديدة. في اعتقادي، ان ذلك لا يعد تحسنا لأنهم يدركون بان تلك الرجات ما هي إلا عقوبة تؤدي بهم إلى أذى فلا يجدون مناصا من تغيير تصرفاتهم من اجل ان تتوقف تلك الرجات الكهربائية وبالتالي ذلك العقاب، ان ذلك التغيير في التصرف يعده الطبيب المعالج تحسنا في المريض، ولكن حقيقة الأمر هو نتيجة ذلك العلاج المؤلم. ربما يكون المريض وبإرادته قد تحول في تصرفاته من انفصام في الشخصية إلى حالة من الهدوء وربما الكآبة والانطواء معتقدا بأنه أكثر ملاءمة للوضع الذي هو فيه من بقائه على حالة انفصام الشخصية التي يتبعها رجات كهربائية.

إذا لكي نعالج المرضى النفسيين يجب علينا ان نبحث عن طريقة نقوي بها ادراك المريض بأنه يعاني من مشكلة ولا بُدَّ من إيجاد حل لها على ان تكون وظيفتنا هي ان نساعده على إيجاد الحل، ليس ذلك فقط ولكن يجب

ان يفهم انه ليس بإمكاننا وحدنا حلها له ما لم هو نفسه يريد ويبحث وينجز ذلك الحل، وعلى هذا الأساس يكون دورنا هو المساعدة والتوجيه [illegible] احتمالات النجاح تكون كبيرة، ولكن تحتاج إلى وقت لكي يتحقق ذلك النجاح المطلوب.

مما تقدم نجد ان صراع الإرادات وحاجات الإنسان مؤثرة تأثيرا عاليا في الفرد الإنساني وبالتالي تؤثر في قراراته ولكن لن تتحقق تلك القرارات إلا عندما يتخذها هو بنفسه، وما واجبنا إلا تقديم المساعدة وذلك بتهيئة الظروف المناسبة وإتاحة المناخات الملائمة لكي يحصل ذلك التغيير المرغوب.

ان علي ابن أبي طالب عليه السلام يقول هنالك ثلاثة أنواع من عباد الله:

الأول هو من يتعبد بعبادة العبيد فان الإنسان الذي يخاف النار يعبد الله لكي لا يدخله النار.

والثاني هو من يتعبد بعبادة التجار وهو الإنسان الذي تطمح نفسه بالثواب على العبادة.

والثالث هو من يتعبد بعبادة الأحرار فهي العبادة المتأتية عن معرفة بالله وعن حب له وإيمان به، ان مثل هذه العبودية لا يمكن الوصول إليها إلا إذا تخلص الإنسان من حاجاته غير الأساسية وسما الإنسان بحاجاته.

ان الاستنتاج الذي نأخذه من كلام علي عليه السلام هو: ان الإنسان يصوغ إراداته الداخلية بواحدة أو ربما أكثر من أسلوب : الأول: لا يعمل الإنسان الخطأ إذا ما خاف العقوبة على عمله ذلك، إذاً هو يسير بنظام العقوبة، والثاني: لا يعمل ما لم يثب، فهو يعمل بنظام الثواب،والأخير: يعمل، لأنه

يريد ويحب ويؤمن بذلك العمل، وشتان بين من يعمل بحب، وبما يتطلبه ذلك العمل، وبين من يعمل، لأنه يخاف العقوبة أو من اجل الثواب.

ان العامل الأكبر في تقرير الاتجاه الذي يأخذه الإنسان هي إرادته الداخلية التي تكون الأساس في صوغ أي قرار يصنعه، ان تلك القابلية (صوغ القرار) هي التي ميزت وتميز الإنسان من كل الكائنات الحية، فلا يوجد كائن حي يملك تلك القدرة على اتخاذ القرار في ظل قوى متعددة وفي اتجاهات مختلفة ومتصارعة ومصالح متشابكة ومتضادة ومكاسب آنية ومستقبلية ومضار آنية ومستقبلية ولا مناص من ذلك إلا ان يأخذ قرارا.

ان اذكى الحيوانات على الإطلاق لا تتعدى قراراته عن مجال ما يمكنه ان يأكل وماذا يأكل ومن أين يحصل على ذلك الأكل وكيف الحصول على شريك يفرغ معه حاجته الجنسية وكيف يحمي نفسه من المخاطر، أما الإنسان فانه يقوم بكل الذي سبق ويتعداه إلى قرارات في البناء والتطور واستغلال طاقته وطاقة الآخرين البشرية والطاقة الطبيعية وفي الحصول على مكاسب له وللآخرين.

ان حصيلة تلك القدرات التي يملكها الإنسان نجدها في التكنولوجيا والتقدم العمراني والصحي والعلمي ومنذ ان خلق الإنسان على هذه الأرض إلى يومنا هذا، التي تعد مدة قصيرة جدا مقارنة بالمدد الزمنية التي عاشتها كل المخلوقات التي وجدت على هذه الأرض ومن قبل ان يوجد عليها الإنسان.

لا يصح لنا القول بأن هنالك حقبة زمنية واحدة في حياة البشرية قد بنيت فيها هذه الحضارة المتطورة التي نعيشها اليوم وإنما هي حصيلة التراكمات العلمية والعملية للإنسان منذ وجوده على هذا الكوكب إلى

يومنا هذا، إذ أسهم كل عصر إنساني ومنذ وجوده بجزء في عملية البناء الحضاري، وما ننعم به اليوم إلا نتيجة للتراكمات الحضارية السابقة، وللإنسان ان يحصل على المزيد.

ان تلك الإرادة الداخلية هي التي تجعل الإنسان مسؤولا وغير مصون، ولو رجعنا إلى الأديان السماوية فهي تقول: ان الملائكة مسيرة وغير مخيرة والجن مخيرون ومسيرون ولكن الإنسان مخير وغير مسير، وربما يكون تفسير الآية القرآنية(١٥٢) التي تقول: ﴿إنا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان انه كان ظلوما جهولا﴾.

لقد عرضت الأمانة على الجبال فخشيت منها ولكن تقبلها الإنسان وهي مصداقية لحرية الاختيار تلك.

يحتم الصراع بين الذات أو الإرادات الداخلية والإرادات الخارجية على الإنسان ان يتعامل مع تلك الإرادات بطريقة يرضي نفسه ويرضي الإرادات فهو بذلك يسعى إلى رضا الاثنين. ان قابلية الإنسان على احداث نوع من التوازن والتوفيق بين ما يريده وما تريده الإرادات الخارجية بحيث يخرج بقرار يرضيه هي خصوصية من خصوصيات الإنسان لا يقدر عليها أي كائن حي اخر.

وبالرغم من ان أكثرية البشر يملكون هذه القدرة (القدرة على التوفيق) ولكن ليس في كل مرة يمكن للإنسان ان يقرب بين الإرادات المختلفة، وليس في كل الأحيان يمكن ان يقبل بإرادة على حساب إرادة أخرى، أو ان يرضخ لارادته الذاتية، أو يقبل بفرض إرادة على إرادته، وهذا هو سر من أسرار عظمة هذا الإنسان وهذا هو احد الأسباب التي تجعل البشر ذوي شخصيات مختلفة لأنها مرتبطة بطريقة تعاملاتهم مع تلك الإرادات.

إذا كان للإنسان نوعان من الإرادات (داخلية وخارجية) فهل يمكننا ان نمد هذا الى القول بان الإنسان يمكن ان يملك شخصيتين واحدة يتعامل بها مع نفسه والاخرى يتعامل بها مع محيطه الخارجي؟ ان هذا هو موضوع الفصل اللاحق الذي سنجيب به عن هذا السؤال.

الفصل الثامن

أهي شخصية واحدة أم شخصيتان؟

الشخصية.. معالمها ماهيتها و تفاعلاتها

اسباب ظهور الشخصيتين

الحاجة إلى شخصيتين

الإرادات المحركة للشخصيتين

الإرادات الداخلية المحركة للشخصية الداخلية

الإرادات المحركة للشخصية الخارجية

الفصل الثامن
أهي شخصية واحدة أم شخصيتان؟

ان الإنسان أي إنسان لا بُدَّ ان يظهر للعالم بمظهرين الأول الجزء المادي الفيزياوي وهو (شخصه) والمظهر الثاني وهي (شخصيته) والتي بالضرورة تعني تصرفاته أفعاله أقواله طريقة تفكيره عقائده هواه حاجاته وعاداته وتقاليده.

ان المظهر الخارجي أو شخص الإنسان هو عبارة عن وعاء للتفاعلات التي تحدث داخله، فبعد دخول كل المواد الأولية إلى ذلك الوعاء وحسب الظروف المهيأة له ينتج فعل أو قول أو عمل أو تصرف يكون مؤشرا وعلامة أو دلالة على شخصية ذلك الإنسان.

ان شخص الإنسان، حاله حال أنبوب الاختبار، فكما ان أنبوب الاختبار لا يمثل بل يحتوي التفاعل الكيمياوي الذي يحدث داخله فان الشخص لا يمثل بل يحتوي شخصية الإنسان، وكما ان أنبوب الاختبار ممكن ان يصنع من عدة مواد بنوعيات مختلفة فكذلك الشخص، لذلك فان الشخصية تتغير بتغير التفاعلات التي تجرى داخل الإنسان في الوقت الذي لا يتغير الشخص نفسه (اي مظهر من مظاهره الخارجية)، أما بالنسبة الى الشخصية فحالها حال التفاعل الكيمياوي، الشخصية هي نتيجة لتفاعلات عديدة ذكرناها بالتفصيل في فصول سابقة وسوف نلخصها لاحقا.

وكما ان أنبوب الاختبار يمكن ان يستعمل لإجراء تفاعلات مختلفة فان الشخص يمكن ان يستعمل لإنتاج تفاعلات مختلفة، كل تفاعل يعتمد على نوعية وكمية المواد الداخلة في ذلك التفاعل وعلى الظروف المحيطة

به، لذلك لا يمكننا ان نحدد نوعية الشخصية ونعطي صفة واحدة للإنسان فنصفه بصفة أو صفتين أو ثلاث، السبب في ذلك هو ان طريقة تفاعله تعتمد على الظروف والمواد الداخلة في ذلك التفاعل، مما يجعل الشخص يتصرف بطرائق مختلفة امام موقف معين أو حدث معين وتصرف مختلف عندما تختلف إراداته او/ والظروف المحيطة به.

ان الله عز وجل ينتظر تغير الإنسان (نحو الإيمان) حتى إلى آخر لحظة من حياة ذلك الإنسان عسى ان يتوب عن ذنبه ويستغفر الله، ان السبب في ذلك عائد إلى ان الطبيعة البشرية متغيرة مما يؤدي إلى عدم ثبوت تصرفات وتفكير الإنسان، فهي تتأثر بتغيرات الظروف المحيطة بها أو حينما يتعرض الإنسان إلى إرادات جديدة وبروز نوع جديد من الحاجات. ان تلك التغيرات تصل إلى حدودها القصوى مثلا بتحول إنسان مؤمن ومواظب على ممارسة فروضه الدينية إلى مجرد مسلم بالهوية أو حتى ربما يصل إلى حد الإلحاد، أو العكس صحيح وذلك بتحول إنسان ملحد أو غير ملتزم إلى كامل الالتزام والإيمان، ان الحالة الأولى تسمى (سوء العاقبة) والثانية (حسن العاقبة).

إذا ان الإنسان له القابلية على تغيير شخصيته من حال إلى حال بحسب ما يصادفه من حاجات أو إرادات داخلية وخارجية، ربما يكون العقل هو مفتاح هذا التغيير، فإذا ما سيطر العقل على النفس فلا بُدَّ للإنسان ان يسمو أما عكس ذلك فلا بُدَّ له ان ينحدر إلى الحضيض، والسبب في ذلك ان العقل يمكن ان يقنن ويخفف من ضغط الحاجات والهوى إذا ما تمكن من ان يكون السيد. لقد ذكرنا أمثلة سابقة ولا داعي للعودة لها مرة أخرى.

الشخصية.. معالمها ماهيتها وتفاعلاتها

في الفصول السابقة حاولنا الإسهاب في تفصيل شخصية الإنسان وبيان ماهيتها وتفاعلاتها ومعالمها وهنا لا بُدَّ لنا من ان نخلص تلك الشخصية لكي نتمكن من ربط كل مادة من المواد التي بحثناها في الفصول السابقة ولكي نبي شخصية للإنسان على أساس إنها هوية فردية خاصة به لا يشاركه فيها احد، فكما ان بصمة الإبهام تستعمل في تشخيص هوية الإنسان، فان الشخصية وبناء على المعلومات التي نوقشت في الفصول السابقة تمثل بصمة لشخصيته.

ان الحاجات ومواقعها في مدارات حب الذات وانتقالها بين المدارات لا بُدَّ ان تتأثر بعوالم داخلية (والتي تعني بالضرورة نابعة من الإنسان نفسه) وليس من عوالم خارجية، ان تلك العوالم الداخلية بحسب ما قسمناها تتكون من ثلاثة أجزاء، النفس التي تضم الجسد والجزء البدائي من الدماغ والذي نتشارك فيه مع بقية الحيوانات، والعقل وهو المفكر والموجه، وبالتالي الإرادات الداخلية التي تكون نتاج رغبات النفس وتخطيط العقل.

ان الهوى هو عبارة عن مقياس لمدى تعلق النفس وارتباطها بحاجات الإنسان، ان شدة الهوى تتمثل بعمليات الانتقال بين مدارات حب الذات، فعندما يكون الهوى قويا تنتقل الحاجة إلى مدارات مناسبة لذلك الهوى. ان المغريات تعمل على زيادة شدة الهوى ولا يمكن لها ان تحقق مرادها ما لم تكن حواس النفس قادرة على إدراكها وبالتالي إيصالها الى النفس. ان المغريات ما هي إلا ظواهر لحاجات، فالمال السائب مغري، وخلو الشارع من قوات الأمن مغري، ووجود امرأة جميلة مغري، فمن يحب المال إذا ما رأى ذلك المال السائب فان ذلك سيكون مغريا له لكي يسطو عليه.

ان كـل هـؤلاء مجتمعين سـيحددون الحاجـات ويـصنفونها علـى إنهـا أساسية، مرغوبة، أو يراد المزيد منها، وعلى هذا الأساس يتعاملون مـع تلـك الحاجات، فإما ان يكون تعاملهم معها بعـدم اهتمـام وامـا بطلـب جـزء قليـل منها واما طلب المزيد منها بقوة برغم كل الصعاب التي يمكن ان تجابههم.

كل ما ذكر الى الآن هو نابع من الإنسان لصالح الإنسان بإرادة الإنـسان، في المقابل فان هنالك إرادات خارجية تفرض على الإنسان ان يتعامل معها، قسم منها إرادات قاهرة وقسم تعطي له حرية الاختيار ليس هذا فقط، بل ان تلك الإرادات تتصارع في ما بينها في عملية التأثير في الإنسان والتعامل معه.

ان على الإنسان ان يوفق بين إراداته الداخلية وبين تلك الإرادات، وفـي كل الأحوال لا بُدَّ ان يكون قراره بحسب مـا يـراه مناسبا لـه بـالرغم مـن ان بعض الأحيان نجد ان بعض تلك القرارات (ظاهريا) على انها خارج مصلحة الإنسان.

ومما سبق نجد ان كل مادة من المواد المذكورة سابقا لا بُدَّ لهـا مـن ان تصل إلى داخل ذلك الشخص لكي تتفاعل في ما بينها لأجل ان تنـتج مـادة جديدة تكون عبارة عـن تعبيـرا شخـصيا لـذلك الإنـسان، وكمـا ان ظـروف التفاعل الكيمياوي يمكنها تغيير نتيجـة التفاعـل فـان تغيـر الظـروف (سـواء خارجية كانت أم داخلية) سيؤدي إلى تغير في شخصية ذلك الإنسان.

ان صعوبة التعامل مع جهات وإرادات ومغريات وهـوى متعـددة تجعـل مسألة الحياة تكاد تكون مستحيلة. تـصور ان الإنـسان يحـب المـال ويـسعى إلى الحصول عليه فأن أول ما يجب عليه ان يفعلـه هـو ان يقـوم مـدى حبـه لذلك المال فان كان حبا إلى حـد الهـوس فـلا بُـدَّ مـن ان يـضعه فـي مـدار الانحطاط، عند ذلك لا بُـدَّ للـنفس مـن ان تتـصارع مـع العقـل لكـي تجعلـه

يعمل في خدمتها بحسب ما تشتهيه، وإذا ما تمكنت من ذلك لا بُدَّ لها من ان تتعامل مع الإرادات الخارجية (وما أكثرها) التي تمنعها من القيام بذلك، ولا بُدَّ لها من خلق ظروف مناسبة للحصول على ذلك المال.

هنالك صراعات داخلية وإرادات داخلية ولكي تكون تلك الإرادات الداخلية في اتجاه الحصول على المال لا بُدَّ من انتصار ارادة المال على كل من يعارض ذلك، وعند ذلك تكون الإرادة الداخلية ايجابية، وبعد ذلك لا بُدَّ ان تصارع الإرادات الخارجية التي ربما تكون معارضة بشدة أو موافقة أو غير مهتمة، لكي تحضر الإنسان ليكون قادرا على إبراز شخصية يمكنها التعامل مع الإرادات الخارجية بايجابية، وبكلمة أخرى إذا كانت تلك الإرادات قاهرة لا بُدَّ ان تظهر تلك الشخصية على إنها منصاعة لتلك الإرادات وبخلاف ذلك تحاول إرضاء النفس وبدرجات متفاوتة.

ان تلك الشخصية الظاهرية أو الخارجية لا بُدَّ من ان تقابلها شخصية أخرى أسميتها الشخصية الداخلية التي هي تتماشى مع الإرادات الداخلية، ففي مثالنا السابق تكون الشخصية الداخلية معبرة عن حب وسعادة وإرادة للحصول على المال بكل السبل.

ومن هذا نستخلص بان لا بُدَّ للإنسان من تملك شخصيتين الأولى وكما يريدها هو بمعزل عن أي إرادة خارجية، والثانية كما تمليها عليه الإرادات الخارجية ولكن لا بُدَّ من ان تكون بدرجة من المقبولية عنده، ان تلكما الشخصيتين هما اللتان تجعلان حياة الإنسان سهلة نسبيا، لان الإنسان (وعلى مدى حياته) سابحاً في بحر لجي تلاطمه الأمواج من كل جانب، فمن دون طوق نجاة يحميه من تلك الأمواج لا بُدَّ له ان يغرق. ان طوق النجاة هو تلكما الشخصيتين، فهو بشخصيته الداخلية يحاول ان يخلق أجواء يرضي

بها نفسه ويسعدها وهو بالشخصية الخارجية يحاول الحصول على مقبولية الإرادات الخارجية ويرضي نفسه ايضا.

ليس من الصحيح ان نقول ان وجود هاتين الشخصيتين مقصورة على المجتمعات المتخلفة أو مجتمعات العالم الثالث أو المجتمعات التي يكون فيها ظلما، إذا ان هذه الازدواجية مطلب إنساني لا بُدَّ منه، وهو موجود في كل المجتمعات البشرية وإلا كيف نفسر الانفلات الأمني في أميركا بعد الأعاصير التي دمرت بعض المدن الساحلية، إننا نشاهد ان حالة الانفلات الأمني موجودة في أي مجتمع متى ما غاب عنها رجال الأمن. فكيف يكون لشخص أميركي وفي الظروف الاعتيادية ملتزما بالقانون وفي ظروف أخرى حرامي.

نعم يوجد هنالك تفاوت في طريقة ابراز الشخصيتين، ان هذا التفاوت يعتمد على طبيعة المجتمع، ولكن يبقى وجود تلك الشخصيتين قائما ما دام الإنسان انسانا. ففي المجتمعات الإباحية مثلا لا يحتاج ان يكون هنالك فرق كبير بين الشخصيتين عندما يكون الامر متعلقا بالجنس مثلا، ولكن وجود تلك الشخصيتين يكون واضحا جدا في المجتمعات المحافظة.

في تجربة لمجموعتين الاولى اميركية والثانية يابانية عرضت فيها لقطات سينمائية مقلقة سجلت خلالها تعبيرات وجوههم، لقد شاهدوا تلك اللقطات اما وحدهم واما مع باحث من العائدية الاثنية نفسها. فعندما كان المشاهدون وحدهم اظهروا تعبيرات متماثلة ولكن عندما قابلهم الباحث وهم يشاهدون اعادة لتلك اللقطات، حجب اليابانيين بعض اجوبتهم اكثر مما حجبها الاميركان(١٥٣).

ان مدى طاعة شروط السياقة في الشوارع العامة يمكن ان يكون مختلفا بين مكان ومكان آخر، ففي الأماكن التي فيها شرطة المرور تكون الطاعة فيها قريبة من مئة بالمائة ولكنها تقل بدرجة كبيرة عن هذه النسبة في الأماكن التي تخلو منها شرطة المرور. ان هذه التصرفات لا يمكننا ان نفسرها إلا بوجود هاتين الشخصيتين، ففي حالة يظهر السائق كأنه يحترم قواعد الطريق وفي الثانية هو حر يعمل ما يشاء ويسوق بحسب رغبته لأنه بذلك يحقق ما تريده نفسه ويحقق مبتغاه.

ان ازدواجية وتوازن الشخصيتين تمكن الإنسان من عيش حياة أكثر مقبولية وربما أسهل، ان تلك الازدواجية في الشخصية تعطي الحرية للإنسان لكي يختار الشخصية الأكثر ملاءمة له في الظروف المختلفة فهو مرة يتعامل مع الأمور بحسب شخصيته الداخلية ومرة أخرى بحسب شخصيته الخارجية.

لو ان كل إنسان يسير بحسب شخصيته الداخلية لكان هنالك هرج ومرج وانفلات في كل شيء، أما إذا سار بحسب شخصيته الخارجية فانه سوف يحس بضيق وضغط واضطهاد، أما إذا وازن بين الاثنين ففي مكان يضطهد وفي آخر يطلق لنفسه عنان لجامها فيحس براحة واستقرار، فهو ليس مضطهدا كل الأوقات ولا حرا في كل الأوقات.

ان كلتا الشخصيتين لها جميع مكونات الشخصية فهنالك النفس وهنالك العقل والحاجات وتأثير الهوى والمغريات، فالشخصية الداخلية تكون متأثرة بالإرادات الداخلية التي تسعى إلى تحقيق كل شيء وأفضل شيء للإنسان بمعزل عن الإرادات الخارجية. أما الشخصية الخارجية فإنها تماري

وتداهن وتطيع وتثور وتعاند الإرادات الخارجية، ومن يتمكن من التوفيق بين تلكما الشخصيتين هو المتوازن نفسيا.

أفضل مثال يمكن ان أقدمه هو صدام، كانت شخصيته الداخلية متمحورة حول حب ذاته وحب السلطة اذ كان منذ شبابه شقاوة يفرض إرادته على الآخرين وبالقوة. قصة خصامه مع مدرسه اقرب مثال: لقد عاقبه المدرس وضغط عليه مدير المدرسة لكي يجبره على الاعتذار من ذلك المدرس، ولم يرق ذلك لصدام فذهب ليلا وهو راكب على جواده إلى بيت المدرس ودق الباب، خرج اخو المدرس فضربه صدام طلقة أصابت ساقه. فما كان من ذلك المدرس إلا ان هرب من تكريت إلى بغداد خوفا على حياته من ذلك المجرم.

ان صدام يعد ان القوة هي المصدر الوحيد للأحقية فطالما يملك تلك القوة فان كل ما يريده مباح، ولقد استعمل هذا الأسلوب من اجل وصوله إلى السلطة، فشارك بمحاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، ثم تدرج في الحزب، وناقض نفسه بان أصبح كلبا مطيعا للبكر لكي ينال رضاه ومساندته، ان ذلك التودد والإخلاص الظاهري وجسارته فضلاً عن قرابته للبكر شفعوا له وأوصلوه إلى السيطرة على كل مقاليد العراق.

استغل ثقة البكر فيه من اجل السيطرة على الحزب فقتل من قتل من رفاقه واعتقل من اعتقل وفسح المجال لهروب أو طرد الآخرين، لقد شكل قوة أمنية سماها القوة الصدامية ظاهرها حماية الحزب وباطنها قوة قهر على الحزب وبالتالي الدولة. لقد احكم بذلك سيطرته على الحزب وعلى كل من تبقى من قيادات وملاكات الحزب بحيث ربط حياتهم ومصيرهم به، فلوثهم بالمال وبالجرائم إلى ان استتب الأمر له وأصبح القائد الأوحد فنشر

الرعب في قلوب كل العراقيين، ان معظم هذه الأعمال التي قام بها كانت مدفوعة بما تمليه عليه شخصيته الداخلية.

أما شخصيته الخارجية التي حاول الظهور بها أمام الناس والحزب فكانت مختلفة، اذ كان يظهر طاعة وولاء منقطع النظير للحزب وللبكر، وكان يظهر على انه إنسان بسيط وحنون وكريم فأغدق على من يتملق له ويمدحه، بكي على زملائه من قيادات الحزب الذين أعدمهم ليظهر للناس وللحزبين على انه حنين رقيق القلب ويحبهم، فهم رفاق الدرب ولم يعدمهم إلا خوفا على الحزب والثورة، كان يذهب إلى بيوت الناس ويجلس معهم على انه رقيق القلب وحبيب الفقراء.

وقصة تنحية عبد الكريم الشيخلي وصالح مهدي عماش مثلان اخران (اخبرني بهذه القصة احد أقرباء الشيخلي). طلب صدام انعقاد مجلس قيادة الثورة من دون إعلام صالح مهدي عماش أو عبد الكريم الشيخلي، بالمناسبة الاثنان كان لهما قاعدة شعبية كبيرة في الحزب، فقال صدام: ان الاثنين قد تماديا في استهتارهما في الأموال والنساء وان الشعب العراقي ما زال يتذكر مآسي انقلاب شباط وباعتقاده انه لا بُدَّ من العمل على إيقافهم عند هذا الحد، صار هنالك لغط فطلب صدام من البكر ان يمنحه الفرصة لكي يحل تلك المسألة من دون إحداث أي خلل في الحزب ووافق المجلس على ذلك.

اجتمع الثلاثة: صدام والشيخلي وعماش في مطعم فاروق في المنصور (وأذيع هذا على شاشة التلفاز) وفي هذا الاجتماع قال لهم ان مجلس قيادة الثورة ناقش مسألة الشكاوى المقدمة ضدكما وأراد اصدار أمر بإقالتكما ولكني وقفت حائلا دونه ولم اسمح بذلك، ولكني اقترح ان تأخذا إجازة

شهرا أو شهرين إلى ان تهدأ الأوضاع وبعد ذلك ترجعان، الظاهر أنهما قد اكلا الطعم (ربما لثقتهم به وبسبب الصداقة الطويلة بينهما) وبالفعل في اليوم التالي سافرا إلى خارج العراق. وبمجرد خروجهما صدر أمر بتعيينهما سفيرين الشيخلي في ألمانيا وعماش في روسيا.

عماش استمتع بالحياة في روسيا فنسي العراق ونسي موقعه في الحزب أما الشيخلي فلم ينسَ موقعه ولا الخدعة والطعم الذي اضطره صدام إليه، هذا بالرغم من ان الاثنين كانا كأخوين في علاقتهما. فاستمر الشيخلي بالاتصال بمؤيديه في الحزب.. بعد ذلك عين ممثلا دائما في الأمم المتحدة ولكن لم يهدأ له بال، فرجع إلى العراق من دون موافقة الدولة (صدام) وكان مصيره ان قتل.

وتظهر هذه الحادثة شخصية صدام الداخلية لتقول بتصفية جميع المناوئين حتى ولو تطلب قتل وتصفية إخوة الدرب والنضال (عملها مع ابن خاله عدنان خير الله)، وشخصيته الخارجية تظهر همه وحرصه على سمعة الحزب، وتفانيه في خدمة الحزب وخوفا على الصداقة والاخوة الحميمة التي يكنها للشيخلي وعماش.

وفي الحرب مع إيران كانت الإرادات الخارجية أجمعها بجانبه، فالعراقيون منقادون له والحزب بإمرته والعرب مشجعون له والأميركان والغرب معاضدون له ومشجعون ومدافعون عنه، فالتقت شخصيتاه معا فلا يوجد هنالك تعارض، ولكن عندما اضطر إلى إيقاف الحرب برغم الخسائر الفادحة التي عانى منها العراق (بشريا واقتصاديا واجتماعيا) خرج ليعلن انتصاره، كيف يكون هذا انتصارا وكل المؤشرات تدل على أنها خسارة فادحة لم يجنِ منها العراق غير الدمار والموت، لقد كان انتصارا لأنه بقي

الحاكم الأوحد في العراق، فطالما انه باق في الحكم فذلك هو الانتصار بعينه.

ودخل الكويت معتقدا ان الغرب والعرب ما زالوا أصدقاءه ولكن هذه المرة انقلبت الآية فأصبح عدوا للكل بعد ان كان صديقا للكل، فبذلك عادته الإرادات الخارجية، وهنا لا بُدَّ للشخصيتين من ان يختلفا. ان تجربة حرب إيران أعطته الثقة بأنه قوي ولا احد قادر على دحره وبصورة خاصة بعد تطوير جيشه للصواريخ و تنضيب اليورانيوم، فلقد أحس بأن لا قوة يمكن ان توقفه، وشجعه الغرب على ذلك بأن وصفوا جيشه على انه جيش مجرب وله قدرات عسكرية هائلة، حتى كنا نظن بان العراق قد أصبح دولة عظمى تخاف منها حتى أميركا، فتمادى، وبتماديه ذلك وقع في الفخ، رفض أية محاولة لجعله ينسحب من الكويت، وشجعوه على ذلك، وكانت النكسة الكبرى بان طرد من الكويت. وهنا عندما انقلبت الآية أصبح يبحث عن صديق ولا يرى له أثر فبرزت شخصيته الخارجية وطغت على شخصيته الداخلية، اخذ يغازل هذا وذاك فأصبح ذلك الفاجر (وقصصه كثيرة في هذا المجال) وبين ليلة وضحاها قائدا للحملة الإيمانية، ومن (عظم إيمانه) أمر بكتابة القرآن بدمه لكي يجلب له عطف القوى الدينية وبالخصوص الوهابية التي انتشرت في العراق في ظروف العوز الاقتصادي الذي مر بها البلد وذلك بواسطة دفع رواتب شهرية لكل من ينتمي لهم.

إذا ان التفاعل بين الشخصية الداخلية والخارجية هو ديناميكي لكي يحقق اكبر مكسب أو يتعرض الإنسان إلى اقل خسارة.

ان تملك الإنسان لتلكما الشخصيتين هي التي تجعله يعيش بصورة طبيعية وتمكنه من التعامل مع كل الإرادات، أما الإنسان الذي عنده خلل أو

ضعف في إحدى الشخصيتين لا بُدَّ له من ان يعاني ما نسميها بالأمراض النفسية، فلذلك نجد ان الإنسان ربما يسعى إلى ان يعوض هذا الخلل في ان يتعود على المخدرات بكل أنواعها وحتى السكائر أو ان تتكون عنده عادات أخرى.

اسباب ظهور الشخصيتين

ان سبب هاتين الشخصيتين نابع من الحاجة إلى إرضاء النفس وإرضاء الإرادات الخارجية في آن واحد، ان ذلك يحدث بصورتين:

الصورة الاولى: طاعة الإرادات الخارجية:

ليس في كل الأحيان أو/و كل الإرادات الداخلية وطموحات النفس مقبولة من الإرادات الخارجية ففي هذه الحالات لا بُدَّ للشخص من يبني شخصية يظهر بها إلى تلك الإرادات وتكون مقبولة منها وبنفس الوقت يملي إرادته ويحقق حاجاته. مثال على ذلك: ان الكثير من السياسيين يمارسون العمل السياسي على أساس من المصلحة الذاتية أما من اجل المال واما السلطة والنفوذ واما الشهرة، ولكن بما انهم لا يتمكنون من ان يطرحوا ويعرضوا تلك المصالح للناس على انها السبب الاول والأساسي في عملهم السياسي، فلا بُدَّ لهم من طرح شخصيات أخرى يبينون فيها حرصهم على البلاد ومصالح الفقراء والمساكين. في العالم الغربي نرى جليا مثل هكذا ظاهرة، فترى ان السياسي يخرج في أيام الانتخابات في الشوارع والاسواق فيصافح هذا ويقبل ذلك الطفل ويكلم هذا وذاك، ولكن بعد ان ينتخب لا يراه احد من هؤلاء الذين صافحهم وكلمهم ولا الأطفال الذين قبلهم.

التقيت مرة باستراليا برئيس المعارضة النيابية فسألته عن رأيه برئيس الولاية الحالية، وكان جوابه صريحا ومباشرا، فأدهشني عندما قال: ما رأيي به؟ هو متمسك بالكرسي وانأ أريد ان أخذه منه، لم اسمع ذلك السياسي في أي وقت قبل أو بعد ذلك يقول القول نفسه في الاعلام أو أمام الجماهير، وإنما كان جلّ كلامه منصبا على إظهار نواقص وأغلاط رئيس الولاية، وبيان مشاريع المعارضة التي هي الأصح وهي التي ستجلب السعادة والرفاهية للولاية.

لقد قال رئيس وزراء استرالي سابق واصفا السياسيين على النحو التالي فيقول: لو طلبت شيئا من السياسي وقال:

نعم! فان ذلك يعني محتملا، وان قال
محتمل فهذا يعني لا، وان قال
لا! فانه ليس بسياسي
وإذا طلبت من امرأة وقالت
لا! فهذا يعني محتمل، وان قالت
محتمل فهذا يعني نعم، وان قالت
نعم! فإنها ليست سيدة محترمة

الصورة الثانية: نفاق الإرادات الداخلية للارادات الخارجية:

ان الإنسان يعطي لنفسه حقوقا لا يعطيها ولا يسمح بها للآخرين، ان شخصيته الداخلية تنفذ وتدعو إلى شيء وشخصيته الخارجية تنفذ وتدعو إلى شيء اخر، فهو يحارب الفساد وحقيقته انه فاسد، فهو يستغل اقرب فرصة سانحة له من اجل تحقيق مصالحه وعلى حساب مصالح الآخرين،

نجد ذلك في العراق، وبعد التحرير تحول الإنسان العراقي من حالة العوز إلى الرفاهية ومن الظلم إلى الحرية كما حصل على مكاسب كثيرة أخرى. ولكنه بدلا من ان يكون مثالا للتفاني والإخلاص لوطنه الذي انصفه بعد الحرمان السابق، أصبح يحارب حتى نفسه (سنشرح الأسباب في الفصل اللاحق).

استُغلت تلك الحرية ليس في البناء والنظام بل في العشوائية ومخالفة القانون، فمنهم من سار خلاف ضوابط الطرق، ومنهم من رمى الزبالة في اقرب مكان له، ومنهم من لم يؤدِ عُشر استحقاق وظيفته منه. الأمثلة كثيرة في هذا المجال والاهم من ذلك كله هو ان الجميع يشتكي من عدم كفاءة دوائر الدولة وهم يعملون كموظفين في دوائر الدولة ولا يؤدون واجباتهم بصورة صحيحة، ومنهم من يشتكي من الرشوة وهو يرتشي، ومنهم من يشتكي من التسيب وهو متسيب.

ان هذه الظاهرة ليست قاصرة على العراقيين فقط فان أي بلاد مهما كانت متقدمة أو متخلفة إذا ما غاب عنها القانون فأن الناس يستغلون ذلك في نشر الفوضى وعدم احترام حقوق وأملاك الناس، حدث هذا في أميركا وبريطانيا وبلدان أخرى.

الحاجة الى شخصيتين

يريد الإنسان ان يحقق لنفسه اكبر قدر من الفائدة والراحة وعدم التعب وفي الوقت نفسه يحقق كل حاجاته وفي ذلك يستعمل الشخصية الداخلية لتحقيق تلك الأهداف. فهو مثلا يعيش في مجتمع محافظ ولا بُدَّ له (حتى يعيش براحة في ذلك المجتمع) من ان يظهر إلى المجتمع بشخصيته

الخارجية التي تظهر للعالم على انه محافظ، ولكن بينه وبين نفسه أو عندما يريد تحقيق الحاجات التي لا يقدر على تحقيقها بالشخصية الخارجية يظهر بشخصيته الداخلية.

بالرغم من ان الشخصيتين موجودتان في الإنسان وفي الوقت نفسه ولكن عملية التوازن بينهما مستمرة طوال الحياة، فمرة يعمل بشخصيته الداخلية ومرة أخرى بشخصيته الخارجية، ان الإنسان المقتدر على هذا التناوب بين الشخصيتين يستعمل واحدة في ظروف معينة والثانية في ظروف أكثر مناسبة لها وهذا ما يجعله إنسانا سويا.

ان الذي أقصده بالسوي لا يعني ان يكون نافعا لمجتمعه، ولكن هو الإنسان الذي لا يعاني من ما نسميه (بالمرض النفسي)، ان مثل هكذا شخص يتمكن من الحياة بصورة نسبيا أسهل من الإنسان الذي يستعمل شخصيته الخارجية فقط التي يؤدي به إلى معاناة أمراض نفسية كثيرة بسبب عدم قدرته على استعمال شخصيته الداخلية.

بعض الناس لا يجيدون التعامل مع المحيط الخارجي والذي يتطلب استعمال أي واحدة من الشخصيتين بحسب الظروف، فبدلا من ان يتصرفوا بهذه الطريقة تجدهم في ظروف غير مناسبة يبرزون شخصيتهم الداخلية، ان ذلك ثابت عندما يسمون بالحمقى فأنهم يظهرونها عندما يجدون أنفسهم بموقف غير مناسب أو يزعجهم، فهم وعندما يغضبون تصدر منهم تصرفات غير معقولة او مقبولة من المحيط الخارجي ولكنها معبرة عن مكنونات نفسية وكما تريده شخصيتهم الداخلية، وكذلك فان الإنسان الذي يستهتر بالإرادات الخارجية يظهر شخصيته الداخلية أيضا.

صدام استعمل شخصيته الداخلية عندما أحس بان قبضته على الحكم وعلى البلد أصبحت من حديد ومن دون منازع، فقتل وظلم ونهب واستغل وحارب وتجرأ على رجال الدين السنة والشيعة، وتجرأ على رفاقه وأهل بيته، ولكنه لما اندحر في حرب الخليج الثانية أمام الحلفاء اخرج شخصيته الخارجية وبدأ يتعامل بصورة مختلفة في الأقل مع من كانوا اقوى منه، أما مع الشعب العراقي فانه قد استمر يتعامل معهم بشخصيته الداخلية، ان درجة استهتاره بهذا الشعب مكنته ان يقول: «لن اسلم العراق إلا أرضا بلا بشر» وهو بذلك يصرح على ان حياة العراق والعراقيين مرهونة بحياته ووجودهم بوجوده.

وهنالك أناس يستعملون شخصياتهم الاثنتين كل في موقف من المواقف بحسب الإرادات المفروضة في تلك المواقف.

ان الأسباب في تكوين تلك الشخصيتين هما أوّلاً الحاجات وثانياً الإرادات. ان الإنسان في سعيه لتحقيق حاجاته والتعامل مع الإرادات لا بُدَّ له من ان يبرز شخصيتين لكي تتلاءم مع تلكم الحاجات والإرادات. أما الإنسان الذي يكون مسيطرا على حاجاته ويجعلها في مدار السمو وكذلك يتعامل مع الإرادات الخارجية بحرية لا يصدر منها أذى بل خير للناس فهو لا يخاف ولا ينصاع إلى الإرادات الظالمة أو القوية لأنها قوية، مثل هكذا إنسان تكون كلتا شخصيتيه متشابهتين فيظهر بشخصية واحدة داخلا وخارجا.

ان عليا عليه السلام قال[١٥٤]: «ان الحق لم يبق لي صاحب» فهو لم يجامل الظالم حتى ولو كان عنده القوة والسطوة وعلى حساب المظلوم حتى ولو كان ضعيفا، وهو يقول[١٥٥]: «الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له.

والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»، فساوى بين الناس في العطاء فلا القريب ولا القوي ولا النبيل يأخذ أكثر مما يستحق أخذه، فحاربه أصحاب المصالح أو من لهم طموحات، وبما ان هؤلاء يملكون اعلى الأصوات بسبب قدراتهم المتعددة فلقد تركوه كلهم وآلبوا الناس عليه ولم يبقَ معه إلا من ليس له سطوة أو مال أو قوة، ولم يتوقفوا عند ذلك بل حاربوه حربا ضروسا حتى استشهد مدافعا عن الحق، لانه لم يملك الا شخصية واحدة وليس شخصيتين واحدة يعيش بها وواحدة يقدمها للمجتمع.

ان دينه وخلقه الإسلامي المحمدي لم يتغير على مر حياته، فلما احتل معاوية[٧٣] الشريعة منع الماء عن جيش علي ولكن لما احتل جيش علي الشريعة سمح لجيش معاوية ان يأخذ ما يحتاج إليه من الماء، وعندما[١٥٦] وجد درعه عند اليهودي، أخذه إلى القاضي ولم يقاضه هو، حكم القاضي ببراءة اليهودي، والقاضي عالم بان الذي يقف أمامه هو علي أمير المؤمنين وخليفة المسلمين. برغم انه كان حاكما على دولة مترامية الأطراف وراتبه عال لم يكن يأكل إلا الخبز والماء ولم يلبس إلا ما رقع.

فلم تكن هنالك حاجات تدنيه بل سما عن حاجاته ولم تكن تحكمه أي إرادة خارج نطاق الإسلام المحمدي، فلم[١٥٧] يخف انهزام المسلمين وتخليهم عن رسول الله ﷺ حينما ثبت هو وثلة من الصحابة (بعدد أصابع اليد) يقاتل دفاعا عن الرسول والإسلام. ولم يخف عمر بن ود العامري[١٥٨] (قاتل الابطال) الذي ارتعد منه خوفا كل المسلمين. ولم يخف خيبر[١٥٩] بقوتها وبتحديها، ففتحها بعد ما فشل الكثير من الصحابة في فتحها.

لقد سمح لمناوئيه وأعدائه الحرية الكاملة، والخوارج[١٦٠] خير دليل على ذلك خرجوا عليه ولم يقاتلهم ، فهم أناس يملكون رأيا واجتهادا مختلفا عنه وهذا لا يتطلب محاربتهم برغم إنهم أساؤوا إليه والى سلطانه ولكن لما هاجموا الناس وقتلوا وعاثوا في الأرض فسادا حاربهم.

فيكون علي مثالا حيا لإمكانية تحقيق الإنسان لحالة من السمو تكون فيه الشخصيتان شخصية واحدة.

ان هذا السمو الإنساني مرتبط بقدر كبير بمكانة الحاجات في مدارات حب الذات فضلاً عن طاعة الإنسان للإرادات الخارجية الظالمة واللاإنسانية. ليس كل الناس يمكنهم التخلي أو التنازل عن بعض الحاجات أو كل الحاجات وليس كل الناس لهم القابلية على الوقوف ضد الإرادات القاهرة أو الإرادات الظالمة، فلذلك نتوقع ان يكون أكثرية الناس من النوع الذي يخلق توازنا فيه نوع من السمو وفي الوقت نفسه الحفاظ على المصلحة الذاتية، وفي مثل هكذا حالة نجد ان هنالك توازنا بين الشخصيتين الداخلية والخارجية.

ان الإنسان الذي يجد نفسه غير قادر على إبراز شخصيته الداخلية بسبب الإرادات الخارجية فهو دائما ما يظهر بشخصيته الخارجية، فمثل هكذا شخص لا بُدَّ ان يعاني من ما يسمى بأمراض نفسية. في احدى السنين وعلى اذاعة استرالية خرجت إحدى بنات الليل في مقابلة على الهواء وسألها المذيع اخبرينا عن نوعية عملائك، فقالت هنالك الكثير من عملائها من المحامين والقضاة والأطباء والمدراء، وذكرت ان لهم طلبات عجيبة وغريبة كأن يطلب منها احدهم ان تضع لجاما في فمه وتضربه بالسوط على

عقبه، والاخر يطلب منها ان تعامله ككلب والاخر يطلب منها ان تتبول عليه.

ان كل واحد من عملائها ممن يظهرون هكذا شخصية، يحس بالأمان بحضرتها من حكم وتأثير أي إرادة خارجية، وتلك الحالة تعطيهم شجاعة وحرية لإبراز شخصيتهم الداخلية التي في حياتهم اليومية لا يسمحون لها بالظهور أمام المجتمع لكي يحافظوا على مراكزهم ولا يفقدون احترامه ووقارهم أمامه. اما أمام المجتمع فان كل واحد منهم يظهر شخصية اخرى مختلفة الا وهي الشخصية الخارجية، ان الشخصية الداخلية غير مسموح لها بالظهور إلا عندما يحس بالأمان فإما ان تكون بينه وبين نفسه واما في المواقف التي يجدها مناسبة (مثل موقفه مع بنت الليل).

ان الإنسان يظهر شخصيته الداخلية لما يجد ان الظروف المحيطة به ملائمة كما في المثال السابق، وكذلك يمكن ان تبرز في أحلامه لان الحلم لا يكون مرتبطا بإرادات خارجية فيرى نفسه حرا في التصرف كما يشاء بحسب شخصيته الداخلية.

ان وجود الشخصيتين يمكن ان يفسر تصرفات الناس المزدوجة كما ذكرنا سابقا عن الناس الذين يقولون: «يا ليتنا كنا معكم لنفوز فوزا عظيما» ولكن في الوقت نفسه لا يتبعون الاصلاح الذي جاء به الحسين.

فهم في يقظتهم أمام المجتمع لا بُدَّ من ان يظهروا التزامهم بالإرادات الخارجية أو حاجة الانتماء أو أي حاجة أخرى، فيعلنون مؤازرتهم للحسين وذلك بادعائهم بأنهم مستعدون لتقديم حياتهم ثمنا لذلك الارتباط، فهم بذلك يظهرون شخصياتهم الخارجية. ولكنهم يظهرون شخصياتهم الداخلية

التي تثمن الحياة أكثر من تثمينها لنصرة الحسين وذلك بتصرفات مخالفة لما دعى اليه الحسين من اصلاح.

ان الإنسان الذي عنده خلل في التوازن بين الشخصيتين بسبب قهر الإرادات الخارجية يعبر عن ذلك الخلل بعدة وسائل كأن يبرزه على شكل حالة من الغضب والهيجان والثورة وعلى ابسط الأشياء التي يمكن ان تحدث له، فربما إذا سمع كلمة لا تعجبه أو تعليق لا يعجبه أو إنكار لعمل جيد قام به ربما تحسسه بان حاجات الأمان مهددة فتبرز شخصية داخلية غير مجاملة للإرادات الخارجية واقل ما يمكن القول عنها بأنها غير منضبطة.

أو ربما تتجلى على شكل انعزال وسكوت وكآبة أو ربما تتجاوزها إلى ما يسمى بانفصام الشخصية، ان ذلك الانفصام بالشخصية هي طريقة يستعملها الإنسان لكي تمكنه من مواجهة الإرادات الخارجية مرة بجزء من شخصيته الداخلية المكبوتة وأخرى بكل شخصيته المكبوتة.

هنالك من يسعى إلى المخدرات بكل أنواعها من اجل ان يخدر نفسه لكي يجعل نفسه غير قادرة على ان تعي ضغوط الإرادات الخارجية فبذلك يتمكن من تحقيق الهدف السابق نفسه في إطلاق شخصيته الداخلية. ان المخدرات تعطيه الفسحة من الزمان والمكان التي تمكنه من العيش في بحر من الخيال مصحوب بالتخلي عن الإرادات الخارجية وبالتالي من الالتزام والتقيد بالشخصية الخارجية، ولكي يحقق انطلاقا لنوع من الحرية الذاتية وبالتالي إبراز الشخصية الداخلية، إنه يعتقد بأنه بتلك المخدرات قد خلق لنفسه بعض التوازن الاصطناعي يمكنه من تحقيق (عيشة طبيعية).

انا لا أميل إلى إعطاء أوصاف معينة للشخصية فأقول بان هذا انطوائي وذلك منفتح وهذا لطيف وذلك مقرف، ربما تكون تلك الصفات ظاهرة

على كل واحد منهم ولكن تلك الصفات لم تأت من عبث ولكن أتت نتيجة قناعة ذاتية مدفوعة بالتوازن بين الشخصيتين، فمن يكون انطوائيا ربما يكون إنسانا عنده نقص في الشخصية الاجتماعية اما بسبب المجتمع واما بسبب داخلي نابع من الإنسان نفسه. فطالما ان الأمر كذلك فعليه ان يبتعد عن المجتمع قدر الإمكان لكي يعوض ذلك الخلل. ومن يكن منفتحا فانه ربما لا يجد هنالك موانع ذاتية فلذلك لا تكون إراداته الداخلية ممانعة للفصح عن شخصيته الخارجية، فلا يوجد هنالك حرج في ان يقابل الناس ويطرح أفكاره ويشاركهم إياها، وهكذا بالنسبة إلى أية صفة أخرى يوصف بها إنسان.

ان الإرادات الداخلية هي الوحيدة القادرة على ان تختار أفضل السبل التي يجب ان يتعامل الإنسان بها مع المجتمع، فمرة تقول باستعمال الشخصية الخارجية ومرة أخرى تفضل الشخصية الداخلية، فلذلك نقول: ان هنالك احتمالية للتغيير متى ما رأى الإنسان ان هنالك ظروفا موضوعية تمكنه من التغيير والتحول.

الإرادات المحركة للشخصيتين

لكل شخصية هنالك مجموعة إرادات محركة لها، وفي ما يلي تفصيل ذلك:

الإرادات الداخلية المحركة للشخصية الداخلية

نحن قلنا بأن الإرادات الداخلية هي نتاج التفاعلات بين العقل والنفس والحاجات وهنا سوف اخذ كل واحدة منها على حدا:

أوّلاً: الحاجات:

ان تقنين الحاجات أمر غاية في الأهمية لأسباب تكلمنا عليها سابقا وأعيد الكلام عليها هنا مرة أخرى، ان الحاجات إذا ما انتقلت من المدارات العليا إلى المدارات السفلى لا بُدَّ من ان تكون مصاحبة إلى انحطاط إنساني. فالإنسان الذي يعيش بمورد مالي يكفيه لسداد حاجاته الإنسانية يمكن ان يعيش سعيدا، ولكن متى ما تطورت طموحاته للمزيد فلا بُدَّ من ان يحدث خبثا، فهو يريد المزيد ولا بُدَّ له من ان يعمل من اجل الحصول عليه، ان ذلك الخبث يكون نتاج الوقت الإضافي الذي يجب عليه ان يصرفه في عمله الثاني أو في إيجاد مورد ثان. ان ذلك المورد الإضافي إذا يتطلب منه ان يصرف وقتا وجهدا إضافيين تكون عواقبه إرهاقا ربما تؤثر في علاقته مع عائلته وذلك بان تقلل من قوة ارتباطه بها أو ربما لا يكون عنده وقت أو باق من روح لكي يتعامل معهم بحسب ما يريدون.

وإذا ما كانت تلك الحاجة إلى المزيد من المال تدفعه إلى طرائق ملتوية بان يرتشي أو يسرق أو يتاجر بالمخدرات فان ذلك سيأتي له بخبث اخر وبألم اخر ومن نوع جديد، لأنه قد خالف إرادات خارجية لها القوة والقدرة على إجباره لكي ينصاع لإرادتها، ويجب عليه ان يبحث عن وسيلة أو طريقة تمكنه من التعامل معها، واقل ما يمكن ان تجلب له تلك الوسيلة هو القلق والاضطرابات.

ان الذي يبعد حاجاته من المدارات السفلى إلى العليا ربما يجد هنالك معارضة من أهله، مثلا يطالب بالمزيد من المال وهنا لا بُدَّ من ان يتعامل مع مشكلات الحصول على المزيد من المال والمشكلات المحتملة مع أهله.

ان تغير الظروف التي تنقل الإنسان من حالة رفاهية إلى حالة اقل من ذلك ربما تخلق عنده قلقا واضطرابا شديدين. سردت ما حدث بعد استلام

البعث للحكم في شباط الأسود من سنة ١٩٦٣ وتحطم الاقتصاد العراقي والتجارة في سوق الشورجة بالذات، ان ذلك أدى ببعض التجار (ممن خسروا مالهم وأعلنوا إفلاسهم) إلى الانتحار، ان القصة السابقة مثال اخر لتأثير النقص في الموارد التي تكون سببا في الانتحار.

وهنا تبرز أهمية التوازن، ان ضبط التوازن في أي حاجة للإنسان يمكن ان تكفيه شر مردوداتها وفي الوقت نفسه يرضي الإرادات الخارجية. ليس الجميع عنده القابلية لتحقيق ذلك التوازن فمنهم من لا قدرة له على تحقيقه حتى ولو لم يكن مسؤولا عن احد غير نفسه فكيف ان يحقق ذاك وهنالك إرادات شتى يجب ان يتعامل معها. ان المثل الذي يقول: «لا تفرح بما أتاك ولا تحزن على ما فاتك» هو خير دواء لتلك الحالات لان الذي عنده فلا يزهو ويفتخر به ويشكر الله على نعمته وإذا ما فقده فلا يحزن عليه لان الذي أعطاه ذلك الملك قد أخذه مرة أخرى، فمن يؤمن بذلك تكون الحاجات عنده بحسب ما متوافر فان زادت لا تحط من إنسانيته وان قلت لا تحط من إنسانيته.

ان الحياة الزوجية يجب ان تبنى على اتفاق بين الزوجين في الحاجات التي تهم الزوجين لان مردودات تلك الحاجات لا تكون ظاهرة في بداية العلاقة الزوجية ولكنها تبرز بمرور الوقت مما يؤدي إلى توسيع الهوة بين الاثنين وبالتالي تكون سببا في خلق مشكلات في ما بينهما. فالحاجة المادية والطموحات الذاتية والحاجة الجنسية والأولاد وتربية الأولاد والمستقبل، والوقت الذي يخصصه كل منهما للأخر، علاقتهما مع الأصدقاء و العوائل الأخرى وحتى العلاقات مع الأهل، كل هذه الأمور يجب ان يكون فيها اتفاق مسبق لكي تكون العلاقة بين الاثنين أكثر استقرارا ومتعة. فمثلا إذا

كان الاثنين يريدون بناء غنى فان الاثنين يعرفون ان عليهم ان يضحوا بالوقت الذي يجلب الغنى أو ربما للفساد الذي يمكن ان يتعرضون له أو يفعلوه من اجل جلب ذلك الغنى، أما إذا كان احدهم يريد الغنى وليس مستعدا لمشكلاته والأخر يرده ومستعد له فلا بُدَّ ان يجلب هذا الاختلاف مشكلات.

ولكي تكون تلك العلاقة ناجحة يجب ان تكون الشخصيات الداخلية هي المقياس في مقدار التطابق بين الاثنين، لان إذا ما ظهر احدهم بشخصيته الخارجية والثاني بشخصيته الداخلية فلا بُدَّ لهذا الاختلاف من ان يخلق مشكلات لاحقة، لان حقيقة كل منهما مختلفة عما قدمه أصلا، والشيء نفسه يمكن ان يحدث إذا ما اظهر كل منهما شخصيته الخارجية فقط.

ثانياً: النفس:

تعمل النفس بحسب متطلبات غرائزها فهي تعمل كل جهدها من اجل تحقيق تلك الغرائز وبذلك تحاول ان توفي كل الحجات من دون تفكير وتدبير خلافا لما هو الحال مع العقل، فلو كانت كل الأمور الحياتية مرهونة بالنفس وحدها لكان عالم الإنسان حاله حال عالم الحيوان فلا بناء ولا تطور ولا تقدم ولا حضارات. السبب في ذلك يرجع إلى ان النفس بطبيعتها الغريزية ناقصة ومعيوبة وليست كاملة، إنها لا تستطيع ان ترتقي أية درجة في سلم الكمال الإنساني إلا بوجود العقل معها لكي يديرها ويدبرها ويساعدها على صعودها بذلك السلم.

شخص الله عز وجل ذلك السلم بأربع درجات:

الدرجة السفلى والأولى: هي عندما تكون النفس أمارة بالسوء[١٠٨]

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ان النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ ان رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وهي النفس التي تسكن حاجاتها في مدار الانحطاط وبكلمة أخرى عندما تكون حيوانية وتستعبد العقل في تدبير أمورها، فهي بذلك لا تسمح للعقل ان يفرض عليها أي قرار أو إرادة ما لم تكن مرضية لغريزتها بحسب أمرها. فالعقل هنا عبد للنفس، ان استعباد العقل يجعل منه أداة طيعة بيدها فتديره حيثما تشاء وأينما تشاء وبما تشاء.

كيف للنفس ان تكون أمارة بالسوء وبوجود العقل، ان النفس من دون العقل ستكون حيوانية ومحكومة بالحاجات فقط فان جاعت أكلت ولما تشبع لا تطلب المزيد. بوجود العقل الذي يعطيها قوة إضافية لا قدرة لأي حيوان على مثلها، ان تلك القوة تجعلها لا تسعى إلى فقط الاكتفاء من أية حاجة بل تدفع إلى الحصول على المزيد من الحاجات التي تهواها، وبما ان هذه النفس أمارة بالسوء فهذا يعني ان الحاجات ساكنة في مدار الانحطاط مما يجعلها مشدودة بقوة إلى النفس، نرى في أيامنا هذه ان الإرهابيين لا يكتفون بالقتل فقط ولكن وتعبيرا عن حقد دفين ولا إنسانية بدأوا يتفاخرون بأكل قلوب وأكباد المقتولين، فلم يعد القتل كافيا بالنسبة اليهم.

وإذا ما ناقشنا حاجة التملك فمن دون العقل يمكن ان تقبل بملكية بسيطة ولكن مع العقل تخترع طرائق وتستعمل وسائل كثيرة من اجل الحصول على المزيد.

وتأتي بالدرجة الثانية: النفس اللوامة(١٤١) ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

وهي التي تسكن حاجاتها في مدار الانحطاط الجزئي، فهي تعطي العقل فسحة لكي يشارك في تحقيق الحاجات ولكنها فسحة مقننة وبشدة في صالح النفس، فهي ان ارتكبت سوءا تمشي به ولكنها تندم بعد ان تنتهي فتقول: يا ليتني لم افعله ولكنها تعود وتفعله مرة أخرى.

وفي الدرجة الثالثة: تأتي النفس الآمنة المطمئنة(١٤٢) ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾.

وتكون حاجات هذه النفس ساكنة في مدار السمو الجزئي فهي تعطي العقل مجالا اكبر لتقرير مسار الإنسان، لذلك هي اسمي من النفس اللوامة وتجعل العقل مدبرا في كل الأحوال ولكن بما يرضي النفس وبما لا يحط من سموها كثيرا.

ثم الدرجة الرابعة: هي النفس الراضية المرضية(١٤٣)

(ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)

إنها أسمى النفوس ويكون فيها العقل هو القائد الأوحد لتلك النفس، والنفس تكون قد تسلمت وسلمت قيادها بيد العقل، وفي هذه الحالة تكون الحاجات ساكنة في مدار السمو، فتكون النفس راضية بما يأتيها ومرضية مما يأتيها. يقول ابراهيم بن الادهم وكان ملكا ثم تخلى عن ملكه ليقضي حياته في العبادة والتفقه بالدين(١٦١) "لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف".

ان تلك الدرجة غاية في السمو ولا يستطيع أو لا يحاول كل إنسان الوصول إليها لأنها تعني محاربة النفس وترك معظم الحاجات غير الأساسية.

وربما يسأل سائل: كيف للنفس ان تسلم قيادها إلى العقل بتلك الصورة المطلقة، ان ذلك لا يحصل بجرة قلم وإنما تحصل بصورة تدريجية لأنه لا بُدَّ للنفس من ان تتدرج بالتهذيب من أمارة بالسوء إلى اللوامة إلى الآمنة المطمئنة حتى تصل إلى الراضية المرضية، فهي بكل مرحلة من المراحل تشعر بالسمو وترضى به وتقتنع به فتريد المزيد، أما النفس التي لا تريد أو تعاند هذا التهذيب فإنها تأخذ منحى مخالفا لكي تبقى في حالة واطئة من السمو أو حالة عالية من الانحطاط.

لقد كان هنالك وعلى مر العصور مصلحون من رسل وأنبياء وصالحين يعدون مثالا إنسانيا متميزا في تفوق عقولهم على نفوسهم لكي تسموا تلك النفوس وتصل إلى درجة النفس الراضية المرضية. لقد كان بنو مروان دعامة رئيسة من دعامات حكم الأمويين، واسهموا مع بقية الأمويين في قتل وسبي ونهب وهدر حرمة الحسين وأهل بيته وبالتالي حرمة الرسول صلى الله عليه وآله، ولقد عاصر وعاش الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام[١٦٢] آلام تلك المأساة لحظة بلحظة، ولكن بعد ثورة أهل المدينة على الأمويين وفرار مروان ابن الحكم من المدينة خبأ عائلته في بيت الإمام زين العابدين وهو بدوره تقبلهم قبولا حسنا وحماهم. لقد حاربت السيدة عائشة[١٦٣] الإمام عليا عليه السلام وبعد ان انتهت الحرب الذي قتل فيها الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أرجعها علي عليه السلام إلى المدينة بحماية أخيها وأربعين امرأة متنكرات بصور رجال، وهي معززة مكرمة حماية لها ولحرمتها.

ان النفس معرضة للانتقال من درجة إلى درجة أخرى وذلك لأنها بحد ذاتها ضعيفة وناقصة عقل، فإذا ما تغلبت الأهواء والمغريات على النفس

فان ذلك سوف يؤثر بدوره في العقل ليعمل بما ترضى النفس فتنزلق من السمو إلى الانحطاط. لذلك ان النفوس ليست ثابتة والنفس التي تريد ان تسمو لا بُدَّ لها من تغليب العقل كما وانه لا بُدَّ ان تكون هنالك محاولات مستديمة للتغلب على الحاجات والإرادات التي تؤدي إلى الانحطاط.

ان خير مثال على تحول النفوس من حالة إلى حالة ما يدلنا التاريخ عليه، ان العديد من أصحاب رسول الله ﷺ انحازوا إلى الباطل ضد الحق رغبة في الحصول على مكاسب مالية وعلى حساب المصلحة الإسلامية[١٦٤]، وفي الجانب الآخرفبعد ان هوى ابن ملجم بسيف مسموم على رأس علي عليه السلام، وقع صريع الأرض وهو يقول: «فزت ورب الكعبة» ولا ادري ربما ان قوله هذا يدل على فرحه بأنه قد قهر نفسه بعقله وجعلها راضية مرضية وقد أيقن من الموت وهو على ما كانت نفسه عليه طوال أيام حياته راضية مرضية.[١٦٥]

هنالك الكثير من الأدعية التي يتوسل الإنسان بها إلى الله لكي يعطيه حسن العاقبة والتي تعني ان تسمو نفسه ولا تنحط فبذلك يكون ثواب ذلك الإنسان رضا الله وجنات الخلد.

ان كل درجة من تلك الدرجات تدفع الإنسان بخط واتجاه معينين: فالنفس الأمارة بالسوء تدفعه لكي يعد ان كل شيء مباح وحلال له طالما تكون نتائجها مكاسب شخصية: فالسرقة حلال لان ذلك يوافر المال، والقتل حلال لان ذلك يثبت قوة القاتل، والزنا حلال لان ذلك تعطي المتعة، والظلم حلال لأنه يثبت السلطة... الخ.

وكلما سمت تلك النفوس كلما تصبح الحرمات مصانة أكثر، وما ان تصل النفس إلى ان تكون راضية مرضية حتى يتحول كل شيء الى حرام أو غير مستحب إلا بما يبقي الإنسان حيا وبصحة جيدة ولا يضر بنفسه.

ان عملية التسامي هذه ليست مقصورة على الدين الإسلامي فقط وإنما نراها في الأديان الأخرى، فمثلا في الديانة المسيحية تمارس الرهبانية حيث يعتزل الرهبان والراهبات بهرج ومغريات الدنيا وحاجاتهم فيبتعدون عن كل ما يذكرهم بها ويركنون أنفسهم في أماكن نائية ومعزولة عن كل شيء صارفين جل أوقاتهم في الصلاة والعبادة ويخدمون أنفسهم بأنفسهم، وهم بتلك الرهبانية ينأون بأنفسهم عن ان تكون نفوسا أمارة بالسوء، وكلما تعمقوا في عباداتهم وانقطاعهم عن الدنيا كلما تطورت أنفسهم أكثر وهم بذلك طامحون إلى الوصول إلى درجة النفس الراضية المرضية.

ليس كل القساوسة يتجهون نحو الرهبانية من اجل ذلك السمو ولكن هنالك من يترك مباهج الحياة وزخرفها من اجل خدمة الإنسانية وها هي الأم تريزا(١٦٦) أوقفت كل عمرها في خدمة مرضى الجذام فتركت موطنها الأصلي وعاشت معهم في الهند، تعمل على إطعامهم وتطبيبهم.

ان الرهبان البوذيين(١٦٧) هم الآخرون قد تركوا الدنيا وبهرجها وانعزلوا في صوامع للعبادة، إنهم يؤمنون بتناسخ الأرواح معتقدين بان الإنسان يمر بمراحل تطور إنساني وروحي فينتقل من مرحلة الحيوانية إلى مراحل من السمو الإنساني إلى ان يصل إلى اعلى المراتب الإنسانية فيصبح طاهرا بطهارة الإله فيكون خالدا.

ثالثاً: العقل:

ان العقل هو المرشد الحقيقي وهو القائد الاوحد نحو السمو الإنساني، فإذا ما كان هو المسيطر فان الإنسان لا بُدَّ من ان يسمو وهو بذلك لا بُدَّ ان يحد من انتقال الحاجات من المدارات العليا إلى المدارات الواطئة بل على

العكس يشجع الانتقال من المدارات الواطئة إلى المدارات العليا، ليس هذا فقط ولكن متى ما أدركت النفس بان خلاصها وفائدتها بسيطرة العقل فلا بُدَّ لها من ان تنصاع له.

ليست النفس الوحيدة التي تتأثر بالعقل ولكن حتى الإرادات الخارجية كذلك، فالعقل له القابلية على التعامل معها بحسب ما يرتئيه، وربما يجاملها أو ربما يفرض عليها إرادته. ان ذلك التعامل بين العقل والنفس يمكن ان يكون ايجابيا بان يكون خيرا إذا ما سمت النفس وسلبيا إذا ما انحطت النفس.

وعلى مستوى الأفراد الاعتياديين فقصة والدي توضح شيئا:

لقد كان والدي تاجرا من تجار الشورجة وكان عملاؤه من جميع أنحاء العراق. بعد ان تولى البعثيون الحكم في شباط من سنة ألف وتسعمائة وثلاث وستين تدهور الاقتصاد العراقي بدرجة كبيرة وأعلن الكثير من تجار الشورجة إفلاسهم حتى اضطر بعضهم إلى الإقدام على الانتحار، عند ذلك قرر والدي ان يتوقف عن البيع أو الشراء بالدين، وقرر ان يجمع الديون المترتبة له لكي يدفع الديون المترتبة عليه. وبالفعل وأتذكر هذه الحادثة جيدا، كان احد المدينين لوالدي شخصا كرديا من أربيل وكان قيمة الدين ألف دينار، ولكي تعرف قيمة ذلك الألف أقول انه كان بإمكانك شراء بيت بذلك المبلغ.

ذهب والدي إلى ذلك الشخص وقال له انك مدين لي بألف دينار، لم ينكر الرجل ذلك الدين ولكنه قال: نعم ولكن ليس معي ما ادفعه لك، ليس عندي غير حجة البيت خذها وقم ببيعه وخذ دينك منه، وبعد رجوعه سألت والدي ما الذي عمله فأجاب: يا ولدي ان الله أعطانا فمن الواجب

علينا ان لا نظلم الناس، تعجبت من قوله وسألته أليس هو مدينا لك؟ قال نعم! فأي ظلم تتكلم عنه إذا، قال لم ينكر الرجل ذلك الدين وأعطاني حجة بيته وقال بع البيت وخذ حقك وارميني انا وأولادي في الشارع، فسارعت بالقول: وما فعلت، قال: ابني لو أخذت حجة بيته وبعته ورميته في الشارع ورفع رأسه إلى السماء وقال الهي انتقم من هذا الرجل الذي شردني إنا وأطفالي، فماذا أقول لربي عندما ألقاه، لقد عفوت له عن دينه.

عفا له عن دينه ولم يكن عند والدي فائض فهو الاخر مدين ولا بُدَّ من الإيفاء بديونه، لكنه عفا عنه مخافة ان يلقى ربه بذنب طرد ذلك الرجل وعياله من بيته، فمن تسمو نفسه لا يمكنه فعل القبيح.

كان والدي رحمه الله يقول لنا دائما: «اعمل زين وذب بالشط، ان الإنسان ممكن ان ينسى ولكن الله لا ينسى» كان يريد بذلك القول ان يعلمنا ان الغرض من العمل الجيد هو مرضاة الله وليس الغرض منه جزاء أو رد فضل الإنسان، لان ثواب الله أوفر وأعظم. وكان يقول: «اللهم اجعلني مظلوما ولا ظالما» في هذا لم يكن يعني انه يتمنى ويتمتع بالمظلومية، وإنما لو كان هنالك خيار بين ان يكون مظلوما أو ظالما فانه سيختار ان يكون مظلوما بدلا من ان يكون ظالما، لأنه ان كان ظالما فمن يقيه عذاب الله أما إذا كان مظلوما فانه يتمنى رحمة ربه جزاء لصبره .

لقد قرأ الكثير من الناس فتوى السيستاني وفي اشد أزمة الحرب الطائفية في العراق، عندما كان يُقتل كل من يمر بمثلث الموت في شمال الحلة، ولم تسلم من ذلك حتى الجنائز اذ كان الإرهابيون يلقونها أرضا ويرمونها بالرصاص. ولكن السيستاني كان يقول بحرمة الدم المسلم ويجب

ان لا يجابه العنف بالعنف، وإذا ما وصل الأمر ان يقتل ستين بالمائة من الشيعة، فلا يحل للشيعي ان يقتل سنيا واحدا بدعوى الثأر.

ان الموظف الذي يأخذ راتبا على عمله لكي يؤدي واجبا ما، يجب ان يؤديه على خير وجه فلا يأخذ رشوة، ولا يتقاعس في واجباته أو يسرق، لان ترك المحرمات يؤدي إلى سمو الإنسان. ولو ان البشر انتقل من مرحلة الحيوانية إلى السمو الإنساني لكانت الأرض تعيش برغد وقلة ظلم ولما بقي هنالك عوز ولا حاجة ولطغت الرحمة على الظلم والاستبداد ولما تملك ثمانية بالمائة من العالم ثمانين بالمائة من هذا العالم ولما بقي ثمانون بالمائة من العالم يتقاسمون ثمانية بالمائة من موجودات هذا العالم .

الإرادات المحركة للشخصية الخارجية

تعطي طريقة التعامل مع الإرادات الخارجية صفة شخصية مختلفة بين الناس، فالإنسان الذي يتعامل مع الإرادات الخارجية بسلبية يعيش في وضع يختلف عمن يتعامل معها بصورة ايجابية، فنجد ان السلبي يتهرب من تلك الإرادات وفي أي مجابهة كانت أو ان يتصرف بحماقة لا تفيده بشيء، أما الذي يتصرف معها بصورة ايجابية فهو اما يعمل بما ترضاه تلك الإرادات واما انه يتظاهر على انه يعمل بإرادتها ولكنه يعمل بما يريد.

ان تلك الإرادات ربما تكون إرادات مُجبرة أو إرغامية ولا بُدَّ من إطاعتها فإذا ما أطيعت ربما تخلق ردة فعل مختلفة من الأشخاص، فربما تسبب بعضا من الإزعاج أو تجابه بالرفض وربما عند بعضهم قبولا، وكل واحدة منها تكون عبارة عن طيف، فمثلا إذا كان انزعاجا فيكون انزعاجا

آنيا ينتهي بسرعة أو دائميا يطول العمر كله. والشيء نفسه بالنسبة إلى الآخرين.

وبما ان النظام يحتاج إلى طاقة اكبر بكثير من الطاقة التي تحتاج اليها الفوضى فان الإنسان يميل إلى ان يكون فوضويا وإذا ما غاب النظام الذي هو بالتالي جزء من الإرادات الخارجية (مثل القانون، والدين، والعرف الاجتماعي)، فالإنسان يكون مائلا للشر وليس للخير، والغلبة بدلا عن الإحسان والنفع الفردي بدلا من النفع الجمعي، والظلم بدلا من الرحمة والكفر بدلا من الإيمان.

وهنا يجب ان نتساءل: لماذا وكيف إذا وضعت تلك الإرادات الخارجية، وبصورة خاصة ان كل الناس تميل إلى عدم إطاعتها؟ الجواب: ان الناس على درجات في فهمهم للأشياء، وطالما ان الإرادات لا تضر بمصالحهم فهم يؤيدونها، ولا يبدون اعتراضا عليها إلا إذا ما أضرت بمصالحهم أو ربما يطيعونها مجبرين.

ان الفاتحين على مر العصور عندما يدخلون بلدا يبيحون حرمتها وحرمة أهلها برغم ادعائهم بالدين أو الإنسانية أو الديمقراطية، فلقد أباح الأمويون الكعبة والمدينة (١٦٨)،(١٦٩) وهما أقدس مدينتين عند الإسلام، وأباح المغول والأميركان بغداد، وعندما قررت الأمم المتحدة إرسال مفتشين دوليين من دول (ديمقراطية متطورة) للتأكد من خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل، كان مفتشوها يسهمون في تهريب الآثار وعمليات تهريب أخرى. ان الهرج والمرج انتشر في الولايات المتحدة الاميركية عندمت تعرضت احدى تلك الولايات الى اعاصير مدمرة، الكل شاهد السرقة والفوضى التي حدثت بعد الأعاصير، ولم يسيطر على ذلك الوضع إلا

بإرسال قوات من الحرس الوطني لكي يعيدوا النظام والأمن لتلك المدينة المنكوبة.

إذاً الإنسان لا يملك شخصية واحدة بل شخصيتين (داخلية وخارجية) وكلتاهما متأثرتان بالحاجات والنفس والعقل والإرادات. وكما قلنا سابقا بان الشخصية الفردية يمكننا ان نمد مفاهيمها لنطبقها على الشخصية المجتمعية التي تعني شخصية العائلة أو المجتمع أو الدولة أو الإنسانية وهنا يجب ان نبحث الشخصية المجتمعية.

في بحثنا عن الشخصية الفردية سطرنا عدة عوامل تقرر تلك الشخصية أولها الحاجات ومداراتها وتنتهي بالإرادات التي تؤثر في تلك الشخصية، وقلنا: فكما ان الشخصية الفردية تتأثر بتلك العوامل فان الشخصية الاجتماعية هي الأخرى تتأثر بها بالطريقة نفسها، ولو أخذنا مثالا الجنس في مجتمعين مختلفين احدهما محافظ والاخر متحرر، وإذا ما تكلمنا على الجنس كحاجة إنسانية فنجد ان هذين المجتمعين يقران بها. ولكن الإرادات التي تؤثر في شخصية كل من هذين المجتمعين يمكن ان تتباين وبالتالي تجعل المجتمعين مختلفين في نظرتهما وممارستهما لتلك الحاجة.

فالمجتمع المتحرر يعد ان هذه الحاجة حرية شخصية محللة لمن يريد ان يمارسها ما لم يكن هنالك إجبار، ويكون الشرط الوحيد هو رضى الطرفين، أما المجتمع المحافظ فانه ينظر إليها على إنها لا بُدَّ ان تكون مقننة وقاصرة على الزوجين، وكل شيء ما عدا ذلك مرفوض ويعد لا أخلاقيا وغير مقبول من المجتمع.

في المجتمع المتحرر لن تكون الحرية الجنسية مباحة فقط ولكن هنالك تشجيع ودعم ورغبة في استغلال كل مناسبة أو وسيلة لكي تؤجج

وتحفز وتسهل الحصول على تلك الحاجة، فالدعايات التي يكون فيها جنس تكون أكثر مقبولية من الدعايات التي لا تشير أو تظهر مشاهد جنسية، أكثر النكات المشهورة والمرغوبة لا بُدَّ منان يكون الجنس جزءا منها، إظهار المفاتن وبصورة خاصة للمرأة أمر مثير ومرغوب، كل هذه الأمور ربما تكون مثيرة في المجتمعات المحافظة ولكن تأثيرها يكون محصورا على مستوى الأفراد، ولكن على مستوى المجتمع فان الأمر يختلف فبما انه محافظ فلا بُدَّ من ان تكون غير مقبولة.

وكما ان هنالك إرادات تؤثر في الفرد فان هنالك إرادات تؤثر في المجتمع، وإذا ما رجعنا إلى الحاجة الجنسية نفسها فإننا نقول ان الإرادات التي تؤثر في تلك الحاجة مختلفة في كلا المجتمعين (المتحرر والمحافظ). فإذا ما أخذنا الدين كإرادة تؤثر في الحاجة الجنسية سنجد ان المجتمعات المتحررة وفي طريق تحررها كانت قد تحررت من سيطرة الدين وتأثيره فيها فتخلصت من ارادته حتى لم يبق له من تأثير يذكر في حياة الناس، أما في المجتمعات المحافظة فنجد ان عكس ذلك هو الصحيح فما زال للدين قوة وتأثير في تلك المجتمعات مما يقيد تلك الحاجة بحدود الدين وقوانينه.

أما إذا أخذنا القانون كإرادة ثانية فإننا نجد ان القوانين في المجتمعات المتحررة أصبحت تنجر وراء المزيد من الحرية للعمل الجنسي بل ان بعض الأعمال الجنسية قد صدرت لها قوانين تشرع وجودها مثال زواج المثليين فأصبح لهم الحق كأي حق بين زوجين وأصبح لهم الحق حتى في تبني الأولاد، أما في المجتمعات المحافظة فان ذلك مرفوض رفضا قاطعا.

وكما ان الشخصية الفردية متكونة من شخصيتين فان الشخصية المجتمعية هي الأخرى تملك تلك الشخصيتين فان كل مجتمع له حاجات

يسعى إلى تحقيقها ويضعها في مدارات حب الذات وشدة ربطها بالمجتمع تحدد مسيرة ذلك المجتمع، ليس الحاجات فقط ولكن الإرادات المجتمعية سواء كانت داخلية أم خارجية لها الأثر في مسيرة تلك الشخصية.

ان المجتمعات لا بُدَّ من ان تملك شخصية داخلية متمثلة بما يكون مقبولا عندها وشخصية خارجية بما يرضاه المجتمع الأكبر وفي كل الحالات لا بُدَّ لها ان توازن بين تلك الشخصيتين. اليوم هنالك إرادات عالمية تفرض نفسها على الدول. إن العراق وبسبب المغامرات الطائشة لصدام حسين، قد تعرض لعقوبات أصدرها مجلس الأمن الدولي تدعو إلى محاصرة العراق اقتصاديا ومحاربته عسكريا مما أدى إلى احتلال العراق فكانت نتائجها كارثية على الشعب العراقي، وكان نتيجة ذلك الحصار والفقر والحروب المدمرة وكان لا بُدَّ للعراق من ان ينصاع إلى تلك الإرادات.

لقد كانت إرادة العراق مرهونة بإرادة صدام الذي تفاعل مع الإرادة الدولية بشخصيتين مثلت الأولى الشخصية العراقية الداخلية التي تسعى للتحايل على المجتمع الدولي وذلك بمحاولة إخفاء أسلحة الدمار الشامل أو إخفاء الملفات، وبشخصيته الخارجية الثانية التي انحنى بها إلى الإرادات الخارجية فقد سمح إلى هيئات التفتيش ان تسرح وتمرح بالعراق وبإهانة واضحة للشعب العراقي وإرادته.

ان الدولة الأميركية لها شخصيتان، الداخلية منها تقول بالسيطرة الكاملة على العالم وعدم السماح لأي دولة أخرى ان تنافسها كقوة عسكرية أو اقتصادية أو في أي مجال اخر يعطي لتلك الدولة الأفضلية، وما رفضها لمعاهدة كيوتو (Kyoto) البيئية(١٧٠) من اجل تخفيض التلوث البيئي إلا

مثال على ذلك بالرغم من انها مسؤولة عن اكثر من ٢٥٪ من التلوث الموجود بالعالم، وهي تظهر بشخصية خارجية تقول بأنها حامية العدل والسلم الدولي، وهي حامية لحقوق الإنسان.

إذا ما تكلمنا على الشخصية المجتمعية (الدولية) والتي تعني كل دول العالم وعن الدول التي تحكم العالم وهي الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن وعلى رأسها الولايات المتحدة، فإننا نلاحظ فرقا كبيرا بين شرعية المجتمع الإنساني وشرعية مالك القوة او الحاكم، فان المجتمع يريد تحقيق مكاسب ذاتية خاصة به والحاكم يريد ان يحقق مكاسب خاصة به وإذا ما تضاربت تلك المصلحتان فان مصلحة الحاكم هي التي تطغى.

ان هذا الوضع ليس قاصرا على المجتمع الدولي فقط ولكن هو عينه ما موجود بين اي حاكم بلد (بصورة خاصة الحكام الشموليون) وشعبه فان مصلحة الحاكم لا بُدَّ ان تتضارب مع مصلحة شعبه وبالضرورة فان الشعب يتعامل مع الحاكم بشخصيتين مختلفتين الأولى الداخلية والثانية الخارجية، فهو بالداخلية يعبر عن إراداته وحاجاته وفي الخارجية لا بُدَّ ان يكون متفقا مع الحاكم. وبما ان إرادة الحاكم تختلف عن إرادة المجتمع فان التعامل معه بحسب الشخصية الخارجية تلقى مقبولية منه أكثر من مقبوليتها للشخصية اللداخلية، وذلك يخلق كبتا للمجتمع وارغاما، ان هذا الكبت يختلف تماما عن كبت المجتمع لافراده فالاخير جاء من اجل تصحيح مسارات اشخاص مخالفين للمجتمع من اجل فائدة المجتمع بينما كبت الحاكم جاء من اجل مصلحته على حساب كل المجتمع.

ان المجتمع عندما يضع ضوابط لتحديد مسيرة افراده عادة ما تكون تعبيرا عن إرادة أكثرية أفراد المجتمع فهي تفرض نفسها لأنها جزء من

تكوين ذلك المجتمع والفرد يتربى بحسب توجيهاتها ومنذ أول لحظة لولادته، أما الضوابط التي يفرضها الحاكم فإنها قد فرضت على المجتمع فرضا وليس بالضرورة تكون مقبولة أو قد تربى عليها أفراد المجتمع.

إذا الإنسان يولد وعليه كبت اجتماعي يعده جزءا من حياته ويعمل به ومن خلال شخصيته (الداخلية والخارجية) أما كبت الحاكم فهو كبت طارئ.

الان وبعد ان فصلنا الشخصية الفردية وبكل جوانبها، وكذلك بينا ان العوامل التي تؤثر في شخصية الفرد يمكن ان ينعكس تأثيرها في المجتمع، يمكننا الان ان ناخذ مجتمعا معينا ونفصل شخصيته، وفي الفصل اللاحق نأخذ الشخصية العراقية في محاولة لفهم تلك الشخصية وعلى الاسس التي شرحناها في الفصول السابقة.

الفصل التاسع
الشخصية العراقية

التمييز العنصري على مرّ تاريخ العراق

الأسباب التي تؤدي الى الانحطاط او التطور الحضاري

العوامل التي أسهمت في خلق الشخصية العراقية الحالية

علاقة الحاكم بالمحكوم

الحقبة بين حكم العثمانيين وحكم البعث وتأثيرها في الشخصية العراقية الحديثة

رجل الدين في الحكم

الشخصية العراقية الحالية

الاصلاحات المطلوبة لتسريع التطور الحضاري

- اصلاح النظام الاجتماعي - اصلاح النظام السياسي
- اصلاح النظام الاقتصادي - اصلاحات للحريات ومفاهيمها

الخطوات العملية على طريق الاصلاح

الجهاز الاداري للدولة

تقوية الشعور بالمواطنة وتعاضد الشعب مع الحكومة

- تحسين الخدمات - داء العشوائية - روح التشاؤم
- قصر النظر - التناقضات في مفهوم الحرية

الفصل التاسع
الشخصية العراقية

ان تحديد معالم شخصية الفرد العراقي ليس بالأمر الصعب بعد ان حددنا ملامح الشخصية البشرية وذلك لان البشر جميعا لهم مشتركات عامة لا تتغير، فالجميع عندهم حاجات وهوى ومغريات حياتية تدفعهم وإرادات تتحكم بهم، ولكن السؤال كيف يمكننا التمييز بين شخصية مجتمعين او دولتين، وهنا سوف نبحث في العوامل العديدة التي تخلق تلك الاختلافات بين شخصية المجتمعات وسأركز فيها بصورة خاصة على العوامل المؤثرة في الشخصية العراقية.

التميز العنصري على مرّ تاريخ العراق

مرت على الشعب العراقي وعلى طول تاريخه الطويل حقب عز وازدهار وحقب ظلم واستبداد وانحسار، ان العراقيين الأوائل هم بناة حضارات عظيمة، فهم الذين بنوا أولى الحضارات الإنسانية. ومن مفارقات القدر، فكما ان العراق كان باني حضارات فانه قد عانى من احتلالات أجنبية عملت على تدميره عدة مرات على مر تاريخه الطويل، فالتتار والاحتلال الأميركي للعراق اثنان من تلك الاحتلالات.

ان تلك الطبيعة غير الاعتيادية لهذا الشعب التي تتنقل به من اندثار حضاري إلى قمة حضارية ثم اندثار، ومن امتلاك لإرادته الكاملة إلى انصياع وهوان للأجنبي، ومن مظلومية حكام إلى بحبوحة عيش، ومن فقر إلى غنى قد خلقت منه شعبا تتفاعل فيه كل المترادفات التي صيرته شعبا فيه كل المتناقضات فنجد فيه: المثقف بإفراط وفيه الجاهل بإفراط، ومنهم

المتدين المتقي ومنهم الفاسق المنحل، ان هـذا التنـاقض واضـح علـى هـذا الشعب وفي كل المواصفات وليس قاصرا على المواصفات آنفة الذكر.

لا أتردد بالقول: ان سر قوة وحيوية هذا الشعب مرتبطة ارتباطا عـضويا بتلك المتناقضات لأنها المحرك الذي يغـذي الحيويـة والتفـاعلات المتغيـرة فيه، ان تلك المتناقضات موجودة فيه بكل وقت وزمان فلا تخلـو حقبـة فـي تاريخه منها. ان التناقضات فيه تحتم ديمومـة حياتـه، ففـي حالـة الانحطـاط يوجد من يريد ان يبني وفي حـالات الازدهـار يوجـد هنالـك مـن يريـد ان يهدم. ان هذا الشعب عبارة عن بودقة تنصهر بها كل تلك التناقـضات لتنـتج وضعا وحالة حضارية جديدة.

وبالرغم من ان هذه التناقضات جعلت منه شعبا حيا متفاعلا ولكنهـا فـي الوقت نفسه جعلت منه شعبا مشاغبا لا يرضى على اي من حكامه، وعلى مر تاريخه كان هنالك مجموعة راضية وأخرى معاديـة للحكـام، لـذلك أصـبح الشغب جزءا من كينونة هذا الشعب.

لقد كانت وصية معاوية(١٧١) لابنه يزيد: «وانظر أهل العراق فإن سـألوك ان تعـزل عـنهم كـل يـوم عـاملا فافعـل»، لقـد أدرك معاويـة ان شـعبا حيـا كالشعب العراقي هو شعب شغب وتطلعات ولا يمكن لأي حاكم ان يسيطر عليه ومهما استعمل من قوة أو دهاء، لذلك عمل وبكل قوة على ان يحـصن الشام (قاعدة حكمه ومرتكزه) من ان تكون على شاكلة العراق وساعده في ذلك طبيعة الشعب السوري التي تختلف عـن تلـك للـشعب العراقـي، يقـول علي الوردي(١٧٢): «ويبدو ان معاويـة كـان لا يكتـرث بمـا يحـدث فـي بقيـة الأمصار من فوضى أو شغب، جل همه كان منـصبا علـى الـشام، إذ يريـد ان يصونها من كل بواعث التفكير الحر أو الوعي السياسي».

ان السياسات والممارسات غير الإنسانية والظلم الذي مارسه الحكام على الشعب العراقي كانت عاملا في تشكيلة الشخصية الحالية للشعب العراقي، اذ اعتمد معاوية في تثبيت الحكم الاموي في العراق على حكام ظلمة ومجموعة من رؤساء القبائل الذين باعوا انفسهم بالمال لكي يستعملهم في قهر وتهميش بقية ابناء الشعب. وفي هذا الصدد يقول علي الوردي(١٧٣): «ان هذه السياسة التي ابتكرها معاوية قد اتبعها موسيليني في هذا الزمن. فموسيليني كان يقول ان جماعة منظمة قليلة تستطيع ان تتغلب على جماعة مبعثرة كبيرة، وقد أسس حزبه الفاشستي على هذا الأساس، ونجح به نجاحا كبيرا- كما هو معروف».

وسار صدام حسين على خطى معاوية وذلك بان جعل حزب البعث حزبا حاكما يكن الولاء المطلق لصدام من دون منازع، ليس ذلك فقط بل انه قد تعدى ذلك بتلويث الكثير من البعثيين بجرائم قاموا بها اما مرغمين واما برضاهم لكي يربط مصيرهم بمصيره.

بعد ١٩٩١ هاجر احد البعثيين إلى استراليا، والتقيته هناك، وكان يشتكي من دموية حزب البعث وظلمه فقال: أمرتنا الفرقة الحزبية في منطقتنا على جمع كل شباب تلك المنطقة ورصهم أمام احد الحيطان، وجُهزنا برشاشات ثم أصدر مسؤول الفرقة أمرا الينا لكي نقتل أولئك الشباب. ويستطرد فيقول: كانت حصته شاب من اخلص أصدقائه وصديق عمره، ذهب إلى مسؤوله وقال له: أنا مستعد ان اقتل اي شخص اخر أو حتى أكثر من شخص إلا هذا فانه صديق عمري ولا أستطيع ان اقتله بنفسي، فكان ردّ المسؤول إذا لم تقتله سوف أقتلك، ثم سكت. فسألته مستنكرا وهل قتلته؟ قال: نعم.

ان هذا التلويث لمجموعة القيم الإنسانية للكثيرين من البعثيين جعلت ارتباطهم بالحزب وصدام ارتباطا مصيريا، فهم بذلك قد ربطوا مصيرهم وحياتهم بلذلك الحزب وبذلك الحاكم ولا بُدَّ من بقائه متسلطا على رقاب الشعب ليضمن لهم البقاء والاستمرار بالتمتع بالامتيازات التي أعطيت لهم نتيجة ذلك الولاء. فلذلك نجد بأنه وبالرغم من ان الشعب العراقي (فيه تيارات ثقافية وسياسية وعلمية ودينية وحرة كثيرة) قد ثار عليه عدة مرات من اجل التخلص من ظلمه ولكن لم تتوفق اي واحدة من تلك في دحره... لولا الأمير كان.

ان طبيعة الظروف السياسية التي مرت بالعراق جعلت من مواطنيه شعبا مختلفا عن بقية الشعوب العربية الأخرى، ان مجموعة التناقضات التي يعيشها الشعب العراقي جعلت منه مالكا لحيوية فكرية فريدة بين الشعوب العربية، لان جميع البلاد العربية والإسلامية ترى بان الحاكم ولي أمرا يجب إطاعته ظالما كان أم رحيما خيرا كان أم فاسقا عادلا كان أم منحرفا مؤمنا كان أم فاجرا... وما يحدث اليوم في العالم العربي من ثورات شعبية ما هي إلا نتيجة (فضلاً عن عوامل أخرى) لإرادات التغيير من نمطية الانصياع إلى (المرجعية الإلهية) للحاكم والتي كانت سببا في تطويع إرادة الشعوب لإرادة وحرية الشعوب في اختيار حكامهم.

ان حب التسلط والركض وراء السلطة جعلت الكثيرين من الحكام يأتون بادعاءات كاذبة مفادها دفاعهم عن مصالح شعوبهم ولكن حقيقة أمرهم أنهم جاءوا من اجل قضية واحدة إلا وهي قضيتهم الكبرى في الحصول على السلطة، فمنذ تشكيل دولة إسرائيل حصلت العديد من الانقلابات في العالم العربي الغرض منها تحرير فلسطين، فلم تتحرر فلسطين بل على العكس ان فلسطين تبتلع يوما بعد يوم.

لقد خرج معاوية على ولي أمره خليفة المسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام بدعوى المطالبة بقتلة عثمان بن عفان ولكن عندما استتب الأمر له وصار حكم المسلمين بقبضته لم يفِ باي عهد قطعه مع احد[١٧٤] ولما جاء الكوفة بعد معاهدة الصلح مع الإمام الحسن سبق الحسن في الكلام ومزق وثيقة الاتفاق ووضعها تحت قدمه وقال: «انا لم ائتِ لكي أسألكم ان تصوموا وتصلوا ولكني ما أتيتكم إلا لكي اكون اميرا عليكم واني أضع هذه الوثيقة تحت قدمي»، وبالفعل فلقد فتك بكل شيعة علي عليه السلام وسنّ سنة سبّ عليا في خطب الجمعة ومن على منابر رسول الله صلى الله عليه وآله، لقد امتدت تلك السُنة مدة أمدها سبعون سنة.

ان المتوقع والمطلوب ممن يتصدر قضية قضى بها عشرات الالوف من المسلمين ان يكون امينا واول منفذ (بعد ان يستتب الامر له) للشعارات التي رفعها واخذها حجة لمعارضته، ولم نجد ان معاوية الذي طالب بالقصاص من قتلة عثمان قد اوفى بعهده والتزامه في القصاص من قتلة عثمان. بل العكس هو الذي حدث، فبدلا من القصاص من القتلة لم يحرك اصبعا نحو اؤلئك الناس وفي هذا المجال يقول علي الوردي[١٧٥]: وعندما طالبت ابنة عثمان من معاوية وبعد توليه أمر المسلمين ان يأخذ لها بثأر عثمان أجابها «أي ابنة أخي، ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا، وأظهرنا لهم حلما تحته غضب، واظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكونين بنت عم أمير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض المسلمين».

وما أكثر الحكام الذين حكموا العراق (وعلى مر تاريخه) بمثل هذه السياسة المبنية على مصالح الحاكم، وما أكثر المجاميع التي اندفعت (بوحي من مصالحها الذاتية وعلى حساب بقية أبناء الشعب العراقي) إلى الدفاع وتعضيد مثل هكذا حكام غير آبهين بظلمهم وجبروتهم وعدم أهليتهم للحكم وعلى حساب بقية الشعب، فهم بذلك يعملون وكما هو مفهومنا للشخصية الإنسانية يسعون من اجل تحقيق مصالحهم الذاتية مدفوعين بحاجاتهم وأهوائهم ومغريات الحياة.

وإذا ما أردنا ان نبين تأثير هذه التيارات التي تختطف الشعوب فنلاحظ ان الأمر وكما يطرحه علي الوردي[١٧٦] فيقول: "فالناس في هذا فريقان: فريق مترف يريد ان يحافظ على امتيازاته الطبقية، وفريق اخر محروم تكاد تلتهب أحشاؤه نارا، ولا يستطيع احد من هذين الفريقين ان يهدأ أو يقعد على التل، لا يستطيع القعود على التل إلا المطمئنون المرفهون الذين خلصت نفوسهم من الألم وسلمت مصالحهم من الخطر، والحكومة الصالحة هي التي تجعل رعاياها مرفهين مطمئنين، لا يتذمرون ولا يطمعون. وبذلك تجعلهم من أصحاب التل جميعا".

هنالك وفي كل مجتمع من المجتمعات أناس أو قادة لهم التأثير الأكبر في أية حركة اجتماعية ربما بسبب قوتهم العضلية أو الاقتصادية أو العسكرية أو أي سبب اخر يؤهلهم لذلك، ان التاريخ والحاضر يعلماننا ان مثل هؤلاء يمثلون الأقلية المتسلطة، أما الأكثرية فلا تأثير لها، وما عليهم إلا اتباع أولئك القادة. يقول علي الوردي[١٧٧]: «فالعامة لا تعرف ماذا يجري... ولكن يتبعونهم (أي للقادة) ويأتمرون بأوامرهم. ان الذين دعوا الحسين للتوجه إلى الكوفة كانوا قادة ووجهاء (أصحاب الحل والعقد) في الكوفة،

وعندما وصل مسلم ابن عقيل صلى وراءه هؤلاء القادة وبالتأكيد العامة (اتباعا لقادتهم) وكانوا يعدون بعشرات الآلاف، ولكن لما تخلى هؤلاء القادة عن مسلم تبعهم بقية العامة، فترك مسلم وحيدا فريدا تائها في أزقة الكوفة لا يعرف لها طريق ولا يهتدي إلى مكان يمكنه ان يأوي إليه»، فبالنسبة إلى العامة المسألة ليس مسألة دين أو إيمان ولكن مسألة عصبية قبلية أو طموح بنصرة الغالب ولما تنقلب الأمور تراهم يهربون.

والحاكم الذي يتمكن من السيطرة على أولئك القادة يسيطر على الشعب كله وهنا يقول علي الوردي[١٧٨]: «لقد استرضى معاوية الرؤساء، واشترى دينهم فترك العامة معسكر علي بن أبي طالب عليه السلام إما إلى بيوتهم واما إلى معسكر معاوية حيث المال والجاه، قيل لعقيل بعد ان منعه علي من العطاء وأغدق عليه معاوية: أي الحياتين أحلى مع علي أم مع معاوية، فقال ان الدنيا أحلى مع معاوية ولكن الآخرة أفضل مع علي».

ليست عبادة الله ولا صلة القرابة ولا أي قيمة إنسانية أخرى هي التي تحدد تصرف الإنسان، فالإنسان مدفوع بحاجاته وأهوائه ومتغيراته وبالظروف والإرادات المحيطة به، ان الحكام الظلمة يتمكنون من قلب مقاليد الأمور لصالحهم إذا ما عرفوا كيف يبيعون ويشترون الضمائر. لقد كان عبيد الله بن العباس (وهو ابن عم الحسن ولقد قتل معاوية ثلاثة من أولاده) قائدا لمقدمة جيش الحسن وكان بالتأكيد متحمسا لقتال معاوية في الأقل ثأرا لأولاده ولكن ما ان وصلته دنانير معاوية حتى ترك معسكر الحسن من دون قائد... في الصباح استيقظ الجند والمعسكر من دون قائد.[١٧٩]،[١٨٠]

في واقعنا الحالي الذي نعيش فيه، لم يتغير شيء فأن الحق يكون حيث يكون القوي الذي يعلل ويفرض كل عمل يقوم به على إنه الحق بعينه ولا

قدرة للضعيف من ان يقدم وجها اخر للحقيقة يخالف رأي القوي. ان الحق يكون بذلك مرهونا بالذات الإنسانية فكلما ارتبطت مصالح القوي بذاته كلما زادت قناعته بان الحق معه، ان ذلك يدفعه في اتجاه زيادة قوته وتسلطه من اجل الحفاظ على ذلك (الحق).

ان أي حاجة من الحاجات الإنسانية للفرد هي نفسها حاجات اجتماعية ولذلك فان الإرادات التي تؤثر في حاجة الفرد تؤثر بالطريقة نفسها في المجتمع. ان حاصل التفاعل بين الإرادات والحاجات هي التي تحدد شخصية كل مجتمع. ولكي نفهم شخصية المجتمع العراقي يجب علينا ان ندرس الإرادات والعوامل والضغوطات التي عاشها ذلك المجتمع والتي بالتالي أعطته تلك الشخصية:

وكبداية لذلك لا بُدَّ لي من الكلام عن ماهية هذا المجتمع، ان العراق بلد متعدد الأعراق والأديان والمذاهب، ان هذه التعددية يمكن ان تأخذ منحيين:

المنحى الاول: ان تكون مصدر قوة وتكاتف للمجتمع وذلك عندما تكون المواطنة هي الفيصل وليس العائدية العرقية والدينية والمذهبية، فالمجتمع الذي يعامل أبناؤه على انهم متساوون في الحقوق والواجبات فان ذلك المجتمع لا بُدَّ من ان يكون متماسكا، ولم لا؟ فإذا ما عوملت على انك إنسان لك كامل الحقوق وعليك كامل الواجبات التي على الآخرين، وانك تعامل على أساس ما تملكه من إمكانيات وقدرات وليس على خلفيتك العرقية والدينية فانك سوف لا تجد عندك هنالك أي داع للشكوى أو التذمر.

والمنحى الثاني: ان تكون مصدر ضعف وتشتت وذلك بسبب الاضطهاد والتهميش لمكون من مكونات ذلك المجتمع، حينذاك لن تكون إمكانيات الشخص واسهاماته للمجتمع هي الفيصل في طريقة المعاملة التي يتلقاها، ولكن من يقرر عائديته العرقية والدينية والمذهبية.

في العراق هناك خلفيات أثنية دينية ومذهبية عديدة كانت لعبت أدوارا مختلفة وعلى مر الزمان بحسب ما أتيح لها من فسحة ولكن دائما كانت هنالك ثلاثة مكونات رئيسة كل واحدة منها اكتسبت أهمية بطريقة مختلفة عن الأخرى، فالمكون الشيعي اكتسب أهميته من انه المكون الأكبر الذي دائما ما اخذ أما موقف المعارضة السلبية أو الثورة أو الخضوع للظلم والتهميش المتعمد. والمكون الثاني وهو المكون الكردي الذي شفع له كونه سني المذهب ووعورة مناطقه ان يكون ظلمه وتهميشه اقل من المكون الشيعي. المكون الثالث وهو السني والذي كان دائما وعلى مر الزمان ومنذ ألف وأربعمائة سنة هو المتحكم وهو المتسلط وهو صاحب الحق والامتيازات. وبرغم ان كل واحد من هؤلاء المكونات يملك الحاجات انفسها، ولكن دائما كان هنالك دائما فوارق وتفضيل في المعاملة والامتيازات للمكون السني على المكونين الأوليين.

لقد عانى الشيعة ظلما كبيرا يفوق معاناة الكرد منه وبفوارق كبيرة، أتذكر كلام الرئيس جلال طالباني حينما قال يوما في احدى خطبه: «لقد قال لي طارق عزيز سوف لن نمكنكم (الكرد) من عمل شيء حول كركوك إلا البكاء عليها»، ويستطرد الرئيس جلال بالقول: فقلت: «الحمد لله يسمحون لنا بالبكاء ولا يسمحون للشيعة حتى بالبكاء».

ان تبعية الشيعة لمدرسة أهل بيت النبوة كلفتهم مصاعب والآما واضطهادا وظلما كبيرا جدا على مر التاريخ الإسلامي، فلا هم تخلوا عن حبهم وتبعيتهم لآل البيت ولا الحكام تركوهم لشأنهم، لقد منعوهم من ابسط الحقوق الإنسانية ألا وهي حرية العبادة والتعبد واختيار الطريقة الأفضل للتعبد بحسب ما يرتئيها الإنسان لنفسه ويعتقدها جيدة ومنسجمة مع إرادته الداخلية وحاجاته. لقد مُنعوا[١٨١] حتى من زيارة قبر الحسين، يقول سماحة العلامة انصاريان[١٨٢] "ففي عصر المتوكل العباسي مثلا فرضت ضريبة مالية قدرها ألف دينار من ذهب على كل شخص يرد كربلاء لزيارة قبر الحسين عليه السلام ولما رأت السلطات العباسية ان هذه الضريبة الباهظة لم تمنع الناس من زيارة الحسين عليه السلام أضافوا اليها ضريبة دموية فكانوا يقتلون من كل عشرة زائرين واحدا... يعين من بينهم بطريق القرعة.

ان المسيرات الجماهيرية التي تزحف إلى العتبات المقدسة لم تتوقف على مر الزمان، فلم يوقفها طاغية ولم توقفها الضرائب ولا القسوة المفرطة ولا التعامل اللاإنساني. تذكر مس بيل في مذكراتها ذلك الزحف (بعد احتلال الانحليز العراق) وتبين معاناة هؤلاء الناس وتضحياتهم بأرواحهم وصحتهم من اجل الوصول إلى العتبات المقدسة، فلم يوقفهم صعوبة الطريق ولا قلة الطعام ولا عدم صلاحية الماء أو نوعية أو مكان النوم. فهي تتكلم عن حالة زوار العتبات المقدسة في العهد العثماني فتقول[١٨٣]: «والأمراض المعدية يزداد خطرها بصورة ملحوظة عن طريق تقاطر الزوار على العتبات الشيعية المقدسة، أعداد كبيرة خارقة للعادة منهم من قدموا للزيارة».

وبعد ذلك تبين ما قدمته قوات الاحتلال في معالجة الأمراض التي تتفشى بين هؤلاء الزوار فتقول: «فقد فتح في الكاظمية مستشفى صغير للزوار ويقول الجراح الملكي المختص في هذا الشأن. وبعد سفرة طويلة في جو مثير يقتات فيه على اقل ما يكون من الغذاء ويطفئ ضمأه بماء غير نقي، بنتيجة الغذاء الذي يتناوله، وهو يعاني ما يعاني من التهاب الأمعاء ونوع من داء الإسقربوط، يصل الزائر إلى المدينة المقدسة في الأخير وفي نفسه رغبة في ان يقضي نحبه فيها».

«ويأخذ بالموت على قارعة الطريق أو في الجامع، ولأجل ان نجعل نهاية أولئك الزوار على جانب اكبر من الراحة وحتى لتيسير فرصة اكبر لهم في ان يستعيدوا صحتهم فتح في كانون الأول ١٩١٩ مستشفى صغير يسع اثني عشر سريرا لنقل الزوار الذين يعالجون سكرات الموت إليه، وبذل الجهود لمساعدتهم في نزعهم الأخير، اما بالنسبة للإحصاءات في هذا الشأن فان أحسن ما يذكر هو ان نقول ان خمسين بالمائة من هؤلاء كان يصيبهم الشفاء».

إذا ما تكلمنا عن العراق كدولة وكشعب لا بُدَّ لنا من ان نذكر تلك المكونات الثلاثة لكي نفهم حاصل مزجها معا وبالتالي فهمنا للشخصية العراقية، يجب علينا ان نفهم بأننا عندما نتكلم عن الشخصية العراقية يجب ان نضع في اذهاننا واعتباراتنا بان هذا الخليط، وبسبب التمييز والتهميش والظلم، لم يكن يوما من الأيام مزيجا متجانسا برغم انه كان دائما نسيجا متعايشا، وسبب ذلك التعايش هو قبول المظلوم بظلمه وتخليه عن الحكم وقبول الظالم بأحقيته في الحكم وإنزال أي عقاب يرتئيه على المعارضين حين يتعرض حكمه للمعارضة أو الرفض.

ان التعايش الذي تكلمت عليه هو التعايش بين الأفراد فهنالك زيجات وتصاهر بين كل مكونات المجتمع والسبب في ذلك التعايش ان الناس الاعتياديين لم تكن لهم مصالح مباشرة متضادة في ما بينهم وبين الإفراد من المكونات الأخرى، إما بالنسبة إلى النخب من كل مكون من هذه المكونات فكان الأمر مختلفا.

كان الحاكم الظالم لا يفرق بين أي مكون من هذه المكونات حينما يرى منه معارضة، ولكن وبما ان مصداقية حكمه مبنية على انه ممثل للمكون السني فلا بُدَّ له من ان يفسح المجال للمكون السني في تسلم المناصب الحكومية المرموقة وتهميش الآخرين، وبكل الأحوال لم ينتفع من ذلك الحاكم كل أهل السنة وإنما نخبهم.

ولكي يضمن الحاكم مولاة أهل السنة لحكمه لا بُدَّ له من ان يخلق بعبعا من الشيعة وبعض الأحيان الكرد، تلك السياسة استعملها جميع الحكام وأقربهم إلينا تاريخيا هو صدام حسين فتهميشه واضطهاده وظلمه للشيعة معروف لكل إنسان عراقي.

ان تلك الفروقات التي فرضها الحكام بين مكونات الشعب العراقي أثرت في بعض الناس سلبا والاخر إيجابا، ولا ينكر ان بعض أهل السنة كانوا يعدون الشيعة اقل منهم شأنا، ولا بُدَّ ان نكون منصفين فليس كل أهل السنة كانوا يملكون هذا الشعور المتعالي، بل يصل الحال ببعضهم الى الرفض وعدما الرضا بذلك التفاضل.

كان العراق في اثناء الحكم العثماني يعاني من اشد انواع التمييز، فلقد كان الأتراك هم أصحاب المناصب والأملاك، ليس هذا بل فقط ولكن فرضوا اللغة التركية على الشعب العراقي، ولكي يحافظوا على سيطرتهم على البلاد أعطوا الأراضي والإقطاعيات للوجهاء وشيوخ العشائر وبالتأكيد

كان حظ السنة فيها اكبر بكثير من حظ الشيعة، فلقد كان الولاة والسادة أصحاب الأملاك والأراضي من السنة أما الفلاحون والكسبة والمزارعون فكانوا من الشيعة، وفي مجتمع طبقي مثل هذا كان لا بُدَّ للفئة الأولى من ان تتعالى على الفئة الثانية.

تقول مس بيل [١٨٤]: «ان الأتراك لم يبدوا اهتماما بالسكان الشيعة في العراق، ومع هذا فان جميع سكان الريف تقريبا وأكثرية سكان المدن من مصب شط العرب إلى ما فوق بغداد بقليل هم من الشيعة، غير ان العنصر السني فضلا عن المؤازرة التي كانت تبديها الحكومة السنية، كان يتمتع بمنزلة اجتماعية لا تتناسب مع عدد نفوسه. وهو يتألف في الغالب من ملاكين كبار للأراضي وتجار أثرياء ويسكنون المدن والبلدان ويمتلكون المقاطعات على طول الأنهر، ويستولي على أسواق البادية أناس سنة من نجد، كما يجد المرء في المناطق المحيطة بالجداول والأنهار في قلب المجتمعات الشيعية التاجر اللبق ذا الأصل النجدي، الذي يسهل تفريقه بتقاطيعه الدقيقة وثقافته المتفوقة عما يحيط به من أفراد القبائل، وهو يترأس السوق الصغير التي تتعاطى بحاجات الريف البسيطة، وليس هناك شيء يفوق الازدراء الشامل الذي يكنه التاجر السني في هذه الأسواق العشائرية الصغيرة لزبائنه. وحتى الشيوخ الأغنياء مع كل ما يملكونه من مقاطعات واسعة الإرجاء وما يحيط بهم من جماعات الخدام والحراس المسلحين هم بالنسبة إليه لا شيء سوى كلاب سائبة بجانب النهر لا يحلم هو أو إخوانه في المذهب البدو الجياع ان يتصاهروا معهم. ومع هذا كله فليس بوسع الفتور الرسمي الذي تبديه الحكومة ولا ترفع الارستقراطيين المحليين ان يتحدى الحقائق الواضحة للعيان بان العراق

الجنوبي هو منطقة شيعية، وان البلاد المقدسة تقدسها هذه الطائفة بالإجماع».

بعد استشهاد علي بن أبي طالب عليه السلام بدأت حملة شعواء ضد الشيعة، ولقد كانت تلك الحملات قاسية ومن دون رحمة ولا هوادة وكانت في كثير من الأحيان تتسم بوحشية كبيرة جدا، ان ذلك الظلم والاضطهاد حرك روح المقاومة عند بعضهم وروح الاستكانة عند بعضهم الأخر. وبما ان حكام بني أمية وظفوا رجال الدين لكي يكونوا لهم دعاة واصواتا لكي ينفذوا إرادتهم فلقد كانت الجوامع تسب عليا[١٨٥] في خطبة الجمعة وكانت تدعو إلى تكفير واستهداف الشيعة وتحلل اضطهادهم.

وبما ان الحكومات التي حكمت العراق كانت دائما من السنة، فان السنة عاشوا في فسحة من الحرية وبحبوحة من العيش لم يحلم بها الشيعة أبدا، ان تلك النعمة المسبغة على مجموعة من الشعب العراقي خلقت شعورا بان العراق ملك للسنة وما الشيعة إلا أجانب لا يستحقون من العراق شيئا.

بعد الاحتلال الأميركي للعراق وتأسيس مجلس الحكم، يقول احد أعضاء هذا المجلس انه لما صرنا إلى تشكيل حكومة عراقية وتوزيع المناصب الوزارية قدمنا اقتراحا بتعيين شيعي وزيرا للأوقاف كتعويض للشيعة عن الحيف الذي أصابهم طوال ألف وأربعمائة سنة... اعترض احد شيوخ السنة الكبار وقال لا نسمح بذلك لان الأوقاف هي العراق والعراق هو ملك لنا.

ان ثورات بعض قادة الشيعة على الحكام مثال الحسين بن علي عليه السلام والمختار وزيد بن علي وولده يحيى لم تتوفق في تغيير تلك المعادلة وتشكيل حكومة شيعية في العراق، بل على العكس من ذلك زادت من

ضراوة وقسوة ووحشية الحكام ضد الشيعة. فلقد قتل الحسين وسبي عياله في واحدة من اعنف الملاحم البشرية بشاعة وخسة، وبعد دخول المختار إلى الكوفة واستسلام جيشه الذي كان يعد بسبعة الاف شخص الى جيش ابن الزبير أمر الاخير بقطع أعناقهم جميعا، وبعد ان فشلت نهضة زيد بن علي، فدخل والي الكوفة المسجد وهدد اهلها وبشرهم بالذل والهوان وتهددهم باشد التهديد فكان لا يُؤتى له باسير او جريح الا قتله واحرقه(١٨٦).

وبلغت وحشية الحكام درجة من القسوة بحيث لم يكن العقاب قاصرا على من خالف الحاكم فقط بل تعداه إلى عقاب أهل بيته وحتى عشيرته، ان الشدة والعنف والوحشية في إنزال القصاص كانت معلما من معالم الحكم الأموي ضد شيعة علي المعارضين لهم وغير المعارضين، لذلك لاقى الشيعة القسط الأكبر بل كل الظلم وعانوا من وحشية قاسية ولا إنسانية وعلى مر العصور.

ان ذلك القهر خلق في الشيعة ثلاثة أصناف من الناس:

الصنف الأول: ان ديمومة الظلم والتهميش والفقر اثرا سلبا في نفوس هذا الصنف من الشيعة بحيث اصبحوا يشعرون وحتى ربما يقرون بانهم الأكثر دونية من بقية الشعب العراقي، لذلك فانهم استسلموا الى فكرة ان يكون الآخرين هم الأسياد وهم العبيد ورضوا بها ولم يتعرض لهم احد (وهم يمثلون الأقلية).

والصنف الثاني: وهو الذي قبل بالظلم مقهورا وعلى مضض وخلق لنفسه مفاهيم (ان يكون مظلوما خيرا له من ان يكون ظالما)، ولم يظهر عداوته ولم يسهم بالثورات على ذلك الظلم، وكان ذلك اسهاما غير مقصود بديمومة ذلك الظلم (وهم الأكثرية).

اما الصنف الثالث: وهم الأخرون قلة قليلة بقوا ثوارا ورافضين لكل أنواع الظلم والتهميش وظلوا على مر الزمان يشكلون على قلتهم وضعف قوتهم نخبة معارضة أقلقت مضاجع الظالمين، فشكلوا معارضة موجعة للظلمة وفي اغلب الأحيان لم تكن تلك المعارضة بقوة السلاح ولكن كانت بالعصيان الأهلي الذي اتخذ أشكالا مختلفة، منها مجالس العزاء الحسيني أو الزيارات العاشورية وغير العاشورية. لقد دفعوا ثمنا لتلك المعارضة دماءهم وأرواحهم وأموالهم وحرياتهم، ولم ينجُ من ظلم ذلك العقاب أهلوهم وأقاربهم، وما سكان المعتقلات وضحايا مفرمة الموت والمذابين بحمامات ماء الذهب (التيزاب) والمدفونون أحياء في المقابر الجماعية إلا أمثلة على تضحية هؤلاء.

لم تكن مصيبة الكرد كمصيبة الشيعة لسببين الأول إنهم من السنة وذلك شفع لهم والثانية ان وعورة أراضيهم وقوة مقاومتهم كانت سببا اخر.

اما السنة فكانوا على مر الزمان أسيادا، ومن لم يكن من النخبة (أي من مالكي القوة أو القدرة التي تمكنه من ان يصبح سيدا) فانه لم يكن مغلوبا على أمره أو مضطهدا.

إذاً تلك الخبرات التي عايشها كل من هذه المكونات الثلاثة خلقت حاجات مختلفة كما ونوعا (برغم ان كل منهم يحتاج إلى الحاجات انفسها) وتطلعات متباينة وتعرضوا لإرادات متضادة، ان كل هذه العوامل كانت سببا في خلق ثلاث شخصيات مختلفة واحدة لكل مكون.

الأسباب التي تؤدي إلى الانحطاط أو التطور الحضاري

ان حاضر ومستقبل أي بلد لا تقرره (كما هو الحال بالنسبة الأشخاص) سنين عمر الإنسان وإنما يقرره تاريخ وحاضر ذلك الشعب، ان

بلد مثل العراق الذي يمتد عمره إلى قرابة ثمانية آلاف سنة تعرض إلى العديد من التحديات وتدخل المصالح الإقليمية العالمية والداخلية التي عملت على تحديد مسيرته الحاضرة والمستقبلية.

لقد مرت على العراق سنين وعقود وفي بعض الأحيان قرون عجاف كان هنالك فيه خراب ودمار وقهر وعبودية وكذلك مرت عليه عقود وقرون كان فيه القمة في التمدن والحضارة وفي خلال تلك المدة اسهم اسهاما كبيرا في تقدم الحضارة الإنسانية، كما مرت عليه حقبا غاب وفي سبات عميق في ظلمات الجهل والتخلف والفقر.

ترى من هؤلاء الذي ينامون في سبات عميق، ومن هم الذين يشاركون ويقدمون للعالم حضارات إنسانية متقدمة، أليس هم من نسل واحد ومن طينة واحدة؟ فإذا كانوا من نسل واحد وطينة واحدة فلماذا هذا التباين الشديد بين الاثنين؟ لكي نعرف سر أو كنه هذا التناقض يجب علينا ان نتعرف على هذا الشعب الذي فيه هذا التباين العجيب.

ولو أردنا ان نرسم خطا بيانيا للحقب الزمنية والتطور الحضاري لوجدنا ان جميع الحضارات الإنسانية مشتركة في شكل هذا الخط البياني الذي يأخذ شكل الناقوس شكل رقم ١٤، تكون بداية هذا الناقوس رمزا للتخلف الحضاري ثم يستمر بالارتفاع، اما الوسط فيرمز للرقي والتطور، وينتهي بالانحدار ليرمز إلى حالة التدهور مرة أخرى وبالتالي سقوط تلك الحضارة وانحطاطها.

شكل رقم ١٤

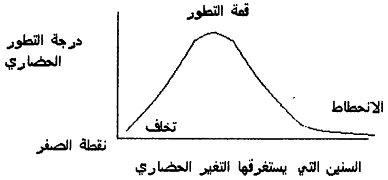

ان كل الحضارات الإنسانية لا بُدَّ من ان تمر بهذه المراحل الثلاث كما حدثت للحضارة اليونانية والرومانية والفرعونية والهندية والصينية، ان الكل مشتركون في أمرين اثنين مؤثرين في نمو تلك الحضارة وفي أفولها:

الأول هو الشعب، فهو الذي يبني وهو الذي يهدم. ان الجيل الذي يبني هو ذلك الجيل المدفوع اندفاعا قويا إلى البناء بسبب الحاجات الإنسانية والإرادات المسيطرة في ذلك الزمان ولا بُدَّ ان تكون إرادات تدفع باتجاه العمل الجاد والمخلص من اجل تحقيق ذلك البناء .ان الحاجات تبرز وربما تكون مختلفة من وضع إلى وضع فان الحاجات في أيام العسر ليست كما هي في أيام اليسر والحاجات في أيام القهر ليست هي كما في أيام العز، فلا بُدَّ لبروز حاجات مدفوعة بإرادات مناسبة ربما تكون أسبابها دينية سياسية تنافسية أو حكومية.

الثاني هم الحكام، فإذا ما كانت طموحات الحكام وصلابتهم وإرادتهم هي نحو التطور والنمو فإنها بذلك تسمح لعملية التطور المقصود، وفي الماضي كانت الفتوحات والخيرات والأموال التي تأتي منها عاملا محفزا ومشجعا لأولئك الحكام في طلب المزيد من القوة والسلطان، وكمكسب جانبي لا بُدَّ ان يكون هنالك تطور وحضارة لتبرز عظمة الحاكم وسلطانه. ولكي تحصل مثل تلك الفتوحات لا بُدَّ من ان يكون هنالك توافق بين مصلحة وحاجات الحاكم مع حاجات ومصالح الشعب وفي الأقل ظاهريا أو يكون ذلك التوافق مع فئة مستفيدة من الشعب تفرض إرادتها على كل المواطنين، ويصل الطغيان ببعض هؤلاء الحكام إلى ان ينصبوا أنفسهم كآلهة أو أبناء آلهة وما على شعوبهم إلا ان يرضوا بذلك.

ان النمو الاقتصادي الذي تأتي به الفتوحات يصاحبها بالضرورة تقدم علمي واجتماعي وسياسي ونتيجة ذلك تظهر حضارات تبنى لتعكس تلك التخمة الاقتصادية العلمية والاجتماعية .ان تلك السلطة والسيطرة التي يحصل عليها اولئك الحاكم ما هي إلا ثمرة للتضحيات الجسام التي يقدمها الشعب والتي تكون على أشدها في أثناء حكم مثل هكذا حكام فيتربع هو وبالتالي شعبه أعلى موقع في قمة ناقوس التطور الحضاري، فإذا أتى بعده حاكم على شاكلته تستمر تلك الحضارة أو ربما يزيد عطاؤها، إما إذا أتى حاكم ضعيف فإنها تبدأ بالانحدار.

ليس وجود الحاكم الضعيف وحده الذي يؤدي إلى التدهور في الحضارة ولكن هنالك أمورا كثيرة أخرى يجب وضعها في الحساب , أولها ان الحضارة لا بُدَّ ان تجلب خيرا للشعب وإذا ما استمر هذا الخير فانه سوف يسبب تخمة تخلق عند الحاكم وشعبه غرورا واستهتارا بما حصلوا عليه من قوة ونمو حضاري، فيعيشون من تلك التخمة وعليها. وثانيها ان تلك التخمة تخلق ترفا اجتماعيا وسياسيا يؤدي إلى ترهل في تلك الدولة، وثالثاً تكوين تيارات اجتماعية بمفاهيم جديدة ربما تكون معاكسة للنظام الاجتماعي والسياسي المعمول به في ذلك البلد .

فمن ذلك نجد ان هذه التخمة تعمل عملها في البلد بصورتين ربما تكونان متضادتين ومتزامنتين الأولى تدفع نحو النمو والتقدم والمزيد منها بواسطة الزيادة في العمل الجاد الشاق المستمر والذي يحتم على تلك الدولة دخول حروب استعمارية أو في العمل العلمي والتكنولوجي. والثانية تعمل على تفتيت ذلك التقدم من خلال استغلال ما متوافر من تلك التخمة وعدم تعويض ما يستهلك منها، ان ذلك الاستهلاك المتزايد يكون مدفوعا

بالقوة التي تدفع الإنسان لمسايرة مجتمعه وإلا سيكون مصيره التأخر عن مواكبة اقرانه. ان الإنسان بطبعه يريد ان يسير حيثما يسير الآخرون وبصورة خاصة اؤلئك الناس القريبون منه (أهله وأقرباؤه وأصدقاؤه وجيرانه وأبناء قريته أو مدينته وأبناء بلده) ,ان ذلك الأمر يصبح كالوباء في سرعة انتشاره وكالمودة في عمق تأثيره.

وتتنعم بتلك التخمة (نتيجة جهود جيل العمل والجد) أجيال متعاقبة من غير ن تتمكن أو تحاول او تعمل على تعويض ما تصرفه أو الاستمرار في البناء، وبمرور الزمان ينفد ما عندهم ويتهاوى البنيان وينتهي ذلك التطور وتبدأ مرحلة جديدة مصيرها الانحدار الحضاري الذي لا بُدَّ منه.

ولو رجعنا إلى الخط البياني الذي تكلمنا عليه سابقا وتتبعنا مسيرته منذ الوهلة الأولى لتحرك تلك الحضارة ,نجده يبدأ بصعود معتدل ولكنه مستمر، ثم يصل إلى مرحلة متسارعة فيكون بزاوية تكاد ان تكون عمودية ,ان ذلك الجزء من الخط البياني يمثل المرحلة الأولى وهي مرحلة العمل الشاق والبناء والتقدم المستمر، تأتي بعده مرحلة يبقى على مستوى واحد لا صعود ولا نزول ,وهي الحقبة المتمثلة بقمة تلك الحضارة، فتكون بداية لحقبة جديدة أساسها التمتع بالمكتسبات والتوقف عن التضحيات والعمل الشاق وربما تصل الأمور إلى حد البطر. وبمرور الوقت وبموت جيل العمل الشاق وبوجود التخمة الاقتصادية الاجتماعية العلمية يأتي جيل أو أجيال لم تسهم بأي شيء من اجل بناء تلك الحضارة وربما حاكم ضعيف وجاهل أو ربما يكون غبيا وشعبه متخم مرفه لا يعرف أي شيء عن قيمة وأهمية العمل الشاق ,فيكون جيلا مستهلكا بدلا من ان يكون مصنعا، مهدما بدلا ان يكون بانيا خامدا بدلا ان يكون متحفزا.

ان داء الكسل هذا إذا ما تفشى في الشعوب فانه يسري سريان بطيئا وخفيا من دون ان يشعر به احد ,فيبدأ بالنخر في جسم تلك الحضارة تدريجيا إلى ان يسقطها ,لان كل ما مخزون يفنى إذا لم يلازمه ادخار وبناء مستمر. ان تعاقب أجيال بهذه الروحية يؤدي بالتالي إلى هبوط ذلك الخط البياني إلى الحضيض.

ان آباءنا واجدادنا ممن عاصروا الإمبراطورية البريطانية العظمى يعرفون عظمتها وسيطرتها على العالم كله، فلقد كانت تدعى بالإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وصلت قمة مجدها في عهد الملكة فكتوريا، دخلت بريطانيا حربين عالميتين وخرجت رابحة، ولكن خروجها من الحرب العالمية الثانية كان بداية لعملية أفول قوتها وسلطانها، بعد وفاة الملكة فكتوريا، حكم بريطانيا ملوك اقل قدرة وسلطانا ليس هذا فقط ولكن كان الشعب البريطاني فخورا بانجازاته الحربية وتقدمه العلمي والتكنولوجي فما عليه الآن إلا التمتع بتلك الانجازات ولا بُدَّ له من الحصول على المزيد من الامتيازات والكثير من المتعة والراحة.

ان نهاية الحرب العالمية الثانية كانت نقطة التحول التي نقلت بريطانيا العظمى من القوة الوحيدة في العالم إلى المملكة المتحدة والى واحدة من الدول الكبرى وها هي مستمرة في نهاية الخط البياني الجزء الذي يؤشر أفول نجمها. كم جيلا تحتاج لكي تكون بلدا اعتياديا كأي بلد اخر من دول العالم الثالث، ربما سيعيشه بعض من القراء الذين هم في عمر الشباب أو يلمسها أولادهم.

خرجت أميركا من الحرب العالمية الثانية كقوة عظمى أسوة بالاتحاد السوفييتي ولكن سرعان ما أصبحت القوة العظمى الأقوى في العالم وها

نحن نعيش حقبة القوة العظمى الوحيدة في العالم وبلا منازع وإرادتها فوق كل إرادة وبرغم ان أميركا تعمل ما لم تعمله أي حضارة سابقة وذلك بمنع تقدم أي دولة مناهضة لقوة أميركا ,ولكن القانون الطبيعي لا بُدَّ ان يتغلب ولا بُدَّ ان يكون مصيرها مصير أي حضارة سابقة نفسه الا وهو السير نحو الانحطاط.

وإذا ما عدت بكلامي عن العراق نجد ان الشعب العراقي بنى, وعلى مدى التاريخ ,حضارات اسهمت بفعالية وأولوية في تقدم ركب الحضارة الإنسانية ,فهو أول من بنى المدينة وأول من اشتغل بزراعة الارض وأول من وضع القوانين واسهم في التطور العلمي من كيمياء وطب وفلك وحساب.

لم نجد في تاريخ هذا البلد الذي يمتدد إلى ما يقارب ثمانية الاف سنة طورا يختلف عن بقية أطوار شعوب هذه الأرض ففيه البناة وفيه المترفون المتكاسلون , فالبناة يرفعون الخط البياني والمترفون المتكاسلون يهبطون به .على مدى تلك السنين ذات ثمانية آلاف كان هنالك من يبني وهنالك من يهدم، أجيال تعمل بجد واجتهاد لتبني حضارة لتأتي بعدها أجيال لتهدم تلك الحضارة ,فحضارة تبنى وتهدم لتظهر مكانها حضارة أخرى تبنى وتهدم، وكأن قدر هذا الشعب هو بناء مستمر وتهديم مستمر.

ان العراق الحالي وصل إلى أدنى درجة من درجات الانحطاط الحضاري، فهو يعيش في نهاية الخط البياني آنف الذكر، و ان لم يكن هذا كافيا فانه قد وضع تحت طائلة البند السابع الذي جعل العراق غير مؤهل لإدارة نفسه، وهو معرض في أي وقت من الأوقات ان يغزى وينهب من جديد، فهو لا يملك حرية القرار فقراراته مرهونة بموافقة

الآخرين. ان هذا الظلم المسلط على الشعب العراقي لم يحصل وعلى مدى التاريخ الإنساني لأية دولة من الدول أو شعب من الشعوب في العالم. لقد أوصل صدام حسين وحزبه ،وفي الأربعين سنة الماضية، هذا الشعب والعراق كدولة إلى أوطأ ما يمكن ان تصل إليه الدول والشعوب.

فلم يبقَ في العراق شيء يفتخر به، فلقد كانت تلك الحقبة سنين قحط ودمار وخراب ليس فقط للبنية التحتية للبلد وليس فقط للعمران أو للزراعة أو للصناعة أو للاقتصاد فحسب بل الأهم من كل ذلك، هو دمار الإنسان العراقي .ان تلك السنين العجاف خلقت جيلا محطم النفس غير مبالٍ حتى بنفسه، فاسد العقيدة عديم القيم اتكالي يريد ان يأخذ كل شيء ولا يعطي شيئا.

ربما لا ترضى عزيزي القارئ بذلك فتنعتني باني ظالم، فأجيب نعم وأقول صح لو خليت لقلبت اننا نجد ان هنالك الكثير من الافراد ممن يريدون الإصلاح ولكن التيار الجارف هو تيار الخراب وليس تيار الإصلاح، فما سبب ذلك؟ ولماذا بهذه الصورة؟ ذلك ما أريد ان اطرحه في بحثي هذا عسى ان نجد جوابا لتلكم التساؤلات وربما نجد حلا للمشكلات التي تقف حجر عثرة ومعرقلة ومعطلة لعجلة التقدم وبالتالي خروج العراق من هذا التدهور الحضاري وحضيض عدم المسؤولية واللامبالاة والكسل والإتكالية إلى قمة التطور الإنساني وفي الأقل مواكبة العصر الذي نعيشه.

ان السنين العجاف تلك والحروب المستمرة والقهر والموت والجوع والاضطهاد قد خلقت أجيال محطمة النفس غير مبالية بأي شيء فأصبح الناس لا يهتمون بنوعية الحياة أو حتى إذا عاشوا أو ماتوا، وعندما تصل

الحالة بالإنسان إلى هذه الدرجة من الإحباط بحيث لا يهتم حتى بحياته نفسها فلا نتوقع منه ان يهتم بالوطن ومصلحته ونموه وتطوره، ان تنامي اليأس الذي اصطحب هذا الدمار جعل الفرد العراقي غير مهتم بأي أمر سوى عيشه اليومي وكيف ما تكون تلك المعيشة. فطالما لا تكون هنالك حوافز فالطموح قد قتل والحاجات أصبحت تلك الحاجات التي لا بُدَّ منها كالأكل والشرب (الحاجات في اوطأ موقع في هرم الحاجات)، لقد وصلت به الحالة إلى التسليم للإرادات القاهرة له وباعتقاده بان لا إمكانية له على مجابهتها.

حال حكومة صدام والبعث لا تختلف كثيرا عن حال الحكام الظلمة الذين سبقوه أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وابن زياد، اذ حكم صدام العراق بالحديد والنار واستعمل كل الوسائل التي استعملها أسلافه، قتل الناس على الشبهة، وقتل الناس لان أقرباءهم خالفوا النظام، ولم تكن صلة القرابة تقتصر على الآباء والأبناء فقط وإنما تعدت ذلك إلى الدرجة الثالثة من القرابة وربما ابعد، ولم يكتف بالموت والإعدامات بل استعمل الحرب الكيمياوية على شعبه في حلبجة وفي أهوار الجنوب الشيعي.

ولما اندحر في الحرب، التي قصمت ظهر البعير، وهي حرب تحرير الكويت انتفض الشعب العراقي، وبتشجيع من أميركا، ضد نظام صدام حسين بانتفاضته الشعبانية ولكن تخلت أميركا عن المنتفضين، فرجع صدام إلى حكم العراق بقوة وقسوة وظلم اكبر مما كان عليه في السابق، فانتقم من الشيعة في الجنوب اشد انتقام، فكانت المقابر الجمعية، ووصلت به وبحزبه الحقارة واللا إنسانية ان يدفنوا الناس أحياء، ومنهم من أذيب بماء الذهب فمنهم من فرموا ورميت لحومهم في النهر لتأكلها الأسماك.

وهنا نجد مظلمة أخرى يختص بها الشيعة من دون المكونات العراقية الاخرى ففي الوقت الذي انتفض الشيعة والكرد في آن واحد ، فان الشيعة كانت معاملتهم مختلفة ففي الشمال العراقي وضعت الأمم المتحدة منطقة حظر جوي منعت طائرات صدام من الطيران فوق أراضي كردستان مما أعطى الكرد قوة كافية لمقاومة جيش صدام ولكن سمحوا له باستعمال طائراته في محاربته للشيعة في الجنوب مما سبب سقوط انتفاضتهم ونجاح انتفاضة الكرد.

ان الدولة العثمانية فرقت بين الشيعة وكل بقية طوائف الشعب العراقي فجعلتهم مواطنين من الدرجة الثانية [١٨٧] اما الكرد فانهم لم يلقوا المعاملة السيئة نفسها مثل الشيعة لان الاكراد كانوا أشد عناصر الامبراطورية استقلالا واكثرها ازعاجا وإقلاقا"[١٨٨] فوعورة أراضيهم أعطتهم فرصة النجاة وذلك بالاختباء في جبال كردستان الصعبة ولذلك لم يستكينوا ويقبلوا بالظلم في أي وقت من الأوقات. وتعد ومس بيل في مذكراتها المناطق الكردية من أكثر المناطق العراقية ضوضاء فكانت العشائر الكردية متصارعة بينها ورؤساؤها يسعون من اجل الحصول على اكبر المكاسب إلا النزر القليل منهم الذين كانوا مدفوعين بدافع قومي محض .كما كانوا متذبذبين بين مناصر أو مناوئ للأتراك على حساب الانجليز أو العكس صحيح .ان مشاركة الأكراد في مذابح الأرمن كان لها تأثير سلبي في تعاملهم مع الآخرين ومع الانجليز والمسيحيين وبصورة خاصة مع الآثوريين.

أتساءل: يا ترى هل هنالك لغز يمكننا ان نفكه أو عبرة تاريخية يمكننا ان نتبع خطاها لكي ندفع بعجلة التقدم ولكي نبني حضارة تماثل

حقبنا التاريخية المتطورة التي توجت العراق كرائد من رواد المجتمعات الإنسانية.

انا لا اعرف ولا ادري إذا كان هنالك شعب بني وهدم وبنى وهدم وبني وهدم كما فعل الشعب العراقي ,فالشعب العراقي قد بنى حضارات متعددة وعلى مر التاريخ كلما أفَلت واحدة منها بنى أخرى على أنقاضها .

العوامل التي أسهمت في خلق الشخصية العراقية الحالية

ان الشعوب تستخلص من تاريخها عبر إسهام، ومهما كان تأثيرها صغيرا في بناء شخصية المجتمع، فكما ان التاريخ العراقي كان له اثر في رسم الخطوط العريضة للشخصية العراقية التي ظهرت في تقسيم المجتمع العراقي على اقسام ثلاثة رئيسة (تكون نسبة مظلوميتها متفاوتة والتي اصبحت مفهوما عاما لهذا المجتمع) على اساس ان هنالك نخبة سائدة وهنالك من هم مواطنون من الدرجة الثانية والثالثة.

فكما ان الماضي له تأثير في رسم الخطوط العريضة للمجتمع فإن الحاضر (والذي ربما يمكن ان تكون فترته الزمنية بنحو خمسين سنة) والذي يتضمن اربعة اجيال فيكون الجيل الحالي والجيلان اللذان قبله (الاب والجد) وجيل ما بعده (الابناء) هو اللاعب الرئيس في تشكيل تفاصيل الشخصية الحالية.

إذاً لا بُدَّ لنا من ان ندرس العوامل التي أثرت في تكوين الشخصية الحالية:

علاقة الحاكم بالمحكوم

كان من سوء حظ العراقيين ان يحكمهم ولاة وحكام طغاة، مع بروز حكام هنا وهناك كانوا أرأف من غيرهم وأكثر محبة للعراقيين مثل عبد الكريم قاسم. إن المرة الأولى والأخيرة التي حكم فيها العراق بطريقة ديمقراطية عادلة كانت في أيام علي بن أبي طالب عليه السلام اذ جعل الدين المحمدي ميزانا لحكمه.

ومن مهازل أو مفارق الزمان برغم تباين طبيعة الحكام الذين حكموا العراق انه لم يستقر أبدا، فالحكام الطغاة بغوا وقتلوا وهدموا وحبسوا فخضع القسم الأكبر من الشعب العراقي ولكن لم يخضع كل العراقيين، والحكام الذين أحبوا العراق وحنوا على الشعب وأعطوه فسحة من الديمقراطية أعطوا بذلك فسحة للطامعين في الاستيلاء على الحكم ان يقفوا في وجه الحكومة، وما الثورات المتتالية في العصر الحالي أو الانقلابات المستمرة إلا شاهد على ذلك.

إذاً لا الطاغية كان مقبولا ولا المتوازن رضي به ولا الإمام العادل والمنصف أُيد.

لم يكن وجود حكام ظلمة وطغاة ولا غيرهم من الحكام قادرين على ان يحققوا استقرارا كاملا في العراق، فلم يتمكن حكام كانوا قد مارسوا وحشية وقهرا وظلما لم تمر على البشرية أمثالهم، أمثال هولاكو ,والحجاج بن يوسف الثقفي ,وصدام حسين ومن لف لفهم، من تركيع الشعب العراقي، نعم همشوه، نعم أوقفوه ولكن لم يفنوه لأنه دائما ما كان يثور على ظلمهم بطريقة أو أخرى.

ان مسألة الظلم في المجتمع العراقي توسعت لتشمل ليس الدولة وحدها بل تعدتها إلى حكام القبيلة وحكام العشيرة والأب في البيت والأخ الكبير والولد على البنت وكأن الظلم وراثي مستمر ومتفشٍ ودائم وفي كل زاوية من حياة الإنسان العراقي.

لقد أصبح الظلم شيئا طبيعي وسمة من سمات المجتمع العراقي، فبما إني مظلوم فلا بُدَّ ان انتقم لظلمي ممن هو تحت سيطرتي. وهنا نتساءل: إذا أين هي القيم الإنسانية التي نؤمن بها؟ وأين هي القيم والمثل الدينية التي نؤمن بها؟ وأين هي المثل الأخلاقية والاجتماعية التي نؤمن بها؟ ظاهر الأمر، أننا نستعملها عندما نحتاج إليها وبما يناسب إراداتنا أو حاجاتنا ونتركها جانبا عندما تكون خلاف إرادتنا وحاجاتنا، فهنا نحن بشر وهناك نحن وحوش، وهنا نحن مؤمنين وهناك نحن غير مؤمنين ,وهنا نحن إنسانيون وهناك نحن ابعد ما نكون عن الإنسانية، لماذا؟ هل ان إنسانيتنا وعقيدتنا وطيبتنا وأخلاقنا هي من صميم أعماقنا أم إنها لا تغوص بعيدا عن جلودنا وفي بعد لا يتعدى الطبقة الجلدية الميتة والتي هي في حالة تآكل مستمر فتنسلخ في مكان وتبقى في مكان اخر!

قلنا سابقا بأن كل إنسان عنده حاجات وهنالك مغريات وإرادات كل واحدة منها تدور به في فلك ربما متفق أو مختلف مع المجتمع. فهنالك أشخاص مستعدون ان يتحدوا كل الإرادات الممانعة من اجل تحقيق ما يصبون إليه. وعلى النقيض من ذلك هم الأشخاص الذي يتنازلون (وفي الأقل ظاهريا) عن بعض من تلك الحاجات أو القبول بجزء منها معتقدين بان تلك الطريقة هي المثلى لتحقيق حاجاتهم أو ربما تكون الحاجة التي يحصلون عليها أهم من تلك الحاجة التي تنازلوا عنها، ان مثل هكذا أشخصا غالبا ما نراهم يحققون تلك الحاجات اما بالسر واما بخيالهم.

إننا حينما نتكلم على هذين النقيضين يتضح لنا صفة في غاية الأهمية وهي ان المُتَحَدين والمناوئين للحاكم لن يقبلوا الا بما يريدون او يطمحون الى تحقيقه، اما المتنازلون والخاضعون فانهم ينقادون ويقبلون بالتنازل عن حقوقهم للحاكم، ان هذا التناقض ربما يكون صفة من أهم صفات الشعب العراقي. ان كلا من هذين النقيضين (اذا ما تمكنوا من تسلم الحكم) يمكن ان يتصرفوا اما كتصرف الحاكم الذي تحدوه او ربما تكون معاناتهم للظلم دافعا في جعلهم منصفين.

ان أكثر الشعب العراقي عاش مظلوما في أثناء حكم حزب البعث وصدام ، فلقد ظل الناس حبيسي بيوتهم يخافون ان يخرجوا إلى الأماكن العامة خوفا من ان يختطف أولاد صدام أو زبانيته نساء تلك العائلات، والقصص كثيرة في هذا المجال, وما هذا الا هو نوع واحد من ذلك الظلم الذي كان يتعرض له هذا الشعب.

لقد أصبح موضوع هذا الظلم جزءا من الإرادات التي تقود مسيرة المجتمع بالكامل .فمن لا يملك القدرة على رد الظلم عن نفسه فهو في مكان اخر (إذا ما تمكن) يمارس الظلم على الآخرين وفي اقرب فرصة متاحة له وبشتى الوسائل المتوافرة لديه، وهنا يبرز سؤال هل ان هذه الممارسة غير واعية ؟ الجواب لا، إنها واعية وبكامل الإرادة لأن ذلك الشخص بممارسته للظلم على الآخرين يعتقد بانه أوّلاً ينتقم من الذين ظلموه وثانياً فانه يستثمر تلك الحالة السلطوية من اجل تحقيق حاجاته.

على مر السنين (قرابة الف واربعمائة سنة) اعتمد الحكام على طائفة واحدة لكي يأخذوا منها شرعِية الحكم، وفي العراق متنوع الأعراق والطوائف اعتمد اولائك الحكام على الطائفة السنية. وفي حقيقة الأمر ان

كل العراقيين كانوا مظلومين وحتى الطائفة السنية لان الحكام لم يكونوا مهتمين بكل الطائفة السنية ولكن جل اهتمامهم كان منصبا على النخبة من تلك الطائفة فاهتموا فقط في أصحاب النفوذ منها او الذين يطيعونهم طاعة عمياء ولقد قابلهم الحكام ثوابا لتلك الطاعة والولاء خير كثيرا، وأما بقية الطائفة فلا يصيبها شيء من خيرات الحاكم. وخير دليل على ذلك ما كنا نسمعه، وفي اثناء حكم صدام، عن العوجة وتكريت كنا نتصور بأنهما لا بُدَّ ان يكونا أفضل مئة مرة من أي مدينة من المدن الكبرى في العالم المتقدم، فهما أفضل من مانهاتن و نيويورك ودبي وأي مدينة جميلة. ولكن وبعد السقوط فوجئنا بأنهما لا تختلفان في تخلفهما عن أي مدينة عراقية أخرى، ليس تلك المدينتان فقط ولكن كل المناطق السنية لم يتحسن وضعها في اثناء حكم البعث وصدام، أما هو و كلابه فكانوا يعيشون حياة بذخ واستهتار لا نظير له.

ان الطائفة السنية اكتفت بان يكون الحاكم منها وبما ان المؤسسة الدينية هي مؤسسة حكومية تأتمر بأمر الحاكم؛ لعبت دورا مهما وشجعت أهل السنة على قبول أولئك الحكام ووصفتهم على انهم أولياء الأمر والناس مأمورون بطاعتهم، ان الفائدة الوحيدة التي افاد منها أهل السنة هو تفضيلهم عن الطوائف الأخرى في المناصب الحكومية وفي المصالح التي لها علاقة بالدولة.

فمثلا إذا كنت أريد ان احصل على وظيفة فهنالك خياران: الأول ان أقدم على تلك الوظيفة حالي حال الآخرين وأتنافس عليها وتكون تلك الوظيفة من نصيب الأفضل، أما إذا كنت غير كفئا لتلك الوظيفة فلا بُدَّ من ان استعين بالوساطة وأركز على اني من الطائفة الحاكمة، وهذا يضيف

ظلما اجتماعيا اخر على الشرائح والمكونات الاخرى للشعب العراقي فهم مهمشون بسبب انتمائهم الطائفي والعرقي لتكون تلك اضافة جديدة إلى سلسلة من المظالم الأخرى.

ان الماضي كما تكلمنا عليه سابقا له تأثير كبير في الحاضر لان ذلك الماضي الذي بني على الظلم لا بُدَّ له من ان يستمر ويتطور مع مرور الزمن، فكلما كان تاريخ ذلك الظلم عريقا كلما تركزت في الأذهان (للظالم والمظلوم) فيكون ذلك الظلم حقيقة واقعة، فالظالم من حقه ان يكون ظالما لأنه السيد وهذا يعطيه الحق بذلك وما على المظلوم إلا ان يقبل بها. أما المظلوم كونه العبد وعليه واجب الطاعة لسيده، ومن يتجرأ بالخروج عن هذه القاعدة لا بُدَّ ان يعاقب بقسوة. ان استمرارية ذلك الظلم وعلى مدى مئات من السنين مهد لقوانين وضعية أصدرتها الحكومات الظالمة المتعاقبة وطبقت على المظلومين فأصبحت عرفا اجتماعيا مقبولا من الاثنين الظالم والمظلوم.

حتى أصبح العرف وكما يقول علي الوردي[١٨٩]: «لقد حكم الطغاة هذا البلد أجيالا متعاقبة، فاعتاد سكانه بدافع المحافظة على الحياة ان يحترموا الظالم ويحتقروا المظلوم»، ليس ذلك فقط ولكن هنالك مثلا يدعو إلى الشدة في الحكم، فالحاكم القوي والذي لا يرحم هو الحاكم الذي يضبط الأمور أما الحاكم الذي يعفو ويغفر ويرحم فانه ضعيف حتى ساد المثل القائل: «الامام اللي ما يشور يسموه ابو الخرك».وفي هذا المجال يقول غوستاف لو بون[١٩٠]: «ان الجماهير تبدي احتراما تاما للقوة وغير آبهة بالاحقية، فهم يعتبرون الباحث عن الاحقية ضعيفا، وعلى هذا الاساس فان الجماهير تتعاطف وتعطي اكبر قدر من الاحترام والطاعة والتقدير للحاكم الظالم اما السيد المتساهل فلا اعتبار له عندهم». لقد كان عبد الكريم قاسم

يقول: «عفا الله عما سلف والعفو عند المقدرة» وكانت نتيجة ذلك ان تآمر عليه من يؤمنون بالعنف والقسوة المفرطة بالتعامل مع الاخرين، ولقد بلغت عدد المؤامرات والمحاولات الانقلابية عليه الى العشرات إلى ان نجحوا في الآخر بالانقضاض عليه في انقلاب قتل فيه أبشع قتلة، واذا تساءلنا عن من هم قتلته، فنجد انهم أولئك الناس الذين كانت محاكم الدولة قد حكمت عليهم بالاعدام بسبب محاولات انقلابية سابقة وعفا عنهم عبد الكريم قاسم.

لقد كان معسكر علي(١٩١)، الذي تمتع بحرية كاملة، مشتتا وفيه اراء متضاربة وكان فيه اعداء علي يصولون ويجولون ولا يعمل لهم اي شيء او حتى يمنعهم من تلك الاعمال، فكان يتعامل معهم على انهم اصحاب رأي مخالف لرأيه ولا يسمح بقمعهم الا اذا نشروا ارهابا وخوفا في المجتمع. وعكس ذلك ما كان عليه معسكر معاوية فلقد كان مترابطا ومحكما لان معاوية لم يسمح لاي احد من ان يبدي رأيا معارضا او ينتقد فعلا او رأيا لمعاوية، فلم يسمح لنشر دعايات مغرضة ولا للشغب ولا لاراء مناوئة، لقد استعمل عدة اساليب لكبح الاصوات المعادية فلقد اشترى بعضهم بالأموال ومنهم من عاقبهم اشد العقاب.

الحقبة بين حكم العثمانيين وحكم البعث وتأثيرها في الشخصية العراقية الحديثة

بعد انتهاء الحكم العباسي وبسبب احتلال التتار للعراق والخراب الذي صبوه على بغداد، بدأت سلسلة من التدهور الحضاري في كل المجالات، فبعد ان كان العراق قمة في كل شيء أصبح يفتقد إلى كل شيء، فكما ان التقدم في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي تصاحبه تغيرات

في الشخصية الاجتماعية وبالتالي الشخصية الفردية، فالتدهور والانحطاط ايضا يكون سببا في احداث تغييرات في الشخصية الاجتماعية وبالضرورة بالشخصية الفردية.

منذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا كانت قد مرت على العراق سنين عجاف وتتابع عليه محتلون من اجناس مختلفة واحدا اثر اخر وصولا للحكم العثماني الذي أسس لإمبراطورية عثمانية عنصرية يكون فيه الأتراك سادة وبقية الشعوب غير التركية المحتلة عبيدا ,لقد وصلت بهم العنصرية إلى ان يفرضوا اللغة التركية على البلاد المحتلة، وكان المواطنون من الأصول التركية هم المهيمنين على الدول المحتلة فهم المالكون وهم التجار ولا يسمح لغير الأتراك بالتقدم والى الوصول الى مناصب كبيرة في الحكومة.

أما في العراق فلقد كانت تلك العنصرية مضاعفة، فلم يكن التمييز على اساس عرقي فقط بل تعداه الى تمييز طائفي، لقد شجعت الحكومة التركية طائفة معينة على حساب طوائف أخرى واضطهدت واحدة على حساب أخرى وفي جميع المجالات سواء كانت اقتصادية امعسكرية ام سياسية وذلك من اجل جعل طائفة معينة مهيمنة على كل الطوائف الأخرى.

وثقت مس بيل (في مذكراتها) تلك الحقبة من الحكم العثماني في العراق والظلم والحيف الذي لحق بالشيعة، فهي تصف المعاملة القاسية التي عانى منها الشيعة حتى في دفن موتاهم[١٩٢] بقولها: «كانت رسوم مفروضة على دفن الجنائز في أماكن الشيعة المقدسة الواقعة كلها في ولاية بغداد تدفع لخزينة بغداد».

وبرغم ان الأوقاف الشيعية والسنية كانت في يد السنة م تراعِ أئمة الشيعة كمراعاتها إلى أئمة السنة فتقول: «دائرة الأوقاف كان يديرها في زمن الترك السنة لفائدة السنة بالكلية تقريبا وكان الإمام السني الذي كثيرا ما كان يقتصر المصلون وراءه على الموظفين الموجودين محليا فقط يتقاضى راتبا كاملا من الأوقاف بينما كان يترتب على الإمام الشيعي الذي يتألف تابعوه من سكان القرية بأجمعها ان يعتمد في معيشته على الصدقة العابرة».

وبالرغم من ان تلك الضرائب التي كانت فقط تفرض على الشيعة، لم تكن الحكومة تصرف شيئا يذكر على المراقد الشيعية فتقول: «وبرغم المبالغ الطائلة التي كانت تستحصل من رسوم الدفنية ,فان مخصصات قليلة جدا كانت تخصص لتنوير العتبات الكبرى في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء وتنظيفها وكانت الرواتب التي تدفع في هذا الشأن تقل في مستواها بكثير عما كان يدفع منها في الجوامع السنية. ولم يكن استياء الناس في المناطق الشيعية من تقاضي السنة لرسوم الدفنية على جنائز الشيعة المتدينين الذين نقل رفاتهم إلى المدافن الموجودة في إحدى العتبات المقدسة يعزى لأسباب مالية فقط وإنما كانت بسبب الظلامة».

ولم تكن الظلامة في الضرائب الجائرة والرواتب المتدنية أو الصيانة المطلوبة بل حتى شملت المدارس فتقول[١٩٣] في هذا المجال: «المدارس الموجودة في البصرة :مدرسة واحدة للمعلمين في مدينة البصرة ومدرسة ثانوية واحدة مع ثماني مدارس ابتدائية في البصرة نفسها وفي قرى شط العرب والعمارة والناصرية وسوق الشيوخ وكانت اللغة الرئيسية التي

تدرس فيها التركية بينما كانت تعتبر العربية لغة ثانوية، كان المعلمون من الأتراك في الغالب، كما كانوا ناس ذو أخلاق سيئة تدفع لهم أجور عالية من دون ان تكون الأهلية المطلوبة للتعليم وكانت أبنية المدارس قذرة غير صحية والمدارس نفسها موبوءة للشرور والرذائل بحيث كان العرب المحترمون يترددون في تسجيل أبنائهم فيها، ولم يكن يعترف بلياقة غير السنة للتعليم فيها، وكان وجود هذه القاعدة بين سكان أغلبيتهم من الشيعة لا يشجع الإقبال عليها».

ان الاختلاف الفقهي بين السنة والشيعة يحتم وجود حكام شرعيين من السنة والشيعة ولكن العثمانيين اقتصروا في هذا على الحكام الشرعيين السنة فقط، وكان واجبا على من يريد حكما شرعيا ان يذهب للحاكم السني، فهي تقول[١٩٤] في هذا المجال: «فقد كان القاضي تحت الحكم العثماني من السنة على الدوام وكان يحكم في الدعاوى التي ترد إليه بموجب الشرع السني أيضا، بحيث ان ذلك كان يؤدي إلى عدم مراجعة الشيعة للمحاكم، ولذلك كانوا يأخذون دعاواهم إلى الرؤساء الدينيين الذين لم يكن لأحكامهم أي وزن (في العهد العثماني) من الناحية الرسمية».

ان التمييز في إدارة الدولة لم يكن قاصرا على المذكور أعلاه ولكن الوحشية والقسوة والاستهتار بالدين والقيم الاجتماعية كان علامة من علامات الحكم العثماني فهي في هذا المجال تقول[١٩٥]: «في تشرين الثاني ١٩١٦ان جنودا أتراكا كانوا يحملون عتادا إلى عجمي اقتربوا من الحلة وطلبوا المرور وعندما ذهبت جماعة من الوجهاء للاتفاق على الشروط القي القبض عليهم وشنق في اليوم التالي عدد منهم، فنجا السيد محمد علي القزويني أقدم رجال الدين في الحلة من مثل هذا المصير بأعجوبة. ثم دخل الجنود البلدة فهدموا واحرقوا ونهبوا وقتلوا. وتحدوا شعور

المسلمين أكثر من ذلك بسبي نساء الأسر المحترمة وارسالهن إلى بغداد وغيرها ليوزعن على الجنود».

ان المظلومية وقبولها كانت ميزة من ميزات الطائفة الشيعية في العراق ,والفوقية والتعالي صفة خاصة بالسنة في العراق وهنا تقول[١٩٦] مس بيل: «إذا ان الحكم استمر في يد السنة والمتحكم به استمر في كونه مصير الشيعة ...وبالتالي لم يتغير شيء في هذا المجال عدا ان الجميع بدأ يزحف أكثر وأكثر نحو التدهور والفساد السياسي والإداري للدولة، ولقد شجع العثمانيين النظام العشائري وهم بذلك لم يكونوا متوازنين فلقد جاءت عشائر سعودية وسكنت مناطق الجنوب العراقي وحصلوا على امتيازات خاصة لم تحصل عليها العشائر الشيعية في المنطقة، وعشائر السعدون في المنتفك (الناصرية) خير مثال على ذلك، ان طبيعة العشائر العراقية الشيعية هي زراعية مستوطنة ومحدودة بأرضها فلذلك تكون قبائل اقرب لها من ان تكون مسالمة من العشائر البدوية السنية الرحل ,الذين كان العنف والتعالي صفة من صفات تكوينهم .ان هذا الظلم المستمر وهذا التمييز خلق تعاليا ونصرة عند مجموعة عراقية وإحباطا وذلة عند مجموعة أخرى».

بعد تشكيل الحكومة الملكية في العراق وبرغم إنها لم تأسس ولم تشكل ما لم يكن هنالك ثورة شيعية كان من ابرز قادتها ومؤججيها والقائمين عليها هم الشيعة فثورة العشرين معروفة لكل الناس، ان الشيعة ثاروا ضد الانجليز(المحررين) لمساعدة ودعم الحكم العثماني الذي ظلمهم، ففي عرفهم ان قبولهم بحكم عثماني مسلم كان أفضل لهم من قبولهم لحكم انجليزي غير مسلم .أما الطائفة السنية فلقد أخذت جانب

الحياد، وبالنتيجة سلم الانجليز مقاليد الحكم للسنة، ففي العهد الملكي كان هنالك بعض الحظ للطائفة الشيعية فلقد حصل بعضهم على بعض الوزارات مثل المعارف وبعض المقاعد البرلمانية ووزارة الخارجية لمدة قصيرة رئاسة الوزراء، وفي تلك الحقبة افتتحت الثانوية الجعفرية .وبصورة عامة سمح للشيعة بممارسة طقوسهم العاشورية بحرية وفتحت الكثير من المساجد والحسينيات .

وفي اثناء حكم عبد الكريم قاسم استمر ذلك التيار المعتدل فلم يلاحظ العراقيون تمييزا بين واحد وآخر، لم يعلن عبد الكريم عن مذهبه ولحد الآن الكل يجهل عائديته الطائفية، بالنسبة إلى محبيه انه عراقي وطني بامتياز، وبالنسبة إلى مناوئيه فكان دكتاتورا بالرغم من انه كان هنالك نوع من الحرية وفي كل المجالات.

ان قسما من القادة المشاركين في الثورة وعلى رأسهم عبد السلام عارف والطبقجلي ورفعت الحاج سري لم يروقهم ذلك الانفتاح واعطاء المجال للجميع ليتمتعوا بوطنهم وبحقوقهم الشرعية فانقلبوا عليه ولم يفلحوا في انقلابهم.

وكان لأميركا وشركات النفط والكويت وعبد الناصر أيد في مجموعة من المؤامرات والانقلابات للاطاحة بحكم عبد الكريم ولكن بالتالي نجحوا وجاءوا باول حكم للبعثيين وعهد جديد من الظلم والاستهتار بحقوق الإنسان وكرامته وشرفه لم يشهد له العراق مثيلا..

أربعون سنة مضت على حكم البعث للعراق استهلوها (وفي أول يوم تسلموا بها مقاليد الحكم) بهدر دم الشيوعيين وكل من له أفكار ماركسية. ولكن بطبيعة الحال امتدت إلى ابعد من ذلك فأصبح كل من ليس مرغوبا

به شيوعيا ويجب قتله والتاريخ يؤرخ إلى تلك المآسي والجرائم التي ارتكبت بحق الكثير من العراقيين. لم تكن تلك الجرائم ترتكب على أساس عقائدي ولكنها وبسبب تسلم السلطة أناس مجرمون وشقاوات وعديمو الضمير تقودهم وتدفعهم إرادات شخصية مبنية على حب الانتقام والقسوة المفرطة وهتك الحرمات والاستهتار بأعراض الناس وأرواحهم فامتدت حتى صارت العداوات والحقد والحسد والطمع دافعا لذلك القهر والظلم بحجة الدفاع عن خط (الثورة) .

فانتهكت بها الأعراض وهدرت الحرمات وكانت فترة مرعبة جدا لا مثيل لها في تاريخ العراق، اذ عاش الناس تلك الأيام رعب وفزع قاتلين ولم يكن هنالك أمان. كان الناس يعيشون رعبا وتهديدا لأمنهم فلم تكن هنالك دولة او مؤسسات امنية تحبس وتحاكم بل كان هنالك شقاوات واراذل يسمون (بالحرس القومي) وبارادتهم الخاصة ومن دون حساب او قانون يداهمون البيوت في أي وقت يشاؤون فيقتلون الناس ومن لم يقتلوه يسوقوه الى مراكز الشرطة (التي اصبحت مقرات لهم) او يسوقونهم الى السجون، واذا كان في البيت بنت جميلة فتلك يكون نصيبها هتك العرض والاغتصاب.

إذا كان لعبد السلام عارف أية منقبة يذكرها له التاريخ, فهي انتفاضته على البعثيين وتحرير العراق من ظلمهم وظلم الحرس القومي الذي لم يكن إلا بابا من أبواب الدعارة والإرهاب، وجاء عبد السلام وتنفس العراقيون الصعداء من ظلم حزب البعث مدة من الزمن ولكن التمييز العنصري والطائفي بقى سائرا ,وجاء بعده أخوه وسار على سيرة أخيه إلى ان جاء البعث مرة أخرى.

لقد قام ذلك الحزب بأول عملية سرقة علنية لأموال العراق وذلك باستقطاع نسبة سنوية مقدارها ٥٪ من واردات النفط لإيداعها في حسابات الحزب خارج العراق، لقد استعملت الكثير من هذه الأموال (في عشرة السنين السابقة ومنذ يوم سقوط الصنم إلى يومنا هذا) في دعم الإرهاب. وما ان استولى صدام على الحكم حتى ادخل العراق في حرب مدمرة مع إيران دامت ثماني سنوات كانت سببا في قتل ملايين العراقيين والإيرانيين وأدت بالكثير من شباب العراق إلى العوق وما زال هنالك آلاف المفقودين الذين لا يعرف لهم قبر او مصير.

كان حكم البعث حكما طائفيا بامتياز حتى وفي حربه مع إيران فقد رفع شعار (كلب يقتل كلب) على أساس ان الإيرانيين شيعة والجيش العراقي وعلى مستوى الجنود ونواب الصف من الشيعة، لقد كان ذلك الشعار اهانة واستهتارا بحقهم، فهم، بالنسبة اليه، لا يصلحون الا حطبا لحروبه، فان فاز بالحرب فهو (القائد الفذ) وهو في الوقت نفسه قد حرق الملايين من الشيعة في نار حربه وإن خسر فهو ما زال رابحا لانه تخلص من ملايين من الشيعة.

ان المغامرات العبثية لم تتوقف عند الحرب مع إيران بل تعدتها إلى الحرب مع الجارة الكويت، دخل صدام وحزب البعث الكويت الشقيقة في اعتداء كان سببا في تحطيم العراق شعبا ودولة، فكان نتيجة ذلك الاعتداء ان تحطمت كل البنية التحتية وسحق العراق دولة وشعبا، فقضى ملايين من العراقيين موتا في حروب المواجهة مع العالم أو في المقابر الجماعية أو بسبب المرض، فلم يكن يجد المريض مستشفيات تأويه ولا أدوية تشفيه، وإذا لم يكن هذا كافيا فان صدام قد أصدر أوامره التي

المستشفيات بان لا يصرفوا الأدوية للمرضى وطالب كل المستشفيات بعدد معين من الأموات وبصورة خاصة الأطفال من اجل إخراجهم بجنازات جمعية لكي يجلب عطف الرأي العام العالمي.

الناس ماتوا جوعا فمنهم من باع كل ما يملكه في بيته، ومنهم من اضطر إلى الانتحار بعد ان سمم أهله ونفسه، والمآسي وثقت في أماكن عديدة وأنا لست هنا في معرض توثيق ذلك ولكني أريد ان استعرض عظم المآسي التي مر بها العراقيون في أربعين سنة ماضية من حكم صدام والبعث.

فعند سقوط الصنم كان العراق محطما بالكامل ولم يستثنَ من ذلك إنسان أو حيوان أو نبات، ان كل عراقي عايش أربعين سنة من حكم صدام يعرف ذلك، لم يتوقف الظلم والدمار والموت بعد سقوط الصنم لان العصابات الإرهابية التي اتبعت سنة وسيرة البعث وصدام في نشر الموت والإرهاب والظلم ليشمل كل العراقيين، فلقد استهدفوا كل مرافق الحياة بالتدمير ولكي يوقفوا عجلة التقدم ويخلقوا رعبا بين الناس لكي يدفعوا الناس إلى القبول بحكم البعث فهم على الاسلوب والديدن أنفسهما في تعاملهم مع الناس (اقتلك او ترضى بي حاكما ولا يحق لك الاعتراض على افعالي حتى وإن ظلمتك).

ان شعبا عاش تلك الليالي المظلمة وذلك التعسف والقهر والموت والدمار ومع هذا يستمر بالحياة لا بُدَّ ان يكون شعبا حيا ويستحق الحياة ولا بُدَّ ان يكون أقوى من كل التحديات، لو ان تلك الظروف القاهرة مرت على أي شعب من شعوب الأرض لما قامت له قائمة. مرت على استراليا حديثا ظروف بيئية سببت أمطار غزيرة وأعاصير والتي ذهب ضحيتها بعض

الناس والممتلكات، وفي آخر حادثة خرجت إحدى النساء وفي مقابلة مع التلفاز الاسترالي لتقول: « كم من هذه المصائب يمكن ان يتحمل الشعب الاسترالي؟».

ان ذلك الظلم البعثي الصدامي قسم العراقيين على ثلاثة أقسام: المناصرون للبعث وهم المستفيدون منه، والمحايدة وهم الأكثرية الذين اخذوا موقف « من يأخذ أمي اسميه عمي»، والقسم الأخير وهم الذين أعلنوا رفضهم للبعث، لكن صدام والبعث فاقوا جميع الظلمة والجبابرة (وعلى مر التاريخ الانساني) الذين يتعاملون بقسوة متناهية مع شعوبهم فاخترعوا وابتدعوا الكثير من الوسائل الحقيرة والسافلة من اجل تدمير تلك القلة من المعارضين للظلم ولكي يجعلوهم عبرة لبقية الناس.

فأول ما قبض حزب البعث على مقاليد الحكم أمهلوا الكرد الفيليية فترة لبيع ممتلكاتهم فكانت الأسعار التي باعوا بها ممتلكاتهم زهيدة وليس بقيمتها الحقيقية، وما ان انتهت المهلة حتى طردوا من العراق بحجة إنهم غير عراقيين، اشترى بعض من العراقيين تلك الممتلكات ولم يعارضوا ذلك الأمر ...ولما لم يعلُ أي صوت ضد تلك العمليات غير الإنسانية، استسهل البعث تلك الأعمال الإجرامية، فتمادوا بظلمهم وفي هذه المرة لم يعطوا مهلة لبيع ممتلكاتهم وبدؤوا يحملونهم في شاحنات قلابة ويأخذونهم إلى الحدود مع إيران ويرمونهم هناك وكأنهم حمل تراب أو رمل ولم يسمح لهم حتى اخذ امتعتهم الخاصة، ولم يعترض على ذلك احد.

واستبد البعثيون في ظلمهم ولم يجدوا من يعاتبهم أو يستنكر أعمالهم, فتمادوا بذلك الظلم وحولوا جرائمهم وطغيانهم إلى رجال الدين

ممن تجرؤوا على الاعتراض على حكم البعث، فكانت أولى المحاولات موجهة إلى رجال الدين السنة أمثال عبد العزيز البدري ، ولما لم يجدوا أي معارضة (حتى من الطائفة التي يدعون انهم منها ويعملون من اجلها) فعدوه ضوءا أخضر لكي يزدادوا طغيانا، عندما امنوا ان السنة غير معارضة انتقلوا إلى علماء الدين الشيعة ولما لم يقف احد ضدهم أحسوا بأمان اكبر وبسيطرة كاملة على كل أمور العراقيين من دون منازع، وأصبح كل شيء مباحا لهم، فاعدموا الشباب وادخلوا الناس الزنزانات وغيب آخرون ولم يقف أمامهم احد.

أرغموا الناس على المشاركة في العمل الشعبي، واجبروا الناس على الانضمام إلى الجيش الشعبي ,و أصبح بعض الناس يتهربون من مكان إلى آخر هربا من ملاحقة البعثيين، ولقد اضطر بعضهم إلى ان لا يناموا في بيوتهم وذلك بالانتقال من بيت إلى بيت ليتهربوا من مطاردة البعثيين، ولم يعارض على هذا احد. خسر الكثير من أصحاب المحال محالهم بسبب غيابهم عنها ولم يعارض ذلك احد، وادخل العراق في حرب دامت ثماني سنوات وقتل الشباب وترملت نساء وتيتم أطفال ولم يتحرك احد.

ان تلك العمليات الإرهابية الحكومية والتعسف في المعاملة ونشر الرعب بين الناس وتحريك الناس بعضهم على بعض خلق رعبا وخوفا بين الناس فأصبح الإنسان يخاف من أهل بيته فيحذر من الكلام عن البعث والحكومة أمام زوجته أو أخيه أو ولده أو أبيه. وان دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى الرعب والاضطهاد الذي كان يعاني منه هذا الشعب المسكين.

ان سكوت الناس على كل تلك الجرائم كان بدافع الحفاظ على النفس وتعلقهم بالحياة وما تجلبه تلك الحياة من منافع التي لا يريدون ان يخسروها، فكانوا يظنون انه طالما ان الأمر لا يهمني مباشرة أو لا يسبب

لي خسارة شخصية فلا داعي للشكوى. وبسبب الانعدام الكامل لأية معارضة أو استنكار تشجع البعث على المزيد من الاستبداد والعنف بالمعاملة مع الشعب، فلقد خلقت مفاهيم جديدة مؤداها يجب الحفاظ على النفس: فالخاسر لا يريد زيادة في خسارته، والذي لم يخسر يريد الحفاظ على ما عنده وباعتقادهم إنهم سينجون من ذلك الظلم.

ان ذلك الارتباط بالذات هي التي أوصلت بالعراقيين إلى الدرجة التي خسروا فيها كل شيء ولم ينج بيت واحد من تلك الخسارة، ولن أكون مبالغا إذا قلت لو أننا عملنا دراسة عن الأضرار التي تعرض لها العراقيون في أثناء حكم البعث وبعد السقوط بسبب الإرهابيين فستكون النتيجة مائلة إلى انه لم تسلم أية عائلة من عائلات العراق من خسائر بشرية أو ممتلكات سواء كانت في خلال أربعين سنة من حكم البعث أو في عشر السنوات التي تلت سقوط صدام والبعث، فالإرهاب اكمل عمل البعثيين وزبانية صدام حسين .

ان ذلك الظلم الذي حاق بالعراقيين وفي جميع الجوانب الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية أدى إلى موت الشعور الوطني بالكامل وقطعت روابط التواصل بين الناس فأصبحت القطيعة هي الأصل وليس التواصل ,وأصبح عدم الاهتمام هو الطبيعي وليس الاهتمام بالنفس أو الأهل أو المجتمع أو الوطن، ان سبب ذلك هو الحرمان الذي أصاب الشعب فلقد حرم من حريته ومن اللقمة الهنيئة أو الهواء والماء البارد، التي هن أساسيات الحاجيات الإنسانية. بحسب نظرية ماسلو فإن الإنسان الذي يفقد هذه الأساسيات لا يمكن له ان يهتم بالأمور التي هي ذات أهمية اقل.

ان كل المظاهر التي رأيناه في العراق والتي تدل على عدم اهتمام الشعب بأي شيء حتى ولو كان له تأثير أو علاقة مباشرة بهم كان نتيجة

حتمية لذلك الحرمان من الحاجات الأساسية للشعب، فنرى ان النظافة غير مهمة فالجميع يرمي الاوساخ أمام بيته وفي كل مكان، ووجدنا انه بمجرد سقوط الصنم وحلول الانفتاح الكلي حتى شارك العديد من الناس في عمليات النهب لأنه صار عندهم القناعة ان الأنا أهم من كل شيء، وأصبح الحصول على المطالب والمكاسب أهم من أي أمر آخر، فاستغلوا ذلك الانفتاح في الحصول على أعلى المكاسب وعلى الاتكالية وعدم العمل والمطالبة بالرواتب، يرتشون ولا يعملون ولم ينته على هذا فقط بل تعدى ذلك إلى كل شيء آخر.

رجل الدين في الحكم

يربط الإسلام الحياة الدنيا في الآخرة، فهذه الحياة هي المؤهلة للحياة الآخرة، فهنالك قوانين وشرائع إسلامية تهتم بتنظيم حياة الدنيا ولم يترك جانبا من جوانبها من دون تشريع، كل ذلك من اجل تحقيق أفضل حياة في هذه الدنيا والتحضير للآخرة أيضا، ان هذا التفاعل الديني في حياة الإنسان وبعد مماته هو تعامل كامل شامل وربما يكون احد اسباب نزول الآية(١٩٧) (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا). لأنه بنزول تلك الآية أكمل الإسلام كل المتطلبات والتحضيرات والقوانين لمعيشة الإنسان الدنيوية والأخروية ولذلك كانت دولة محمد ﷺ دولة مدنية دينية فحكم بين الناس على أساس الدين وعلى أساس تشكيل دولة عادلة منصفة يتساوى فيها كل افراده ولا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى ولا فرق بين إنسان وإنسان إلا بمقدار

إيمانه ومقدار خيره للآخرين. فلا فرق بين بني البشر وكما يقول علي(١٩٨): «الإنسان هو اما أخ لك في الدين أو شريك لك في الخلق».

ان الصراع على السلطة بدأ والرسول الأكرم على فراش الموت وكان المؤشر الأول لهذا الصراع هو السقيفة، والتي كانت نقطة البداية في جعل المنافع الدنيوية أساسا في تحديد شكل الدولة المقبلمة، لقد كان حب التسلط فضلاً عن الحسد واعتقاد بعضهم بأنهم الأكثر أهلية للحكم سببا في ذلك الصراع، ولم يكن تطبيق شريعة محمد ﷺ هي السبب. فكانت نتيجة ذلك الصراع ان بويع أبو بكر لحكم المسلمين.

مرت حقبة الخلفاء الراشدين كأفضل حقبة بعد وفاة رسول الله ﷺ لأنها كانت اقرب ما يكون إلى ما أراد الله ورسوله ان تكون، فحكم الخلفاء بما تعلموه من الرسول ﷺ وبما اجتهدوا فيه. انا لا أنكر ان الإرادة الذاتية كان لها اثر كبير في إصدار الأحكام ولكنها وعلى العموم كانت على الخط الذي رسمه القرآن ومحمد رسول الله ﷺ مع بعض الاجتهادات الشخصية.

تغيرت تلك المعادلة بعد خلافة علي لتصبح الخلافة (ملكا عضوضا) . وإذا ما أردنا ان نكون منصفين يجب علينا ان نلغي كلمة (خليفة المسلمين) ونسميها حكم السلاطين أو الملوك الإسلاميين لتكون اقرب ما تكون إلى حقيقة ذلك النوع من الحكم . ان حكام ذلك الزمان اكتسبوا شرعيتهم باستعمال القوة المفرطة وبالرشوة للقادة ورؤساء العشائر، لقد استعملوا رجال الدين كأدوات لفرض إرادة الحكام وذلك بالدعوة والفتوى بما يماشي إرادات ومصلحة الحكام. والحكام بدورهم أغدقوا على أولئك الشيوخ.

لم يكن هؤلاء الحكام يمثلون الخلافة الإسلامية ولقد كانوا ابعد ما يكونون خلفاء لرسول الله ﷺ، ففي الوقت الذي عاش رسول الله ﷺ كأبسط إنسان وفي كل مرفق من مرافق حياته وحتى في مأكله وملبسه ومسكنه، وفي الوقت الذي كان رسول الله ﷺ عادلا حليما حكيما رحيما مسامحا حتى مع من اعتدوا عليه، ولم يتعالَ على احد صغيرا كان أم كبيرا امرأة كانت أم رجلا حرا كان أم عبدا عربيا كان أم أعجميا قرشيا كان أم غير قرشي من أهله كان أم من غير أهله، كان من يسمون بالخلفاء ملوكا يعيشون في قصور أسطورية ويأكلون افخر الطعام ويشربون المحرمات ويمتلكون العبيد والحريم ويظلمون الناس ويقتلون ويسفكون الدم الذي حرم الله قتلها.

إذا الإسلام هو نظام حكم دنيوي ديني ولكن الإنسان عندما يحكم يكون حاكما دنيويا وليس حاكما دينيا، ان السبب في ذلك هو طبيعة الإنسان التي تدفعه لكي يكون طماعا وطالبا للمزيد ومعرضا للمغريات ويدعو إلى حاجاته ومنافعها التي يريد تحقيقها ولا يمكنه التخلي عنها أبدا لأنها جزء كبير من كينونته وارتباطه بذاته.

ان حكومة محمد ومحمد ﷺ نفسه كان قد وصل أعلى سلم في الرقي الإنساني، لم تكن الحاجات هي القائدة لتصرفاته، فلقد حرم نفسه من النوم لكي يبقى معظم ليله يصلي وحرم على نفسه نعمة الطعام من اجل ان يحس بجوع الفقراء.

إذاً لا يمكن لأي إنسان (غير نبي أو ولي) من ان يربط ويوافق بين الدين والدنيا في حكمه، ولم يمر في التاريخ مثل هذا الشخص عدا رسول الله ﷺ وبعض المسلمين، ان من أفضل الأشياء التي يقدمها رجل

الدين للدين وللناس هو الابتعاد عن الحكم لان الحكم مفسدة، وبصورة خاصة في أيامنا هذه لان الحكم معناه سياسة والسياسة معناها خداع وكذب ومناورة ومهادنة وكل تلك الأمور لا تتطابق مع رجل الدين الذي وظيفته الأساسية هي الدعوة للعدل والإنصاف وترك المداهنة والاحتيال والمناورة والظلم، وإذا ما انغمس رجل الدين في السياسة فان ذلك سيقوده إلى ان يحلل او يقبل بأمورا كان قد حرمها أو منعها الإسلام .

ان عليا بن أبي طالب عليه السلام عمل بالسياسة وتسلم حكم المسلمين ولكنه بقي على شرعة محمد صلى الله عليه وآله وعلى دينه ولم تلوثه السياسة فهو القائل: «ان الحق لم يبقِ لي صديقا» وهو القائل: « القوي عندي ضعيف حتى اخذ الحق منه والضعيف عندي قوي حتى اخذ الحق له» ، ان أي سياسي على مر التاريخ لم يناصر الحق كنصرة علي ولم يناصر الضعيف على القوي كنصرة علي.

أما الأخلاق الإسلامية السامية الحقة التي لا يمكن لاي سياسي اخر ان يتعامل بها عدا علي واضحة جلية في أعماله التالية: ان جيشه وبسبب الفتنة التي اخترعها ابن العاص قد انقسم على بعضه حتى انقلب الخوارج عليه، ومع علم علي بالخدعة لم يقابلها بخدعة أقوى منها لان ذلك خلاف لإخلاقه ودينه ومعتقده، ان جيش معاوية عندما كان مسيطرا على الشريعة منع الماء عن جيش علي ولكن عندما انعكست الآية سمح علي لجيش معاوية من النيل من ذلك الماء، تلك هي الصفات المحمدية التي يجب ان يتصف بها رجل الدين فهل يستطيع أي سياسي عمل ذلك؟

رجل الدين يجب ان يكون في مكانه المناسب وهو في مراكز البحوث وفي المجتمعات الدينية والمناظرات الدينية والنصيحة الدينية

والدنيوية وفي مكان المراقبة والتحذير والإرشاد، ان ذلك المكان هو الأكثر تأثيرا والأعلى صفاء ونقاوة والأطهر للنفس، لأنه ما ان يدخل رجل الدين السياسة حتى يتعرض لامرين: فأما ان يدب الفساد إلى نفسه فيفنى وجوده الديني واما تلصق به صفة الفساد، فينعكس ذلك على الدين لانه ممثل للدين.

يعظم الناس مكانة رجل الدين ويضعونه في منزلة اجتماعية عالية جدا فيعدونه مثالا يحتذى به، وعلى هذا الأساس فهم يعدونه رمزا للنزاهة والأمان والصدق والطاعة لله، وينسون انه بشر تغريه ما تغريهم وله حاجات كحاجاتهم وما الفرق بين الاثنين إلا انه (إذا ما سيطر على الحاجات والهوى والإرادات المشجعة) فضلاً عن فهمه وإيمانه بالدين يجعل معظم تلكم المغريات والحاجات في المدارات العليا في مدارات الذات، ربما لا يقوى على هذا العمل الكثير ممن ارتباطهم ومفهومهم الديني ضعيف. ولو كان رجل الدين حاكما خيرا ومطيعا لله ولسنة الرسول لاتخذ مساعدين له وفي هذه الحالة من يضمن سلامة دينهم وعدم تعلقهم بالمغريات والحاجات الدنيوية.

ان الخليفة الثالث عثمان بن عفان كان قد احاط نفسه برجال يطمحون إلى منافعهم الدنيوية مفضليها على مسؤولياتهم الدينية. اذ اتخذ مروان بن الحكم مساعدا وكان يده اليمنى[١٩٩] ولقد استغل الأخير هذا الأمر فوضع حاجزا بين الخليفة وبين الرعية لا يخترقه احد إلا لمن يرضى له مروان ذلك، فعين أمراء على الأمصار غير ملتزمين بالدين ولا بتعاليمه يشربون الخمر ولا يعدلون بين الناس، كل هذه الأمور كانت تمر ولم يكن لعثمان علم بها أو ربما اقنع بها.

حتى الرسائل التي كانت تبعث من الأمصار إلى عثمان لإعلامه بالسيرة الخاطئة لولاته لم تكن تصله وكان يجيب عنها مروان ويأخذ موافقة عثمان على أمور ملفقة، ان ذلك الظلم الذي حل بين الناس دفع الناس الى الثورة على عثمان التي ادت بالتالي الى اغتياله.

وفي أيامنا هذه سمعنا أو لاحظنا أو شاهدنا ان الكثير من رجال الدين وفي كل مستوياتهم العلمية قد اتهموا بقضايا فساد، إنها اما ألصقت بهم كيدا وظلما أو إنها قضايا فساد حقيقية، ان رجل الدين حاله حال أي إنسان اعتيادي عنده حاجات وهنالك إرادات عليه وله فلذلك لا بُدَّ لرجل الدين ان يبقى بعيدا عن الحكم والسياسة لكي لا يقع فريسة للتشهير أو الوقوع فريسة لإغراء السلطة.

من الناحية المالية قيل: ان لكل شخص ثمنا فمنهم من يرضى ببيع دينه وقيمه ووطنه بألف دولار ومنهم من يتنازل عن دينه من اجل أكثر من ذلك، يقال ان أربعة رجال من زعماء القبائل (٢٠٠) أتوا إلى معاوية فأعطى لكل واحد من ثلاثة منهم مئة ألف دينار وأعطى الرابع فقط خمسين ألف دينار، فسأله الرابع لماذا أعطيت الآخرين مئة ألف وأعطيتني خمسين ألف، فأجابه معاوية لأني اشتريت منهم دينهم، فأجابه وبسرعة إني أنا الآخر أبيعك ديني بخمسين ألفا أخرى.

ان دخول رجال الدين في الحكم خطير لسببين: الأول ما سبق ان تكلمت عليه والثاني ان يستغله أعداء الدين من اجل الإطاحة بالدين وبرجال الدين، ان هؤلاء الناس يلبسون لباس الدين ويدعون أنهم من رجال الدين لكي يشوهوا (بما يعملون من أعمال) سمعة الدين ورجاله. لقد دخل الساحة الدينية أناس عديدون لا يمتون إلى الدين بشيء ولبسوا

العمائم وادعوا بأنهم رجال دين كي تتاح لهم الفرصة لكي يحصلوا على مكاسب غير مشروعة أو لتشويه الدين.

ذكر لي احد الأصدقاء (من أهل البصرة) فقال، التقيت بأحد المعارف وكان بعثيا حقيرا طالما كتب الكثير من التقارير التي كانت سببا في خراب الكثير من البيوت، وبعد اخذ ورد الكلام قال: دعني اذهب لكي البس ملابس الشغل، يقول لما رجع بملابس الشغل تلك وجدتها ملابس رجل دين، فسألته مستغربا: ما هذا؟ فقال إنها المصلحة.

ان هذين السببين هما في غاية الأهمية لذلك يتوجب على رجال الدين ومن اجل الحفاظ على سمعة ونقاوة أنفسهم ودينهم ان يتركوا السياسة للسياسيين، ان ذلك أزكى للنفوس ويعمل على تسامي رجال الدين عن حب الدنيا وزخرفها وكذلك يعمل على تفويت الفرصة على المفسدين الذين يمكن ان يستغلوا اسم الإسلام لتشويه سمعته وتحقيق مصالحهم الشخصية. اما اذا لا يوجد بد من تعاملهم بالسياسة فمن الافضل ان يتركوا الكلام باسم الاسلام وينزلوا للساحة السياسية على انهم سياسيون متدينون (والدين بينهم بين الله).

ان الحكام والسلاطين والملوك على مر الزمان كانوا قد استعملوا الدين ورجال الدين وعاظا لهم فيمدحونهم ويدعون لهم بالتوفيق والنصر على كل من يعاديهم سواء كان اؤلئك الحكام على حق أم على باطل، فهم بذلك يدعون ويشجعون الناس إلى طاعتهم والامتثال لأوامرهم.

ان اخطر ما يمكن لرجل الدين ان يفعله هو استغلال موقعه الديني من اجل تشجيع العلميات الإرهابية والدفع نحو الاقتتال بين الناس وارباك السلم الوطني وبالتالي يؤدي إلى قتل الأبرياء. لقد استغل العديد من شيوخ

الدين مواقعهم في المجتمع كشيوخ للوهابية أو من أنصار حكم الطاغية من اجل دفع الناس إلى الاقتتال ربما مدفوعين بحقد طائفي أو لأجل أطماع وفوائد مالية أو أطماع في الحكم.

ان هذه هي مصيبة أخرى تنهش في الدين فكما فعل عمر بن العاص[٢٠١] عندما رفع المصاحف على الرماح لكي يوهم الناس على انه مؤمن بالقرآن وان الأخير هو صاحب القول الفصل، وهو بذلك أحدث هرجا وانقساما في معسكر علي مما أدى إلى شغل ذلك المعسكر بصراعات داخلية أنجت معاوية من حرب خاسرة، وبالتالي تقوية سلطانه واستيلائه على حكم المسلمين. ان هؤلاء الشيوخ اليوم يعملون عمل عمر بن العاص في تفتيت الوحدة الإسلامية ونشر الرعب والموت بين الناس.

وفي المقابل نرى ان السيد السيستاني وقف وقفة مشرفة في تدعيم الوحدة الوطنية وبعد ٢٠٠٣ اذ كان الإرهابيون ومن اجل إشعال الفتنة الطائفية يقتلون المئات من الشيعة عند مرورهم بمثلث الموت. ولما طالب الناس منه إصدار فتوى تحلل لهم الدفاع عن أنفسهم رفض ذلك وقال لهم ان السنة أنفسنا ولا يحل لكم قتل أي انسان على هويته، لقد كانت تلك عاملا مهما في تدعيم الوحدة الوطنية. ان إصراره على كتابة الدستور وإجراء انتخابات برلمانية لكي يضمن العدالة لكل العراقيين ولكي يعطى كل ذي حق حقه ولا يبخس حظ أو حق احد كانت دعامة من دعامات العراق الجديد لكي يصبح الدستور العراقي المرجعية العليا في حل كل الخلافات.

ان هذا هو المكان الحقيقي لرجل الدين!

ربما نتساءل إذا كان دين الإسلام هو دين دنيا وآخرة فلماذا ندعو رجل الدين الى ان يقتصر في نشاطه على العمل الأخروي ويهمل العمل الدنيوي، أليس هو الأحق بتطبيق التعاليم الإسلامية في الأمور الدينية والدنيوية، فنجيب، وكما أسلفنا سابقا، انه يجب على رجل الدين (الذي يريد ان يعمل ويمارس السياسة) ان تكون له القدرة على وضع حاجاته في أعلى مدارات حب الذات ويجب عليه ان يخلق له إرادات داخلية متناسبة مع الخط الإسلامي الحقيقي، فكم من رجال اليوم له القدرة والإمكانية على هذا العمل؟

ان جميع الأديان السماوية تدعو إلى مجيء المخلص الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، والإسلام يقول ان ذلك الرجل لا بُدَّ من ان يأتي ليثبت للبشر بان الحكومة الإلهية قابلة للتحقيق، ولكي تتحقق مثل تلك الحكومة يجب ان يتولد عند الشعوب وهي تسعى جاهدة من اجل ان تأتي مثل تلك حكومة، ليس السعي وحده ولكن لا بُدَّ ان يعم الكرة الأرضية ظلم ينفر منه كل الناس ويتطلعون إلى ذلك التغيير.

وخلاصة القول: يمكننا ان ندعي بأن تعامل رجل الدين بالسياسة على مر التاريخ الإنساني والإسلامي بصورة خاصة، كان له الأثر الكبير والخطير في تقرير الاتجاه الذي يتخذه المجتمع.

مما تقدم يمكننا ان نقول بان مقومات الشخصية الإنسانية (والتي أخذنا احد أمثلتها وهي الشخصية العراقية) مبنية على شخصية أفرادها والتي هي بالتالي مرتبطة بالتاريخ والنظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني للبلد، ان التفاعل بينها يخلق مجتمعا ذا شخصية محددة.

الآن وبعد ان ذكرنا معظم العوامل التي أثرت في تكوين الشخصية العراقية الحالية دعنا نتكلم على مقومات تلك الشخصية.

الشخصية العراقية الحالية

مر العراق بسلسلة من صراع الإرادات أنتجت تفاعلات ومتغيرات كثيرة جدا وكانت عاملا مهما في تكوين شخصيته الحالية، فما مقومات تلك الشخصية؟ وكيف التعامل معها وإصلاح الموروثات الخاطئة والعمل الأفضل من اجل تحسين الأوضاع في البلد وخلق شخصية جديدة في ظل المتغيرات التي يجب ان تحدث في البلد؟

ان بني إسرائيل رأوا جميع المعجزات التي خرج بها موسى، شاهدوها وعايشوها وخبروها ثم تحرروا من ظلم وعبودية فرعون، ولكنهم رجعوا إلى عبودية العجل بمجرد ان غاب عنهم موسى، نتيجة لذلك الكفر قال لهم الله عز وجل تيهوا في الصحراء أربعين سنة .

ان هذه القصة تتطلب منا ان نتوقف قليلا ونفكر ونضع عدة تساؤلات: أولها لماذا نسوا كل المعجزات التي جاء بها موسى لإثبات نبوته؟ والثاني ألم تكن تلك المعجزات السبب بحريتهم؟ والثالث لماذا عبدوا العجل كإله حاله حال تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها قبل موسى والتي لم تنقذهم من ظلم فرعون بينما إله موسى قد أنقذهم؟ والسؤال ربما يكون الأخير لماذا كان عليهم ان يتيهوا في الصحراء أربعين عاما؟

لكي نجيب عن تلك الأسئلة يجب علينا ان نفهم شخصية بني إسرائيل قبل مجيء موسى، كانوا عبيدا يأتمرون بأوامر أسيادهم ورضوا واعتادوا على تلك الحالة وعدوها الحالة الطبيعية فهنالك من لهم القوة

والسيطرة الذين يحق لهم السيادة، وهنالك الفقراء والمساكين والضعفاء الذين لا يحق لهم الا العبودية ، وبما أنهم الضعفاء والفقراء فهم العبيد والفراعنة هم الأسياد وما على العبد إلا الطاعة والتسليم. لماذا؟

ان جواب ذلك السؤال ربما يكون سببه طوال امد العبودية التي استمرت أجيالا عديدة خلقت شعورا وواقعية تحدد حاجات العبيد بحسب ما يقرره لهم السادة، فربما كانت تلك الحاجات لا تتعدى الفسيولوجية منها والأمان الذي وفرتها لهم تلك العبودية، ومن ذلك قبلوا بالإرادات الخارجية التي تحدد عبوديتهم ورسموا على أساسها إرادات داخلية ليتقبلوا تلك العبودية.

وجاءهم موسى بدين جديد وبالتالي خلق وعيا جديدا وحاجات جديدة وإرادات (داخلية وخارجية) جديدة فضلاً عن ردة فعل فرعونية قوية ، وهذا ما فسره بعضهم أو الأكثرية على ان ما جاء به موسى كان نقمة عليهم وليس نعمة. فلقد توهموا بان الشعور بالأمان في ظل العبودية ربما كان أهم من الحرية المجبولة بالخوف والموت والتحديات وهذا ما ادى بالكثير منهم الى ان ينقموا على موسى وإله موسى بسبب ذلك.

وإذا لم يكفِ هذا، فان موسى قد أتاهم بقواعد جديدة غير معتادين عليها، وربما كانوا يعتقدون بأن الحرية التي اتى بها دين موسى تعني فتح المجال لهم لكي يعملوا ما يشاؤون من دون قيود وضوابط تكبل حاجاتهم الجديدة، وربما كانوا يعتقدون بان إله موسى سيعطيهم السلطة والقوة والغنى الذي يملكه الفراعنة، ولكنهم وجدوا ان دعوة موسى تقودهم إلى حياة بسيطة وعدل ومساواة ومشاركة، وكان هذا خلافا لما اعتادوا عليه من حياة الفراعنة التي كانت تؤمن للفراعنة حياة بذخ ورفاهية، ان هذه العوامل

ربما أعطتهم الدوافع والقدرة والرغبة في ترك إله موسى والرجوع إلى إله فرعون.

لقد تصوروا ان عهد الحرية يعني انفلاتا وعبثية من دون حواجز او قيود فلهم ان يبنوا حياة تشبه حياة الفراعنة تمنحهم القوة والسلطة والمتعة خلافا لما يدعوهم موسى فلذلك اختاروا العجل لكي يفتح لهم المجال ليعملوا ما يشاؤون من دون قيد ولا شرط. فصنعوا العجل من الذهب تعظيما ورغبة في المزيد منه ولأنه رمز للقوة والغنى اللذين يبحثون عنهما. فكانت عقوبتهم على جهلهم هذا ان يتيهوا في الصحراء مدة أربعين سنة لكي يفنى جيل العبودية وينشأ جيل جديد يعيش عهد الحرية يتمتعون بها ويمارسونها في ظل إله ودين وقوانين موسى.

ذكرت قصة بني إسرائيل لأن فيها عبرة إلا وهي ان التغير من حالة إلى حالة لا يمكن وحده من ان يغير الشخصية؛ لأن التغيير يعني انقلاب في الكثير من المسائل الشخصية والاجتماعية ولا يمكننا ان نتوقع من هذا التغيير ان يكون ايجابيا بالكلية وبجرة قلم لأنه حتى ولو قوبل ذلك التغير بالقبول فانه بحد ذاته سوف ينعش حاجات لم تكن ملحوظة او معروفة وينتج أخرى جديدة، ليس ذلك فحسب ولكن يؤدي إلى تغيرات وتنقلات لتلك الحاجات بين مدارات حب الذات وبما يناسب الوضع الجديد، وبالتالي هناك تحديات جديدة وتخلق ارادات داخلية وخارجية جديدة أيضا.

وإذا ما رجعنا إلى ما حدث في العراق منذ سقوط الصنم والاحتلال الاميركي ونشاط العمليات الارهابية فنجده كان سببا في تغيرات جديدة وجوهرية غير محدودة، اذ انتقل العراق من بلد محكوم حكما بوليسيا

خانقا وبقبضة فولاذية ظالمة لم يمر في التاريخ مثيل لها إلى وضع جديد بحرية مصطنعة سائبة ومن دون قيود ولا ضوابط، ان قوات الاحتلال الأميركي تعمدت ترك العراق مفتوحا لكل من هب ودب من داخل وخارج العراق ان يفعل ما يشاء ومن دون ضوابط وقيود ما دامت أعمالهم لا تضر بمصلحة القوات الأميركية، فلقد سرحت كل القوى الأمنية فلا الأمن ولا الحدود كانت قد أمنت وترك العراق مفتوحا سائبا.

ان هذا الوضع الجديد الذي وجد العراقيون أنفسهم فيه قد أذهلهم وأدخلهم في متاهات لم يختبروها في حياتهم فضاعوا في متاهاتها ولم يعودوا يعرفون في أي اتجاه يمكن ان يسير البلد ولا ما هو المصير. ان هذا الانفلات والتيه خلق جوا خصبا لكل سكنة السجون من المجرمين الذين أطلق سراحهم صدام قبل دخول الأميركان لكي يعيثوا في الأرض فسادا، كما انه كان أرضا خصبة لكل من له نزعة إجرامية ولضعفاء النفوس لكي ينتهز ذلك الانفلات الامني الذي خلقه المحتل من اجل النهب والقتل والحرق والدمار.

استغل تلك الفرصة كل من تسول له نفسه لكي يتعدى على كل المحرمات مدفوعا بحاجات ذاتيه، ففي ظل تلك الحرية وغياب الأمن وضعف الدولة والقانون انفلتت العصابات الإجرامية بكل أشكالها (تجار المخدرات، واللصوص، والقتلة، والعصابات الإرهابية، والمناوئون للوضع الجديد، ومخابرات الدول الإقليمية وغير الإقليمية، والإرهابيون) لكي تعمل ما تسعى إليه وتتبناه من جرم وخبث وأذية وموت للشعب العراقي.

ان ذلك الوضع المزري فضلاً عن عدم فهم ومعرفة ماهية الحرية جعل الناس يتصرفون ومن دون وعي أو تقدير إلى ما هو مضر لهم ولمجتمعهم:

فسارت السيارات عكس اتجاه السير، واخذ الناس ما ليس لهم به حق وبالخلاصة: أصبح قانون الغابة هو السائد. ولكن في خضم هذه الفوضى، كان هنالك أناس وفي وسط مخاطر هذه الفوضى، قد تصدوا لها وعلى قدر استطاعتهم، فكنا نرى شبابا وأطفالا يقفون في الطريق لتنظيم السير وكنا نرى موظفي المستشفيات يحملون السلاح من اجل الحفاظ على تلك المستشفيات من السرقة وكان هناك من سهر الليالي لتقديم كل ما يمكنه من اجل إنجاح العهد الجديد.

شجع المحتل تلك الفوضى ولم يوقفها بل على العكس كان عاملا مساعدا ومشجعا ومارس هو نفسه تلك الفوضى فسرق الجنود الأمير كان وشجعوا على السرقة كل ما وقع تحت أيديهم، فكانت تلك الفوضى حجة لهم لكي يعملوا ما يشاؤون في هذا البلد المكسور الجريح.

ولعب الإرهاب دورا كبيرا في تفتيت اللحمة العراقية فكانت قمة ارهابهم هو نسفهم لمرقدي العسكريين في سامراء إيذانا ببداية حرب طائفية كادت تحرق الأخضر واليابس، لقد شجع المحتل تلك الحرب وغذاها من اجل ان يلهي الشعب في معارك جانبية يكون المحتل في مأمن منها، فبدلا من التفكير في محاربة المحتل يفكر الناس في الانتقام بعضهم من بعض.

فبدلا من ان تكون تلك الحرية نعمة أصبحت نقمة، وبدلا من ان تكون عامل استقرار أصبحت مؤججة للهرج والمرج، فاستغلها أعداء العراق الجديد أبشع استغلال وعظموا مشكلاتها وخلقوا حالة من الرعب والخوف والإحباط أوصل بعض العراقيين إلى ان يقولوا بان أيام صدام كانت أحسن. فهم بذلك عملوا أو تصرفوا كما تصرف بنو إسرائيل فلقد

ترحموا على أيام فرعون ونسوا كل الظلم الـذي عاشـوه أيـام صـدام ومـا قبله.

ان السبب في ذلك يظهر ولأول وهلة تناقضا غير ممكن، ولكن عندما نتمعن بالقضية نجد ان الله قد انعم علـى الإنـسان بنعمـة النـسيان، فلقـد نـسى العراقيون عوزهم المادي والغذائي في أيام صدام وتصوروا ان الأمـن الـذي كانوا يتمتعون به من دون إرهاب وعصابات إرهابية وميليشيات كـان ارحـم من الحرية والخير المادي والغذائي في العهد الجديد، لقد نسوا وتناسوا كل الحاجات الأخرى من أكل ولبس ودواء وسكن وحريات وقتل وأمان الذي لم يحصل عليه في ايام صدام إلا النـزر القليـل مـن العـراقيين وهـم بالغالبيـة اتباع او متعاطفون مع ذلـك النظـام، وإذا مـا سـألت العـراقيين أي أمـان هـذا الذي تتكلمون عنه ايام صدام؟ فيكون الجواب، لم يكن هنالك تفجيـرات ولا قتل.

لقد نسوا الموت والدمار وتجريـف المـزارع والبيـوت والقـرى بـسبب خروج شخص واحد منها معارضا لصدام، ونـسوا تجميـع الـشباب وقـتلهم في مناطقهم، ونسوا الدمار الذي حصل بعد الانتفاضة الشعبانية والذي لـم تنجُ منه حتى العتبات المقدسة، ونسوا عدم رغبتهم بـالخروج مـن بيـوتهم إلى الأماكن العامة خوفا على وحفاظا على نسائهم من أولاد وأزلام صدام، ونسوا الجوع الذي عانوه، ونسوا فقدان الحريـة وفقـدانهم لأبـسط الحقـوق الإنسانية وهي الحقوق الدينية وحق الحياة الكريمة.

لقد تعاضد عاملان اثنين في خلق تلك الآراء عند العراقيين:

الأول: ان البعث والإرهابيين استعملوا الطريقـة الوحيـدة التـي يفهمونهـا والتي اختبروها مع الشعب العراقي وحـصدوا فوائـدها وتلـك هـي اسـتعمال

القوة المفرطة من دون رحمة حتى إذا أدت إلى قتل معارضيهم ودمار الممتلكات، وذلك لكي يضطر الشعب العراقي إلى أمر مفاده انه لا بُدَّ ان يسلم لهم الحكم رغما على الجميع (صاغرين راضين أو مستسلمين راضين) وإذا لم يقبل الشعب بذلك فليس عند البعث والإرهاب إلا الموت والدمار.

والثاني: خنوع الشعب العراقي وقبولهم بالظلم الذي عاشوه وتعودوا عليه على مدى ١٤٠٠ سنة، وقبولهم وخنوعهم وخضوعهم للذي تكون له اليد الطولى أو بالأحرى الأقسى حتى أصبحت جزءا من أدبيات المجتمع العراقي، والمثل الشعبي يقول: « الإمام الذي لا يشور يسموه أبو الخرق» دليلا على ان الذي يقسو هو الذي يحترم ويطاع.

حكم العراق عبد الكريم قاسم وكانت له شعبية كبيرة ولكنه استعمل الرحمة والعفو كأداة لحكمه، فكان يقول: «عفى الله عما سلف» و«العفو عند المقدرة»، ان تلك الرحمة والليونة مع أعدائه كانت قد شجعتهم على تكرار محاولات الانقلاب التي وصل تعدادها إلى العشرات إلى ان نجح انقلاب شباط الأسود فقتلوا عبد الكريم بقسوة ووحشية ولم تأخذهم فيه رحمة ولم تشفع له عفوه عنهم عندما حكمتهم المحاكم القانونية. ان محاكمته لم تتعد خمس دقائق ومن دون شهود ومحامي دفاع ولا محاكمة أصولية، حكم بعدها بالإعدام وهو الذي تسامح مع تلك الزمرة الظالمة وعفا عنها برغم الإحكام الأصولية التي أصدرت ضدهم.

ان التمييز بين الخطأ والصواب وتحليل الأمور والمقارنة هي الطريقة العلمية الصحيحة التي تؤدي إلى الوصول إلى قرار أو تكوين رأي ولكن مع الأسف أكثر الناس تشكل اراءها بحسب ما يسمعون وما يشاهدون من

غير تحليل أو تدقيق، ان العراقيين بطبيعتهم لا يرضون بأي شيء وخاصة إذا كانت عندهم حرية في الاختيار، كما ان الطبيعة الإنسانية تجعل الاتفاق على كل الأمور أمرا صعبا فما هو مفيدا لأحدهم يمكن ان يكون مضرا بمصلحة آخر، فإذا نزل المطر يفرح المزارع به عندما يحتاج اليه ويحزن من يحتاج إلى الشمس، ومن يحب البرد يشتكي إذا أصبحت حارة ويفرح من يحب الحر.

هنالك الكثير من الناس الذين لا يحبون التغيير فالمثل الشعبي يقول: «الشين اللي تعرفه أحسن من الزين اللي ما تعرفه»، لقد اعتاد الشعب العراقي على ظلم صدام وأصبح ذلك جزءا من حياتهم وتاريخهم ولكنهم لم يعتادوا على الإرهاب وما يجلبه من موت ودمار فهو حالة جديدة لم يختبروها في السابق ولقد طغت على كل الخبرات الماضية وأنستهم الماضي لأنهم يعيشون حياة اليوم.

لقد زرع الإرهاب في نفوس العراقيين حالة عظيمة من اليأس لدرجة أصبحت الحياة عندهم من غير أهمية لأنهم أصبحوا غير متأكدين بأنهم سيرجعون إلى بيوتهم أحياء إذا ما خرجوا منها، ان هذا الإحباط زاد من الانفصال عن الشعور الوطني وبالمواطنة وبقيم الأخلاق والتي هي اصلا كانت قد ماتت ودفنت ايام صدام.

ان المفسدين والارهابيين والمتصيدين بالماء العكر عرفوا كيف يستغلون ويفيدون من أوضاع الهرج وعدم الانضباط وسيطرة الإرهاب على أحياء ومناطق كاملة، ان تلك الحالة من الفوضى قد شجعت على نشر الفساد وعدم الشعور بالمسؤولية إلى درجة ان أصبح للإرهابيين مشجعون ومدافعون كما ان الكثير من الشعب ممن اسهم بعلم أو بغير علم بإعمام الدعايات التي يبثها الإرهاب خدمة لمصالحه وأهدافه.

وجاءت الحكومات الوطنية وشيئا فشيئا تمكنت من انتزاع الحكم وإدارة الدولة من المحتل، وما ان تسلمت الحكومة بعض السيادة على الوطن حتى أخذت على عاتقها تصحيح الأحوال والسيطرة على الإرهاب الذي كان في عهد الأميركان سائبا حرا في كل مناطق العراق. ان محاولة إعادة السيطرة على مقاليد الدولة العراقية الجديدة كان من أصعب التحديات لتلك الحكومة لان عراق اليوم أصبح محكوما بظروف مختلفة تماما عن حالته أيام حكم الدكتاتورية البعثية فهنالك الحرية والديمقراطية والتعددية الطائفية والقومية وتضارب المصالح على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ان مثل هكذا حالة أو مرحلة جديدة في حياة العراق لا بُدَّ من ان تكون شاقة صعبة لأنها تتطلب وتفرض تغييرا للظروف التي يعيشها البلد وفي كل المجالات السياسية والطائفية والقومية فضلاً عن الإرادات الدولية والإقليمية التي تتحكم في مسيرة الحكومة والبلد. بلد يعيش حريات مطلقة وغير محدودة ويمر بصراعات متنوعة وعظيمة يحتاج إلى حكومة طليقة اليدين لكي تحل كل الصراعات وتتحدى كل الصعاب وتحقق كل طموحات الشعب ولكن الى الان ما زالت الحكومة رهينة الصراعات الدولية والاقليمية والسياسية الداخلية والطائفية والقومية، كل طرف يعمل بكل جهده لاحباط عمل الحكومة اذا لم تكن متماشية مع مصلحته.

سارت هذه الدولة الجديدة في وحل كل تلك المتغيرات الصعبة والاتجاهات المتضادة التي وصلت في بعض الأحيان إلى ان تكون متحاربة، وكان عليها ان تعمل من اجل تحسين كل أوضاع البلد المتردية والمتهالكة والفاسدة والتي تراكمت لما يقرب من اربعين سنة سابقة والتي

استجدت بسبب التدمير الذي حصل بسبب الاحتلال والعمليات الإرهابية. أطلقت التعيينات ورفعت الرواتب للموظفين والمتقاعدين وصرفت رواتب الرعاية الاجتماعية وإنصافا لأهالي الشهداء، وبنيت القوات الأمنية ومن نقطة الصفر من اجل ان تكون قوة دولة تحمي الناس والممتلكات وتدحر الإرهاب والسيطرة وتحافظ على الأمن، ولكن الشعب برغم كل هذه التغيرات بقي يعيش حالة الإحباط.

ان أي تغير الغرض منه تحسين الأوضاع وتطويرها وفي أي بلد كان لا بُدَّ ان يكون متكاملا ليشمل كل مرافق الدولة وان لا يكون قاصرا على رأس الدولة، وما حدث بالعراق كان تغييرا لرأس الدولة فلم يتغير إلا النظام السياسي فانتقل من حكم الفرد إلى حكم المؤسسات الدستورية ومن حكم الطائفة الواحدة إلى حكم الشراكة الوطنية، فتشكل نتيجة لهذا التغيير مجلس للوزراء ومجلس للنواب ومجلسا الرئاسة ومجلس القضاء, ولم يتغير الجهاز الإداري للدولة، فتغيرت الحكومة ولكن كل أجهزتها متهرئة فاسدة تعاني من بطالة مقنعة.

ان التغيير الذي حدث في العراق لم يغير الجهاز الإداري فبقي على حاله وعلى فساده وعدم أهليته وقدم قوانينه، ان التشجيع على تعيين المزيد من الموظفين من اجل تحسين المستوى الاقتصادي للشعب (وطبقة الموظفين ومن يعيلون يمثلون نسبة كبيرة من أبناء الشعب) كان سببا في زيادة الترهل في ذلك الجهاز. لقد أصبح ذلك الجهاز حملا ثقيلا على الدولة الجديدة فبدلا من ان يكون عونا لها وذلك بتسهيل وتنفيذ المشاريع التي تقرها الحكومة بقى أداؤه واطئاً جدا بل ساء ولم يصل إلى مستوى المسؤولية والتحديات. أنا لا ادعي ان إطلاق التعيينات بهذه الصورة كان

سيئا مئة بالمائة فانه قد نقل المجتمع من حالة الانسحاق الاقتصادي إلى مستوى اقتصادي ارفع كان متطابقا مع تطلعات الشعب في تحسين معيشته بعد التغيير.

لم تسهم المصروفات التي تدفع للرواتب في دفع عجلة الإصلاح والتقدم فلقد جعلت العراق عبارة عن مستهلك غير منتج، ومهدم غير بانٍ، بطالة مبطنة بدلا من عمالة منتجة، ولكنها حسنت الوضع الاقتصادي للفرد العراقي، فمثلا بعد ان كان راتب الطبيب في عهد صدام دولارا ونصف الدولار أصبح نحو ألفي دولار، وإذا ما تذكرنا بان معظم العاملين في العراق هم من الموظفين والمتقاعدين فان ذلك الإجراء اسهم بتحسين المستوى المعيشي بدرجة كبيرة جدا.

نرجع إلى الجهاز الإداري الذي هو وفي أحسن أحواله جهاز مترهل غير كفء وفاسد، السبب يعود إلى سنين الحصار وتشجيع صدام للموظفين وبكل مستوياتهم على الفساد الإداري وتهيئة الظروف التي تشجع على عدم الشعور بالمسؤولية وانعدام الشعور بالمواطنة أو حب الوطن.

عند زيارتي للعراق صدمت بأمر غاية في الغرابة (وهو من اكبر العوامل المشجعة على الفساد والإرهاب وقلة الخدمات) إلا وهو ان بعض الناس تتعامل مع الفساد بطريقتين متنافرتين فنرى ان هنالك أناسا يشتكون من كثرة وانتشار الفساد ولكن بمجرد ان تحين لهم أول فرصة لكي يفسدوا فأنهم يستغلونها أبشع استغلال، ويشتكون من قلة الخدمات وما ان تصلهم الخدمات يهدرونها، ويشتكون من عدم الأمان وعندما يرون الإرهابيين يزرعون العبوات أو يفخخون السيارات لا يخبرون عنهم.

ان اغتيال البعث وصدام للشعور بالمواطنة والانتماء الوطني والشعور بالمسؤولية فضلاً عن الأعمال الإرهابية وحالة الإحباط الذي رافق التغير خلق حالة من عدم الاهتمام بكل شيء وأصبحت كالداء الذي ينتشر بين الناس واصبح المواطن لا يهتم حتى بالأشياء التي لها ارتباط مباشر به، فتركوا الأوساخ تتراكم حتى لو كانت أمام منازلهم، يحرقون الأشياء الضارة بالصحة وكأنه لا علاقة لهم بها، وعندما تشتكي من هذه اللامسؤولية تجدهم يردون وبسرعة فائقة، لا يهمني ما تقول وان العراق كله اوساخ وان الجو ملوث وانا أريد ان أزيده تلويثا، يقول هذا وبالتأكيد انه ليس مدركا انه يسهم في زيادة التلوث وانه يضر نفسه وعياله وبلده.

والان بعد ان سيطرت الحكومة، بعض الشيء، على الإرهاب ومنابعه وفرضت سيطرتها على معظم مرافق الدولة وتخلصت من الاحتلال وحصلت المصالحة الوطنية وبدأت الأمور تتحول نحو الأحسن، لا نتوقع ان تتغير شخصية الإنسان العراقي من حالة إلى حالة أفضل بسهولة وبسرعة، ان ذلك يتطلب عملا مخلصا وجادا ويحتاج إلى وقت طويل، وربما يتطلب ذلك التغير جيلا أو جيلين لكي يحصد العراق نتيجة ذلك التغيير ولكي تتغير الحاجات والإرادات لتتلاءم مع الوضع العراقي الجديد.

بعض تلك الإرادات يكون مرهونا بما تقدمه الحكومة من محاربة للفساد وضبط الأمن والبناء، ومن انجازات برلمانية في تشريع القوانين. ليس ذلك فقط ولكن يجب ان يكون ذلك مرافقا للتغيير في نظام الحكم لكي يتحول من نظام توافقي إلى حكومة وبرلمان منسجمين في إرادتهما وتطلعاتهما وانجازاتهما، كما يجب ان يتزامن مع تغييرات في الإرادات الإقليمية والدولية التي لها تأثيران مباشران في الوضع الداخلي. فإذا ما

تحققت كل هذه الأمور فلا بُدَّ ان تتغير الشخصية العراقية لكي تصبح أكثر تفاؤلا وأكثر تعلقا بالوطن ومصلحة الوطن وقابلة على البناء وبناء مجد جديد.

إننا عندما نقارن التجربة العراقية في خلال احتلالين أجنبيين (الاحتلال البريطاني والاحتلال الأميركي) نجد ان هنالك فرقا شاسعا بين الظروف التي رافقت كل واحدا منهما، ففي أثناء الاحتلال الانجليزي نجد ان الحكومة البريطانية والحكومة الوطنية التي تشكلت بعد الاحتلال كانت تعمل بكامل حريتها في استتباب الأمان خلافا لما هو موجود الآن في العراق، فعندما أعطى المحتل الحكومة للسنة لم يعترض الشيعة على ذلك ورضوا بتلك الحكومة، أما في الوضع الحالي فبالرغم من ان الحكومات المتعاقبة كانت حكومات شراكة وطنية اشترك فيها كل مكونات الشعب العراقي لكنها واجهت معارضة مسلحة مدعومة بفتاوى وقوى إرهابية عراقية وأجنبية كانت تتصدى لعامة الناس ولم تتصدَ للأجنبي إلا النزر القليل من تلك العمليات مما أدى إلى وضع عقبات جمة في مسار تلك الحكومات.

ان الحكومة البريطانية وبالتالي الحكومة الوطنية كانت تعمل بحرية في القضاء على الجرائم ولم ينبرِ لها احد لكي يدافع عن الخارجين عن القانون، أما اليوم فان الإرهابيين يجدون العديد من الجهات التي تدافع عنهم بل وتحميهم فمنهم أعضاء في مجلس النواب وقنوات فضائية وإعلامية وبكل أشكالها فضلاً عن دول إقليمية، ان الكثير من الأصوات التي تطالب (وباسم حقوق الإنسان) بحقوق الإرهابيين الإنسانية لم نجدهم أو نسمعهم ولو مرة واحدة يستنكرون ويتذكرون الحقوق الإنسانية للشهداء والضحايا الأبرياء الذين يقضون بسبب العمليات الإرهابية.

تبين مس بيل حرية الانجليز في محاربة الفساد والإجرام فتقول[٢٠٢] واصفة الحالة الأمنية في العراق يومئذ: «فقد اقلق منطقة ديالى بعد احتلالها عدد من اللصوص وقطاع الطرق الجريئين ,ولم تخل منطقة الموصل من الشيء نفسه ,لكن القبض على المجرمين الرئيسين في منطقة ديالى والحكم عليهم بالأحكام المناسبة قد أعاد الأمن إلى نصابه هنا، على ان الأحوال في منطقة الموصل تعد على جانب اكبر من الصعوبة، لكن الأمن كان يسير نحو التحسن باطراد، وقد نفذت خلال السنة أحكام الإعدام في ثمانية وعشرين شخصا».

وهي توضح بان السبب في استتباب الأمن وجود قوى أمنية قوية فضلاً عن وجود الجيش البريطاني، ان تلك القوى الأمنية كانت تعمل بحرية كاملة ومن دون مزايدات من احد وليس كما نرى اليوم بان الإرهابيين يقتلون أفراد الجيش والحكومة غير قادرة على البحث عنهم واعتقالهم بسبب الحواضن التي توافر لهم وبسبب الدعم الذي يصل لهؤلاء الإرهابيين والذي كان متوفر لهم حتى من قوات الاحتلال الأميركي وعلى عكس ما كان يحصل في أيام الاستعمار البريطاني حيث تقول[٢٠٣] عن الأمن:«على ان الزيادة في استتباب الأمن، يرجع السبب فيها لدرجة ما فقط إلى مؤسسات مثل الشرطة والشبانة، أما السبب الأساسي فهو وجود جيش الاحتلال البريطاني في البلاد» .

وهنا نجد فرقا كبيرا بين ذلك الزمان وأيامنا هذه فان وجود السلاح بيد العشائر كان سببا في الإخلال في الأمن وذلك لأن أبناء العشائر كانوا يواجهون الاحتلال البريطاني ولقد اقلقوا الانجليز كثيرا، أما اليوم فان أبناء العشائر حموا العراق من الإرهاب وساعدوا في تثبيت النظام، فهي تقول[٢٠٤]

حول سلاح العشائر: «فان التحسن الدائم في المحافظة على الأمن والنظام لا يمكن ان ينتظر حصوله، حتى يمكن تجريد العشائر من السلاح، ولذلك بدئ بعمل ما في هذا الاتجاه،وما حل مارس ١٩٢٠ حتى كانت قد جمعت حوالي خمسين ألف بندقية من ولايتي بغداد والبصرة، وحينما تم ذلك أصدر نظام الأسلحة الذي حظر حمل الأسلحة وتملكها أو التعامل بها من دون إجازة وكان من المنتظر ان يطبق هذا النظام بالتدريج».

ان ترسبات الماضي البعيد والقريب ومعطيات ونتائج الوضع الجديد في العراق قد خلق شخصية عراقية جديدة ليست كما كانت عليها ايام الاجداد. وبما ان هنالك حتمية تاريخية اسهبنا البحث فيها سابقا الا وهي ان المجتمعات والحضارات تبدأ من حالة الانحطاط الحضاري الى السمو ثم الى الانحدار... ولا اتوقع ان يكون هنالك انحطاط حضاري عراقي اسوأ من ذلك الذي حصل له في الاربعين سنة من حكم البعث وهذا يعني انه لا بُدَّ ان يبدأ هذا البلد في الصعود في سلم الحضارة الانسانية.

الاصلاحات المطلوبة لتسريع التطور الحضاري

ان المجتمعات الإنسانية مجتمعات ديناميكية، لن تبقى المتخلفة متخلفة دائما ولن تبقى المتقدمة متقدمة دائما، لقد وصل العراق في عهد صدام إلى الدرك الأسفل من الحضارة الإنسانية ولا توجد درجة في سلم التخلف لم يصلها وإذا كان هذا يعني شيئا فإنما يعني بأن هنالك طريقين لا ثالث لهما، أما البقاء على تلك الحال من التخلف أو بداية صعود في درجات الحضارة وكل البوادر برغم كل المعوقات والصعوبات والتحديات فان العراق بدأ

بالصعود وباعتقادي كلما صعد درجة ستتبعها عدد من الدرجات إضعاف ما صعدها، ان هذا الصعود هو ما تخافه الدول الإقليمية والعالمية المعادية للعراق.

ان الحتمية الإنسانية وعلى مر التاريخ البشري وتاريخ العراق بالخصوص يقول ان نجم العراق لا بُدَّ ان يبدأ بالصعود، نعم ما زالت هنالك تحديات كبرى تجابه وستجابه العراق ولكن ذلك الصعود سوف يتحقق طال الزمان ام قصر. ولكي يتحقق ويتسارع هذا التطور الحضاري لا بُدَّ من اجراء جملة من الاصلاحات، ان تلك الاصلاحات لا يمكن للحكومة العراقية وحدها ولا للشعب وحده ان يؤدوها بل لا بُدَّ من ان يكون هنالك تكاتف وحرص ودفع نحو هذا الاصلاح. ان الاصلاحات يجب ان تكون بسرعة فائقة كي تعوض عن سنين التأخر عن ركب الحضارة الانسانية التي عانى منها العراق فضلاً عن مواكبة التطور العالمي. من جملة الاصلاحات التي يجب العمل عليها هي:

اصلاح النظام الاجتماعي

كانت سمة النظام الاجتماعي وعلى مدى ألف وأربعمائة سنة نظاما اقل ما يمكن القول عنه انه نظام طائفي عرقي ظالم، فلم يكن يترك اثرا عند المواطنين غير شعور بالإحباط وعدم الشعور بالانتماء أو المواطنة، وعند بعضهم الشعور بالأفضلية والأحقية وبالتالي الشعور بالفوقية على المستضعفين.

يجب ان يضمن العراق الجديد حقوق المواطنة لكل مواطنيه ومن دون استثناء، فيكون جميع أبناء الشعب متساوين فلا تمييز ولا تهميش أو إقصاء،

ان كل مواطن أصيل في هذا الوطن يجب ان يكون عنده احساس بانه مواطن محترم وله كل الحقوق ومن دون نقص وفي الوقت نفسه يجب ان يعترف المواطن بان عليه واجبات كما على الاخرين، فلا أفضلية لأحد على احد بسبب المذهب أو الدين أو القومية أو اللون أو الجنس أو العقيدة السياسية. فقط عندما يحس المواطن انه مواطن من الدرجة الأولى عند ذلك يحس الفرد بالقيمة الذاتية وبالتالي فان الشخصية الاجتماعية لا بُدَّ ان تتحسن هي الأخرى، ان ذلك سوف يبث ويشجع على الإحساس بالوطنية والعزة والارتباط بهذا الوطن والشعور بالمسؤولية الوطنية وأهمية المشاركة في بنائه.

لا أريد هنا ان أكون متفائلا جدا في هذا المجال لأن الشخصية الفردية هي اللبنة الأولية لبناء الشخصية الاجتماعية التي هي مجموع ومحصلة تلك اللبنات، منذ البداية كان هنالك مواطنون مخلصون للوطن ولم تؤثر فيهم تلك التغيرات آنفة الذكر ولكنهم قلة، ولا بُدَّ للشعور الوطني من ان يزداد بازدياد الشعور بالمسؤولية والاهتمام بالوطن وبصورة خاصة عند الجيل الذي عاش الحرية ولم يكن يعاني ايام العبودية ومصائبها، الان نلاحظ ان هنالك بوادر تغيير في الحياة الاقتصادية والسكن وطريقة العيش التي بالضرورة لا بُدَّ من ان تغير الشخصية لكي تكون اكثر تفاعلا مع عملية البناء جيلا بعد جيل.

اصلاح النظام السياسي

يجب ان تتغير هوية التحالفات من تحالفات على أساس طائفي أو عرقي إلى تحالفات على أساس المشتركات الوطنية والبرامج السياسة لكي

يكون هنالك انسجام في الحكومة وفي البرلمان لكي يعمل الاثنان من اجل تحقيق المصلحة العامة ولن يكون الوزير وزيرا لحزبه ولا البرلماني برلمانيا لحزبه وفي كلتا الحالتين الكل يعملون بعضهم ضد بعض.

اصلاح النظام الاقتصادي

يحدث الإصلاح الاقتصادي عن طريق تشجيع القطاع الخاص لكي يسهم في البناء ولكن لا بُدَّ ان تكون هنالك ضوابط فلا يكون طليق اليد في ظلم الناس وفي التشجيع على الفساد وعدم الكفاءة، ان تحسين الاقتصاد بالبلد وتنويعه يحرر الاقتصاد العراقي من الاعتماد على النفط كمورد وحيد أو الأكبر في الاقتصاد العراقي هذا فضلاً عن استيعاب اكبر عدد من العاطلين عن العمل. ان هذا التحسين في كل مصادر الاقتصاد العراقية من صناعة وزراعة وسياحة وفن سيسهم في دعم حركة التطور العراقي مما يزيد في رفاهية حياة الفرد العراقي وبالتالي سيحسسن من شدة ارتباط الفرد ببلده.

ان العراق يحتاج الى كم كبير من الموارد لكي يتطور في جميع جوانبه ولا يستطيع العراق المعتمد على موارد النفط والتي تكون نسبة كبيرة منها مدفوعات الى رواتب موظفين من تحقيق طفرات سريعة في الاستثمار في كل مراحل هذا التطور. المشكلة ليست في رس المال فقط ولكن هنالك نقص في التكنولوجيا وفي الادارة الكفوءة ولا تأتي تلك الموارد الا من الاستثمارات الاجنبية لشركات ذات باع وصيت عالميين، لذلك يجب تشجيع مثل هكذا استثمارات.

اصلاحات في الحريات ومفاهيمها

من الصعوبة بمكان ان نطلب من شعب تعلم واعتاد على العبودية والسلطة الفردية والظلم، ومن دون سابق إنذار، ان يفهم ويتعامل ويتمتع ،وبين ليلة وضحاها، بحرية مطلقة ربما لا يتمتع بها أي شعب من الشعوب حتى الديمقراطية، ان ذلك التغيير المفاجئ أربك الكثير من العراقيين. ان عدم إدراك كنه تلك الحرية كان واضحا في تصور بعضهم بان الحرية هي حرية مطلقة بأن يقول ما يشتهي ويعمل ما يشتهي حتى ولو كانت ضد المصلحة الوطنية، فالتفجيرات مثلا يراها بعضهم على أنها حق له ولا يهم من يموت وما يهدم بسبب هذه الانفجارات، ولكن لا بُدَّ ان ترافق تلك الحرية قوانين صارمة وقابلة للتطبيق من اجل حفظ حرية المواطن وفي الوقت نفسه حرية المجتمع وتطوره وأمانه.

هنالك المفسدون الذين يجدون من يدافع عنهم ولا نسمع عن من يدافع عن حقوق الوطن وشعبه، وأصبحت القوات الأمنية ومن اجل الحفاظ على الأمن متهمة بعدم قدرتها وجديتها بالحفاظ على الأمن. وخرجت هنالك مطالب بإيقاف العمل بنقاط التفتيش التي تعمل على مكافحة الإرهاب وصيانة أرواح الناس. وعندما تحدث تفجيرات يشتكي الناس من عدم وجود الأمان وعندما تنصب نقاط التفتيش يشتكي الناس من الازدحامات.

ان الديمقراطية والحرية هي أسلوب ونمط حياة قبل ان تكون أسلوبا أو نظاما سياسيا، إننا في العراق كنا قد تربينا وتدربنا وتعلمنا على نظام سياسي شمولي واحد إلا هو النظام الدكتاتوري ومنذ وفاة رسول الله ﷺ ووفاة علي الى الآن. عاش العراق تحت حكم البعث تحت راية وإرادة

ورحمة الحاكم، فإذا عمل شيئا به منفعة للشعب فهي مكرمة ومنة منه. يسوق الشباب وحتى الشيبة كالخراف إلى مذابح الموت دفاعا عن طموحاته ومغامراته وحفاظا على سلامته وسلامة عائلته وحاشيته، وهو وزبانيته يعيشون في بروج عاجية مشيدة ويدعو الشعب إلى الموت، ولكن عندما تجابهه قوة أعظم من قوته وتأخذ الحكم منه يختبئ في جحور الفئران بدلا من ان يقاتل، وحتى وهو في جحور الفئران يدعو المتخلفين من هذا الشعب ويطالبهم بمجابهة العدو نيابة عنه وعن سلطانه ويأمرهم بتقديم أرواحهم وممتلكاتهم فداء له لأنه (القائد الضرورة).

ان شعبا يعيش في ظل نظام سياسي تكون فيه إرادة الحاكم فوق كل إرادة، ومصلحة الحاكم فوق كل مصلحة، تموت المبادرات والإمكانيات والمشاعر إلا إذا رضي بها وباركها الحاكم، ونتيجة لذلك تطمس كل الطموحات إلا إذا كانت منسجمة مع طموحات الحاكم، وتموت كل القابليات إلا إذا كانت مسخرة لخدمة الحاكم . ان بلدا يعيش في مثل هكذا حالة لا يفيد منه أحد من مواطنيه إلا المنافقين والمصلحيين الذين يحيطون بالحاكم فيقضون جل وقتهم وجهدهم وإبداعاتهم على تعظيمه وإجلاله، فيطبلون له ويمدحونه ويعظمونه فيشعر بالزهو والخيلاء والفخر والتعالي فيعتقد بأنه هو الرب الأعلى وان حياة شعبه مرتبطة بحياته.

أعود وأقول ومع كل الأسف بان هنالك الكثير من المثقفين والكتّاب الذين نبذوا تلك الطريقة في الحكم وتأثروا بالديمقراطية والقيم الغربية ولكنهم اندفعوا بقوة حتى استنكروا معظم قيم مجتمعنا وقيمنا وعدوها متخلفة، ناسين ان احد أسباب ذلك التخلف كان هو نظام الحكم السائد

الذي لم ينفك ان يكون فيه الحكام ظالمين مستهينين بالشعب وإرادته، ووصل التطرف عند بعضهم بالظن ان كل ما هو غربي هو صحيح.

يقول الدكتور علي الوردي[٢٠٥] «دأب وعاظنا على تحبيذ الحجاب وحجر المرأة والرجل معا، فالرجل ميال بطبيعته نحو المرأة والمرأة كذلك ميالة نحو الرجل، فإذا منعنا هذه الطبيعة من الوصول إلى هدفها بالطريق المستقيم لجأت اضطرارا إلى السعي نحوه في طريق منحرف».

ان سعي الرجل و/أو المرأة إلى إيجاد طريق منحرف لإرضاء النفس لا يمكن ان يعزى وبأي حال من الأحوال إلى الفصل أو الحجب بين الرجل والمرأة، لأنه لو كان هذا سببا لما وجدنا ان الخيانة الزوجية شائعة بين نساء ورجال الغرب الذين ينعمون بالحرية الجنسية المطلقة، ولما كنا قد شاهدنا مثليين (من الرجال والنساء) لأن الحصول على الجنس من ابسط الأشياء، ليس هذا فقط بل حتى لتعداها الى عدمية وجود المومسات والمومسين الذين اصبحت لهم نقابات تمثلهم في بلدان العالم الغربي.

إنا أقول العكس صحيح، كلما تحرر المجتمع جنسيا كلما زادت تلك الانحرافات الجنسية، اليوم وفي الغرب نشاهد ان الخيانة الزوجية شيء مقبول والشذوذ الجنسي أصبح أمرا طبيعيا جدا ويفتخر به، فتقام احتفالات كبيرة وكرنفالات في ريودجانيرو ونيورك وسدني ووو، يخرج المثليون باحتفالات تصرف لها أموال طائلة واستعراضات فخمة جدا تفوق بكثير اي كرنفالات أخرى، وإذا كان هذا لا يكفي فلقد أصبح زواج المثليين واسع الانتشار ومشرعا قانونيا، يتوارثون ويستحقون الحقوق المدنية وبإمكانهم حتى تبني الأطفال، حالهم حال المتزوجين (الرجل والمرأة).

انا لا أقول بان العزل لم يولد انحرافا أو شذوذا إذ ان ذلك مرتبط بالحاجات الإنسانية بحسب موقع تلك الحاجات في مدارات حب الذات

وكذلك مرتبط بمجموعة الإرادات الأخرى. وهنا تأتي المصداقية في فهمي للشخصية الفردية والاجتماعية، لأنه إذا ما أخذنا اثنين عندهم الحاجات الجنسية انفسها والقابلية على الانحراف ووضعناهما في مجتمعين مختلفين الأول حر ومشجع والثاني عازل ومحاسب فسنجد ان الذي يعيش في المجتمع الحر سرعان ما ينزلق ولكن الذي يعيش في المجتمع المحافظ سيعاني ويفكر ألف مرة قبل ان يقدم على ذلك الانحراف.

عندما تفهم وتمارس الحرية بصورة خاطئة فان ذلك يؤدي بالإنسان إلى ارتكاب، أخطاء ربما يندم عليها بعد ذلك، ولكن تلك الفسحة من الحرية الموجودة في المجتمع الحر تتطلب منه وتدفعه إلى مجارات التيارات الموجودة والسائدة في ذلك المجتمع. اخبرني احد الأطباء العراقيين حديثا ان جاءه احد المرضى وطلب منه ان يجري له فحصا عن الايدز وعندما سأله لماذا قال: «نحن مجموعة من طلاب الجامعة اشتركنا في إيجار شقة ومارسنا فيها اللواط بعضنا مع بعض، واني أخاف انه قد أصابني الايدز» فسأله الطبيب ولم دخلت معهم قال شجع بعضنا بعضا على إنها ظاهرة حضارية وتمارس بالغرب بكل حرية فقلنا لنكن أحرارا و نمارس حريتنا الشخصية، فسأله لماذا لا تتركهم؟ قال إني أخاف ان اتركهم الآن لأنهم قد هددوني إذا تركتهم وافشيت سرهم.

ان هذا المفهوم الخاطئ للحرية هو السبب وليس الكبت. ان الحظر المطبق بين الرجل والمرأة كان له تأثير ايجابي في الذين يحبون ان يجربوا هذا النمط الجنسي وكما فعل الشبان الذين مر ذكرهم .ففي الأيام الخوالي عندما لم تكن تلك الحرية موجودة كان هؤلاء الضالون يخافون عيب وازدراء المجتمع لهم فلا يجرؤون حتى بالتفكير بعمله. أما الذين لا

يأبهون بالمجتمع والمدفوعون بقوة نحو هذه الممارسات فأنهم يعملونها بالسر ويختفون عن المجتمع ولا يظهرونها للملأ خوفا من سخط المجتمع عليهم، ان الأمر في المجتمع المنفتح يكون على العكس تماما اذ أصبحت فيه المثلية مقبولة ومفتوحة لمن يريد ان يجربها ولا يحاسب المجتمع أحدا عليها اذ إنها صارت طريقة حياة اعتيادية حالها حال أي طريقة.

ان هذا التخبط في فهم وممارسة الحريات فضلاً عن التقاتل السياسي والانحرافات الطائفية والفساد والعنف من اكبر المعرقلات لعمل الحكومة ولا بُدَّ من ان ينتهي، عند ذلك تصبح الديمقراطية والحرية عامل دفع لحركة التطور الاجتماعي بدلا من انها عامل تخلف وترد للأوضاع العامة في البلد كما هو عليه الآن.

الخطوات العملية على طريق الإصلاح

لكي نعيد بناء بلدنا ومجتمعنا بصورة صحيحة يجب ان نشخص مواطن الخلل وبالتالي تصحيحها بطريقة علمية مدروسة، ان للعراق فرصة ذهبية لم تحصل لأي بلد في العالم غير دولة الامارات التي كانت قبل نحوي خمسين سنة مجرد صحراء ومحميات متصالحة والان هي دولة عصرية، ان سبب ذلك انها لما تأسست لم تبنَ على غرار الانظمة العربية او الاسلامية التي يعود زمن تأسيسها او وجودها الى مئات القرون، لقد بنيت على اساس عصري بحسب مواصفات عصرية ربما يصعب حتى على الدول المتقدمة من استعمالها لان استبدال نظمها القديمة وتكنولوجيتها القديمة بالجديد يكلف الكثير من الاموال وعلى هذا الاساس لا يغيرون الا الاشياء المهمة فقط.

اما بالنسبة الى العراق فان كل بناه التحتية محطمة ففرصته كفرصة الامارات، لذلك لا بُدَّ من اعادة بناء تلك البنى التحتية، واذا ما اختار طريق اصلاح وترقيع تلك البنى فانه يرتكب خطيئة وخطأً فادح لان ذلك الاصلاح سوف يكون مجرد عملية تجميل، اما إذا اعاد بناء تلك البنى وفي كل المجالات فان ذلك سيكون عاملا فاعلا وسريعا وانيا للتعويض عن سنين الضياع والتخلف التي عاشها العراق طوال السنين الماضية وبالاخص سنين حكم البعث.

الجميع يستنكرون تسريح الحاكم المدني الاميركي للقوات الامنية العراقية، ولكن وبالرغم من كل المشكلات التي جاء بها ذلك التسريح كان ذلك العمل سببا في بناء قوات امن عراقية وكما قال المتحدث العسكري لوزارة الدفاع: «ان فوجا من الجيش العراقي الجديد ربما يعادل لواء او فرقة من الجيش العراقي القديم». السبب في ذلك ان الجيش الجديد بني على اسس جديدة وبنظام جديد وبتسليح جديد وبعقيدة جديدة مواكبة للعصر. ان معظم افراد هذا الجيش كانوا افرادا في الجيش السابق ولكنهم دخلوه بعقلية جديدة ومفاهيم جديدة وقيم جديدة فاجادوا وابدعوا.

وعلى هذا الاساس يجب ان تكون كل الاصلاحات التي سوف نبحثها:

الجهاز الاداري للدولة

الجهاز الاداري جهاز طرقه وادواته وعقيدته جميعها بآلية وبعضها من ايام العثمانيين لذلك يجب العمل بدلا عن اصلاح وترقيع هذا الجهاز الى إعادة بنائه من الصفر.

انا لا ادعي بامكانيتنا بين ليلة وضحاها غلق كل دوائر الدولة ليكون لنا في اليوم التالي جهاز ادراي جديد، ولكني ادعو الى اعادة بنائه مديرية اثر

اخرى ووزارة اثر اخرى. وكما حدث مع القوات الامنية الحالية، ولذلك يمكننا الافادة من تجربة اعادة بناء القوات الامنية في اعادة بناء الجهاز الاداري للدولة التي يجب ان يكون على الاسس الاتية:

أوّلاً: إلغاء الترهل في الجهاز:

على الحكومة ان تعرض على موظفيها خيار في ان اما يأخذ الموظف كمية من المال تكون مجزية له كان تكون راتب سنتين مثلا على ان يترك الوظيفة فبذلك يمكنه استعمال تلك الاموال في عمل حر مثلا او احتمالية تدريبه ونقله الى دائرة اخرى تحتاج الى خدماته. ان مثل هكذا اجراء يحرر الدولة من مسؤولية توظيف اعداد من الناس لا حاجة اليها بهم مما يخفف من البطالة المقنعة وامكانية ضبط وتحديد مسؤولية ومراقبة كفاءة كل موظف.

ثانياً: إعادة تأهيل بقية الموظفين:

من الافضل جلب خبراء حقيقيين في الادراة لتدريب الملاكات العراقية على احدث الطرائق في الادارة وباستعمال احدث التكنولوجيا المعروفة حاليا. ان مثل هكذا اجراء سوف يجعل اداء هذا الجهاز ذا كفاءة عالية وبحسب مؤشرات ليس من اجل زيادة الانتاج فقط وانما مراقبة الانتاج وتصحيح الاخطاء بمجرد وقوعها.

ثالثاً: إعادة تأهيل الدوائر (بناءً وتجهيزاً) لكي تكون مناسبة للعمل الجديد:

ان الكثير اذا لم يكن معظم دوائر الدولة ليست مؤهلة للعمل فيها سواء كأبنية او كبيئة عمل مريحة وصحية تهتم بالألوان والانارة والتهوية

والخدمات. ان هذا التأهيل يفيد كل من المواطنين والموظفين الذين يعملون بمثل هكذا دوائر.

رابعاً: تقليل الاحتكاك (قدر المستطاع) بين الموظفين والمراجعين:

ان قلة الاحتكاك بين الموظفين والمراجعين يقلل من الوقت الضائع بسبب تنقل المراجعين بين الموظفين، وكذلك يقلل من ارباك عمل الموظفين وذلك بتجمع المراجعين فوق رؤوسهم، ولكي يكون حاجزا وعاملا مهما في التخلص من الفساد الاداري والرشوة والمحسوبية. على ان تكون هنالك مؤشرات عمل لكل موظف فضلاً عن تحديد كامل المستمسكات المطلوبة التي يجب على المراجع تقديمها، فتقدم الى موظف واحد وهو بدوره ينقلها الى الموظفين المعنيين بتمشية المعاملة من غير حاجة المراجع الى لوقوف في طوابير والالتقاء بالموظفين.

خامسا: التخلص من البنايات الحكومية القديمة او إعادة بنائها:

الكثير من البنايات الحكومية القديمة والمتهالكة تأخذ مساحات كبيرة جدا وفي مواقع مهمة من العاصمة بغداد، فإما يصار الى اعدة بنائها إذا ما كانت الوزارة المالكة تحتاج اليها او تحويل ملكيتها الى الوزارة التي بها حاجة ماسة اليها او بيعها او تحويلها الى مساحة خضراء. ان هذا الاجراء سيكون له مردود ايجابي بطريقتين الأولى هو التخلص من المصاريف التي تستهلك على إدامتها، والثانية هي أموال يمكن للدولة الافادة من هنا في مكان أخر أكثر إنتاجية أو فيه حاجة اكبر.

ربما هنالك مسائل أخرى لم اذكرها ولكن اذا ما بدأت تلك التغيرات تحدث فاننا سنجد ان البطالة المقنعة قد انتهت وان الانتاجية قد كبرت وان

كل امور الدولة من حكومية وشعبية ستتحسن وسيكون للوقت ثمن وللإنسان قيمة.

تقوية الشعور بالمواطنة وتعاضد الشعب مع الحكومة

ان أي تغيير مرجو لا يمكن للحكومة وحدها تحقيقه، ان التغيير المطلوب لا بُدَّ ان يكون بجهود شعبية حكومية، ان الأحداث التي مرت على العراق شاهد على ذلك. فلو أخذنا مثلا الإرهاب فكيف لأية قوة أمنية أو استخبارية ان تنجح في محاربته ما لم يشارك الشعب في تلك الحرب. لأن الاستخبارات تحصل على نسبة من معلوماتها من الشعب، وإذا لم يقدم الشعب المعلومات المطلوبة وإذا ما كان الشعب حاضنة للإرهاب فكيف للقوات الأمنية ان تنجح؟

في المدة بين سقوط صدام و٢٠٠٨ عمل الإرهابيون بحرية تامة، فأبناء المناطق والمحلات يعرفون ان فلانا قد قتل فلان وفلان قد فجّر عبوة في المكان الفلاني أو سيارة مفخخة أو مسجدا هناك. وهذا ما حرم القوات الأمنية واستخباراتها من معلومات يمكن ان توصلها وبسرعة إلى المجرمين، وكنتيجة لعدم التعاون هذا نشط الإرهاب بصورة كبيرة جدا. وبما ان أفراد تلك القوات الأمنية هم جزء من هذا المجتمع فما يبتلى به المجتمع ينعكس على تلك القوات الأمنية بالدرجة نفسها، فتجد بين القوات الأمنية من يخاف على نفسه، وهنالك من يشترى بالمال، وهنالك من يعادي الحكومة، وهنالك من لم يرضَ بالوضع الجديد، كل هذه الفئات موجودة في القوات الأمنية وهذا ما يفت بعضدها وبالتالي فان المخلصين من القوات الأمنية يجدون صعوبة كبيرة في محاربة الإرهاب في

ظل هكذا ظروف. وبرغم النجاحات المتحققة ما زال الإرهاب قادرا على ان ينفذ عمليات نوعية كلما سنحت له الفرصة لذلك.

ولكن عندما بدأ المواطن يخبر عن الإرهابيين وعن منفذي تلك العلميات الإرهابية، وعندما طرد المفسدون والمخترقون للقوات الأمنية، وعندما تحرر أفراد تلك القوات الأمنية من العقد الاجتماعية السائدة، وبالخلاصة عندما تعاضد الشعب مع الحكومة بدأت انتصارات القوات الأمنية تظهر للعيان يوما بعد يوم.

ان الامر ليس قاصرا على الامن فقط ولكن في كل نواحي الحياة فالمواطن الذي يحرص على النظافة في الاماكن العامة يسهم في نظافة البلد، والمواطن الذي يحترم القانون ويطبقه يساعد على استتباب السلم المدني، والمواطن الذي يلتزم بالتعليمات تسير اموره وامور غير بسهولة وانسيابية.

تحسين الخدمات

هذه المشكلة متأصلة واسبابها عدم كفاءة الجهاز الاداري للبلد واذا ما بني من جديد ستتحسن الخدمات ولكن تبقى هنالك مسؤولية تضامنية بين الشعب والحكومة ولو اخذنا الكهرباء مثالا سنجد انها مشكلة ما زالت قائمة حتى تأليف هذا الكتاب، ففي عهد الطاغية وحزب البعث كان العراقيون يبيعون شبابيكهم وأبواب بيوتهم وبلاط غرفهم من اجل ان يجلبوا من عائداتها الطعام لعائلاتهم. أما اليوم وبفضل الانتعاش الاقتصادي, فان كل بيت يملك في الأقل مبردة وفي أحسن الأحوال في كل غرفة مكيف هواء. في زمن الطاغية كانت الكهرباء لا تصل إلى بعض

المحافظات الا ساعات معدودة باليوم ربما لساعتين او ثلاث في أحسن احوالها ...ولم يكن للناس القدرة المادية ولا مسموح لهم ان يشتروا المولدات لتوليد الكهرباء أو حتى الشكوى من قلة الكهرباء، اما اليوم فلم يزدد الطلب على الكهرباء أضعافا مضاعفة فقط بل ان الكثير من القرى والنواحي قد وصلتها الكهرباء، ان هذا الطلب المتزايد على الكهرباء وبظل الحرية الجديدة علت الكثير من الأصوات تطالب بضرورة توفيرها، فالكل يطالب بنصيبه منه، ان هذا حق وليس منة.

ولكن بما ان القصور في تجهيز الكهرباء لم يكن بسبب حاجة الاستهلاك فقط (رغم قلة انتاجه) ولكن تعداها الى الإسراف في صرف تلك الطاقة، ففي العهد المباد كان المحظوظون من الناس الذين تصلهم الكهرباء لا يملكون إلا المصابيح وربما مروحة هوائية، واليوم أصبحوا يملكون المكيفات والمبردات والسخانات الكهربائية, وعندما تأتي الكهرباء يشغلون جميع هذه الأجهزة حتى ولو لم يحتاجوا إليها، ولا يدركون أنهم بهذا العمل يحاربون أنفسهم لأن ذلك الهدر ربما يمكن ان يجهز عددا إضافيا من البيوت، فهم بعملهم هذا يتصورون بأنهم يأخذون حقهم، فطالما ان الكهرباء لا تصلهم إلا ساعات فلماذا لا يستغلون هذا الفرصة ويأخذون كل ما يستطيعون أخذه، حتى ولو لم يكونوا يحتاجون إليها، إنهم لا يدركون بأن ما يعملونه هو نكاية بأنفسهم وليس نكاية بالحكومة أو وزارة الكهرباء، إنهم ينسون أو يتناسون ان نتيجة تلك الزيادة في الاستهلاك ستحتم تقليل التجهيز وفي أحسن الأحوال بقاءه على حاله.

لقد كثرت المولدات الأهلية العاملة في كل مدن العراق وزادت كميات التجهيز من وزارة الكهرباء ولكن لا تكفي لسد الحاجة إليها، ولو

تعاون الشعب ومجلس النواب والحكومة على إصدار قوانين تحدد صرف الكهرباء وتجبر المواطنين على دفع أجور الكهرباء وتقنين الصرف لكان قد تحسن التجهيز بصورة كبيرة ولكان هنالك سيطرة على هذه الشحة في الكهرباء.

داء العشوائية

أصاب هذا الداء العراق والشعب العراقي اصابة وقعت في الصميم، لانها اصبحت متفشية في كل شيء: في التوزيع أو التجاوز على الاراضي فيبني المواطنون بيوتهم عليها فتبرز أحياء لا مجاري فيها، شوارعها غير مبلطة وبيوتها تنقصها الخدمات ونتيجة لذلك تبدأ معاناة من نوع آخر، ان دوائر الدولة الخدمية ينقصها العمل المترابط التكاملي بعضها مع بعض فواحدة تحفر وتقدم خدماتها لتأتي الثانية لتحفر من جديد لكي تقدم خدماتها فينتقل المواطن من معاناة إلى معاناة من نوع اخر.

ان التخطيط العلمي الصحيح يصلح كل هذه الأخطاء فمشروع مدينة بسماية السكني هو نقيض العشوائية في البناء وتقديم الخدمات، وإذا ما قدر له ان يرى النور فانه سينتج مدينة عصرية كاملة متكاملة مجهزة بكل الخدمات ووسائل الترفيه والتسوق والصحة والتعليم والعبادة، وبكلمة أخرى ان المواطن إذا ما انتقل إليها فانه سينتقل من معاناة عيشه الحالية إلى رفاهية العيش فيها.

روح التشاؤم

ان الصفة التي تصبغ الشعب العراقي اليوم هي صبغة التشاؤم من كل شيء ولم تأتِ هذه من فراغ ولكنها كانت نتيجة تراكمات قرون وسنين من

المعاناة التي عاشها والتي خلقت منه مجتمعا تشاؤميا، فالإنسان العراقي يتشاءم من قوله سأنجح في العمل الفلاني لأنه يعتقد بأنه إذا قال ذلك فانه فال شؤم وعليه ان يتوقع الفشل في ذلك العمل. ومن هذا جاء المثل الشعبي الذي يقول بعد كل ضحكة «يا ربي ضحكة خير».

ان الطموحات والتطلعات نحو مستقبل افضل يجب ان يسوده تفاؤل وتفاعل وعمل من اجل تحقيقه ويكون هذا على كل المستويات حكومية وشعبية.

قصر النظر

ان قصر النظر هي آفة أخرى تنهش في الجسد العراقي فكثرة المعاناة السابقة جعلته متسرعا في إيجاد الحلول فهو يريد ان يحصل على حل الامس وليس اليوم أو غدا على شرط ان لا يسهم هو بذلك الحل (شخص اخر، الحكومة مثلا، يجب ان تحل المشكلة). إنهم نسوا أو تناسوا ان عملية التهديم سريعة جدا مقارنة بعملية البناء، فإذا ما تأخر البناء قالوا الم اقل لك ان لا أمل في العراق، لقد أدرك الإرهابيون هذا فعملوا بقوة على تعزيز قصر النظر وحالة الإحباط هذه وذلك بالعمل على المزيد من الدمار والقتل والعمليات الإرهابية بكل أشكالها.

ان المشكلة الكبرى في المجتمع العراقي تكمن في ان الغالبية العظمى من أبناء هذا المجتمع تعتقد بان لا دور لهم في أية عملية تنمية وتطوير للبلد، فتجد الكثير من الناس يقولون: ماذا استطيع ان اعمل؟ والحقيقة ان كل واحد منهم يستطيع الكثير من الذي يمكنه عمله. فعامل النظافة لو لم يعمل بإخلاص فستكون البلد مكبا كبيرا للنفايات، والبناء لو لم يؤدِّ عمله

لما بني شيئا، والمدرس لو لم يؤدِّ واجبه بصورة جيدة لتخرج ناس أميون، ولو لم يؤدِّ الطبيب دوره لتفشت الإمراض بين الناس لعدم توافر العلاج.

علـى صـفحات التواصـل الاجتمـاعي علـق احـد مـديري المـدارس البغدادية ،وعلى صـفحته، مـشتكيا ممـا يحـدث اليوم فـي مـدارس العـراق فيقـول: ان هنالـك ظـاهرة سيئة فـي المـدارس اذ تتـسلق الطالبـات جـدران المدارس ويهربن من الدروس، انه يستنكر هذه الظاهرة ومرفقـا مـع التعليـق صورة بنات يتسلقن جدار المدرسة، وكأنه يريد بذلك ان يقول بـان الـسبب في هـذا التـسيب هـو نتيجـة تقـصير وزارة التربيـة والحكومـة. فعلقـت علـى منشوره بالتالي:

«انك مدير مدرسة وهذا يعني انك رئيس وزراء فـي مدرسـتك وعنـدك صلاحيات لا تحتاج إلى موافقة مديرية التربية أو وزارة التربية أو الحكومـة لكي تنفذها، يمكنك ان تجعـل مـن مدرسـتك مثـالا يحتـذى بـه بـأن تقـود مدرسيك ليعملوا بـإخلاص ويعطـون الـدروس بطريقـة سلـسة ومـسلية، وان تخلق جوا مدرسيا مريحا بأن تكون مدرستك نظيفة وصـفوفك مريحـة، وان تخلق نشاطات لا صفية تجلب متعة للطلاب وتنمي فيهم الطاقـات الكامنـة، انك لو عملت هذه الأشياء وجئت بأفكار تحسن من مواظبـة الطالبـات علـى الدراسة والعلم لأوقفت عملية التهرب هذه من مدرستك ولكانت مدرسـتك قدوة يحتذى بها من بقية المدارس».

الأخ يشتكي من أمر له اليد الطولى فيـه، وقـادر علـى تغييـره، ولكنـه لا يريد ذلك التغير أما لانه لا يعد نفسه مؤثرا او انه لا طاقـة لـه بهـذا المنـصب، أو انه يريد ان ينتقد ولا يشارك فـي إيجـاد الحلـول، أو انـه متعمـد ومـشجع ومروج لهذا الأمر لكي يجلب سخطا علـى الحكومـة ويحـدث تغييـرا يعيـد

العراق إلى حكم البعث، كنت انتظر منه ردا على تعليقي وبالفعل جاء الجواب... لقد ألغى صداقتي.

وفي المقابل عمل بعضهم على تحسين الأوضاع وفي أصعب الظروف الأمنية التي مر بها العراق، لقد صرح مرة الرئيس المالكي بالقول: «بعد تفجيرات العتبتين العسكريتين في سامراء وانفجار الحرب الأهلية كان الكثيرين من الساسة والناس يقولون لنا ماذا تعملون؟ اتركوا كل شيء فانه لا أمل في العراق بعد، فالانبار والمحافظات الغربية قد سقطت بيد القاعدة والحرب الأهلية على أوجها والأميركان مهيمنون على الوضع الأمني تاركين الميليشيات المتحاربة تعمل ما تشاء من قتل وتهجير لبعضهم البعض بشرط ان لا يقاتلوا الأميركان. فأي أمل هنالك في العراق؟».

ولكن ذلك الرجل وكل المخلصين من العراقيين الذين التفوا حوله وساعدوه ,في إجبار الأميركان على تسليم إدارة القوات الأمنية العراقية للحكومة العراقية، فضلاً عن العمل على تطوير قدراتها، والدعوة والعمل على المصالحة الوطنية، ودعم الصحوات التي حررت الأنبار من القاعدة والتي كانت نتائجها السيطرة على الوضع الأمني والقضاء على الميليشيات، فلم يستسلموا واستمروا في عمل دؤوب من اجل إخراج العراق من محنته تلك.

إني اعرف ان أكثرية أطباء مدينة الطب قد تركوا مواقعهم وهجروا المدينة ولكن في الوقت نفسه كان هنالك القليل من الأطباء الذين واظبوا على دوامهم برغم كل المخاطر واعرف احدهم كان قد تعرضت سيارته وهو يترجل منها في مدينة الطب الى اطلاقة قناص ولكن لم يمنعه ذلك من الاستمرار بالدوام وممارسته لعمله.

ان هذه الأمثلة تدلنا على ان تصرف الأفراد في أي مجتمع كان مرهونا بما يمليه عليه ضميره وبما تمليه عليه شخصيته سواء كانت تلك الشخصية مشابهة لشخصية المجتمع أم مخالفة لها، ومن هذا المنطلق لا بُدَّ لنا ان نقوم المفاهيم الكثيرة للحرية في المجتمع العراقي الحديث العهد بالحرية.

التناقضات في مفهوم الحرية

ان الطبيعة البشرية تحتم على الإنسان ان يكون اجتماعيا، بمعنى اخر لا يمكنه ان يعيش بمعزل عن بقية مجتمعه، ولا بُدَّ له من العيش مع الآخرين وذلك يحتم عليه ان يعود نفسه على التعايش معهم، ان هذا هو السبب في تكوين قيم وأخلاق وعادات وقوانين في المجتمعات الإنسانية. ليس هذا فقط ولكن لا بُدَّ ان تكون هنالك خاصية وخصوصية معتمدة على البيئة والمناخات الثقافية والاقتصادية والدينية لذلك المجتمع.

لم تكن مجتمعات العالم الثالث متخلفة على طول الزمان ولم يحصل تغيير جذري لقيمها وعاداتها وأخلاقها عن ما كانت عليه أيام حضاراتها، ولكن وبسبب التخلف الاقتصادي العلمي التكنولوجي والعسكري في تلك المجتمعات فإنها صارت تعاني من شعور بالإحباط وعقدة النقص أمام الغرب المتطور جدا الذي أصبح مثالا يحتذى به وفي كل المجالات والأحوال.

ان عقدة النقص تلك جعلت الفرد منهم يحس بأن كل ما عند مجتمعه من قيم ومثل وأخلاق غير مفيدة وبالية ولا تستحق العناية بها أو التمسك بها، ولقد أصبحت أوروبا وأميركا مثالا يحتذى به فكل ما هو غربي جيد وكل ممارسة وقيم وعادات مثالية. في أيامنا هذه نجد ان الكثير من الناس

يدعمون قولهم بشهادات ما يعمل به في الغرب، وفي كثير من الأحوال يكون ذلك الإنسان جاهلا بحقيقة ما يحدث هناك وربما يتعدى الجهل عند بعضهم إلى عدم معرفة الموقع الجغرافي لأميركا أو أي دولة أوروبية أخرى. ونرى اليوم في الفضائيات العربية وحتى المعادية للغرب أو المدعية بالإسلام تكتب أسماء برامجها باللغة الانجليزية والعربية، وعندما يتكلم (من لا يفقه شيئا في اللغة الانجليزية) يضيف إلى كلامه كلمة أو اثنتين انجليزيتين لكي يثبت انه مثقف ومتطور.

خرجت من العراق قبل أربعين سنة وانا ناقم على كل العادات والتقاليد في مجتمعنا واذكر منها :

لماذا عندما يمرض احدهم واجب علي ان اذهب لعيادته!

لماذا عندما يأتي احد من الخارج علي ان اذهب لاستقباله في المطار!

كم هو أمر مقزز وغير حضاري ان نرى في حفلة الزفاف الموسيقى الشعبية تجوب الشوارع... وغيرها وغيرها.

وفي مسيرة حياتي عشت في ألمانيا، وكنت أعمل في إحدى المدن الصغيرة القريبة من كولونيا واسكن في احد فنادقها، فصارت لي فرصة ان أشاهد حفل زواج أقيم في ذلك الفندق، وكانت مراسيم حفلة الزواج كالاتي:

يقف العريس وضيوفه في باب الفندق بانتظار العروس، وتكون الفرقة الموسيقية نفسها (التي تجوب شوارعنا في حفلات الزفاف) واقفة بالانتظار أيضا، أتت العروس ومباشرة بعد ترجلها من السيارة بدأت تلك الفرقة

بالعزف، بعد عدة مقطوعات دخل الجميع إلى قاعة الحفلة واستمروا في احتفالهم ذلك حتى الصبح.

فتساءلت مع نفسي، لماذا هذا الحفل مقبول هنا وغير مقبول ما هو مثيل له في العراق، فأجبت وبسرعة، نحن شعوب متخلفة فلذلك كل ما ينتج عنا حتى ولو كان حصيلة قرون عديدة من ثقافتنا نعده دلالة على تخلفنا فلا بُدَّ ان نتركه، أما هم ولأنهم متقدمون فان مورثوهم الثقافي يعتزون به.

بحكم عملي كنت كثير الإسفار بين الدول الأوروبية ولكني كنت في كل مرة انزل في مطار ما فأجد الكثير من الأهل والأصدقاء بانتظار أصدقائهم أو أقربائهم، وبمرور الوقت بدأت اشعر بجمال وحلاوة ذلك اللقاء، فكنت ومن دون شعور وكلما نزلت في مطار ابحث عن أي شخص يمكن ان أكون اعرفه ويكون باستقبالي، عند ذلك فهمت وعلمت قيمة انتظار الأهل أو الأصدقاء للمسافر عند رجوعه إلى الوطن.

تمرضت وكان لزاما علي ان ادخل المستشفى لاجراء عملية جراحية ولم نكن نعرف احدا في البلد الذي كنا فيه، ولا يوجد غيري وزوجتي وابنتي الصغيرة، فكان لزاما على زوجتي ان تذهب إلى البيت تدير عملها وترعى ابنتنا وانا وحيد في المستشفى لا احد يسأل عني، عندها فهمت قيمة مراجعة مرضانا.

الذي أريد ان أقوله هنا: يجب علينا ان نفهم بأن ليست كل عادتنا وتقاليدنا خاطئة وليست كلها صحيحة وليس كل ما في الغرب صحيح أو خطأ، ان ظروفا موضوعية حددت مسار كل مجتمع من المجتمعات بما يناسبها .

ان التقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي الذي تحقق في الغرب لم يكن بسبب العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في تلك المجتمعات،

ولكن بسبب النظام السياسي الموجود فيها، ان النظام الديمقراطي هو ليس أفضل الأنظمة لإنتاج مجتمع متطور ولكنه أفضل ما موجود على الساحة الآن.

السؤال المهم الآن هو: هل ان النظام الديمقراطي وكما هو موجود في عراق اليوم سوف يحقق تقدما سريعا كما نحب ونرضى؟ بالتأكيد لا، والسبب بذلك ان الديمقراطية مفيدة للمجتمعات المتطورة والمتقدمة اقتصاديا وصناعيا، وذلك يحتم على تلك الديمقراطيات ان تخلق مجتمعا صحيح البدن متعلما ومستهلكا لكي تدور فيها عجلة الصناعة والتجارة والزراعة لكي تمتلئ جيوب النخبة، أما في مجتمعات العالم الثالث الذي يأكل من زراعة غيره ويلبس مصنوعات غيره ويستعمل ما ينتجه غيره فيكون النظام الديمقراطي بؤرة فساد ولا تساعد في تطور البلد.

ان النخبة من أي مجتمع (بلدان متقدمة أو متخلفة) هي المستفيدة الأولى من الديمقراطية، فإذا كانت النخبة تحتاج إلى تطور المجتمع فستدفعه نحو ذلك من اجل تحقيق مصالحها الخاصة وكنتيجة عرضية يفيد منها المجتمع، أما في المجتمعات المتخلفة فأن النخبة لا تفيد من تطور المجتمع لذلك تستغل الديمقراطية من اجل المزيد من الفائدة عليها وتترك المجتمع من غير مردود ايجابي، فنجد ان هنالك العديد من بلدان العالم الثالث الديمقراطي (وبصورة خاصة الفقيرة منها) وبعد مرور عدة أجيال من هذه الديمقراطية لم تصل إلى مرحلة الدول المتقدمة، ولكن بدلا من ذلك نجد ان تلك البلاد قد سادها الفساد وفي كل مفارق الدولة فتفشى في المجتمع نفسه وازدادت الفوارق الطبقية، ان تلك الفوارق الطبقية تكون

مقبولة إذا لم يكن هنالك طبقات تعيش تحت خط الفقر كما هو الحال في ديمقراطيات العالم الثالث.

هل تعلم ان الديمقراطية الهندية لها ما يقرب من ثمانية عقود، وهل تعلم ان هنالك ديمقراطيات في أميركا اللاتينية لها ما يقرب من خمسة او ستة عقود، فأين تلك الدول من دول أوروبا وأميركا الشمالية واستراليا؟

فضلاً عن مصالح النخبة فان دول العالم الثالث كل على حدة، تعاني من تناقضات اجتماعية خاصة بها كما لا يسمح العالم المتقدم بتشكيل ديمقراطية حقيقية إلا بما ينسجم مع مصالحه. فالديمقراطيات آنفة الذكر وبسبب التناقضات الاجتماعية استغلت من الغرب لتكون أداة في تحويل مسار تلك العملية الديمقراطية بحيث تخلق ظروفا وعوامل لا تشجع ولا تقوي حركة التقدم في تلك البلدان. ولكن عندما تضمحل التناقضات الاجتماعية فان تأثير الثاني لا بُدَّ له ان يتضاءل، فها نحن نشاهد ان الهند بدأت مرحلة تطور لا بأس بها وكذلك البرازيل.

وإذا ما رجعنا إلى العراق، فأقول ما لم يعِ العراقيون بان مصلحتهم واحدة في وطن واحد، والمواطن عزيز وله الحقوق انفسها وعليه الواجبات افسها لن تحقق هذه الديمقراطية ما يؤمل منها، ليس هذا فقط ولكن عندما يكون السياسيون (بالتأكيد مصلحتهم الشخصية مهمة) محبين ومخلصين لوطنهم فلا أمل بتلك الديمقراطية وفي الأقل بالمنظور القريب.

يقول رسول الله ﷺ: « ما ازداد رجل من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا، ولا كثرت إتباعه إلا كثرت شياطينه،ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه».

ووصف الدكتور علي الوردي[٢٠٦] الشخصية العراقية بأنها شخصية مزدوجة، ومما سلف نجد ان اقتصار هذا الوصف على الشخصية العراقية فقط لا اعده دقيقا جدا، فلقد ناقشنا واثبتنا بانها عالمية ولا تقتصر على أنها عراقية و/أو شرق أوسطية وذلك بسبب الحاجات والمغريات والإرادات التي تسوق الإنسان وتكون شخصيته.

لو قارنا العوامل والأسباب التي جعلت الأستاذ يقول بازدواجية الشخصية العراقية مع العوامل والأسباب انفسها التي تكون شخصية أي مجتمع نجدهما متشابهين، ان مسألة الحق والباطل ومسألة الإنصاف والإيمان والكذب والنفاق هن صفات تميل حيث تميل المصلحة سواء كانت فردية أم اجتماعية.

ان تشكيل إرادات داخلية لكل شخصية فردية كانت أو اجتماعية أو دولية أو إنسانية لكي تتماشى مع الإرادات الخارجية وفي الوقت نفسه تحقق حاجات ذاتية هي بحد ذاتها تشكل ازدواجية بالشخصية، فهنالك قوانين للشخص بينه وبين نفسه وهنالك قوانين للشخص بينه وبين مجتمعه.

احتلت انجلترا أميركا الشمالية واحتلت اسبانيا أميركا الجنوبية والوسطى، وحتى الأمس القريب كانتا تلكما الدولتين قوتين عظميتين مقارنة بالهنود الحمر السكان الأصليين للأميركيتين الشمالية والجنوبية والذين كانوا الأضعف قوة والأقل حيلة. عندما احتلوا البريطانيون والاسبان الأميركيتين وبسبب قوتهم المتفوقة فرضوا أنفسهم على انهم أصحاب حق (وكما هي شريعة الغاب) فصار لمواطنيهما الحق في تملك أي شيء متى ما يشاؤون وأين ما يشاؤون ولا يحق للهنود الاعتراض أو الدفاع عن حقوقهم وأراضيهم.

لقد عامل أصحاب الحق (المحتلون) الهنود الحمر بكل وحشية فكانوا يقتلون ويسلخون فروة شعر رأس الهنود الحمر ويبيعونها في الأسواق الأوروبية على انها بضاعة حالها حال فروة أي حيوان، ولما تعلم الهنود ان يسلخوا فروة شعر الرأس المحتل أصبحوا بين ليلة وضحاها همجا برابرة. أما الانجليز والاسبان (فإنهم بشر في قمة السمو الإنساني)، لذلك فهم يستحقون الحياة أما الهنود الحمر فبما انهم الطرف الأضعف فإنهم وحوش ولا يستحقون الحياة.

وعندما هاجمت أميركا اليابان بقنبلتين ذريتين محت من الوجود مدينتين كاملتين بأهلها وممتلكاتها كان ذلك عملا شرعيا ومقبولا لأن ذلك الدمار حافظ على حياة الجنود الأميركان، أما مئات الاف اليابانيين من الأبرياء الذين تبخروا في جحيم القنبلة الذرية الأميركية والتدمير الكامل للمدينتين اليابانيتين وآلاف من اليابانيين الذين احترقوا وأصيبوا بإمراض بسبب الإشعاعات الذرية، فليذهبوا إلى الجحيم.

عندما يقتل مواطن إسرائيلي نتيجة عملية انتقامية من فلسطيني طرد هو أو أهله من بلده وموطنه واحتل مكانهم يهود أوروبيون وأميركان ومن دول أخرى فتقوم الدنيا ولا تقعد، ولكن عندما تفرض إسرائيل حصارا اقتصاديا على غزة أو تقتل العشرات من الأطفال والكبار والنساء والأبرياء من الفلسطينيين فلا احد يتكلم ويقول هذا حرام .السبب ان الغرب وعلى رأسهم أميركا وبريطانيا يعتقدون بأن احدهم يستحق الحياة والاخر لا.

ان القوة العظمى تحتفظ لنفسها الحق بالتصرف في هذا العالم كما تشاء، ليس هذا فقط ولكنها منعت وتمنع أي دولة من ان تتصرف بالطريقة نفسها، فأميركا وإسرائيل لهما الحق في امتلاك السلاح النووي ولا يحق

لدولة أخرى ذلك، فهل يمكننا بعد ذلك ان نقول ان الشخصية الغربية لا يوجد فيها ازدواجية؟

وفي الخلاصة فان الشخصية العراقية ونتيجة الحرمان والعوز والظلم الذي حاق بها وعلى مدى ألف وأربعمائة سنة قد تأسست على قواعد وقيم تمكن الإنسان العراقي من التعامل مع ذلك الوضع المأساوي الذي عاشه.

أملنا اليوم في الوضع العراقي الجديد في ان يخلق حاجات جديدة وإرادات جديدة ربما تكون عاملا في خلق شخصية فردية أكثر فعالية وأكثر جدية وأكثر حيوية لكي تنعكس على شخصية المجتمع العراقي ليكون أكثر إنتاجا ويحقق التقدم الذي يستحقه هذا المجتمع وهذا البلد.

الفصل العاشر

الختامية

كلمة اخيرة

خلاصة لوجهة النظر المطروحة في الكتاب

الفصل العاشر
الختامية

كلمة اخيرة

ان المحور الأساس في الإنسان هو النفس، فهي التي تعمل وهي التي تنتج وهي التي تنفذ ومن دون النفس لا يكون هنالك إنسان، ولكن النفس بطبيعتها الغريزية وذكائها المحدود تكون ناقصة وفيها عيب يجعلها تتعامل مع الأشياء تعاملا بدائيا وغريزيا، وإذا ما أردنا تشبيه النفس بسيارة من غير مقود ومصنعة ومصممة لكي تسير في خط مستقيم لا تحيد عنه فطالما لا يكون هنالك مطبات او عوارض في طريقها فان سيرها واستقامتها لا غبار عليه وفي خلاف ذلك لا بُدَّ لها من ان تنحرف عن الخط المرسوم لها، لذلك فلا بُدَّ لتلك السيارة ولكي تجابه المطبات من ان يكون لها مقود.

ان مقود النفس هو العقل فبه يمكن للانسان ان يجابه الحياة وصعوبتها وكل التحديات التي تضعه امامه، فبالعقل طور الإنسان نفسه وحور بيئته لتلائم حياته ولكن في الوقت نفسه وبدواعي طلب الحاجات المتزايد استغل الطبيعة ابشع استغلال، وبما انه لا يعيش وحده ولكن في تجمعات بشرية فلا بُدَّ من وجود تنافس بين البشر على من يحصل على الاكثر. فهنا إذا ما اخذت النفس زمام الامور بيدها وجعلت العقل مطية لها فبامكانها ان تدفعه الى انتاج فكر هدام او شرير.

ان الجشع في طلب الحاجات متأتٍ من شدة تعلق النفس بها، فكلما هوت تلك الحاجات اكثر كلما صِرفت جهدا وطاقة في سبيل الحصول عليها. فمن يسع الى الحصول على ما يحتاجه فقط ولا يتنافس مع الاخرين

في ما يريدون من حاجاتهم يفسح المجال ويعطي الحرية لعقله لكي ينتج فكرا خيرا، اما اذا كان الإنسان يسعى الى المزيد من الحاجات ويتنافس مع الاخرين في اخذ حتى ما لا يستحقه او يحتاج اليه فلا بُدَّ لامتطاء النفس للعقل من ان تجعله يخطط ويعقل بالشر من اجل الوصول الى ذلك الهدف.

إذاً عيب النفس هو سعيها نحو المزيد من الأشياء المحببة لها وذلك يفرض على الإنسان ان يكافح ويعمل بكل استطاعته من اجل ان يحصل على ما يريد، ان ذلك المزيد لا يحصل عليه احد إلا من له القدرة والوسيلة وكذلك من له العزم والتصميم والارادة القوية لكي يتمكن من ان يجاهد كل المطبات التي تعترض سبيله وطريقه. ان تلك المطبات والمعارضات والإرادات صعبة ولن يتغلب عليها الإنسان بسهولة ولكن لكي يزيد من حاجاته لا بُدَّ له عند مواجهتها من ان يفقد بعضا من إنسانيته. وإذا ما أراد السمو فمعنى هذا انه يجب عليه ان يتخلى عن طلب المزيد من تلك الحاجات وفي بعض الأحيان حتى عن بعض الحاجات غير الأساسية، ان ذلك يعني محاربة النفس وتلك هي حرب صعبة وليست سهلة يسيرة، فمحاربة النفس هي اقوى واشد حرب وجهاد يقوم به الإنسان وهي توصف في الإسلام على إنها الجهاد الأكبر[٢٠٧].

فكيف للانسان من ان يحارب نفسه وهي الممثل الشرعي والوجود الوحيد له والمعبرة عن شخصيته، لقد ذكر القرآن الكريم وفي آيات كثيرة كل واحدة منها تعبر عن وجه من وجوه ذلك الوجود الإنساني الذي نسميه النفس، يقول الله تبارك وتعالى:

في سورة (ق)(٢٠٨) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، ان وسوسة النفس هي الرغبة والهوى

الـذي تمتلـك الإنـسان، ان ذلـك الهـوى متـأتٍ مـن الإشـارات التـي تنقلهـا الحواس الخمس إلى النفس، فكل إشارة من حاسة ما تفسر بواسطة النفس فتجدها لذيذة فتهواها أو مرة فتبغضها، لذلك كلما كانت اللذة المصاحبة كبيرة كلما زاد الهوى وكلما ارادة النفس المزيد منها.

ان هناك مجموعة من الناس ليست بالقليلة تحارب عدوا ضعيفا جدا اسمه الشيطان، والناس هنا تتساءل: نحن نؤمن بالله عز وجل، ونذكره، ونصلي في المسجد، و نقرأ القرآن، ونتصدق و... و...و... وبالرغم من ذلك ما زلنا نقع في المعاصي والذنوب. ان السبب في ذلك هو أننا ركنا العدو الحقيقي جانبا وذهبنا إلى عدو ضعيف، يقول الله تعالى في محكم كتابه(٢٠٩): (الذين امنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا).

وإذا كان الشيطان هو القوة التي تدفعنا نحو الخطأ والعصيان فلماذا نخطئ ونحن نصلي ولماذا نخطئ ونحن نصوم في رمضان، يقول سيدنا محمد ﷺ في خطبته في فضل شهر رمضان (٢١٠) «والشياطين مغلولة».

ان العدو الحقيقي هو هوى النفس وعيبها وجهلها، نعم فلذلك تحاسب النفس على افعالها، يقول الله تبارك وتعالى(٢١١) في سورة الإسراء ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾.

وقوله تبارك وتعالى في سورة غافر(٢١٢): ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب﴾.

وقوله تبارك وتعالى في سورة المدثر(٢١٣): ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾

والإنسان الاسعد هو الإنسان الذي يحارب هوى نفسه، الله تبارك وتعالى يقول في سورة النازعات [٢١٤]: ﴿واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾

وعند الحساب ستعرف بالضبط كل نفس ما عملت وكما يقول الله تبارك وتعالى في سورة التكوير (٢١٥): ﴿علمت نفس ما احضرت﴾.

ان كل الآيات السابقات تدور حول كلمة النفس فهي التي تمثل الإنسان وهي التي تعاقَب وهي التي تثاب. ان الالهة التي كانت تعبد من دون الله: اللات، والعزى، ومناة، وود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرى.... كل هذه الاصنام هدمت ما عدا إله مزيف ما زال يعبد من دون الله، ويعبده كثير من المسلمين وغير المسلمين، يقول الله تبارك وتعالى [٢١٦]: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾. ومعنى ذلك ان هوى النفس اذا ما تمكن من الإنسان فانه لا ينصت لوعظ ولا لشرع ولا لقانون.

ولو نظرنا إلى الجرائم الفردية المذكورة في القرآن الكريم كجريمة قتل قابيل لأخيه هابيل... وجريمة امرأة العزيز وهي الشروع في الزنا. وجريمة كفر إبليس، لوجدنا ان الشيطان بريء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب. ففي جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل يقول الله تبارك وتعالى (٢١٧): (فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين) ان سبب قتل أخيه كان الحسد لأنه كان يرغب بحاجة حصل عليه أخوه ولم يحصل هو عليها، ان تلك الحاجة دفعته إلى قتل أخيه. عندما نسأل إنسانا وقع في معصية ما!!! وبعد ذلك ندم وتاب، ما الذي دعاك لفعل هذا؟ سوف يقول: «أغواني الشيطان»، وكلامه هذا يؤدي إلى ان كل فعل محرم وراءه شيطان فيا ترى

الشيطان عندما عصى الله من كان شيطانه، انه مثلما يوسوس لك الشيطان، فان الحاجة والهوى المتعلق بهما تدفع النفس دفعا لتحصيلها.

ان السبب في المعاصي والذنوب اما من الشيطان واما من النفس المدفوعة بالحاجات والمزيد منها وبالتالي هواها، فالشيطان خطر، ولكن هوى النفس اخطر بكثير، لذا فان مدخل الشيطان على الإنسان هو زيادة في الهوى، قال الله تعالى في سورة يوسف (١٠٨) ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ان النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ ان رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ان السعي وراء طلب المزيد من الحاجات مضافا اليها شدة الهوى وطبيعة النفس الأمارة بالسوء تشكل سلسلة انحطاطية تقود بالإنسان الى المزيد من الشر.

الله أعطى الإنسان قوة عظمى فضلته وفوقته على كل المخلوقات ألا وهو العقل، ففي ظل المطبات والعوارض التي تجابه النفس لا بُدَّ لها من استعمال العقل من اجل ان تعيد مسيرتها على ذلك الخط المستقيم وإلا فان نهايتها مؤلمة وقاسية، فإذا ما استعمل العقل بالخير خيرا ينتج من هذه النفس، أما إذا استعمل في الشر فشرا مستطيرا نتاج تلك النفس.

ان ذلك التزاوج بين النفس والعقل هو الذي مكن الإنسان من ان يبني حضارات إنسانية اسهمت في تذليل الكثير من صعاب الحياة، فبدلا من السير على الأقدام نبحر في السماء وبالبحر ونسوق في الطرقات، وبدلا من السكن في بيوت من أسواق الأشجار أو الطين أو من الكهوف أصبحنا نسكن بيوتا واسعة فاخرة ومريحة، وبدلا من أكل الثمار والخضروات واللحوم غير المطبوخة أصبحنا نأكل أطعمة عديدة الألوان والرائحة والطعم واللذة. ووو.

لو عاش الإنسان بالنفس فقط لما تمكن من تحقيق كل هذا التقدم، فالحيوانات تعيش بنفوسها والإنسان إذا ما عاش بنفسه وحدها فسوف لا يختلف كثيرا عن أذكى الحيوانات، ولقد ناقشنا هذا في الفصول السابقة، فانه عند ذلك يكون إذا جاع أكل ما يحتاج اليه، وإذا برد لبس ما يحتاج اليه، وإذا خاف مطرا أو شمسا أو حرا أو بردا أو وحشا سكن في الكهوف وعلى أعالي الأشجار. ان الإنسان يعيش بعقله وبنفسه فسخر العقل ليفكر ويخطط وينتج فكرا ومواهب واختراعات وابتكارات وما على النفس إلا ان تطبق وتحققه على ارض الواقع، ان تلك العلاقة بين النفس والعقل هي زواج مصيري حقق المعجزات.

ان التحديات التي تجابه الإنسان كثيرة جدا ومتشعبة جدا فهي تحديات بيئية وتحديات الحصول على الحاجات وتحديات مجتمعية وبكل أشكالها المختلفة ولقد أسهبنا في شرحها في الفصول السابقة. ولذلك كان لزاما على الإنسان ان يخلق إرادات داخلية تدفعه للتعامل مع كل التحديات التي تقابله ويستمر في عملية الحياة، ان الله عز وجل يقول (٢١٨) ﴿ يا ايها الإنسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه﴾. فعلى الإنسان ان يعارك ويصارع كل تلك التحديات لكي يكمل مسيرة حياته التي لا تتعدى العشرات من السنين التي تعد بأصابع اليدين الاثنتين.

ان نتيجة ذلك الصراع وذلك الكدح يمكن ان يكون على اشكال متعددة معتمدا على من له السلطة (العقل على النفس ام النفس على العقل، الهوى على النفس ام النفس على الهوى) فاما ان تكون حياة سوية أو حياة ملؤها الألم والصعوبات، أو حياة طغيان وسطوة وقهر على الآخرين أو أي شكل آخر من أشكال الحياة التي نراها ونسمع عنها كل يوم وفي كل بقاع

العالم، والحمد لله فان أكثر البشر يعيشون (الى حد ما) حياة متوازنة بكلمة أخرى متعايشون (بدرجات متفاوتة) مع موجودات حياتهم أو في الأقل يقبلون بها، فهي مرة او لذيذة واخرى متعبة او مريحة، بالتالي الكل يأخذ من الحياة ما يمكنه أخذه منها، وهم بذلك يتجابهون ويتعايشون مع كل متناقضات الحياة، وبكلمة أخرى هنالك في هذه الحياة موجودات لا يحصل عليها كل الناس فلا بُدَّ من التكالب عليها من اجل اخذ الأكثر من الحاجات المطلوبة من الإنسان.

عندما تتعدى الزيادة في طلب الحاجات حدود المعقول تنحدر بالإنسان الى الانحطاط وتجعل منه مهووسا بها. ان هذا الهووس يعبر عنه تعبيرا دقيقا ورائعا في بعض أفلام الرسوم المتحركة، فالصياد (سواء كان حيوانا أم إنسانا) لما يرى فريسته أو احتمالية ان تكون فريسته فانه يتصورها أمام عينيه وكأنها منتوفة الريش ومطبوخة ورائحتها اللذيذة تغريك والبخار يخرج منها دليلا على انها قد جهزت للتو، ان ذلك المنظر يجعل لعابه يسيل، وكما يصفها بافلوف [٢١٩] في قضية تحفيز الكلب بالجرس، فكلما يدق الجرس يسيل لعاب الكلب لأنه يربط صوت الجرس بالأكل، وصاحب الحاجة المهووس بها يسيل لعابه ويسعى إلى حاجته، فهو يتصورها بالصورة المناسبة بمجرد ان يرى ما يذكره بها.

ان سيطرة هوى الحاجات على الإنسان يجعل التعامل مع تلك الحاجات أمرا صعبا وبصورة خاصة عندما تكون تلك الحاجات في مدار الانحطاط، لان الإنسان يكون مدفوعا دفعا إليها وحتى لو حارب أو أوقف نفسه عن التفكير بها فأنه في الأقل للحظات لا بُدَّ ان يفكر بها وربما في أقصى الحالات يعمل المستحيل من اجل الحصول عليها.

ان تلك الحالة من الصراع النفسي كثيرا ما تدفع الإنسان إلى عمل أشياء ينكرها على نفسه بعد ان ينتهي منها، أو ربما ينغمس فيها انغماسا لا رجعة فيه. ان الإنسان وهو في خضم تلك الصراعات لا بُدَّ له من ان يتعامل معها بصورة يرضي فيها الإرادات المؤججة لتلك الصراعات وفي الوقت نفسهيرضي نفسه (طموحاتها حاجاتها رغباتها ولذتها) وهو لأجل ذلك لا بُدَّ له من ان يخلق لنفسه شخصيتين واحدة يعيش فيها مع المحيط الخارجي والثانية يعيش فيها مع نفسه، والسر في ذلك هو وجوب إرضاء نفسه وإلا فان الحياة تصبح صعبة وعند بعضهم لا تطاق ولا تستحق العيش، فكيف له ان يرضي نفسه التي تحب المال حبا جما (على سبيل المثال) وتطلب الحصول عليه امس وليس غدا، وفي الوقت نفسه يرضي الإرادات الخارجية التي تحتم عليه خلاف ذلك. فإذا ما امتلك شخصيتين فهو بذلك يكون قد أرضى النفس وأرضى الإرادات الخارجية في آن واحد، فمرة على حساب النفس وأخرى على حساب الإرادات الخارجية.

ان الشخصية الداخلية لا بُدَّ لها من ان تجعل كل ما تريده النفس حلالا وتسعى إليه حتى ولو كان بخلاف الإرادات الخارجية فهي تسعى إلى الظهور عندما تختفي الإرادات الخارجية أو تضعف أو تنحجب، وفي أسوأ الحالات فان تلك الشخصية تحتجب داخل النفس ولكن تمني النفس بالحاجات المرغوبة ولكنها محرمة.

والشخصية الخارجية هي تلك الشخصية التي يظهر بها الإنسان للمجتمع، والتي تكون (في كثير من الأحيان) غير كاملة التطابق مع الشخصية الداخلية، فبتلك الشخصية يتعامل الإنسان مع المحيط الخارجي وبها يحرم ويحلل ويوافق ويعارض ويرضى ويغضب وهو بذلك يظهر على انه متوافق مع الإرادات الخارجية وبصورة خاصة القاهرة أو القوية منها لكي

يظهر لها على ان إرادته هي من إرادتها. فهو بتلك الشخصية يكسب رضا الإرادات الخارجية ولكن بينه وبين نفسه يملك شخصية أخرى ربما تضحك على تلك الإرادات وتعمل خلافا لما تريده.

ان الإنسان الذي يجد في نفسه الكفاءة والقدرة على التوازن بين تلكما الشخصيتين يعيش سويا وعلى قدر من الراحة اكبر من ذلك الشخص الذي يغلب إحدى الشخصيتين على الأخرى، فان غلب الشخصية الداخلية فانه سوف يكون خارجا عن نطاق الإرادات الخارجية وبذلك يكسب كرهها وعداءها، أما الذي يغلب شخصيته الخارجية على الداخلية فانه سوف يكون مكروها ومحاسبا من قبل نفسه.

القليلون جدا ممن يتمكنون من جعل كلتا الشخصيتين متطابقتين، إنهم الأولياء والصالحين، ولكي يتمكن الإنسان من ذلك فلا بُدَّ له ان يركن حاجاته جانبا ويسكنها مدار السمو، لان الإنسان الذي تكون حاجاته في مدار السمو لا يخاف على شيء فلا ينافق ولا يداهن ولا يتنازل عما يؤمن به، لأنه وان حاربته الإرادات الخارجية فلن تأخذ منه ما يحب لانه لم يتعلق بشيء، فلذلك لا يمكن لتلك الإرادات الخارجية ان تفرض قوتها عليه، وبما ان النفس ليست رهينة حاجاتها فلا بُدَّ ان تكون راضية بما عندها، ولا تجد ان هنالك داعيا أو مبررا لدخولها في صراعات مع الإرادات الخارجية العاملة على انتزاع تلك الحاجات منها. ان تلك الحرية المطلقة في التعامل مع الإرادات الخارجية تحتم إطلاق حرية الشخصيتين فلذلك لا يوجد هنالك داعي لاختلافاتهما.

ان نفس الإنسان والفص الجبهي من الدماغ (العقل) هما المكونان للانسان، ان الجسد هو الجزء الأكبر من النفس وهو متكون من مجموع

الأعضاء والحواس فضلاً عن الدماغ، كل واحد منهما له ميزاته وله واجباته ومسؤولياته في تشكيلة الشخصية الفردية لذلك الإنسان.

ان العقل المتمثل بالفص الجبهي للدماغ يلعب دورا أساسيا في تكوين الشخصية بحسب الفسحة من الحركة التي يمكن ان تعطيه إياها النفس، اعتقد بأن العقل له القابلية على تحسس الأشياء من دون الحاجة إلى حواس النفس الخمس لذلك فان العمليات التي يقوم بها العقل هي عمليات غير محسوسة بحواسنا الخمس، وبما ان تفاعلاته وشغله لا يمكن ان يحس بحواس النفس فلا بُدَّ له من تدريب. إني أشبه عمل العقل بعمل (CPU) البروسسر في الكحاسوب؛ لأنها قبل ان توضع مع بقية أجزاء الحاسوب لا ذاكرة لها ولا معرفة لها ولا طريقة عمل تعمل بها. فبمجرد ان توضع لها الذاكرة ويدخل فيها برامج من خلال حواس الحاسوب والتي هي الفأرة ولوحة المفاتيح والحواس الأخرى عند ذلك يمكنها ان تحل مشكلات كبيرة ومعقدة يحتاج الإنسان إلى مدة طويلة لحلها.

ان العقل يتسلم تفسير الإشارات الآتية من الحواس فيعيها ويخزنها في الذاكرة سواء كانت ذاكرة آنية أو مستديمة حتى يفهم ما يحيط به من بيئة ومخلوقات ويتعلم منها ويتفاعل معها بحسب درجة نمو وتطور ذلك العقل (آخر ما يتطور في دماغ الإنسان هو الفص الأمامي) اذ تستمر عملية التطور إلى ما بعد الولادة.

تعتمد قابلية ذلك العقل على التعامل مع المحيط الخارجي على الشخص نفسه فهنا وتمثلا بالحاسوب، فكما ان بإمكاننا ان نجعلها تفكر وتتعلم ولكن بعد ان نضع لها برنامجا يدلها على طريقة التصرف مع كل صغيرة وكبيرة تعرض عليها ويراد لها حل او تفاعل، فان العقل يجب ان يبرمج لكي يتعلم كيفية التعامل مع المسائل والمشكلات المحيطة به.

يولد الطفل في هذه الدنيا ولا يعرف عنها شيئا ولا يفقه منها شيئا فتبدأ حواسه تتطور وتبعث اشاراتها إلى الدماغ فيتعامل معها وينشأ منها تصورات عن الأمور المادية التي حوله وبتطور ذلك الطفل يتعلم الدماغ أشياء متزايدة عن محيطه الخارجي، فكلما تطورت تلك الأحاسيس أدخلت إلى الدماغ تجارب جديدة مما يزيد من قدرة الدماغ على التعامل مع المتغيرات. وهنا أريد ان أؤكد أهمية الحواس لذلك التطور في عقل الإنسان وفي بناء شخصيته، وهنا لا بُدَّ ان أضيف مادة حسية أخرى أسميتها بالحواس الميتافيزيقية التي تكون عاملا آخر في تشكيل الشخصية الفردية.

ان كل طفل يمر تقريبا بالتجربة نفسها ما زال هو في بطن أمه وإذا ما أردنا ان نبسط الامور فيمكننا القول بان معظم الاطفال يولدون ولهم شخصيات متشابهة، فلا يوجد عليه تأثير بسبب لونه أو جنسه أو بلده أو عائلته لان الجميع قد تربى في المحيط نفسه والظروف انفسها، فالكل يأتيه الغذاء جاهزا من غير عناء والكل له الدفء والعناية الكاملة (إلا في ظروف الحمل الصعبة). ان الاختلافات بين ظروف الأطفال تبدأ بعد الولادة وتكبر الهوة بينهم كلما مر عليهم الزمان، فربما يمكننا ان نتجرأ ونقول بان المولودين يخرجون من بطون أمهاتهم متشابهين في كثير من الأشياء ما عدا بعض الاختلافات البسيطة في شخصياتهم.

ولكن وبمجرد خروج الوليد من بطن أمه وفي أول لحظة تبدأ الظروف تتباين بينه وبين المواليد الاخرين، فالذي يخرج من عائلة غنية غير الذي يخرج من عائلة فقيرة والذي يخرج في بلد متطور غير الذي يخرج في بلد متأخر وابن المدينة يختلف عن ابن الريف وابن الصحراء يختلف عن ابن الجبل. ان هذه الاختلافات تتولد من الظروف الذين يلدون فيها.

وهنا تبدأ مرحلة التغيير في الشخصيات فان ابن الفقير سوف يلف مثلا بخرقة بالية بينما ابن الغني سوف يلف بالحرير مثلا... وابن الفقير سوف يولد في غرفة باردة رطبة غير صحية وابن الغني يولد في غرفة دافئة فيها كل أسباب الراحة، وابن الفقير ينام على الأرض المتربة وابن الغني ينام في ارض مبلطة بالبلاط ولا تحمل جراثيم او اتربة، ابن الفقير إذا مرض لا يعجل به إلى الطبيب ولكن ابن الغني يؤخذ إلى الطبيب الأخصائي مباشرة، وابن البلدان المتأخرة لا تكون العناية الصحية متوافرة له كابن البلدان المتقدمة حيث هنالك رعاية للطفل والأم وحتى مساعدة الأم في أعمال المنزل أو في تربية ورعاية الطفل...

ان كل هذه الأمور تدخل إلى الدماغ فيسجلها كتجارب من خلال حواسه وتصبح تجارب أساسية في تكوين شخصيته، ويكبر الطفل وتكبر معه مداركه وتكبر معه تجاربه فيتأثر بها ويبنى شخصيته، ان الحواس إذا لها تأثير في تثبيت الحاجات عند الإنسان والتي بموجبها تصنف تلك الحاجات. وبما إننا قد ذكرنا نوعين من تلك الحواس (الحواس الجسدية الخمس والميتافيزيقية العقلية) فلا بُدَّ لنا من ان نتكلم عليما بشيء من التفصيل.

ان الفرق بين هذين النوعين من الحواس كبير جدا لأن الأول مرتبط بالجسد والآخر مرتبط بالعقل وبالتالي بالعملية العقلية، ان الحواس الجسدية محدودة بزمان ومكان ولكن الحواس الميتافيزيقية ليست محدودة بزمان ومكان.

إن ألطف مثل يمكن ان يقدم عن الحواس الميتافيزيقية هي حواس الشاعر عندما ينظم شعرا فانه يحس شعره بحواس لا يمكن للحواس

الجسدية ان تدركها، وكذلك القصصي والناسك المتعبد (ومن أي دين كان) له أحاسيس عشق وارتباط روحاني لا تدركه حواسه الجسدية.

هنالك عديد من الناس الذين يملكون إمكانيات غير طبيعية أو ميتافيزيقية فهم يرون أشياء ويسمعون أشياء ويلمسون أشياء ولكن ليس بحواسهم الجسدية، ان الأحلام هي الأخرى أحاسيس عقلية وليست أحاسيس جسدية، فنرى ونسمع ونلمس ونتذوق ونعطش ونجوع ونستطعم من غير الحاجة إلى حواسنا الخمس.

ان الشخصية الداخلية للإنسان تتجلى بأصدق صورها في الأحلام، فبالأحلام تبرز شخصيته الفرد الداخلية، فهو يحس بجميع حواسها ويتفاعل من خلالها أيضا، كثيرا من الأمور التي لا يمكن ان يفصح عنها في يقظته يراها في منامه، ليس هذا فقط بل حتى يراها في أحلام اليقظة كذلك.

ان الاحلام بالنسبة الى العالم جنك (Jung) [٢٢٠] ذات وظيفتين اساسيتين:

١. لكي تسمح بالتعبير عن ذلك الجزء المحبط او غير كامل النمو من الشخصية، فهي تعبير عن ماضي وحاضر الشخص.

٢. لكي تعطي هيئة او شكل للأنموذج الاصلي او الامتداد الشخصي وفيها تعبيا عن مستقبل الشخص.

ان جنك يصف الأنموذج الاصلي [٢٢١] (archetype) على انه ميكانيكية فطرية للاطلاق مرتبطة الى عالمية المشاعر الانسانية مثل الجوع، والغضب، والحاجات الخ، ان عالمية هذه المشاعر تخرج في الاحلام على شكل صور غاية في التشابه بين الثقافات امثال: الجيد والرهيب، ظهور الاباء

باحجام اكبر من الطبيعي، الملائكة، والشياطين، والابطال، والسحر، وما اشبه.

ان الخبرات الشخصية وتراكماتها لها تأثير كبير وجوهري في تكوين الشخصية، الأمثلة التالية توضح ذلك:

ان الناس الذين يعيشون في محيط واحد (فقير مثلا) وبظروف تكون فيها مجمل نواحي حياتهم متشابهة نجدهم يتخذون طرائق مختلفة في تعاملاتهم مع المجتمع حاضرا وكذلك في طموحاتهم وتوجهاتهم المستقبلية. ان ذلك المحيط وتلك الظروف ربما تكون محفزا لهم على الجد والاجتهاد من اجل تحسين وضعهم من فقر إلى غنى، وربما تجعلهم ملغمين بالحقد والنقمة على المجتمع وربما رافضين ومعاندين للقانون، وربما آخرون يظنون ويعتقدون بأن لا قدرة لهم ولا يستطيعون تغيير واقعهم، بينما يتخذ آخرين التسليم بفقرهم ويتعايشون معه على انه قدر مقدر ويقبلون به كما هو.

وإذا ما تساءلنا عن سبب هذه الاختلافات بين حتى الناس الذين يعيشون في ظروف متشابهة ولهم خبرات حياتية متشابهة، فيكون الجواب ان الغنى والفقر، والظلم والرفاهية، عراقيل وسهولة العمل المناط بالإنسان كلها مجتمعة او كل واحدة على حدا يمكن ان تكون محفزات شخصية أو موانع شخصية تقدر مسيرة حياته وبالتالي شخصيته، ان الإنسان يتعامل مع حاجاته ومع الإرادات الداخلية والإرادات الخارجية كالعائلة والمجتمع والقانون بطرائق مختلفة تعتمد بالدرجة الأولى على الشخص نفسه واختياراته ونتيجة لذلك فأن ردود أفعال الناس تجاه كل واحدة منها تكون مختلفة مما ينتج هذه الأساليب المختلفة في التعامل مع الحياة.

ان النفس هي ناقلة للمؤثرات الخارجية ومفسرة لها وبالتالي تحس بلذتها وقرفها خيرها وشرها. فلو ان العين نقلت إشارة إلى النفس عن منظر ما، فإن النفس تفسر تلك الإشارة وتشكل لها صورة، وإذا ما كانت تلك الصورة جميلة فإنها ستسبب حالة من السعادة والفرح والاسترخاء فتحبه وتخزنه في ذاكرتها وبعد ذلك تصنفه على انه منظر مقبول ومرغوب، ان موقع ذلك المنظر في الذاكرة يحدده شدة التأثير الذي تتصوره النفس، فكلما كان التأثير قويا كلما كان موقعه في الذاكرة سهل الوصول إليه بسرعة... بكلمة أخرى غير مغمور.

أما إذا كان المنظر يهدد الحياة أو يرعب أو يقهر النفس فمثلا حريق هائل أو حرب مدمرة أو قتل بشع فان النفس ستفسره على انه مكروه أو قبيح أو مخيف فتخزنه في الذاكرة في مكان يصعب الوصول إليه أو مغمورا لكي لا يتذكره الإنسان (ما يسمى بالعقل الباطن).

اعتقد ان أي خبرة مهما كانت مرة أو جميلة يمكن ان تنسى ولكنها تختلف عن بعضها بطريقة الخزن. ان علماء النفس [٢٢٢] يقولون بوجود ذاكرتين أو عقلين احدهما باطن والاخر ظاهر، فالعقل الباطن يخزن الذكريات المرة أو المؤلمة ولذلك فإنها لا تظهر إلى الخارج بسهولة أما العقل الظاهر فهو يتفاعل مع المتغيرات والتطورات اليومية فهي دائمة الحضور.

ان النفس تختبر وتتفاعل مع الأحداث التي تمر بها يوميا وفي كل لحظة من الحياة فتكون لها مشاعر مختلفة معتمدة على تصنيفها لتلك الاشياء، فربما تصنفها على أنها لذيذة وممتعة مريحة مطمئنة منغصة مؤلمة قاهرة، فبناء على تلك المشاعر التي تكونها النفس تخزن تلك الخبرات في مكان ما من الذاكرة، ليس ذلك فقط ولكن لا بُدَّ ان تصنفها بدرجات فمثلا

عندما تصنف خبرة على انها ممتعة فلا بُدَّ من ان تصنفها إلى درجات ثانوية وهي درجات المتعة، فمنه من يصنف على انه قليل المتعة وفي هذه الحالة لا بُدَّ من ان يخزن في (سلة المهملات) أما إذا كان كثير المتعة فانه يخزن في المواقع المطلوبة يسهل الوصول إليها، وكذلك بالنسبة الى الخبرات المؤلمة، فلذلك لا الخبرات المؤلمة تمحى ولا الخبرات اللذيذة تمحى فهي باقية ما بقي الإنسان، وما عملية النسيان إلا وسيلة تستعملها النفس للتخلص من الخبرات التعيسة لكي تفسح المجال لما هو سعيد لكي يسيطر على حياة الإنسان.

ان النفس تظهر وتنمو وتتطور قبل الفص الجبهي للدماغ (العقل) ولذلك يبدأ الطفل بالتعامل مع محيطه حتى ولو كان في بطن أمه فهو يتحرك ويسبح وربما يسمع ويحس بالضوء ويلمس فبعض الأطفال يمصون أصابعهم وهم في بطون أمهاتهم، ولذلك نرى تشابها كبيرا بين تصرفات رضع البشر مع رضع الحيوانات مثل القردة، أما العقل فلا يكتمل نموه إلا بعد مرور عدة سنين [٢٢٣] بعد الولادة وربما تستغرق تلك المدة إلى مرحلة البلوغ. ان السبب في ذلك يعزى إلى أمرين الأول ان حاجات المولود في المراحل الأولى تكون بسيطة، والأمر الثاني هو ان خبراته تحتاج إلى وقت لكي تكون كافية لبناء تعقل ناضج ، وربما يكون هنالك أمر ثالث إلا وهو تأخر عملية النضج الفسيولوجي لخلايا الفص الجبهي.

وبعد الولادة وبتطور العقل وبزيادة الخبرات الناتجة من تفاعل النفس مع المحيط الخارجي والتصنيفات لتلك الخبرات والتدريب الذي يتلقاه الإنسان من عائلته ومحيطه الخارجي تتصاعد أهمية ودور العقل في إدارة حياة الإنسان.

مما تقدم نرى ان التربية ومنذ اللحظة الأولى لولادة المولود تتضح أهميتها الكبيرة في مسيرة العقل الإنساني، وبما ان مسيرة الحياة مليئة بالمتغيرات فأن تلك المسيرة لا بُدَّ لها من ان تتأثر بتلك المتغيرات بحيث ما يراه الإنسان اليوم صحيحا ربما غدا يراه خطأ وما هو مقبول اليوم غدا يصبح غير مقبول وما هو لذيذ اليوم يكون خلاف لذلك غدا.

تلعب الحواس الخمس دورا أساسا في تحفيز هوى النفس (أو شدة التعلق بالحاجات)عند الإنسان فعندما تحس بشيء حبيب إلى النفس وتنقله إليها فأن ذلك الشيء يكون مغريا للنفس إذا ما احست به، ان ذلك الإغراء يدفع النفس بقوة باتجاه الحصول عليه أو للحصول على المزيد منه، ان درجة الهوى التي تدفع النفس نحو تلك المغريات تقرر طريقة تعامل النفس مع تلك المغريات. ان قوة الهوى فضلاً عن الإرادات الخارجية (المشجعة أو المانعة) هما اللذان يحددان طريقة تعامل النفس مع تلك الإرادات، فأما تكون النفس عدائية متحدية واما ايجابية واما بين هذين النقيضين واما ان تتخلى عنها كليا إرضاء لتلك الإرادات.

ان الخبرات خيرها وشرها إذا ما أحدثت تأثيرا كبيرا في نفس الإنسان فأن تأثيرها سيكون كبيرا في الشخصية، وتظهر تداعيات تلك الخبرات على شخصية الفرد بمجرد بروز أي إشارة تدل على تلك الخبرات والتي لن تكون محدودة بزمان، هنالك الكثير منا من يتذكر أشياء جميلة أو مرة حدثت له منذ مدة طويلة ولكن يتذكرها وكأنها قد حدثت اليوم.

أما الأشياء التي حدثت اليوم فإذا لم تكن ذات تأثير في النفس فأن تبعيتها على الشخصية يكون ضعيفا، فلذلك تمر بنا خبرات وأشياء قد حدثت قبل ساعات ولا نتذكرها، إذا لا حداثة ولا قدم الخبرات يمكنهما

ان يقررا مقدار التأثير في الشخصية ولكن عمق المشاعر التي تخلف في النفس هو الأهم.

ان اصطلاح "الضمير" ربما يكون تعبيرا عن مخزونات الذاكرة السهلة الوصول لها ولكنها متعلقة بخبرات معينة تكون جزءا من الإرادات الداخلية، فإذا ما كانت الخبرات (حلوها ومرها) تدفع نحو العمل على الخير (لنفسه وللآخرين) فيقال عن ذلك الإنسان بأنه صاحب ضمير، أما ذا كان نتاج العمل شرا فنقول ان الإنسان لا ضمير له.

ان الشخصية يمكن ان تُخلق، فإذا ما أخذنا طفلا وعزلناه عن المحيط الخارجي وذلك بتهيئة محيط وأجواء خاصة به نرسمه نحن فنريه ونسمعه ونلمسه ونذيقه ونشمه ونعرضه لإرادات وحاجات بحسب تصميمنا، ان مثل هكذا توجيه يمكننا به من ان نكيف إنسانا ونبني له شخصيته بمواصفات خاصة نصممها نحن، ان مثل هكذا تجربة لا يتحقق نجاحها كليا إلا مع الأطفال وكلما كان ذلك في بداية العمر كلما كان أكثر نجاحا. ان ذلك التكوين للشخصية سوف يكون محكوما بالإرادات الخارجية التي عرضناه له وبالإرادات الداخلية التي ساعدته على بنائها وبالظروف التي هيئناها له، وبالحاجات التي رتبنا ارتباطاته بها بحواسه الخمس[١٢].

هل يمكننا القول بان هنالك حتمية في الشخصية الفردية، وبكلمة أخرى يولد الطفل وشخصيته مرسومة له برغم كل الظروف والإرادات والحاجات المطلوبة؟ فمثلا الذي يولد فقيرا لا يمكنه ان يكون مبدعا علميا ثقافيا أو فنيا، لأن هذه الأشياء حكر على الأغنياء، ان الذي أبوه ذكي لا بُدَّ ان يكون ذكيا! ان النتيجة التي نستخلصها من ما طرحناه في هذا الكتاب تقول لا الظروف الاجتماعية ولا البيئية ولا الوراثة تحتم على الإنسان ان

يسير في مسار ما، ان النفس تختار لها الطريق والاتجاه اللذين يوصلاها إلى مبتغاها اما الظروف والبيئة والوراثة فما هي الا عوامل مساعدة او محبطة.

ان الانجازات التي يمكن ان يحققها الإنسان تعتمد اعتمادا كليا على الشخصية التي يختارها لنفسه فهنالك شخصيات تنجز ما تريد ولكن بصعوبة وبشق الانفس لأن ظروفهم غير مواتية وهنالك إرادات قوية مضادة لهم، ومن تكن ظروفه والارادات ارحم يمكن ان ينجزها بسهولة اكثر اذا ما اراد ذلك، فمثلا الطالب الفقير الذي لا بُدَّ ان يشتغل من اجل ان يكسب عيشة بسيطة ومعدومة من وسائل الراحة إذا ما أراد ان يصل إلى أي درجة علمية او تحقيق اي انجاز يسعى اليه فلا يمكن للظروف او الإرادات ان تمنعه.. يمكن ان تاخره ولكن لا تستطيع ان تمنعه من ذالك الانجاز اذا ما اراد ذلك وسعى اليه وما أكثر الأمثلة على ذلك، وعلى النقيض هنالك شخصيات تجد كل الظروف الملائمة ولكنهم يختارون الانحدار وعدم انجاز شيء يذكر. الذي أريد قوله ان الإنسان الذي يصنع شخصيته ويحدد لنفسه مسارات حياته لا يمكن للظروف ولا للارادات ولا للوراثة ولا للحالة الاقتصادية ان تقرر انجازاته فلا الغنى يغير الموضوع ولا الفقر يغير الشخصية.

عشت في عائلة والحمد لله ميسورة ولم احتج إلى العمل من اجل ان أجد لقمة العيش ولم اكن أعاني من قلة الملبس والمأكل ووصلت إلى مرحلة علمية متقدمة، وعلى العكس مني هنالك صديق يقول بأنه كان من عائلة فقيرة وكان أخوه الأكبر يشتري النعال فيلبسه وعندما يعتق يعطيه إلى أخيه الأصغر ثم الاصغر الى ان يصل إليه يكون قد أصبح نصف نعال، ومع ذلك فانه قد وصل إلى المستوى العلمي نفسه الذي وصلته.

بنظري ان انجازه أعلى مرتبة من انجازي لأن ظروفي قد كانت مهيأة لتسهيل أمر دراستي ولم تكن ظروفه كذلك ومع ذلك وصل إلى مستواي العلمي، ان الإرادة والتصميم هما اللذان حكمانا. فلا يوجد هنالك حتمية في هذا الأمر وإنما قوة الإرادة والتصميم على الانجاز. ان وجود أو عدم وجود الظروف المواتية لا يمكنها وحدها ان تقرر اتجاه الشخص ولكن التصميم والإرادة هما القوتان العظيمتان اللتان يمكن ان يحققا كل شيء.

فكما ان الفقر والغنى لا يحتمان الشخصية فان الوراثة هي الآخرى لا تحتم الشخصية وبالتالي نتاجها. نعم الوراثة يمكن ان تنقل صفات وراثية ولكن لا تتعداها إلى إنتاج شخصية. وبكلمة اخرى: لا يمكننا ان نتوقع ان يكون الابن ذا شخصية مماثلة لابيه لانه توارثها منه، ان السبب في ذلك هو ان الظروف والتربية والارادات التي ساعدت على تكوين كلتا الشخصيتين مختلفة وعلى هذا الاساس لايمكننا القول بان هنالك حتمية بان يورث العبقري عقبريته لاولاده ولا هنالك حتمية في توريث الجاهل جهله لاولاده. لقد كان لعبد المطلب عدة اولاد منهم عبد الله والد محمد ﷺ والاخر ابو طالب والد علي واخرون الحمزة والعباس وكلهم كانوا مدافعين ومجاهدين من اجل الاسلام. اما ابو لهب فتب وتبت يداه كان عدوا للاسلام.

اذا فلا وجود لحتمية وراثية أو ظروف ولكن يوجد إرادة وتصميم ذاتي الى اتخاذ طريقة حياة معينة.

ان الارض تسع لكل البشر ولكي يعيش كل البشر برغد من العيش لا بُدَّ من التزامهم بنوع من السمو ومحاربة للنفس والتخلي عن الحاجات والمنافع المتزايدة، لذلك ان الانتقال بالحاجات من المدارات الواطئة إلى

المدارات العليا تكون محفزا وعاملا مساعدا في عملية التسامي المنشود، ان وظيفة الإنسان هي ان يتسامى ويخلق الأجواء المناسبة لتسامي الآخرين مبتدئا بنفسه وعائلته.

لنأخذ مثالا على ذلك، أب يسرق ويكذب ويظلم ونتيجة لذلك فان أولاده يتمتعون بكل ما يجلبه لهم ذلك المال، فيعيشون بأحسن الأماكن ويأكلون أحسن الأكل ويتمتعون بأحسن صحة على حساب من، على حساب من ظلم ومن سرق وبالتالي فان الأب قد انحط في سلم الإنسانية التي من اجلها خلق.

ان أي خلل يحدث في جسم الإنسان يعني بالضرورة خللا في النفس (الجسد جزء من النفس)، فمثلا اذا ما حدث تغيير في افرازات الهرمونات فان ذلك يمكن ان يؤثر في الشخصية بطريقة أو أخرى، فمثلا المرأة التي تعاني من هذا النوع من الخلل وبصورة خاصة عند الدورة الشهرية وتعرف مثل هكذا تأثيرات وضغوط بـ"ما قبل الدورة الشهرية" (Premenstrual Tension) فتكون تلك المرأة في ذلك الوقت عصبية ومتوترة.

عند النمو من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب تكون التغييرات الهرمونية مؤثرة في شكل الجسم ونضج بعض اعضائه وما حب الشباب (Acne) إلا واحدا من تلك الآثار، ان لذلك التغير الحادث في تكوينة الجسم ومظهره تأثيرا في الشخصية، وللقدم في العمر تاثير من نوع اخر فالشيخوخة وضعف الجسد فضلاً عن اختلال في افراز بعض الهرمونات وزيادة في أخرى يؤدي الى ضعف في بعض الوظائف الطبيعية ويصل ببعضهم إلى درجة لا يستطيعون بها السيطرة على تفريغ مثانتهم أو أمعائهم مما يؤدي الى تأثيرات في الشخصية.

ان كل هذه التغيرات تؤثر في الشخصية، فالشاب الذي عنده حب الشباب يمكن ان يكون خجولا منطويا، والمرأة التي تعاني من الدورة الشهرية يمكن ان تكون عصبية والشيخ الكبير ممكن ان يكون اقل حيلة وعزما وتصميما وقوة إرادة.

ما زلنا نبحث في تأثير طبيعة الجسد في الشخصية فان للمظهر الخارجي تأثيرا في الشخصية مختلفا بين شخص وآخر، ان هذا التأثير يعتمد على شدة حساسية الشخص لمظهره الخارجي فضلاً عن نوع تعامل وتفاعل ونظرة الاخرين له بسبب ذلك المظهر. فالملون في محيط ابيض عنصري يمكن ان يتخذ واحدا من خطين مختلفين الأول الانكماش والعيش بتعاسة أو يتغلب على هذا الأمر ويتعايش معه.

يمكن عد الأمور السابقة إرادات بيولوجية وفسلجية. إني اعرف فتاة كانت سمراء جدا، كان أبوها ابيض وأمها سمراء ولقد أخذت سمارها من أمها، بالرغم من ان شكلها كان لطيفا وعندها خصائص جيدة ذات منطق جيد (وإذا كان لون البشرة السمراء عيبا فيمكننا ان نقول ان ذلك كان عيبها الوحيد) إلا انها كانت تكره نفسها لسمارها هذا. لقد أصبحت تلك السُمرة ذات تأثير كبير في شخصيتها وكانت تعد الجمال محددا بالبياض، وما لم يكن الإنسان ابيض فانه ليس جميلا، ولم تكن تهمها أي خاصية أخرى بقدر أهمية لونه.

كانت دائمة تلقي العتب على أبيها لأنه تزوج أمها ولم يتزوج امرأة بيضاء لكي تكون هي بيضاء. لا ادري فيما إذا كان سمار بشرتها سببا في عدم زواجها بالرغم من إنها كانت تريد الزواج بقوة، مرت السنين ولم تتزوج ولكنها بالتالي قبلت بزوج اسود، تصور كارثة حياتها بعد ذلك،

فكان أولادها بين اسمر قاتم واسود. ولقد عاشت بعد ذلك تعاسة لا توصف.

ان المظهر الخارجي لا يقتصر على اللون ولكن حتى جمال الجسد يمكن ان يؤثر في الشخصية فالمرأة الجميلة يمكن ان تكون مغرورة وتتباهى على الآخرين ولكن ما ان تفقد ذلك الجمال حتى تتغير شخصيتها وتنتقل من شخصية منفتحة متكبرة إلى شخصية انطوائية. ان سعاد حسني مثال على ذلك كانت تلقب بسندريلا الشاشة العربية فكانت جميلة ودلوعة يتمناها الرجال وتغار منها النساء، بجمالها ودلالها غزت قلوب الناس وتوالت عليها العروض من كل حدب وصوب، ولكن ما ان أفل نجمها وترهلت ولم تبقَ تلك الفاتنة حتى بدأت تأكل من دون ملاحظة لقوامها ولم تبال بجمالها ورشاقة جسدها فبدأت تأخذ الحبوب المهدئة لأن حياتها التي كانت مبنية على الشباب والجمال قد انتهت وبالنهاية فإنها قد انتحرت، وما أكثر القصص في هذا المجال.

خلاصة لوجهة النظر المطروحة في الكتاب

ان الإنسان متكون من جزأين العقل والنفس وان طبيعة عمل كل منهما مختلفة ففي الوقت الذي تكون طريقة عمل النفس غرائزية فان طريقة العقل هي تفكير وتحليل وتدقيق ومقارنة وبالتالي كل ممارساته هي عمليات عقلية، ان طبيعة العلاقة بين الاثنين ليست مبنية على إرادة من هو الاحكم أو الأعقل ولكن مبنية على من هو قادر على التنفيذ وبالتالي فان إرادة النفس لا بُدَّ ان ترضى أوّلاً لكي تنفذ ما يراد تنفيذه.

ان النفس متكونة من جزأين الاول منها هو الجسد والثاني هو الجزء الأسفل من الدماغ، ان تشريح ووظائف هذا الجزء من الدماغ له مثيل في

بقية الحيوانات فلذلك تكون النفس حيوانية التصرف ولولا وجود العقل لكان الإنسان حيوانا في تصرفه.

ان الإنسان مدفوع بحاجاته فله حاجات أساسية وضرورية لاستمرار حياته الطبيعية وحاجات إضافية تزيد من راحته وسعادته وتطوره. لقد عبرنا عن شدة تعلق الإنسان بتلك الحاجات بمواقعها في مدارات حول الإنسان أسميناها مدارات حب الذات. ان المدارات القريبة للإنسان تكون مسكونة من الحاجات المشدودة بقوة الى الإنسان، ان موقع الحاجات في مدارات حب الذات تحدد قوة الدوافع والطاقة التي يصرفها الإنسان من اجل تحقيقها، فالتي تسكن المدارات العليا تكون ذات اهمية قليلة اما التي تسكن المدارات الواطئة فهي التي يسعى الإنسان وبكل قوة من اجل تحقيقها.

لقد حددنا عدد تلك المدارات بأربعة مدارات وهي: مدار الانحطاط، ومدار الانحطاط الجزئي، ومدار السمو الجزئي، ومدار السمو، فيكون مدار الانحطاط الأقرب للإنسان ومرتبطا به بقوة أما مدار السمو فهو الأبعد عن الإنسان والمرتبط به بدرجة ضعيفة جدا.

ان الحاجات وعلى مر حياة الإنسان يمكن ان تتغير نوعا وكما وبالتالي تتغير قوة شد الإنسان لها، ان تلك التغيرات تتمثل بانتقال تلك الحاجات بين المدارات، ان عملية الانتقال إذا كانت من مدارات عليا إلى مدارات واطئة فان ذلك يؤدي (في معظم الأحيان) إلى انحطاط إنساني، أما إذا كان الانتقال عكس ذلك فانه سمو إنساني. ان الانحطاط يكون ملازما للخبث والسمو ملازما للخير.

ان شدة ارتباط الحاجة بالإنسان يمكن تسميتها بالهوى، فكلما كان الشد اقوى كلما كان الهوى اقوى، فاذا ما هوى الإنسان المال، فإن رؤية المال السائب يكون منظرا مغريا ودافعا نحو السعي الى الحصول عليه.

ان العلاقة بين العقل والنفس علاقة غير متوازنة، فالنفس هي القادرة على التنفيذ وهي المستفيدة من التنفيذ وما العقل إلا قوة إضافية لها، لذلك فان العلاقة بينهما معتمدة على قوة الهوى عند النفس فإذا ما كان هوى النفس قويا جدا فإنها ستوقف أي عمل عقلي يمنع أو يحجب أو يهمل الحصول على تلك الحاجة، ان هذه السيطرة من النفس على العقل متأتية من طبيعة عمل الاثنين ففي الوقت الذي يكون عمل العقل فكريا غير مادي ولا يوجد له أثر ما لم تكن هنالك نفس، نجد ان عمل النفس مادي، فالنفس لها الجسد التي به يمكنها ان تبقي كل أجزاء الإنسان حية وحتى ذلك الجزء من الدماغ الذي يقوم بالعمليات العقلية، والنفس هي التي تملك الحواس لكي تحس بالمحيط الخارجي، والنفس هي التي تتمكن من الحركة والعمل والبناء.

فلكي يظهر نتاج فكر العقل لا بُدَّ ان يكون من خلال النفس، والنفس بهذه الميزة تحجب ما لا ترغب فيه وتسمح بما تريده من إنتاج العقل، ان تلك العملية تكون بخلق قوالب لمنتجات العقل التي لا بُدَّ ان تمر من خلالها لكي تتحور وتتوافق مع إرادة النفس لكي تقبل بتنفيذها، أما إذا احتاجت النفس إلى العقل لكي يتصرف وبسرعة ومن غير إذنها فإنها تسمح للإنتاج العقلي بالمرور من غير الحاجة إلى القوالب.

ان تلك العلاقة تتوضح من خلال ملاحظة تقلبات الإنسان من خير إلى شرير ومن مؤمن إلى عاصٍ ومن كريم إلى بخيل، وبالتالي كل التغييرات التي نراها في الإنسان، بما ان النتاج النهائي لا بُدَّ ان يكون عقليا نفسيا فان

كانت النفس هي السيد فان العمل يكون غير عاقل أما إذا كان العكس (العقل هو السيد) فبالتأكيد ان العمل لا بُدَّ من ان يكون عاقلا.

إننا عندما نقول: عاقل لا نعني بالضرورة خيرا لان النفس لو جعلت العقل عبدا فإنها تستعمله في إنتاج عمليات عقلية غاية في العبقرية لتنفيذ عمليات غاية في الخبث، أما إذا استعبدته جزئيا فان الناتج يكون اقل خبثا.

ان العلاقة بين الحاجات والنفس والعقل يمكننا ان نمثلها كالاتي:

أوّلاً: النفس متعلقة بكل الحاجات فلذلك لا بُدَّ لها من ان تجعل العقل عبدا، أما إذا كانت النفس غير متعلقة بأي حاجة فان العقل سيكون هو السيد.

ثانياً: إذا ما كانت النفس متعلقة بحاجة واحدة فقط وبكل قوة بحيث تسكنها مدار الانحطاط فان العقل يكون عبدا للنفس في ما يتعلق بتلك الحاجة.

ثالثاً: ان النفس قد وضعت الحاجة في مدار الانحطاط الجزئي فان العقل يكون شبه عبد للنفس.

رابعاً: ان النفس قد وضعت الحاجة في مدار السمو الجزئي فيكون العقل شبه سيد.

خامسا: ان النفس وضعت الحاجة في مدار السمو فيكون العقل هو السيد.

ان شخصية الإنسان هي نتاج لعدة تفاعلات قسم منها داخلية متصلة بالإنسان نفسه وقسم منها خارجية لا قدرة للإنسان عليها.

ان الجزء الداخلي يعتمد على تلك العلاقة بين الحاجات، النفس والعقل، فالنفس بتلك العلاقة تريد ان تحقق كل حاجاتها، ان العزيمة على

تحقيقها تزداد صعودا من الحاجات غير المشدودة بقوة إلى الحاجات المشدود بقوة، ان واجب العقل في تلك العملية هو إيجاد أفضل السبل من اجل تحقيق ذلك وله ان يعترض ويصارع النفس في ذلك الإقناع وإلا فان إرادة النفس لا بُدَّ من تحقيقها.

أما الجزء الخارجي فهو مجموعة من الإرادات والظروف والمغريات تحاول ان تقود الإنسان الى طاعتها، ان كل هذه العوامل تبدأ بتأثيراتها منذ أول وهلة في حياته على هذه الأرض، ويجب ان نقول هنا بان ليست كل تلك الإرادات ممانعة فقسم منها موافق وحتى مشجع. أمثلة على الإرادات الخارجية أمثال العائلة والقانون والمجتمع، والبيئة الخ.

إذاً هنالك صراع بين إرادات النفس والإرادات الخارجية ولا بُدَّ للإنسان من ان يحقق إرادته الداخلية وفي الوقت نفسه تقليل ممانعة او محاولة ارضاء الإرادات الخارجية، ولكي يتمكن من إرضاء الاثنين لا بُدَّ له من ان يظهر للعالم الخارجي بشخصية ويحتفظ لنفسه بشخصية أخرى، فهو يعمل ما تريده نفسه وهو في صراعه مع الإرادات الخارجية ربما يتجاوب معها او يضعن لها، يداهنها، يحاورها يخالفها ولكن لا بُدَّ ان يخرج بقرار. ومهما يكن فلا بُدَّ ان يرضي إرادته الداخلية مستعملا بذلك شخصيته الخارجية، أما شخصيته الداخلية فهي الشخصية التي يظهر بها لنفسه، فمثلا ما يُحرمه في شخصيته الخارجية يمكن ان يحلله في شخصيته الداخلية، وما لا يعمله في شخصيته الخارجية يعمله في شخصيته الداخلية.

ونتيجة لذلك فإننا يجب ان نتوقع بان:

أوّلاً: أي قرار يتخذه الإنسان يكون بمحض إراداته فهو مخير وليس مسيرا... وهو بذلك يسعى الى تحقيق اكبر قدر من الحاجات وبالتالي اللذة

أو الراحة التي توافرها له.. وإذا حدث وان اجبر على شيء فانه يفكر ويتخذ قرارا بالتخلي عن الحاجات الأقل أهمية من اجل إنقاذ أو تحقيق الحاجات الأكثر أهمية، ولكي أعطي مثالا على هذا، نجد ان السجناء الذين يعذبون في سجون الطغاة يتصرفون بطرائق مختلف تمتد إلى طيف جهة منه يكون اعتراف السجين بعد أول صفعة على الوجه، وفي الطيف الآخر يقطع قطعة قطعة ولا يعترف، فالأول تكون عنده حاجة الراحة أهم بكثير من أي رفيق أو أي عقيدة، بينما في المثل الثاني فان العقيدة وربما أمان الرفاق يكون عنده حتى أهم من الحياة نفسها.

ثانياً: لا يمكننا ان نعرف ونفهم كنه وحقيقة أي إنسان ما لم يصرح لنا هوعن مكنونات نفسه وبإرادته، وإذا ما اجبر على التصريح فانه لن يفصح عن كل ما يخبئه في نفسه.

ثالثاً: أي تغيير في شخصية أي فرد لا يمكن ان يتحقق ما لم يكن هو نفسه مقتنعا بالحاجة والمنفعة الشخصية له التي تحتم ذلك التغيير، أو بالحاجة إلى التغير من اجل تخيف معاناة يعانيها، ولكي يحصل هذا التغير فلا بُدَّ له من ان:

* يدرك ان عنده مشكلة.
* لا بُدَّ من حل لتلك المشكلة.
* يمتلك الاستعداد والقوة والمثابرة من اجل حلها.
* يقبل المساعدة من الخارج (من أي مصدر كان) سواء من قريب، ام صديق، ام سيكولوجي أم طبيب.
* يكون عنده استعداد لصرف الوقت والجهد لانجاز العمل.

رابعاً: التغيير الذي ينتج عنه انتقال الحاجات من المدارات العليا إلى المدارات السفلى يكون (على العموم) أسهل لان الإنسان لا يحتاج إلى صرف طاقة من اجل تحقيقه، وربما يكون مصحوبا بلذة آنية للشخص حتى لو كان مصحوبا بخبث للآخرين. ان الإنسان الذي يحب المال إذا ما أراد المزيد منه بدرجة تتطلب منه ان ينقلها من المدارات العليا إلى السفلى، فانه لا بُدَّ من ان ربما يسرق، ويغش، ويكذب، ويحتال أو أي عمل آخر من اجل ان يسهل عملية هذا الانتقال وبالتالي المزيد من تلك الحاجة، فهو بذلك يحقق لنفسه لذة ومتعة.

خامسا: التغيبر الذي يحتاج الى انتقال الحاجات إلى المدارات العليا يكون صعبا لان الإنسان يحتاج إلى طاقة يصرفها في مقاومة شدة ربط تلك الحاجات إلى نفسه. ان الإنسان الذي قد اسكن (مثلا) حاجة المال في المدارات السفلى، ما اسكنها هناك إلا لأنه قد ارتبط بها بقوة وعشق لذتها، وإذا ما أراد نقلها إلى المدارات العليا فيجب عليه ان يقاوم قوة الشد تلك وهذا أمر صعب، فالذي ينقل تلك الحاجة إلى مدار السمو مثلا فان ذلك يحول المال من ضروريات الوجود الى لا اهمية له فلا يبحث الا عن ما يكفيه فيه وأية زيادة عنده لا يمانع او بل تكون عنده رغبة في مشاركتها مع من هو باكثر حاجة منه اليها، وان ذلك صعب جدا لان بعضهم ربما يحس بأنه يستقطع جزءا من جسده إذا ما تنازل عن بعض من ماله.

ان الإنسان الذي يريد ان يمارس الجنس المحرم ولأول مرة يجب عليه ان يصارع نفسه وضميره والمجتمع وجميع الإرادات من اجل ان يفعلها، وما ان يعملها ويحصل منها على لذة عالية ويقرر وضعها في المدارات السفلى ويخزن في ذاكرته تلك الخبرة مع الملذات، فان المرة الثانية لا يحتاج فيها إلى شدة الصراع نفسها لذلك ينفذها بسهولة اكبر.

سادسا: ان السيطرة على النفس تكون بحجبها عن المغريات التي هي كل الحاجات التي يهواها الإنسان، فإذا كانت الحاجة تحس من خلال العين فلا بُدَّ ان يمنع النظر إليها وإذا كانت تسمع أو تلمس أو تشم فلا بُدَّ ان تحجب تلك الحواس.

ان الدين يدفع إلى تقليل اثار الحواس في النفس، فمثلا يطالب الناس بغض النظر فبذلك يمنع الرجل والمرأة من النظر إلى بعض لكي يوقف الإشارات التي ربما تشد الواحد للاخر.

سابعا: ان الخبرات السابقة يجب ان تهذب وذلك بخلق خبرات معاكسة، أنا قلت تهذب ولم اقل تمسح لان ذلك يكاد يكون مستحيلا. ان الإنسان الذي يعاني من خبرة مرة لا بُدَّ من ان تؤثر في حياته بصورة أو أخرى، ان ذلك التأثير لا بُدَّ ان ينعكس على شخصيته، فمن حصلت له مشكلة في الظلام فان ذلك سيبقى مؤثرا فيه ولا بُدَّ من تهذيب ذلك الخوف بان تحصل له خبرة تقوده إلى الاعتقاد بان المشكلة ليست بالظلام وإنما بالخبرة التي حصلت بالظلام اما وجوده بالظلام بحد ذاته فلا يمكن ان يجلب له ألما أو معاناة كما خبرها في تجربته السابقة.

ثامنا: مما لا شك فيه ان قضية العقاب والثواب يمكن ان تسهم في صناعة قرارات الإنسان اذ ان الكثير من الناس تتغير قراراتهم بسبب هذا العقاب والثواب وحتى لو كانت في ظروف معينة أو زمان معين فقط، فمثلا سائق السيارة يعبر الضوء الأحمر عندما لا يجد شرطي المرور. واللص يسرق عندما لا يجد هنالك مراقبة.

تاسعا: يجب ن نفرق بين القرار الذاتي الذي يجلب تحولا داخليا (ليس بوازع من ثواب أو عقاب) ويكون نابعا من إرادة داخلية وبين القرار المفروض من ارداة خارجية تثيب او تعاقب، ان الأول قوي وله أوفر الحظ

بالاستمرار مدة طويلة أو مستمرة ولكن الثاني يكون مرحليا، ان هذا لا يعني ان الشيء المرحلي لا يمكن ان يتحول إلى شيء دائمي إذا ما اقتنع الإنسان به.

عاشرا: ان التصاق الإنسان بحاجاته مرهون بالوقت ففي مكان وزمان يمكن ان يكون ذلك الالتصاق واصل إلى مدار الانحطاط وفي مكان وزمان آخر واصل إلى مدار السمو أو بين هذين المدارين وعلى هذا الأساس يصوغ قراراته.

حادي عشر: لا توجد قوة على وجه الأرض تمكنها من فك ارتباط ذلك الإنسان بحاجاته ولا يستطيع احد من عمل ذلك ما لم تكن إرادة للشخص مستعدة أو مدركة وتحاول نفسها فك الارتباط، لذلك فان كل ما يمكن ان يفعله الآخرون هو المساعدة في تهيئة الأجواء المناسبة والتشجيع وتنشيط إرادات داخلية عند هذا الإنسان وتخفيف وطأة الإرادات الخارجية، لكي يساعدوه في الوصول إلى قرار بعدم الاكتراث وفك او تخفيف قوة الالتصاق بتلك الحاجات، وحتى في هذه الحالة لا بُدَّ له من ان يصرف طاقات كبيرة لكي يتخلص منها.

ثاني عشر: بما ان طاقة التصاق الحاجات بالإنسان متغيرة ومصحوبة بلذة يتمتع بها الإنسان فان الإنسان يجب ان يعطى فرصة للتخلص من مدى التصاقه بها، وذلك لصعوبة ترك شيء محبب يجلب السعادة والمتعة.

المصادر

١. الشيخ عباس القمي(١٩٩٦) مفاتيح الجنان، دار المجتبى بيروت ص ٩٢
٢. انظر الموقع الالكتروني: forum.maktoob.com/t٢٤٢٣٩.html
٣. انظر الموقع الالكتروني: Shiaonlinelibrary.com/
نهج البلاغة-خطب الإمام علي عليه السلام-ج١- الصفحة ٧٠
٤. Cloninger s.c. (٢٠٠٠) Theories of personality: understanding persons, ٣rd edition, Prentice-Hall, Inc. New Jersey, p٢٩
٥. Psychology.about.com/od/theoriesofpersonality/a/conscious.htm
٦. Psychology.abou.com/od/peronalitydevelopment/tp/archetypes.htm
٧. Cloninger s.c. (٢٠٠٠) Theories of personality: understanding persons, ٣rd edition, Prentice-Hall, Inc. New Jersey, p١٠٣.
٨. psychology.about.com/od/psychosocialtheories/a/psychosocial.htm
٩. Cloninger s.c. (٢٠٠٠) Theories of personality: understanding persons, ٣rd edition, Prentice-Hall, Inc. New Jersey, p١٩٣
١٠. psychology.about.com/od/personalitydevelopment/a/bigfive.htm
١١. psychology.about.com/od/behavioralpsychology/a/introopcond.htm
١٢. Cloninger s.c. (٢٠٠٠) Theories of personality: understanding persons, ٣rd edition, Prentice-Hall, Inc. New Jersey, p٢٧٤
١٣. psychology.about.com/od/developmentalpsychology/a/sociallearning.htm

١٤. Cloninger s.c. (٢٠٠٠) Theories of personality: understanding persons, ٣rd edition, Prentice-Hall, Inc. New Jersey, p٣٤٣

١٥. ibid., p٤٠١

١٦. psychology.about.com/od/typesofpsychologytherapy/a/client-entered-therapy.htm

١٧. psychology.about.com/od/theoriesofperonality/a/hierarchyneeds.htm

١٨. psychology.about.com/od/psychologystudyguides/a/personalitysg.htm

١٩. Thomas Keenan and Subhadra Evans(٢٠٠٩), An Introduction to Child Development, SAGE Publications Ltd,second edition,London, p ٨٩

٢٠. ibid., p٩٠

٢١. ibid.,p١٠٧

٢٢. ibid., p١١٣

٢٣. Piaget J(٢٠٠٢), The Language and Thought of the Child,Routledge classics,London,third edition,p١٦٨-١٦٩

٢٤. Thomas Keenan and Subhadra Evans(٢٠٠٩), An Introduction to Child Development, SAGE Publications Ltd,second edition,London, p١١٣

٢٥. The brain and the mind psychology, volume ٢, Brown Partworks, Singapor, p٨٨

٢٦. Editor by Raymond J Corsini and Alan J Auerbach,(١٩٩٦), Concise Encyclopedia of Psychology, second edition,John Wiley &Sons,Inc, p٨٣٦-٨٣٥

٢٧. Edward Brent, j. scott lewis,(٢٠١٤) learn sociology, Jones& Bartlett Learning,USA, P٥٨.

٢٨. Windsor Chorlton etal,(٢٠٠٢),Developmental psychology, volume ٤, Singapore, Brown, p٤٠

٢٩. سورة الرحمن- اية ٩،٧

٣٠. Raymond J Corsini and Alan J Auerbach,(ed.),(١٩٩٦), Concise Encyclopedia of Psychology, second edition,John Wiley &Sons,Inc, p٣٨

٣١. The brain and the mind psychology, volume ٢, Brown Partworks, Singapor, p٨٦

٣٢. أنظر الموقع الكتروني: /Shiaonlinelibrary.com
نهج السعادة-الشيخ المحمودي-ج٣-ص٨٧-٨٨

٣٣. سورة البقرة- اية ٢٥٥

٣٤. سورة الجمعة- اية رقم ١١

٣٥. أنظر الموقع الالكتروني:
www.alshirazi.net/monasabat/monasabat/٩٥.htm

٣٦. Edward Brent, j. Scott lewis,(٢٠١٤), learn sociology, Jones& Bartlett Learning,USA, p٢٦٥

٣٧. علي الوردي(١٩٩٥) وعاظ السلاطين، الطبعة الثانية، دار كوفان، لندن ،ص٢٢٢

٣٨. م.ن: ص٢٢٣

٣٩. م.ن :ص١٩٦

٤٠. أنظر الموقع الكتروني: /Shiaonlinelibrary.com
خلاصة المواجهة- أحمد حسين يعقوب-ص ١٥٠

٤١. أنظر الموقع الكتروني: /Shiaonlinelibrary.com
الغارات-إبراهيم بن محمد الثقفي-ج٢-ص ٦١١-٦١٦

٤٢. أنظر الموقع الكتروني: /Shiaonlinelibrary.com

الفوائد الرجالية - السيد بحر العلوم-ج٢-ص ١٥٠

٤٣. أنظر الموقع الالكتروني:: library.islamweb.net

library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=١٦٨٧١

٤٤. أنظر الموقع الالكتروني: Lumosity

www.brainhealthandpuzzles.com/brain_parts_function.html

٤٥. أنظر الموقع الالكتروني:

The worlds of David Darling, Encyclopedia of Science, Reptile, Animal Care Courses

www.daviddarling.info/encyclopedia/R/reptile.html

٤٦. أنظر الموقع الالكتروني:

Improved Sense Of Smell Helped To Grow Mammal Brains(٢٠١١)

www.redorbit.com/news/science/٢٠٥٠٧١٤/improved_sense_of_smell_hehped_to_grow_mammal_brains/

٤٧. Weiten,(٢٠١٠), Psychology themes & variations, eighth edition,wadsworth, cengage learning,p٩٨

٤٨. أنظر الموقع الالكتروني: Serendip Bryn-Mawr College

serendip.brynmawr.edu/bb/kinser/Compare١.html

٤٩. انظر الموقع الالكتروني: Serendip Bryn-Mawr College

serendip.brynmawr.edu/~pgrobste/kinser/kinser٢/How١.html

٥٠. انظر الموقع الالكتروني:Alzheimer association

٨. Alzheimer's changes the whole brain

http://www.alz.org/braintour/synapses_neurotransmitters.asp

٥١. انظر الموقع الالكتروني:Alzheimer association

http://www.alz.org/braintour/synapses_neurotransmitters.asp

٥٢. انظر الموقع الالكتروني: MD health.com

Parts of the Brain and Their Functions

http://www.md-health.com/Parts-Of-The-Brain-And-Function.html

٥٣. أانظر الموقع الالكتروني: MD health.com

Lobes of the Brain

www.md-health.com/Lobes-Of-The-Brain.html

٥٤. انظر الموقع الالكتروني:Alzheimer association

Brain Tour, ٦. Cell signaling

www.alz.org/braintour/synapses_neurotransmitters.asp

٥٥. علي الوردي (١٩٩٦)خوارق اللاشعور، الطبعة الثانية ،دار الورّاق للنشر، لندن ص ٧٠

٥٦. م.ن: ص٧١

٥٧. سورة الأسراء - اية رقم ١

٥٨. علي الوردي (١٩٩٦)خوارق اللاشعور، الطبعة الثانية ،دار الورّاق للنشر، لندن ص١٤٣

٥٩. م.ن: ص ١٥٠

٦٠. انظر الموقع الالكتروني: Google books
Jane Henry,(ed.)(٢٠٠٥),Parapsychology Research on Experiences,Routledge, New York Exceptional

٦١. انظر الموقع الالكتروني: Google books
Bernhard Grainmann, Brendan Allison, Gert Pfurtscheller editors(٢٠١٠) Brain- Computer Interfaces Revolutionizing Human-Computer Interaction, Springer-Verlag Berlin Heidelberg, p٣

٦٢. Peter Braham (٢٠١٣) key concepts in sociology, SAGE Publications London, p٢٣

٦٣. ibid., P٧٨

٦٤. Edward Brent J. Scott Lewis(٢٠١٤), Learn Sociology & Bartlett Learning,USA, p١٠١

٦٥. سورة الجمعة- آية ١١

٦٦. سورة الاحزاب- اية رقم ١٠-١٥

٦٧. سورة ال عمران- اية رقم ١٤٤

٦٨. انظر الموقع الكتروني: Community Books, on archive.org
كتاب تذكرة الحفاظ للامام ابو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي المتوفي ٧٤٨ هجري صحح عن النسخة الاصلية المحفوظة في مكتبة الحرم المكي ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ص ٥،٧

٦٩. انظر الموقع الكتروني: Shiaonlinelibrary.com/
إمتاع الأسماع-المقريزي-ج٩-ص٣٣٩-٣٤٠ (انظر حاشية الصفحتين)

٧٠. انظر في موقع الاسلام الدعوي والارشادي: www.al-islam.com

إعداد الفريق العلمي، وجوب طاعة ولاة الأمور من منهج أهل السنة والجماعة

www.al-islam.com/Content.aspx?pageid=١٢١٠&ContentID=١٤٩١

–

٧١. انظر منتديات ماجدة: طاعة ولاة الأمر واجبة وإن ظلموا

majdah.maktoob.com/vb/majdah١٨٥٥/

٧٢. أنظر موقع مكتبة الإمام الحسين: حكومة معاوية

www.alseraj.net/maktaba/kotob/serat/imamhussaininlife٢/١٤masom/٠٥/mktba٥/book١٠/٣.htm

٧٣. انظر موقع الشيرازي.نت:صفين معركة الحق ضد البغي

www.alshirazi.net/monasabat/١٣٩.htm

٧٤. علي الوردي وعاظ السلاطين ص٢٢١

٧٥. انظر موقع مركز ال البيت العالمي للمعلومات شبكة النجف الاشرف: الحر بن يزيد الرياحي(رضوان الله عليه)

holynajaf.org/arb/html/ahlulbait/ashabhm/horr-o.html

٧٦. انظر موقع مركز ال البيت العالمي للمعلومات: غزوة الخندق والأحزاب

www.al-shia.org/html/ara/ahl/index.php?mod=sire&id=٩٦

٧٧. انظر موقع The Doctor will see you now

When One Half of the Brain Is Damaged, the Other Half Compensate

www.thedoctorwillseeyounow.com/content/mind/art٣١٣١.html

٧٨. انظر موقع Frontal Lobe Damage :Brain Injury Institute.org

www.braininjuryinstitute.org/Brain-Injury-Types/Frontal-Lobe-Damage.html

٧٩. The Skin Color Paradox and the American Racial Order
Hochschild JL, Weaver V. The Skin Color Paradox and the American Racial Order. Social Forces. ٢٠٠٧;٨٦(٢):٦٤٣-٦٧٠
http://scholar.harvard.edu/jlhochschild/publications/skin-color-paradox-and-american-racial-order

٨٠ صحيح البخاري الجزء الثامن ص ١٤

٨١ الشيخ القمي(١٩٩٦) مفاتيح الجنان، الطبعة الثالثة، دار المجتبى بيروت، ص ١٠٨

٨٢ سورة البقرة- اية ٢٦٤

٨٣ انظر موقع: www. Al-kawthar.com/husainia/story٤.htm
الإمام الحسن بن علي عليه السلام، ولادته ونشأته

٨٤ انظر في موقع Why Sapiens :SAPIENS
http://www.sapiens.org.nz/whysapiens.htm

٨٥ انظر في صفحة: John Petrie's Collection of Winston Churchill Quotes
http://jpetrie.myweb.uga.edu/bulldog.html

٨٦ سورة الإنسان اية ٨

٨٧ انظر موقع سماحة الشيخ علي الكوراني العاملي: الفصل العاشر: تصورات هارون لخطر الإمام الكاظم (عليه السلام)
www.alameli.net/books/?id=٣٣٨٨

٨٨ انظر موقع:
http://psychology.about.com/od/personalitydevelopment/tp/facs-about-personality.htm

Cherry K. Your Personality Is Relatively Stable throughout Life

٨٩. Malcom L. Johnson, Vern L. Bengston, Peter G. coleman and Thomas B. L. Kirkwood,(ed.)(٢٠٠٥) ,The Cambridge Handbook of Age and Ageing, Cambridge press, Cambridge, p ٢٤١

٩٠. Julie Medew (٢٠١٠) New hope for people with brain damage, The Age News paper, Melbourne

٩١. Fary Khan, Ian J Baguley and Ian D Cameron, Rehabilitation after traumatic brain injury, Med J Aust ٢٠٠٣; ١٧٨(٦):٢٩٠-٢٩٥.

٩٢. Bernhard Grainmann, Brendan Allison, Gert Pfurtscheller (eds), Brain-Computer Interfaces Revolutionizing Human-Computer Interaction, (٢٠١٠) Springer-Verlag Berlin Heidelberg, London

٩٣. Edward Brent, j. scott lewis,(٢٠١٤) learn sociology, Jones& Bartlett Learning,usa, P٩٨

٩٤. America's Civil War, Tim Mc Neese, Edited by Lisa Marty, Milliken Publishing Company, (٢٠٠٣), USA,p٢،١٠

٩٥. The Cause of the American Civil War, A Seminar paper by Doreen Barwolf(٢٠٠٦) ,Books on Demand GmbH, Norderstedt Germany, p٢-٣

٩٦. Edward Brent, j. scott lewis,(٢٠١٤) learn sociology, Jones& Bartlett Learning,usa, P ٢٦٥

٩٧. Gustave Le Bon(١٨٩٦), The crowd, a study of the Popular Mind , The Macmillan, New York, p٣٩

٩٨. ibid.,p٢٢

٩٩. انظر موقع: /محمر-رسول-الله-انبي-علي-حساب
Maskeen.wordpress.com/tag/

١٠٠. أنظر الموقع الكتروني: /Shiaonlinelibrary.com
مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب-ج١- ص٣٧٠

١٠١. سورة الفرقان-اية رقم ٤٣

١٠٢. Wayne Weiten,(٢٠١٠), Psychology themes & variations, eighth edition,wadsworth, cengage learning, p٩٥

١٠٣. أنظر موقع: National Institute of Health, National Institute of Neurological Disorder and Stroke, ٥،١-٥،٤
http://science.education.nih.gov/supplements/nih٤/self/guide/info-brain.htm

١٠٤. ar.wikipedia.org/wiki/ستيفن_هوبكنز

١٠٥. Windsor Chorlton etal,(٢٠٠٢),Developmental psychology, volume ٤, Brown Partworks, Singapore, ٧٩-٨٠p

١٠٦. Raymond J Corsini and Alan J Auerbach, (ed.)(١٩٩٦), Concise Encyclopedia of Psychology, second edition,John Wiley &Sons,Inc, p ٨٨٣

١٠٧. www.umich.edu/~onebook/pages/tablepages/history.html

١٠٨. سورة يوسف ١٢ اية رقم ٥٣

١٠٩. سورة البقرة اية ٢١٩

١١٠. سورة البقرة اية ٢٦٦

١١١. سورة الانعام اية ٥٠

١١٢. سورة الاعراف اية ١٧٦

١١٣. سورة الاعراف اية ١٨٤

١١٤. سورة يونس اية ٢٤

١١٥. سورة الرعد اية ٣

١١٦. سورة النحل اية ٤٤،١١، ٦٩.

١١٧. سورة البقرة اية ٢٤٢،١٧١،١٦٤،٧٦،٧٣،٤٤

١١٨. سورة ال عمرن اية ٦٥،١١٨

١١٩. سورة المائدة اية ٥٨،١٠٣

١٢٠. سورة الانعام ٣٢، ١٥١

١٢١. سورة الاعراف ١٦٩

١٢٢. سورة الانفال اية ٢٢

١٢٣. سورة يونس اية ١٦،٤٢،١٠٠

١٢٤. سورة هود اية ٥١

١٢٥. سورة يوسف اية ٢

١٢٦. سورة النساء اية ٨٢

١٢٧. سورة المؤمنون اية ٦٨

١٢٨. سورة ص اية ٢٩

١٢٩. سورة محمد اية ٢٤

١٣٠. سورة النساء اية ٧٨

١٣١. سورة الانعام اية ٢٥،٦٥،٩٨

١٣٢. سورة الاعراف اية ١٧٩

١٣٣. سورة الانفال ٦٥

١٣٤. سورة التوبة ٨١،٨٧،١٢٧

١٣٥. سورة الاسراء اية ٤٤،٤٦

١٣٦. سورة الكهف ٥٧،٩٣

١٣٧. سورة طه ٢٨

١٣٨. سورة الفتح ١٥

١٣٩. سورة الحشر اية ١٣

١٤٠. سورة المنافقون اية ٣،٧

١٤١. سورة القيامة سورة ٧٥ - اية رقم ٢

١٤٢. سورة الفجر-سورة ٨٩- اية ٢٧

١٤٣. سورة الفجر- سورة ٨٩-اية ٢٨

١٤٤. سورة الاسرا- سورة ١٧- اية ١٦

١٤٥. سورة ال عمران-اية ١٤٤

١٤٦. سورة هود - اية رقم٢٧

١٤٧. سورة الانعام - اية ١١٢

١٤٨. انظر صفحة الحوار المتمدن:

www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٣٦٦٨٢١

١٤٩. ١١٨- جعفر الخياط، ترجمة مذكرات مس بيل(٢٠٠٤)، فصول من تاريخ العراق القريب،دار الرافدين للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ص-٣٤١-٣٤٢

١٥٠. Raymond J Corsini and Alan J Auerbach,(ed.)(١٩٩٦), Concise Encyclopedia of Psychology, second edition,John Wiley &Sons,Inc, P ٨٠١

١٥١. انظر صفحة المعهد الوطني للصحة النفسية (NIH)

www.nimh.nih.gov/health/publications/the-numbers-counts-mental-disorders-in-america/index.shtml#Intr

١٥٢. سورة الاحزاب - اية ٧٢

١٥٣. Chorlton,W., etal, (ed.)(٢٠٠٢),The brain and the mind psychology volume ٢,Brown Partwork,Singapore,p٩١

١٥٤. أنظر شبكة منتديات اساتذة نجران ومثقفوها www.najran٩٩٩.com/forum/showthread.php?t=٢٧٤٦٦

١٥٥. انظر في: Shiaonlinelibrary.com

نهج البلاغة- خطب الامام علي عليه السلام-ج١- ص ٨٩

١٥٦. انظر: /shiaonlinelibrary.com

بحار الانوار –العلامة المجلسي- ج١٠١-الصفحة ٢٩٩

١٥٧. انظر صفحة: shiaonlinelibrary.com

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل- الشيخ ناصر مكارم الشيرازي-ج٢-صفحة ٧٧٣

١٥٨. انظر صفحة:shiaonlinelibrary.com

رسائل المرتضى- الشريف المرتضى-ج٤-صفحة ١١٨

١٥٩. انظر صفحة: shiaonline.com

شرح احقاق الحق-السيد المرعشي –ج٥-الصفحة٣٨٣

١٦٠. انظر صفحة: shiaonlinelibrary.com

كتاب الفتوح-أحمد بن أعثم الكوفي-ج٤-الصفحة ٢٥١

١٦١. ١/٦ www.nabulsi.com/green/ar/print.php?art=١٥٢٩

١٦٢. انظر صفحة: shiaonlinelibrary.com

الامامة والسياسة-ابن قتيبة الدينوري وتحقيق الشيري-ج١-ص٢٣١

١٦٣. انظر صفحة:shiaonlinelibrary.com

موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ – محمد الريشهري- ج٥-ص٢٦٤

١٦٤. انظر صفحة:shiaonlinelibrary.com

معالم الفتن-سعيد أيوب-ج١-ص٣٧٧

١٦٥. انظر صفحة:shiaonlinelibrary.com

شرح احقاق الحق- السيد المرعشي-ج٣٢-ص٦٤٣

١٦٦. انظر صفحة: www.biography.com/people/mother-teresa-٩٥٠٤١٦٠

١٦٧. انظر في صفحة

en.wikipedia.org/wiki/Buddhism#Buddist_concepts

١٦٨. انظر صفحة:shiaonlinelibrary.com

الامامة والسياسة-ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري-ج٢-ص١٩

١٦٩. انظر صفحة:shiaonlinelibrary.com

الامامة والسياسة-ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الزيني-ج١-ص ١٨٥

١٧٠. انظر صفحة:Lary West, What is the Koyoto Protocol?

Environment.about.com/od/koyotoprotocol/i/koyotoprotocol.htm

١٧١. انظر صفحة:shiaonlinelibrary.com

جواهر التاريخ- الشيخ علي الكوراني العاملي- ج٣-الصفحة ٣٩٧

١٧٢. علي الوردي(١٩٩٥)وعاظ السلاطين، الطبعة الثانية،كوفان ببلشنك، لندن ص ١٣٨

١٧٣. م.ن: ص ١٣٩

١٧٤. انظر موقع shiaonline library.com

صلح الحسن عليه السلام- السيد شرف الدين- الصفحة ٢٨٥

١٧٥. علي الوردي(١٩٩٥)وعاظ السلاطين، الطبعة الثانية،كوفان ببلشنك، لندن ص ١٤٩

١٧٦. م.ن: ص ١٥٥

١٧٧. م.ن: ص ٢٢٢

١٧٨. م.ن: ص ٢٢٣

١٧٩. انظر موقع shiaonline library.com

كربلاء، الثورة والماساة –احمد حسين يعقوب –الصفحة ٧٦

١٨٠. انظر موقع shiaonline library.com

خلاصة المواجهة-احمد حسين يعقوب-الصفحة ١٥٠

١٨١. انظر صفحة shiaonlinelibrary.com

بحار الأنوار –العلامة المجلسي –ج٤٥ –ص ٣٩٧

١٨٢. انظرموقع: سماحة العلامة الاستاد الشيخ حسين انصاريان، ما الحكمة من زيارة قبر الحسين عليه السلام www.erfan.ir/١٣٩٩١.html

١٨٣. جعفر الخياط(٢٠٠٤)، ترجمة مذكرات المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، الطبعة الثانية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ٣٤١-٣٤٢

١٨٤. م.ن: ص ٨٦

١٨٥. انظر موقع: /Shiaonlinelibrary.com

١٨٦. الانتصار-العاملي-ج٨-ص٢٢٧

١٨٧. انظر صفحة: Shiaonlinelibrary.com

كتاب الفتوح- احمد بن أعثم الكوفي-ج٨-ص٢٩٣

جعفر الخياط(٢٠٠٤)، ترجمة مذكرات المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، الطبعة الثانية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ٨٦ ص

١٨٨. المصدر نفسه ص ١٨٠

١٨٩. علي الوردي(١٩٩٥)وعاظ السلاطين، الطبعة الثانية،كوفان بيلشنك، لندن ص١٤

١٩٠. Gustave Le Bon(١٨٩٦), The crowd, a study of the Popular Mind , The Macmillan,New York,p٤٠

١٩١. انظر صفحة :shiaonlinelibrary.com

١٩٢. شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد-ج١٠-ص ٢٥٢

١٩٣. جعفر الخياط(٢٠٠٤)، ترجمة مذكرات المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، الطبعة الثانية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،ص ٣٢

١٩٤. م.ن: ص٣٣

١٩٥. م.ن: ص٤٨

١٩٦. م.ن: ص٩٧

١٩٧. م.ن: ص ٦٩-٧٤

١٩٨. سورة المائدة -اية رقم ٣

١٩٩. انظر صفحة:Shiaonlinelibrary.com

نهج البلاغة-خطب الإمام علي عليه السلام-ج٣- الصفحة ٨٤

٢٠٠. علي الوردي(١٩٩٥)وعاظ السلاطين، الطبعة الثانية،كوفان بيلشنك، لندن ص ١٣٩-١٤٦

٢٠١. م.ن: ص ٢٢٣

٢٠٢. ابو الفضل نصر بن مزاحم المنقري التميمي ١٢٠-١٧٠ هجري محقق الكتاب حسين علي قصفة (٢٠٠٨) وقعة صفين، دار المحجة البيضاء ، بيروت، ص ٢٦٣-٢٦٦

٢٠٣. جعفر الخياط(٢٠٠٤)، ترجمة مذكرات المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، الطبعة الثانية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص٢٩٩

٢٠٤. م.ن: ص٣٣٤

٢٠٥. م.ن: ص٣٣٤

٢٠٦. علي الوردي(١٩٩٥)وعاظ السلاطين، الطبعة الثانية،كوفان بيلشنك، لندن ص ٨

٢٠٧. م.ن: ص٢٠

٢٠٨. انظر صفحة:Shiaonlinelibrary.com

شرح أصول الكافي-مولي محمد صالح المازنداني-ج١-ص٢٦٢

٢٠٩. سورة ق-اية ١٦

٢١٠. سورة النساء-اية ٧٦

٢١١. الشيخ القمي(١٩٩٦) مفاتيح الجنان، الطبعة الثالثة، دار المجتبى بيروت، ص ٢١٠

٢١٢. سورة الاسراء-اية ١٤

٢١٣. سورة غافر -اية ١٧

٢١٤. سورة -اية ٣٨

٢١٥. سورة النازعات- اية ٤٠

٢١٦. سورة التكوير-اية ١٤

٢١٧. سورة الفرقان -اية رقم ٤٣

٢١٨. سورة المائدة -اية ٣٠

٢١٩. سورة الانشقاق -اية ٦

٢٢٠. انظر صفحة:simplyPsychology، Saul McLeod(٢٠٠٧) Pavlov's Dogs www.simplypsychology.org/pavlov.html

٢٢١. Kristine Krapp, Editor(٢٠٠٥),Psychologyists & their theories for students, volume ١: A-K,Thomas Gale, USA, P ٢٠٩

٢٢٢. ibid, P ٢١٠

٢٢٣. انظر صفحة: SimplyPsychology, Saul McLeod(٢٠١٣) Sigmund Freudwww.simplypsychology.org/SigmundFreud.html

٢٢٤. انظر موقع: US national Library of Medicin, National Institute of Health, Stages in human brain development ,www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/٣٧٧٩٤٢٨

الفهرس

تمهيد ٦

المقدمة ١٧

الفصل الأول : وجهات النظر في تحديد الشخصية ٣٣

أهم وجهات النظر العلمية التي تبحث في الشخصية ٣٣

أولاً: وجهة نظر التحليل النفسي ٣٤

ثانياً: وجهة نظر التحليل النفسي الاجتماعي ٣٦

ثالثاً: وجهة نظر السمات ٣٨

رابعاً: وجهة نظر التعلم ٣٩

خامساً: وجهة نظر التعلم الاجتماعي المعرفي ٤١

سادساً: وجهة النظرة الانسانية) ٤٢

الطرائق العلمية في الدراسات السايكولوجية ٤٣

وجهة نظرنا في الشخصية ٤٥

الفصل الثاني ٤٩

الطبيعة البشرية للشخصية ٤٩

الفصل الثاني : الطبيعة البشرية للشخصية ٥١

طبيعة متأثرة بخبرات الطفولة ٥١

طبيعة متأثرة بالظروف المحيطة بالشخص ٥٥

طبيعة متأثرة بثقافة المجتمع وتطوره ٦٣

الصفات العامة المشتركة بين كل بني البشر ٦٥

أولاً: الحاجات الأساس ٦٧

ثانياً: الملذات المصاحبة لتلك الحاجات ٦٨

ثالثاً: الدوافع التي تحث الإنسان نحو طلب الملذات ٦٨

رابعاً: النتائج المتحققة ٧٠

الفصل الثالث : الحاجات المكون المادّي الأوّل للشخصية ٧٣

العلاقة بين الإنسان وحاجاته ٧٣
مدارات حب الذات ٨٣
هل للحاجات حدود؟ ٨٧
سمو الإنسان ودنوه ٩٥
العلاقة بين الحاجات والدوافع ونتيجة تفاعلهما ٩٧
تذبذب الحاجات في مدارات حبّ الذات ١٠٦
طغيان الحاجة وتأثيرها في الشخصية ١٠٩
الفصل الرابع: الإنسان الجزء المادي الثاني والمالك الشرعي للشخصية ١١٩
الإنسان الممثل الشرعي للشخصية ١١٩
الجسد الممثل الظاهر للشخصية ١٢٠
الدماغ الممثل الباطن للشخصية ١٢٢
مقارنة بين ادمغة الحيوانات والانسان ١٢٣
أولاً: الدماغ المؤخر ١٢٣
وظائف فصوص مخ الإنسان ١٢٩
قسما الدماغ الرئيسان ١٣٢
العلاقة العضوية بين أجزاء دماغ الإنسان ١٣٤
العقل المخطط والموجه للشخصية ١٤٢
العقل النفسي ١٤٣
العقل الميتافيزيقي ١٤٦
القوالب والشخصية ١٥٠
القوالب صلة الوصل بين النفس والعقل ١٥٠
تأثير الإرادات الخارجية في القوالب ١٦٥
تفاعلات الإنسان التي تسهم في إبراز شخصيته ١٦٨
أوّلاً: التفاعلات النفسية: ١٦٩
ثانياً: التفاعلات العقلية: ١٧٠

ثالثاً: التفاعلات بين العقل والنفس ١٧١
رابعاً: التفاعل بين الإنسان والارادات الخارجية ١٧٣
خامسا: تفاعل الإنسان مع المغريات ١٧٣
التفاعلات في بودقة واحدة لإنتاج الشخصية ١٧٦
الفصل الخامس ١٨١
الإرادات المكون المعنوي للشخصية ١٨١
الفصل الخامس: لإرادات سبب في تذبذبات الشخصية ١٨٣
علاقة القدرات الشخصية بالإرادات الداخلية ١٩٦
الإرادات وعلاقتها بالسمات العامة للشخصية الفردية والشخصية المجتمعية ٢٠٢
الاول: الأخلاق ٢٠٣
الثانية: الأخلاق السامية: ٢٠٨
الثالثة: الإيثار: ٢٠٩
الثاني: محورية الذات ٢١٠
ثالثاً: الشعور والإدراك ٢١٣
الفصل السادس : ماهية الإرادات المؤثرة في الشخصية ٢١٩
الإرادات الداخلية ٢٢١
الإرادات التي تسعى إلى تحقيق الحاجات ٢٢٢
الإرادات التي تسعى إلى التوافق بين الذات والإرادات الخارجية ٢٢٣
هوى النفس ٢٢٧
الإرادات الخارجية ٢٢٨
إرادات العائلة والموروث العائلي ٢٢٨
إرادات المجتمع ٢٣٠
إرادات البيئة ٢٣٨
إرادات القانون ٢٣٩
إرادات العقائد ٢٤٠

إرادات الثقافة ٢٤٣
إرادات النظام السياسي والاقتصادي.. ٢٤٥
إرادات الإعلام ٢٤٦
إرادات المغريات ٢٤٧
إرادات الخبرات الشخصية.. ٢٤٨
اجتماع كل الإرادات وتأثيرها في الشخصية ٢٤٩
الفصل السابع : صراع الإرادات وإدارة الصراع الخالقة والمعبرة عن الشخصية ٢٥٧
الطرائق التي يعتمدها الإنسان في التعبير عن شخصيته ٢٥٨
ابراز شخصية إباحية ٢٥٨
ابراز شخصية ذات إباحية مبطنة ٢٥٩
إبراز شخصية منضبطة ٢٥٩
ابراز شخصية تؤمن بالحرمات ٢٦٠
الصراعات التي تسهم في خلق الشخصية ٢٦٢
الصراع بين النفس والعقل.. ٢٦٢
أوّلاً: السيطرة الكلية للنفس على العقل:.. ٢٦٤
ثانياً: السيطرة الكلية للعقل على النفس: ٢٦٤
ثالثاً: التوازن بين النفس والعقل: ٢٦٦
الصراع بين الإرادات الخارجية أنفسها ٢٨٠
الصراع بين الإنسان نفسه والإرادات الخارجية المسلطة عليه ٢٨٤
المحور الأول: فرض الإرادة الداخلية على الإرادة الخارجية:.. ٢٨٦
المحور الثاني: تزاوج الإرادات (الخارجية والداخلية): ٢٩١
أوّلاً: الإرادات الاجتماعية:.. ٢٩٢
ثانياً: الإرادت الدينية:.. ٢٩٦
ثالثاً: الإرادات السياسية: ٢٩٨
رابعاً: ارادات الجماعة: ٢٩٩

خامسا: إرادات شياطين الإنس والجن:..٣٠٣
صراع الخبرات مع الإرادات الخارجية والداخلية: ٣٠٩
إدارة الصراع ٣١٢
أوّلاً: الثواب والعقاب: ٣١٩
الإرادات الداخلية. ٣٢١
ثانياً: الذكاء والنجاح: ٣٢٢
ثالثاً: علل الشخصية: ٣٣٤
الصحة النفسية...٣٣٤
كيفية التعامل مع المشكلات الشخصية ٣٤١
الفصل الثامن : أهي شخصية واحدة أم شخصيتان؟.......................٣٥١
الشخصية.. معالمها ماهيتها وتفاعلاتها...٣٥٣
اسباب ظهور الشخصيتين ٣٦٢
الصورة الاولى: طاعة الإرادات الخارجية:......................................٣٦٢
الصورة الثانية: نفاق الإرادات الداخلية للارادات الخارجية:...............٣٦٣
الحاجة الى شخصيتين ٣٦٤
الإرادات المحركة للشخصيتين...٣٧١
الإرادات الداخلية المحركة للشخصية الداخلية ٣٧١
الإرادات المحركة للشخصية الخارجية..٣٨٢
الفصل التاسع : الشخصية العراقية ٣٩١
التمييز العنصري على مرّ تاريخ العراق ٣٩١
الأسباب التي تؤدي إلى الانحطاط أو التطور الحضاري.....................٤٠٦
العوامل التي أسهمت في خلق الشخصية العراقية الحالية ٤١٦
علاقة الحاكم بالمحكوم...٤١٧
الحقبة بين حكم العثمانيين وحكم البعث وتأثيرها في الشخصية العراقية الحديثة ..٤٢٢
رجل الدين في الحكم ٤٣٤

الشخصية العراقية الحالية ٤٤٣
الاصلاحات المطلوبة لتسريع التطور الحضاري ٤٥٧
اصلاح النظام الاجتماعي ٤٥٨
اصلاح النظام السياسي ٤٥٩
اصلاح النظام الاقتصادي ٤٦٠
اصلاحات في الحريات ومفاهيمها ٤٦١
الخطوات العملية على طريق الإصلاح ٤٦٥
الجهاز الاداري للدولة..٤٦٦
أوّلاً: إلغاء الترهل في الجهاز:..٤٦٧
ثانياً: إعادة تأهيل بقية الموظفين:..٤٦٧
ثالثاً: إعادة تأهيل الدوائر (بناءً وتجهيزاً) لكي تكون مناسبة للعمل الجديد:.......٤٦٧
تقوية الشعور بالمواطنة وتعاضد الشعب مع الحكومة..٤٦٩
تحسين الخدمات ٤٧٠
داء العشوائية ٤٧٢
روح التشاؤم..٤٧٢
قصر النظر ٤٧٣
التناقضات في مفهوم الحرية ٤٧٦
الفصل العاشر : الختامية ٤٨٧
كلمة اخيرة..٤٨٧
خلاصة لوجهة النظر المطروحة في الكتاب ٥٠٩
المصادر ٥١٩